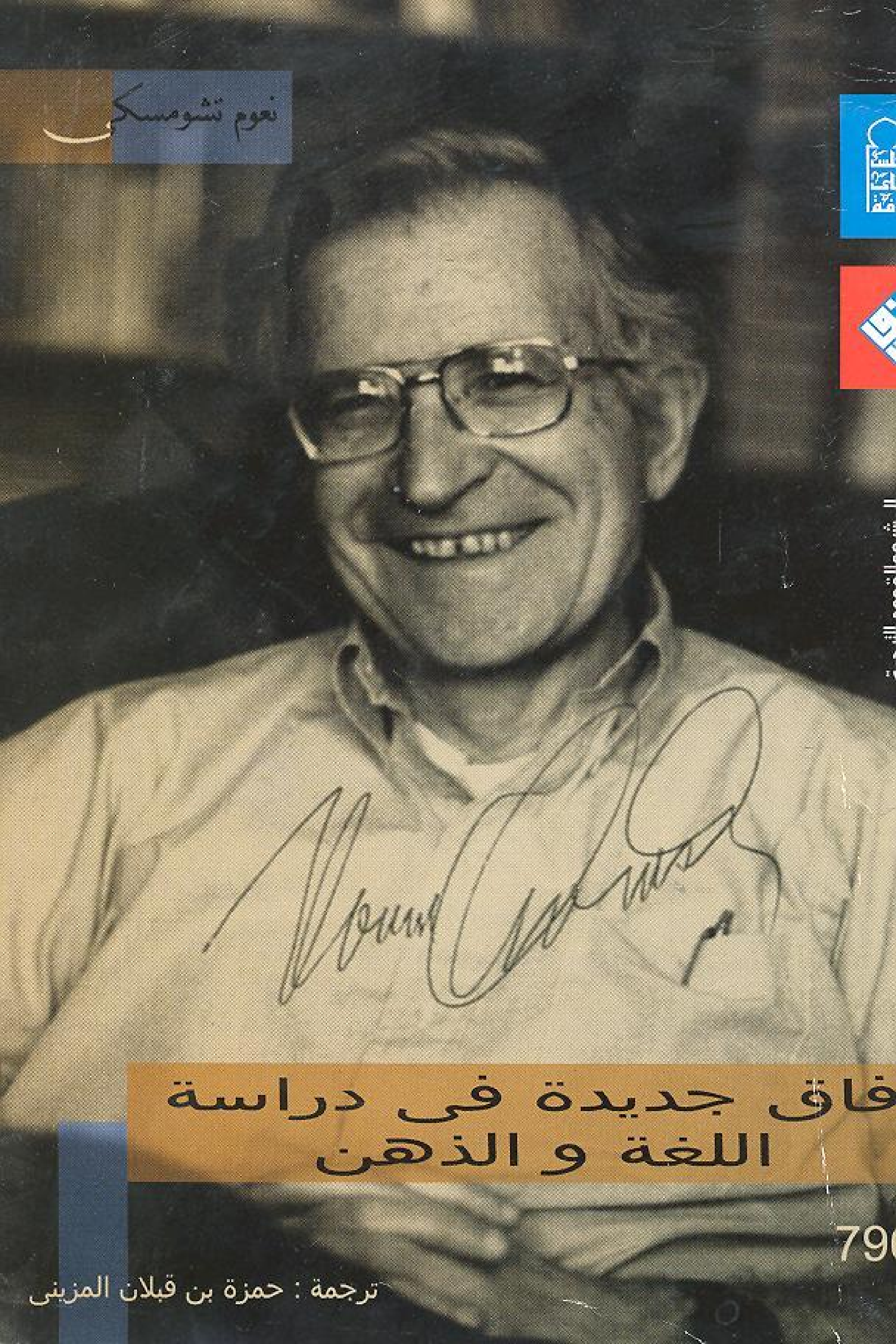


نعوم تشومسكي
فاق جديدة في دراسة
اللغة و الذهن
ترجمة : حمزة بن قبلان المزيني

آفاق جديدة
فى دراسة اللغة والذهن

تأليف

نعوم تشومسكى

تر

حمزة بن





٢٠٠٥

المشروع القومى للترجمة
إشراف: جابر عصفور

- العدد: ٧٩٦
- آفاق جديدة فى دراسة اللغة والذهن
- نعوم تشومسكى
- حمزة بن قبلان المزينى
- الطبعة الأولى ٢٠٠٥

هذه ترجمة كتاب:

New Horizons in the Study
of Language and Mind.
Noam Chomsky

شارع الجبلاية بالأوبرا ــ الجزيرة ــ القاهرة ت: ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس: ٧٣٥٨٠٨٤
EL Gabalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo
TEL: 7352396 Fax: 7358084

المحتويات

تقديم المترجم

كنت كتبتُ مقالاً من سبع حلقات في ملحق ثقافة اليوم في جريدة الرياض، سنة ١٤٢٠هـ بمناسبة بلوغ اللساني والناقد السياسي والاجتماعي الأمريكي المشهور نعوم تشومسكي السبعينَ من عمره في السابع من شهر ديسمبر ١٩٩٨م. ولما كان كتاب تشومسكي الذي أترجمه هنا يمثل مراجعة شاملة للمنطلقات الفكرية والفلسفية والعلمية التي يقوم عليها المنهج الذي شرعه في دراسة اللغة؛ فإنني أود إيراد تلك الحلقات التي كتبتها عن تشومسكي ومشروعه اللساني بصورة عامة لتكون مقدمة لهذا الكتاب. والسبب الآخر لهذا القرار أن نيل سميث، محرر كتاب تشومسكي هنا، كتب مقدمة ضافية لما تتضمنه فصوله من قضايا. لذلك فمقدمتي إطلالة عامة على تشومسكي ومشروعه العلمي. كما تتضمن معالجة لقضية تثار دائمًا في الثقافة العربية؛ وهي الادعاء بأن تشومسكي استقى منهجه في دراسة اللغة من المصادر النحوية العربية.

ويستحق تشومسكي أن يكتب عنه دائمًا؛ للأثر الكبير الذي تركه على مختلف النشاطات العلمية والفكرية والاجتماعية والسياسية. وهو يستحق أن يكتب عنه في العالم العربي خاصة، لما يستحقه من الاعتراف بإنجازاته العلمية، ولمواقفه المشرفة من القضية الفلسطينية التي لم يتوقف عن الدفاع عنها منذ أكثر من خمس وأربعين سنة.

وسأتناول هذا الموضوع من جوانب مختلفة تتعلق بإنجازات تشومسكي في دراسة اللغة وبنشاطه الذي لا يعرف الكلل في النقد السياسي والاجتماعي وببعض المزايا الشخصية التي تميز شخصيته الفريدة.

وأبدأ بتناول بعض جوانب حياته؛ ذلك أن هذه الجوانب تلفت النظر بالقدر نفسه الذي تلفته آثارُه العلمية والاجتماعية والسياسية. كما تلقي ضوءًا

ربما يساعدنا في فهم كثير من الظروف التي أثرت في نشأته وفي تكوين شخصيته ورسم مسار حياته.

وسأعتمد اعتمادًا كبيرًا على سيرة حياة تشومسكي التي ألفها روبرت بارسكي، ونشرت في سنة ١٩٩٧م بعنوان: "نعوم تشومسكي: حياة من المعارضة"

Robert Barsky, Naom Chomsky: A Life of Dissent. MIT Press, 1997

وترجمها إلى العربية ياسين الحاج صالح وصفوان عكاش، بعنوان "نعوم تشومسكي: حياة منشق"، حلب: فصلت للدراسات والترجمة والنشر، ١٩٩٨م، وهي ترجمة سيئة، خاصة فيما يتعلق بنشاطه العلمي في اللسانيات. وعلى كتاب نيل سميث، "تشومسكي: أفكاره ومثالياته"

Neil Smith, Chomsky: Ideas and Ideals, Cambridge University Press, 1999

وعلى عدد من المصادر الأخرى، وبعض المقالات التي نشرت عنه في أماكن متفرقة.

ولد نعوم تشومسكي في السابع من شهر ديسمبر ١٩٢٨م، في مدينة فيلادلفيا في ولاية بنسلفانيا الأمريكية. وكان أبوه وأمه قد نزحا من روسيا سنة ١٩١٣م؛ هربا من تجنيد أبيه في الجيش القيصري رغمًا عنه. ومرا بحياة تتسم بالفقر كما هي حال كثير من النازحين إلى أمريكا.

لكن الفارق الحاسم أن والدي تشومسكي كانا متعلمين تعليمًا عاليًا قبل وصولهما إلى أمريكا؛ لذلك كان عثورهما على عمل مجز أمرًا سهلا. وكان والد تشومسكي من أبرز المتخصصين في اللغة العبرية، فوجد عملاً في تدريس العبرية في أماكن متفرقة. وألف عددًا من الكتب في الموضوع. ومنها تحقيقه لكتاب النحوي اليهودي الأندلسي ديفيد قمحي الذي عاش في القرن السابع الهجري، ويعد هذا الكتاب واحدًا من الكتب الرئيسة في نحو اللغة العبرية. وقرأ نعوم تشومسكي مسودة هذا الكتاب الضخم المتخصص وهو في الثانية عشرة تقريبا.

ونشأ تشومسكي في هذا البيت الذي يهتم بالعلم والثقافة، كما كان للجو الاجتماعي الحافز الذي يتمثل في تلك المحادثات الطويلة التي كانت تجري بين أبويه أو بين أبويه وعدد من أقاربه، على مائدة العشاء كما يقول تشومسكي، أثرٌ فاعل في حث ملكته اللغوية، وتوجيه اهتمامه إلى التفكير في المسائل والآراء التي كان يتداولها أولئك. وكان أفراد أسرة أبيه وأفراد أسرة أمه ينتمون إلى تيارات فكرية وسياسية مختلفة، بل متعارضة أحيانا. وكان ينشأ في هذه البيئة الغنية بالاختلاف كثيرٌ من النقاش الذي فتح بصيرته على أهمية اختلاف الآراء وأهمية الحوار حولها.

ومن الأمور اللافتة للنظر في صباه انكبابه على القراءة. ومن ذلك ما ترويه صديقة لأسرته أنها كانت في زيارة للأسرة، وسألته وهو في السابعة من عمره، وأشارت إلى دائرة المعارف المسماة بـ Compton's Encyclopaedia التي تتألف من عدد من المجلدات الضخمة، إن كان سبق له النظر في واحد من هذه المجلدات. وكانت إجابة تشومسكي، كما ترويها، أنه قرأ نصفها فقط. وكان منكبا على قراءة الأدب العبري الحديث، وأبرز الآثار الأدبية في اللغة العبرية، ومنها الكتب الدينية اليهودية بلغتها العبرية.

وكان قارئا نهمًا للآثار الأدبية المشهورة في اللغة الإنجليزية وتلك المترجمة إليها، ومنها الروايات الواقعية لكبار الروائيين مثل دستوفسكي وهاردي وهوجو وتولستوي ومارك توين وزولا، وهو ما شكّل وعيه نحو كثير من القضايا الاجتماعية. وكان وهو في التاسعة من عمره كثيرًا ما ينصرف بذهنه عن متابعة المدرّسة التي كانت، في الغالب، والدته، ذلك أنّ ما يدرّس في ذلك الصف كان قد فرغ من معرفته في بيته منذ زمن، لكثافة ما يقرأ.

ومن أهم المؤثرات في حياته أن والديه ألحقاه وهو في الثانية من عمره بمدرسة متأثرة بفكر عالم التربية الأمريكي جون ديوي، وظل فيها حتى الثانية

عشرة من عمره. وكانت الفلسفة التى تقوم عليها أفكار ديوى كما يقول تشومسكي، أن مهمة التعليم يجب ". . . أن تكون توفير الفرص من أجل أن يحقق الطفل ذاته بنفسه، فأحسن ما يمكن أن يقوم به التعليم هو توفير بيئة غنية متحدّية للفرد كي يتفحصها، معتمدًا على نفسه هو" . وما يزال تشومسكى يرى أن هذا ما يجب أن يقوم به التعليم، ذلك "أن الأفراد يتطورون بطريقة أفضل إذا ما وفّرت الفرصة لهم لكي يكتشفوا ما حولهم معتمدين على أنفسهم، ويتفحصوا بحرية بدلاً من إرغامهم على اتباع بعض المبادئ التربوية الصارمة". ويرى أن التعليم يجب ألا يكون شبيهًا بمحاولة ملء كأس فارغ، بل يجب أن ينظر إليه بمثابة توفير أفضل الظروف لزهرة أن تتفتح. وهو ما يعني أن يساعد الطفل على أن يتعلم بنفسه، بدلاً من الوصاية عليه.

واستطاع في هذه المدرسة، التى تضم أطفالاً آخرين من مختلف البيئات ويتمتعون بمستويات مختلفة من الاستعدادات، أن يطور قواه الخلاقة من غير تنغيص من النظام التربوى الذى يقوم على التقويم التنافسى. فقد كان الأطفال يتابعون إنجاز ما يهتمون به إما أفرادًا أو فى مجموعات، وكان يُشجع كلُ عضو في الفصل على أن ينظر إلى نفسه على أنه طالب ناجح جدا. وكان الهدف فى هذه المدرسة "الإبداع لا الدرجات، ولم يكن يُنظر إلى أيّ عمل أنه أكثر أهمية من الأعمال الأخرى التى ينجزها الآخرون أو أقل منها"، كما يقول تشومسكى.

ويقارن تشومسكي بين ذلك النظام التربوى الفاعل والنظام التربوى السائد فى التعليم، فيقول إن أولاده لم يصلوا إلى السنة الثانية الابتدائية إلا وهم يستطيعون أن يصنفوا الطلاب الآخرين بأنهم إما أذكياء أو أغبياء. وذلك نتيجة للنظام التعليمى الذى يقصد إلى إذكاء روح التنافس بين الطلاب، بدلاً من بث روح التعاون بينهم وتعليمهم أن يقدّروا أى عمل يمكن أن يكون نتيجة للاجتهاد الفردى.

وكان لهذه التربية التي تهتم بالاستقلال الفردى أثرها في حياته؛ فكان يذهب بمفرده في الإجازة الأسبوعية، وهو دون العاشرة، من مدينة فيلادلفيا إلى مدينة نيويورك، ويقضي الإجازة متنقلاً بين المكتبات قارئا كل ما يقع تحت يده، ثم يزور عمّه الذي يبيع الصحف في دكان جانبي، وينصت إلى المناقشات التي لا نهاية لها بين المفكرين اليهود النازحين من روسيا وأوروبا الشرقية وكان معظمهم ينتمي إلى الفكر اليسارى. وهي مناقشات تتركز على الفكر والسياسة والعلوم المختلفة. وترك ذلك فيه أثرًا بالغا، حتى إنه انتمى منذ تلك الفترة المبكرة من حياته إلى الفكر اليسارى، بل الفوضوى. وكان من نتيجة اهتمامه السياسي وانتمائه إلى الحركات اليسارية تأليفه كتابًا عن الثورة الإسبانية وهو في العاشرة.

ولما بلغ الثانية عشرة التحق بالمدرسة الثانوية. لكنه وجد الجو فيها مختلفا؛ فقد كان النظام فيها يقوم على الضبط والتحكم، وعلى غرس الاعتقادات الكاذبة في عقول الطلاب، وتجريدهم من الحرية التي فُطر الناس عليها، وذلك عكس ما كان عليه الأمر في مدرسته السابقة، كما يقول. لذلك يَعُدّ تلك الفترة من أسوأ الفترات في حياته؛ ويحاول دائمًا أن يتعمد محوها من ذاكرته. ولم يجد شيئًا جديدًا في تلك المدرسة، إذ سبق له أن قرأ أضعاف ما كان مقررًا فيها. لكنه فوجئ بأنه كان متفوقًا فيها، ويحوز دائمًا على أعلى الدرجات.

وتخرج في تلك المدرسة بتفوق، ثم التحق بجامعة بنسلفانيا وهو في السادسة عشرة، وكان يدفع مصاريف الدراسة في الجامعة من عمله مدرسًا للغة العبرية في أوقات فراغه. وكان الطالبَ الوحيد الذي تخصص في تلك الفترة في دراسة اللغة العربية في تلك الجامعة، بالإضافة إلى دراسته الفلسفة واللسانيات. وكان من أساتذته الذين أثروا فيه تأثيرًا حاسمًا جورجيو ليفي ديللا فيدا، وزيلك هاريس. ومما شجعه على الدراسة مع هذين الأستاذين انتماؤهما السياسي إلى التيارات اليسارية.

ومن الطريف أن والده ألحقه بجامعة بنسلفانيا للدراسة مع هاريس لكى يحول بينه وبين الهجرة إلى إسرائيل.

وكان طابع الدراسة الجامعية في قسم اللسانيات الذى كان يدرس فيه يشبه الطابع الذى كان سائدًا في مدرسته الابتدائية. إذ كانت الدراسة بعيدة عن النمط المألوف، وتقوم بدلاً عن ذلك على النقاش المستمر الذى لا تحده ساعات أو فصول معينة. وكانت تلك الفترة من أكثر سنوات حياته الفكرية خصبا؛ فقد تعرض في أثناء دراسته في تلك الجامعة لتأثير كبار المتخصصين في العلوم كلها تقريبًا، كالفلسفة وعلم النفس والتحليل النفسى والمنطق والرياضيات وغير ذلك.

ثم حصل على البكالوريوس بطريقة غير معهودة؛ إذ أعطى تلك الدرجة وهو في الحادية والعشرين من عمره في الرياضيات واللسانيات والمنطق، مع أنه لم يكن متخصصا في أى من هذه العلوم تحديدا. وكانت رسالته للتخرج عن النظام الصرفى في العبرية، وهى التى تضمنت البذور المبكرة لنظريته التى اقترحها فيما بعد.

ثم التحق ببرنامج الماجستير في الجامعة نفسها، وحصل عليه في سنة ١٩٥١م، ثم حصل على منحة للعمل باحثًا في هارفارد. وانصرف في تلك الفترة إلى البحث والمحاضرات العامة في الجامعات المختلفة. وأنجز فيها كتابة بحث طويل يقرب من ألف صفحة بعنوان: "البنية المنطقية للنظرية اللسانية". وكان مضمون هذا البحث غريبًا عن المألوف مما يسمى باللسانيات في تلك الفترة التى كان يسيطر فيها المنهج البنيوى المتأثر بالمدرسة السلوكية في علم النفس. وهو منهج يقوم على وصف الظاهرة اللغوية لا تفسيرها، كما يقوم على الاهتمام بما كان يسمى بإجراءات الاكتشاف التى تتبع في ذلك الوصف.

وعلى الرغم من انقطاعه عن الدراسة في جامعة بنسلفانيا منذ ١٩٥١ إلا أن صلته التى لم تنقطع بأستاذه زيلك هاريس شفعت له في تلك الجامعة. لذلك منح درجة الدكتوراه على الرغم من أنه لم يدرس فيها بانتظام، ولم

يتقدم إليها للوفاء بمتطلبات تلك الدرجة إلا بفصل واحد من العمل الضخم الذي أنجزه في هارفارد.

وتقدم بعدها بمخطوطة ذلك البحث الطويل إلى عدد من دور النشر، لكنها رفضت نشره. وكان سبب رفضها طول البحث طولاً مفرطًا، وغرابة محتواه عن السياق السائد في اللسانيات حينذاك. لكنه اكتفى في نهاية الأمر بمحاولة نشر الفصل الذي تقدم به إلى جامعة بنسلفانيا ومنح الدكتوراه عليه بعنوان "البنى التركيبية" Syntactic Structures، ومع ذلك رفضت نشره دورُ النشر الأمريكية التي تقدم به إليها. لكن دار نشر هولندية نشرته في سنة ١٩٥٧م.

وكان نشر ذلك الكتاب ضئيل الحجم إيذانًا بشق طريق غير مألوف في البحث اللغوي. وسرعان ما استُقبل استقبالاً منقطع النظير، ونشرت مراجعات كثيرة له، كان من أشهرها المراجعة التي كتبها روبرت ليز وقال فيها: "إن كتاب تشومسكي، "البنى التركيبية"، أولُ محاولة جادة يقوم بها لساني لبناء نظرية شاملة عن اللغة في إطار التقاليد المعروفة لبناء النظريات العلمية، وهي النظرية التي يمكن أن تُفهم بالمعنى نفسه الذي تُفهم به أية نظرية كيميائية أو أحيائية في تلك الحقول العلمية".

وفي ١٩٥٥ تعاقدت معه جامعة ماساتشوستس للتقنية للعمل باحثًا في معمل الألكترونات في هذه الجامعة العلمية. وكان الغرض من التعاقد معه العملَ في برنامج أبحاث يهتم بتطوير الترجمة الآلية، لكن تشومسكي لم يكن معنيًا بمثل هذه المشروعات التي كانت تمولها وزارة الدفاع الأمريكية لأغراض معينة. وانشغل بدلاً من ذلك بتدريس بعض اللغات الأجنبية لطلاب الدراسات العليا. ويصف تشومسكي ذلك العمل بأنه كان إعطاء "دروس مكثفة لتعليم أولئك الطلاب بعضَ الحِيَل التي يمكن أن يستخدموها لكي ينجحوا في امتحان اللغة في برنامج الدكتوراه". واستغل بعضَ الدروس

الأخرى التى أسند إليه تدريسها لعرض منهجه الجديد فى دراسة النحو واللغة بدلاً من تدريس المحتوى الدقيق لتلك الدروس.

لكنه التقى بصديقه وزميله «مورس هالى» الذى سبقه إلى التدريس فى تلك الجامعة. ثم أسَّسا قسمَ اللسانيات الذى أصبح بتأثيرهما أشهر قسم للسانيات فى العالم. وترقى فى السلم الأكاديمى بسرعة فائقة حتى حصل على درجة أستاذ فى تلك الجامعة وهو فى الثانية والثلاثين من عمره، وعين أستاذ شرف جامعى وهو فى السابعة والأربعين، وذلك أمر غير مسبوق.

وبعد أن نشر كتابه الأول "البنى التركيبية" أخذ نجمه فى الصعود، وبدأ الصراع العنيف بين منهجه الجديد والمناهج السائدة فى اللسانيات. لكن منهجه أخذ فى الشيوع والانتشار، وبدأ المتخصصون يتخلَّون بسرعة عن المناهج التى ألفوها من قبل، وأخذوا ينضمون إلى التيار التوليدى الذى يقوده تشومسكي متسلحًا بتلك الطاقة على التفكير والتنظير والإنجاز التى لا يكاد يجاريه أحد فيها.

وتنبغى الإشارة هنا إلى قدرته غير المألوفة على العمل لساعات طويلة من غير تعب ولا كلل أو ملل. فمما يعرفه المقربون منه أنه لا ينام إلا أربع ساعات فى اليوم، وأنه يقضى أكثر من عشرين ساعة فى الأسبوع فى كتابة ردود على الرسائل التى ترده من مختلف أنحاء العالم، وتتعلق بشتى المواضيع اللسانية والسياسية والمواضيع العادية جدًا التى يود مرسلوها الاستئناس برأيه فيها. وهناك موقع خاص فى شبكة المعلومات العالمية "الإنترنت" يحوى نماذج من الرسائل التى يكتبها يوميًا فى الرد على الرسائل التى ترد إليه. ويقول أحد عارفيه إن تشومسكي لا يعرف معنى الإجازة التى يعرفها الناس؛ إذ إن الإجازة فى عرفه لا تعدو أن تكون إنقاص العمل من عشر ساعات فى اليوم إلى ثمان!

ومن الشواهد على هذه الطاقة الفائقة على العمل المتواصل ما يقوله أحد الباحثين عن إنجازات تشومسكي في إحدى الفترات المبكرة من حياته التى أنجز فيها عددًا من الكتب والمقالات المهمة: "إن قليلاً من العلماء يمكن

لهم أن ينشروا هذا الكم الكبير من الأبحاث ذات القيمة العالية عن مختلف المسائل في مثل هذا الوقت القصير".

ويصف تشومسكي تلك الطاقة في تعليقه على ما كان يقوم به يوميًا في أواخر الستينيات: "لقد كانت تلك الفترة متعبة جدا؛ فقد كنت غالبا ما ألقى عددًا كبيرًا من المحاضرات السياسية في اليوم الواحد في عدد من الأماكن، وكنت أتعرض لاحتجاز الشرطة لي، وأذهب إلى الاجتماعات التي تعقد من أجل العصيان المدني وغيره، وكنت ألقي محاضراتي في الجامعة، وألعب مع أطفالي، وغير ذلك. بل إني كنت أجد بعض الوقت الذي أستطيع فيه أن أغرس في اليوم نفسه كثيرًا من الشجيرات والنباتات. وحين أعود بذاكرتي إلى تلك الأيام يصعب علي تخيل القيام بكل هذه النشاطات في وقت واحد".

وبما أننا عرفنا شيئًا عن طفولته يحسن أن نطّلع على رأي ابنه هاري تشومسكي في التربية التي تلقاها منه. فيقول في تهنئته لأبيه بمناسبة بلوغه السبعين: "ما مدى الأثر الذي تركته فيّ؟ والواقع أن الناس كثيرا ما يسألونني السؤال نفسه بطريقة مختلفة هي: ليت شعري كيف كانت نشأتك مع أب مثل هذا؟ وأحسن طريقة أجيب بها عن مثل هذا السؤال هي القول بأنها كانت تبدو أمرًا طبيعيًا بالنسبة لي. لقد كنتَ تقرأ لي قبل أن أنام من بعض الكتب عن نظرية النسبية. وكنتَ ترسم لي الزرافات على هيئة رسوم ساخرة — وتحوي هذه الرسوم معادلات خطية linear equations ثم تعلمني كيفية حل تلك المعادلات. وكنت تدلني على المصادر التي أرجع إليها في التقارير التي أكتبها لمادة الدراسات الاجتماعية في المدرسة، ذلك من غير أن أكتشف كم أن تلك المصادر مختلفة عن المصادر التي يرجع إليها معظم الطلاب. . . . إنني لا أستطيع أن أتخيل طفولة تخلو من مثل تلك الحوافز الفكرية في كل لحظة، ومن غير تلك القطارات الكهربائية، وتلك القصص الطويلة التي كنت ترويها لي بكل حب، أو صحبتي لك في مشي تلك المسافات الطويلة حين كبرتُ. . .".

وليس من السهل إيراد آراء العلماء في تشومسكي وفي إنجازاته، لكنه يكفي إيراد بعضها في الدلالة على المنزلة التي يحتلها في السياق العلمي والفكري المعاصر.

فيقول ستيفن بنكر عنه: "... يُعَدّ تشومسكي الآن واحدًا من الكتّاب العشرة الأُوَل الذين يكثُر الاستشهادُ بهم في الدراسات الإنسانية (وهو يتقدم على هيجل وشيشرون، ولا يسبقه إلا ماركس ولينين وشكسبير والإنجيل وأرسطو وأفلاطون وفرويد) وهو الوحيدُ الحي من أفراد هذه المجموعة.

وهو يثير الناسَ ويجعلهم يتخذون مواقفَ محدَّدة مما يقوم به. وتتراوح ردودُ الأفعال على عمله بين الإعجاب به إعجابًا مفرطًا وتعظيمه تعظيمًا يليق بأئمة الطوائف الدينية الغريبة، والهجومِ الشرس الذي طوَّره الأكاديميون وجعلوه فنًا رفيعا. وتعود هذه المواقف إلى أن تشومسكي يُهاجِم واحدةً من الركائز السائدة الآن للحياة الفكرية في القرن العشرين — وهي (نموذج علم الاجتماع المعيار) الذي يرى أن النفس الإنسانية تُشَكِّلها الثقافةُ المحيطة بها. كما أن هناك سببًا لهذه المواقف، وهو أنه ليس بإمكان أي مفكِّر أن يتجاهل تشومسكي.

وكما يعترف الفيلسوفُ هيلاري بتنام، وهو من أشرس المناوئين له، فإننا:

حين نقرأ ما يكتبُه تشومسكي نُحِس إحساسًا عميقًا بأننا في حضرة قوة فكرية عظيمة؛ إذ نكتشف أننا أمامَ عقلٍ مُتفوِّق. ويعود ذلك بقدر مُتساوٍ إلى سحْر شخصيته القوية، وإلى المزايا الفكرية الواضحة التي يتمتع بها، ومنها الأصالةُ والأنَفة من السطحي الساذج؛ والرغبةُ في إحياء مواقف تبدو باليةً (مثل فكرة الأفكار الفطرية)، والقدرةُ على ذلك؛ والاهتمامُ بمواضيع لها أهمية عظيمة مثل بنية العقل الإنساني.

وأنتج تشومسكي إنتاجًا علميًا غزيرًا في عدد من التخصصات. ويقول بارسكي إن تشومسكي نشر، إلى سنة ١٩٩٧، أكثر من سبعين كتابا وأكثر

من ألف مقالة في اللسانيات والفلسفة والسياسة وعلوم المعرفة وعلم النفس. ويزيد العدد الآن كثيرا عن تلك الإحصائية.

كما أن تشومسكي، كما قال بنكر آنفا، من أكثر من يستشهد به في العلوم المختلفة. فقد استشهد به فيما بين ١٩٨٠ و١٩٩٢ أربعة آلاف مرة في العلوم الإنسانية، و١٦١٩ مرة فيما يسمى بالعلوم الصحيحة.

ويقول عنه اللساني الأمريكي البارز راى جاكندوف، وهو أحد طلابه السابقين: "لا أعرف أحدا استطاع أن يهيمن على علْم معين [مثل هيمنة تشومسكي على اللسانيات]، إلا فرويد [الذى هيمن على علم النفس]".

ويتصف تشومسكي بالحياء الذى ربما يصل إلى حد الخجل، وبالتواضع الشديد، على الرغم من إنجازه الذى لا يكاد يماثله إنجاز. ومما يدل دلالة واضحة على هذا التواضع ما يلي.

فقد عُقد في القدس، سنة١٩٨٨، مؤتمر تحت مسمى "المنعطف التشومسكي: اللسانيات التوليدية، والفلسفة، والرياضيات، وعلم النفس"، وسمي بهذا الاسم للدلالة على النظرية الجديدة التى وضعها تشومسكي لدراسة اللغة. وقد جمع آسا كاشير، منسّق المؤتمر، الأبحاث التى ألقيت فى كتاب بعنوان:

The Chomskyan Turn. ASA KASHER (ed.).1991.

وأسهم تشومسكي نفسه ببحثين نُشرا في الكتاب. يقول تشومسكى فى بداية بحثه الأول ما ترجمته:

أشعر أن من واجبى أن أبدأ بما يمكن وصفه ببداية غير مهذبة بعض الشيء، ذلك أننى أود تسجيل اعتراضى على الصورة العامة المقترحة للمؤتمر، وهو ما عبرت عنه لآسا كاشير حين الإعلان عنه. فمع أن ما أريد الإشارة إليه واضح بما يكفي، لكن ربما يحسن بى أن أقول إن علامة أهمية

مجال بحثٍ معين، وأنه يستحق بذل الجهد فيه يتناسبان عكسا مع شخْـصنته بربطه باسم شخص معين؛ وأنا أظن أن المسائل التي نعالجها [في اللسانيات] مهمة وتستحق البحث فيها. أما المواضيع التي من قبيل: "علمُ أحياءِ فلانٍ" ـــ أو "اقتصاد فلان"، أو "علم نفس فلان"، أو ما إلى ذلك ـــ ولك أن تختار فلان الذي تريد، فلا يمكن أن تكون مفيدة إلا في الطــور البــدائي للبحــث فـــي موضوع ما، وهو المستوى الذي يأمل المرء أن يتجاوزه الباحثون بـــسرعة ليصبح البحث مشروعًا تعاونيًا مشتركا، حيث تتغير، في حالتنا، "لـــسانياتُ فلان" كلما ظهر عددٌ جديد من دورية علمية، أو كلما دخل طالبُ دراســـاتٍ عليا ببعض الأفكار الجديدة مكتبَ أستاذه المشرف على رسالته، أو مع كـــل مناقشة تحدث في فصل دراسي وتقود إلى فهم جديد ومشكلات جديدة. وقـــد أصبح كل ذلك، لحسن الحظ، أمرًا مألوفا [في اللسانيات] منذ سنوات طويلة، لذلك فعبارة "لسانيات فلان" ليست في محلها، إلا إذا كان فـــلان هـــذا هـــو [اللغوي الهندي القديم] بانيني أو وليم فون همبولت [اللغوي الألماني الشهير]، أو فرديناند دي سوسور، ذلك بشرط أن يفهم هذا الحكم أيضًا علـــى أنـــه لا يزيد عن كونه تجريدًا بعيدًا من واقع أكثر تعقيدا.

والشيء نفسه ينطبق على "النظريات" المتكاثرة التي تربط باسم فـــلان أو علان أو باسم جماعة معينة، إذ إن ذلك، مرة أخرى، علامة علـــى عـــدم نضج ذلك الموضوع المعين أو هو علامة على الانطباع الخاطئ عن حقـــل التخصص المعين بصورته التي يتطور بها في الواقع.

ويعني قوله هذا أنه على الرغم من المكانة التي يتبوأها تشومسكي في اللسانيات بخاصة إلا أنه لا يرى لنفسه فضلاً على غيره.

وهذه المعلومات الشخصية عن تشومسكي مهمة؛ إذ إنها ربما تساعدنا في فهم هذه الشخصية الفريدة، والنظر بجدية إلى الجوانب التي أسهمت فـــي

تكوينه. وهي التي يمكن لها أن تفيدنا في تربية الناشئين وتعليمهم؛ لينشأوا أفرادا مستقلين مبدعين. كما تشهد بأهمية العمل الجاد الدءوب، وضرورة تحلي الباحثين بالتواضع.

ومن المسائل الكبرى التى ينشغل بها بعض الباحثين العرب الذين يهتمون بدراسة اللغة فى الثقافة العربية المعاصرة، وبخاصة عند الحديث عن النظرية اللسانية التي ارتبطت باسم نعوم تشومسكي، تكرارُ القول عن الصلة بين هذه النظرية والنحو العربي.

وملخص هذا القول، أن هناك تشابهًا واضحًا بين النظرية التى ارتبطت باسم تشومسكي والنحو العربي. ويورد بعض هؤلاء الباحثين ما يرونه أدلة على هذا التشابه؛ ويحاول بعضهم أن يذهب أبعد من ملاحظة هذا التشابه إلى القول بأن تشومسكي انطلق فعلاً، في تنظيره اللساني، من المبادئ التي وضعها النحويون العرب القدماء. ثم يذهب هؤلاء خطوة أبعد ليتتبعوا المسار الذي سلكته هذه المبادئ حتى وصلت إلى تشومسكي.

ولا بد هنا من ملاحظة هامشية تكشف عن البنية المعرفية للثقافة العربية المعاصرة. فقد رأى بعض الباحثين الغربيين، وبعض العرب أيضا، أن نشأة النحو العربي نفسه إنما كانت بتأثير من الثقافات الأجنبية كالسريانية والهندية واليونانية. وحين يعرض بعض الباحثين العرب المعاصرين لهذا الرأي تراهم يكادون يجمعون على استنكاره ونفيه واتهام من يقول به بالجهل بالنحو العربي، بل بالعداء للثقافة العربية نفسها.

ومع ذلك فكثير من هؤلاء الذين يُنكرون أثرَ الثقافات الأجنبية فى النحو العربي لا يجدون غضاضة فى إرجاع كثير من الإنجازات الفكرية الغربية المعاصرة إلى تأثير الثقافة العربية. وما الإيحاء بتأثر تشومسكي بالنحو العربي، بل تأكيد انطلاق تشومسكي من النحو العربي، إلا وجهًا من أوجه هذه البنية المعرفية.

ويجب أن أشير منذ البدء أنه ليس من العيب أو المستغرب أن تنقل ثقافة عن ثقافة أخرى؛ بل إن هذا ما يحصل دائما، سواء أكان ذلك بوعي أم من غير وعي. بل ربما أمكن القول، إن التأثر الإيجابي، والسلبي، نتيجة لازمة للتلاقي بين الثقافات.

ومن الأمور الأخرى اللافتة للنظر أن الباحثين العرب المحدثين يقعون دائمًا في شرك إعادة النظر في النحو العربي في ضوء النظريات اللسانية الحديثة. وهو ما يقود إما لنقده نقدًا موجعًا أو تبجيله تبجيلاً مفرطا.

فقد تعرض النحو العربي، في القرن العشرين، إلى نقد عنيف من مصدرين اثنين: فالمصدر الأول هو النقد العنيف الذي وجهه بعض الباحثين إلى أصول النحو العربي والمبادئ التي يقوم عليها والتحليلات التي يتضمنها، انطلاقًا من التأثر بابن مضاء الأندلسي.

فقد أحدث تحقيق الدكتور شوقي ضيف لكتاب ابن مضاء الأندلسي "الرد على النحاة"، سنة ١٩٤٧م، موجة عارمة من نقد النحو العربي الذي ينحو نحو التعليل.

ويكفي إيراد ما يقوله محقق الكتاب في مقدمته للطبعة الأولى (الطبعة الثانية، ١٩٨٢م، ص ص ٧–٨): "وقد سدد ابن مضاء سهام دعوته، أو قل سهام ثورته، إلى نظرية العامل، التي أحالت كثيرًا من جوانب كتاب النحو العربي إلى عقد صعبة الحل، عسيرة الفهم. وما العلل؟ إن كل ما تصوره النحاة في عواملهم النحوية تصور باطل، . . .".

و: "ليس هذا كل ما تجره نظرية «العامل» في كتاب النحو العربي، فهي تجر وراءها أيضًا حشدًا من علل وأقيسة، يعجز الثاقب الحس والعقل عن فهم كثير منها، لأنها لا تفسر غامضة من غوامض التعبير، ولا دفينة من دفائن الأسلوب، وإنما تفسر فروضًا للنحاة، وظنونًا مبهمة".

و: "وهذا كله أفسد كتاب النحو العربي إفسادا، لأنه ملأه بمسائل ومشاكل، لا نحتاج إليها في تصحيح نطقنا، وتقويم لساننا".

ومع أن كتاب الرد على النحاة يمثل انتكاسة للتفكير النحوي العربي إلا أنه لقي قبولاً واسعا وما يزال ينظر إليه على أنه يمثل منهجًا جيدًا لإنقاذ النحو العربي من المنطق والتعليل، كما يقال.

ولا شك أن المناخ الفكري في مصر وبخاصة في الأربعينيات من القرن العشرين كان مواتيًا لانتشار أفكار ابن مضاء. ذلك بسبب ما سبق تلك الحقبة من محاولات لمراجعة كثير من المسلمات الثقافية والفكرية. ومن أهم الكتب الأساسية التي صدرت منذ العشرينيات في هذه المراجعة: كتاب طه حسين "في الشعر الجاهلي" ١٩٢٦، وكتاب علي عبد الرازق "نظام الحكم في الإسلام" ١٩٢٤م، وكتاب إبراهيم مصطفى عن النحو العربي في ١٩٣٧م، وغيرها.

ويتمثل المصدر الثاني لنقد النحو العربي في النقد العنيف الذي صدر عن عدد من الأساتذة الذين درسوا اللسانيات في أوروبا في الأربعينيات والخمسينيات من القرن العشرين. وكان جلهم قد درس اللسانيات في ضوء النظرية الوصفية التي كانت سائدة في تلك الفترة في أمريكا وأوروبا.

ومن أهم المبادئ التي تقوم عليها الدراسة الوصفية للغة جمعُ المادة ووصفها والاكتفاء بذلك. فلم تكن تلك الدراسة تعنى بما وراء الظواهر اللغوية من الآليات التي تسيِّرها، ولا بما في ذهن المتكلم حين يتكلم لغته. لذلك اكتفت بوصف المادة اللغوية ولم تحاول استكناه ما يختبئ وراءها.

ولما كان النحو العربي يقوم على بعض الأصول والمقولات والآليات التي لا تظهر في المادة اللغوية نفسها، كالعامل الذي يفسِّر الإعراب، والأصول الصرفية للكلمات التي ربما لا تتوافق مع الأشكال المنطوقة لها، فقد نظر هؤلاء الباحثون إلى هذه المبادئ والمقولات والأصول على أنها لا

تتوافق مع الأصول والمبادئ وطرائق التحليل التى تقوم عليها الدراسة الوصفية الحديثة للغة.

لذلك شنوا حملة شعواء على النحو العربى تضمنتها بعض الكتب المشهورة التى نشرت فى الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين. ومن أشهرها كتاب الدكتور عبد الرحمن أيوب "دراسات نقدية فى النحو العربى" الذى نشر أول مرة فى سنة ١٩٥٧م، وقد كتب الدكتور إبراهيم مصطفى — الثائر الأول على النحو العربى — مقدمة لهذا الكتاب.

وكانت معظم المآخذ التى أخذها الدكتور أيوب على النحو العربى موجهة إلى التقدير والتعليل اللذين يقوم عليهما التحليل النحوى العربى القديم. ويبين الدكتور أيوب تلك المآخذ فى تحليله لكثير من الظواهر اللغوية والنحوية والصرفية. ويكفى أن نرى رأيه مجملاً فيما يلى.

فقد عرض الدكتور أيوب للتقدير فى مواضع عدة؛ ويمكن أن يلخص رأيه فيه قوله (ص٥٢): "يلعب التقدير دورًا كبيرًا فى النحو العربى. وذلك لأن النحاة كثيرا ما يلجئون إليه لتصحيح رأى قالوا به. والتقدير ولا شك أمر غير واقعى.. . . ونحن حين نرفض نظرية التقدير نرفضها لعدم واقعيتها هذه".

أما عن التعليل فيقول (ص٣٣): ". . . ولم يبق إلا أن نقلع عن [التعليل] ونكتفى بتقرير الواقع لا غير. وهذا ما تفعله المدرسة التحليلية الشكلية اليوم".

وتكرر هذا النقد عند الدكتور إبراهيم أنيس والدكتور كمال بشر والدكتور تمام حسان. وكان الدكتور تمام حسان أكثر الناقدين جذرية؛ ذلك أنه اقترح بديلاً لمبدأ العامل وبعض الآليات التحليلية التى تقوم إلى جانب الإعراب فى تفسير البنية النحوية للعربية. وقد أوضح ذلك البديل فى كتابه "اللغة العربية مبناها ومعناها"، ١٩٥٩م، وظل وفيًا لها إلى الآن، وذلك فى كتابه الجديد "الخلاصة النحوية"، ١٤٢٠هـ، الذى يمثل تطبيقًا لنظريته البديلة تلك.

لكنه استبدل بهذا النقد الذى كان يوجه للنحو العربى بصورته التى

نجدها في المصادر العربية الأساسية، منذ أوائل السبعينيات من القرن العشرين، ما يشبه إعادة الاعتبار لمقولات النحويين العرب القدماء وآرائهم وطرائقهم في التحليل.

أما هذا الانقلاب المفاجئ الذي يتمثل في إعادة الاعتبار لمنطلقات النحو العربي القديم فكان نتيجة لاتصال بعض الدارسين العرب المعاصرين بالنظرية اللسانية التي بدأها تشومسكي في أواسط الخمسينيات. فقد لفت نظر كثير من الدارسين العرب تمييز تشومسكي بين مستويين للجملة، أحدهما المستوى الظاهري المنجز لها والثاني المستوى الذي تشتق منه الجملة بشكل من الأشكال. ولما كان النحو العربي يقوم على بعض المقولات المجردة كالإضمار والحذف وما يتبع ذلك من تعليل وتقدير للعناصر اللغوية المضمرة والمحذوفة من الشكل الظاهري للجمل، فقد رأى هؤلاء أن النحو العربي القديم يقول، هو أيضًا، بوجود مستويين للجملة، وهو ما يماثل ما تقوله نظرية تشومسكي.

بل تجاوز الأمر ملاحظة هذا التشابه بين النحو العربي ونظرية تشومسكي إلى القول بأن تشومسكي لم يكن إلا ناقلاً لهذه المقولات من النحو العربي مباشرة. ثم يورد هؤلاء بعض الأدلة التي تشهد لهذا الرأي.

ومن هذه الأدلة أن والد تشومسكي كان من نحاة اللغة العبرية المعاصرين البارزين. ولأن النحو العبري أسس في العصور الوسطى على مثال النحو العربي فلا بد أن تكون معرفة تشومسكي بهذه المقولات العربية قد أتت عن طريق معرفته بالنحو العبري. ومن وجه آخر، يوحي هؤلاء الباحثون بأن مقولات النحو العربي انتقلت إلى تشومسكي عبر اطلاعه على أعمال المفكرين الفرنسيين والألمان في القرن الثامن عشر، ومن أشهرهم فون همبولت الذي كان قد اطلع على اللغة العربية والدراسات النحوية فيها خاصة. ومن وجه ثالث، فقد صرح تشومسكي نفسه بأنه درس اللغة العربية في المستوى الجامعي الأول وصرح بأنه قرأ سيبويه. وكان قد درس العربية

في جامعة بنسلفانيا على أيدي مستشرقين معروفين هما جورجيو دي لافيدا وفرانز روزنتال، كما رأينا.

لهذا، كما يرى هؤلاء الباحثون، فمعرفته بالنحو العربي كانت عميقة، ومن غير المستبعد إذن أن يكون قد نقل مقولات النحويين العرب بصورة مباشرة أو غير مباشرة.

ولما كان هذا الموضوع واحدًا من أكثر الموضوعات المتعلقة بتشومسكي أهميةً من حيث التأريخ لمساره العلمي فسوف أعرض له بتوسع، مستعرضًا الأدلة المتوفرة لي عنه كلها.

ويجب القول هنا أن الدارسين العرب المعاصرين لم يكونوا الوحيدين الذين لاحظوا أوجه الشبه بين التنظير النحوي العربي ونظرية تشومسكي. لذلك سأورد بعض آراء الدارسين الغربيين الذين لفتت أنظارهم هذه التشابهات كذلك.

وسأحاول إيراد بعض الآراء الممثلة للقول بهذا التأثر وبعض الآراء الأخرى التي تنفيه. ثم أعود إلى ما يقوله تشومسكي عن هذه المسألة، وإلى الأسس التي صرح بأن نظريته تقوم عليها.

ولا يتسع المقام هنا لعرض كل ما قيل عن وجود هذا التشابه أو ما قيل عن أخذ تشومسكي عن النحو العربي؛ لكني سأكتفي بإيراد عينات ممثلة لهذه الآراء، وسأحاول تبيان المعطيات التي استندت إليها.

وتأتي هذه الآراء أحيانًا على هيئة ملحوظات عابرة تشير إلى هذا التشابه؛ لكن بعضها يأتي بصور أكثر تفصيلاً لأوجه التشابه بين النحو العربي والنظرية التوليدية، وللطرق التي وصلت بها المفاهيم النحوية العربية إلى تشومسكي.

ومن أوائل الإشارات العربية إلى أوجه التشابه بين النحو العربي أو الدراسات العربية بشكل عام ما ورد في كتاب كمال أبو ديب Al-Jurjani's Theory of poetic Imagery, 1979 "نظرية الجرجاني عن التخييل الشعري" وكان في الأصل رسالته للدكتوراه التي أنجزها في جامعة

أكسفورد في بريطانيا قبل ذلك التاريخ بسنوات. فقد أشار في أربعة مواضع من هذا الكتاب إلى التماثل التام بين بعض المفاهيم وطرق التحليل التي قال بها الجرجاني وتلك التي جاء بها تشومسكي (الهامش ٢١ ص٢٩؛ الهامش ٣٦ ص٣٣؛ الهامش ٦٥ ص٣٩ وص٥٧). ويلخص النص التالي مضمون هذه الإشارات جميعها (ص٥٧؛ وهو ترجمتي):

"وربما كان نوعُ التحليل الذي أتى به الجرجاني في هذا الفصل أولَ، بل أفضل، تحليل في اللغة العربية لـ "البنية السطحية و"البنية العميقة". وإيضاحُ التماثل بين المفاهيم التي طورها الجرجاني، وطوّرها تشومسكي مؤخراً، سهل جداً. . . . ولتوضيح الفرق بين البنيتين فقد أعاد الجرجاني صياغة كل واحدة منهما بالطريقة نفسها التي يستعملها تشومسكي الآن، من أجل الكشف عن البنى العميقة للتركيبات التركيبية المماثلة".

ولعل أفضل كتاب يمثل وجهات النظر التي تتلمس مظاهر الاتفاق بين النحو العربي والنظرية التوليدية كتابُ الدكتور نهاد الموسى: "نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر النحوي الحديث، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م). وقد صرح بأن اتجاه البحث في هذا الكتاب ". . . تشكّل في نفس صاحبه تشكّله الأول على هيئة إحساس قوي بأن كثيرا من الأنظار التي وجدها في كتب المحدثين من الغربيين، ولابَسَها في محاضراتهم ومقابساتهم، يوافق عند عناصر كثيرة منه ما قرأ عند النحويين العرب مصرحين به حينا وصادرين عنه ــ فيما يقدر الباحث ــ كثيرا من الأحيان" (ص٩).

وأول ما يلفت النظر في كتاب الدكتور الموسى أن النحو العربي بدا كأنه يتشابه مع كثير من المدارس اللسانية الحديثة لا المدرسة التوليدية وحسب. فالنحو العربي، كما يرى الدكتور الموسى، يتشابه مع المدرسة البنيوية التوزيعية. ويتبين ذلك في قوله: "إن معطيات هذا المنهج في التحليل

هي بعض ما استشعره النحويون العرب في الإعراب وصدروا عنه، حتى إنها لتعد من قبيل تحصيل الحاصل لدى المشتغلين بالعربية ومعلميها" (ص٢٩). ويقول عن مبدأ "التوزيع" في هذه المدرسة: "وقد وقف النحويون العرب على هذا المبدأ في حقيقته" (ص٣٣)، و". . . يضيق مجال القول هنا عن استيعاب أمثلة هذا "المبدأ" لديهم، فلعل فيما تقدم دليلا مقنعا" (ص٣٧)، و"إن هذا الإرهاص بمبدأ التوزيع ظاهر في كثير من وجوه التحليل النحوي عند العرب، ولكن النحويين كانوا يحتكمون إليه بقدر ما يكون مسعفا دون قصر" (ص٣٨). ثم يورد رأي الباحث الأسترالي المعاصر مايكل كارتر عن كتاب سيبويه: "ويرى كارتر، في منتهى النظر، أن كتاب سيبويه يقدم نموذجا من التحليل البنيوي لم يعرفه الغرب حتى في القرن العشرين، ويُقَدِّر أن لو ولد سيبويه في عصرنا هذا لتبوأ منزلة وسطا بين دي سوسير وبلومفيلد" (ص٤٠).

كما يرى الدكتور الموسى أن هناك اتفاقا بين النحو العربي والمدرسة اللسانية المسماة بـ Tagmemics التي يترجمها إلى "الخانيَّة". ويتحدث عن بعض الخصائص المميزة لهذه النظرية ثم يعقب قائلا: "إن مجموع هذه العناصر بالإجمال متحصل ضمنا في معطيات النحو العربي. . . ." (ص٤٣).

وإذا انتقل إلى المدرسة التوليدية، نراه يقول عن اعتراضات تشومسكي على مبادئ المدرسة البنيوية: "وتلتقي جل منطلقات تشومسكي، نظرية التحويل والتفريع، في اعتراضاتها على البنيوية من الجهات التي وجدت أن البنيوية تتخلف فيها عن تفسير صور أساسية من الظاهرة اللغوية، مع الأصول التي رسمها ابن هشام في (المغني)، للتحليل النحوي، وساقها في هيئة "وجهات نظر يدخل الاعتراض على المعرب من جهتها". وكأن المُعرِب، عند ابن هشام، هو "البنيوي" عند التحويليين" (ص٤٦). ثم

يعرض أوجه الاتفاق بين النحو العربي والنظرية التحويلية في المفاهيم الأساسية لها.

ويرى كذلك أن النحو العربي يتشابه في كثير من المفاهيم والتحليلات مع بعض المدارس اللسانية المعاصرة الأخرى كالمدرسة الوظيفية، وعلم اللغة الاجتماعي، والدلاليات المعجمية، وغيرها.

ويرى "أن هناك ثلاثة أبعاد من أبعاد النظر في اللغة هي من مستلزمات أية نظرية مشتركة أو ائتلافية في التحليل اللغوي" (ص١١٠)؛ وبعد أن يحدد هذه الأبعاد يختم بالقول: "وهذه الأبعاد الثلاثة أيضا قد وسعها النظر النحوي عند العرب من خلال دأبهم المتصل في استكمال نظرية للتحليل النحوي لا تتخلف" (ص١١١).

ويوضح الدكتور الموسى أن في عنوان كتابه:"... تجوزا كبيرا؛ فالأمر في هذا البحث لا يعدو المقابلة بين "أنظار" و"اتجاهات" و"ملاحظ" و"معالجات" تهدّى إليها النحاة العرب، وهي في الوقت نفسه مما أخذ به غيرهم في التقليد الغربي سواء أكان ذلك على وجه التوارد الذي يقع بالضرورة أو على وجه التأثر المحقق بالتاريخ الصحيح" (ص١٥). كما يصف عمله بـ"المجازفة الاستطلاعية الخلافية المنقطعة" (ص١١١).

والواقع أن القول بأن النحو العربي يتشابه مع هذه المدارس المتعددة المختلفة المتنافرة من حيث المنطلقات النظرية ووسائل التحليل يكفي في رد القول بأن النحو العربي يتشابه مع النحو التوليدي تخصيصا.

ومن وجه آخر فوصف الدكتور الموسى لعمله يُفرِغ فرضيته من

مضمونها؛ إذ إن كل ما تقدم من أوجه المشابهة يمكن أن يكون من تـوارد الخواطر "الذى يقع بالضرورة".

ويتجاوز الدكتور الموسي القول بتشابه النحو العربـي مـع النظريـة اللسانية التوليدية إلى النظر في إمكان أخذ تشومسكي عن النحـو العربـي. ويجب أن أشير هنا إلى أن الدكتور الموسى كان في تتبعه مسار المفـاهيم النحوية العربية حتى وصلت إلى تشومسكي حذرًا جدا، فقد أطَّر كلامه بأدق ما يكون من التحفظ.

فهو يقول في (ص ص ٥٤ــ٥٥): "وليس تقرير الشبه بين ابن هشام وهومبولت ثم تشومسكي من هذه الجهة محتاجا إلى أن يُتكلف له التأويل"؛ ثم يعلق في الهامش (ص ص ٥٤ــ٥٥) قائلا: "إن التـشابه يغـرى بالتأمـل، ويقوى معه الهاجس بأن هذه المسـألة قد تكون بعض ما ورد على الغـرب من العرب في إطار "انتقال العلم العربي إلى الغرب اللاتينـي". ذلـك أن [المستعرب] سلفستر دى ساسـي "كان متضلعا. . . مـن علـوم اللغـة العربية". و"ما أنتجه من الدراسات في نحو العربية وما ترجمه إلى الفرنسية من كتب النحو والتجويد القديمة يدل بوضوح على أنـه أدرك ــ إدراكـا لا بأس به – مفاهيمَ ومناهج النحاة العرب". ودى ساسى "هو الذى كـوّن. . . فون هومبولت" وغيره. "وأهم شيء اكتسـبه هؤلاء من دروس دى ساسـي هو اطلاعهم من خلال دراستهم للعربية واللغات السـامية الأخـرى علـى المفاهيم اللغوية والنحوية العربى التى كانت تنقصهم في ثقافتهم الفيلولوجيـة التقليدية، وكذلك كان الأمر بالنسبة للنحو والصوتيات". وكـان دى ساسـي "متشبعا بمبادئ النحو الوصفى التعليلي. وهو يمثل في زمانه ذلك المـذهب الذى تناقله عدد من العلماء منذ القرن الثالث عشـر مـن طريـق جـيمس هارس وسنكتيوس الإسباني عن النحاة العـرب مباشـرة أو عـن لغـويي السكولاسـتيك عن فلاسفة العرب". "وتلا دى ساسى في العمل بهذه المبادئ تلميذه فون هومبولت".

ثم يشير إلى مقال للدكتور عبد الرحمن الحاج صالح عنوانه "مدخل إلى علم اللسان الحديث (٣)" منشور فى مجلة اللسانيات، التى كانت تصدر فى الجزائر، المجلد الثانى، ١٩٧٢، العدد الأول، ص ص ٩ــ١٠.

ويعلق بعد ذلك قائلا: "فهل تكون هذه المسألة عند ابن هشام [انظر الإشارة إليها فيما تقدم] مما أورده دي ساسي على هومبولت ثم لقفها تشومسكي؟"

ثم يبدى تحفظه قائلا، نقلاً عن عبد الرحمن الحاج صالح أيضا: "إنه لا بد من التحفظ على القطع بقول حاسم، ذلك أنه، مثلا، "رغم. . . معرفة دى ساسي لمقاصد النحاة العرب فإن الكثير مما تركوه من التحليلات العميقة والمفاهيم الدقيقة ما كان يمكن أن يُفهم فى ذلك العصر لعدم خوض الغربيين بعد في هذا النوع من البحث. ونخص بالذكر مناهج الوصف البنيوى ومفهومى الأصل والفرع والطريقة التفريعية. . .".

وهكذا نجد أنه على الرغم من هذه الافتراضات المتكاثرة عن المسار الذى سلكه النحو العربى حتى وصل إلى تشومسكى فلا تعدو هذه الافتراضات أن تكون افتراضات يصعب التدليل عليها.

بل إننا نجد الدكتور الموسى يصرح بأن أوجه التشابه بين النحو العربى ومدارس النظر فى اللغة (وبخاصة النحو التحويلى) ربما تكون نتيجة لما يسميه بـ "المشترك" بين اللغات، وإن قلَّل من هذا الاحتمال. ومؤدى هذا أن ". . . بين مناهج النظر اللغوى، على اختلاف الزمان والمكان والإنسان، قدرا مشتركا يقع بالضرورة. . .

"وكان مضمون ذلك الحدس [حدسه بـ"المشترك"] بديلا راجحا عن القول بتأثير تلك المناهج بعضها فى بعض، أو أخذ أصحابها بعضهم عن بعض. . ." (ص ٩).

ومحصلة القول إن الطريقين اللذين كان يمكن اللجوء إليهما في تقرير أخذ تشومسكي عن النحو العربي ليسا كافيين ولا قاطعين، اعتماذا على ما نجده في كتاب الدكتور الموسى. وهذا مما يشكك في هذا الاحتمال.

ومع أن كتاب الدكتور الموسى يمثل وجهة نظر عدد كبير من الباحثين العرب الذين يقولون بالصلة بين النحو العربي وتشومسكي إلا أننا نجد باحثين أخرين لا يرون تلك صلة. ويمكن أن يستشهد على عدم افتراض كثير من الباحثين وجود مثل هذه الصلة بالحالات التالية.

فعلى الرغم مما ذكره الدكتور الموسى نقلاً عن الدكتور الحاج صالح من تتبع المسار الذي سلكته المفاهيم النحوية العربية حتى وصلت إلى تشومسكي إلا أن الدكتور عبد السلام المسدي في كتابه ("الفكر العربي والألسنية"، منشور في كتاب: اللسانيات واللغة العربية. الجامعة التونسية، ١٩٧٨، ص ص٣٠ــ٣١؛ ويوجد هذا النص في كتابه "التفكير اللساني عند العرب" كذلك) يرى أن ". . . الغرب قد أهمل التراث اللغوي عند العرب فلم ينقل منه شيئاً؛ وبذلك استلمت الأمم اللاتينية مشعل الحضارة الإنسانية من العرب في كل ميادين المعرفة تقريبا إلا في التفكير اللغوي".

و"أما النتيجة المبدئية التي آل إليها "نسيان" تراث العرب في اللغويات العامة فهي حصول قطع في تسلسل التفكير الألسني عبر الحضارات الإنسانية، فنهضت الحضارة الغربية على حصيلة التراث اليوناني، ولكن في معزل عن مستخلصات ثمانية قرون من مخاض التفكير اللغوي عند العرب، وإذا جاز لنا أن نبسط القول مصادرة في البحث أمكننا أن نقرر افتراضا أن أهل الغرب لو انتبهوا إلى نظرية العرب في اللغويات العامة عند نقلهم لعلومهم في فجر النهضة لكانت الألسنية المعاصرة على غير ما هي عليه اليوم، بل لعلها كانت تكون قد أدركت ما قد لا تدركه إلا بعد أمد".

وما دام أن الدراسات اللغوية العربية لم تنتقل إلى الغرب، فهي بالتالي لم تصل إلى تشومسكي بالطريقة التي تفترض دائما.

ومن الباحثين الذين لا يرون صلة بين النحو العربي وتشومسكي الدكتور تمام حسان. فقد عُرف الدكتور حسان بدراساته عن أصول التنظير النحوي العربي في كتبه المتعددة، ولم يذكر في أي منها، فيما أعلم، تشابها بين النحو العربي والنظرية التوليدية. بل إننا نجده في بحث منشور في الكتاب سالف الذكر عنوانه "إعادة وصف اللغة العربية ألسنيا" (ص ١٤٥ــ١٨٤) يستعرض المدارس النحوية العربية المعروفة، ثم يعرض تطبيقا لنموذج النحو التوليدي على اللغة العربية مأخوذا من كتاب تشومسكي Aspects". وفي ختام عرضه للكيفية التي ينطبق بها النموذج التحويلي على اللغة العربية يقول: "وهكذا يبدو أن النموذج التحويلي يمكن أن يطبق على اللغة العربية، ويمكن للغة العربية أن يعاد وصفها ألسنيا من خلاله" (ص ١٨٤).

ومعنى هذا القول أنه لو وجد الدكتور تمام حسان تشابها بين النحو العربي والنحو التحويلي لكان تعبيره عن هذا الأمر مختلفا؛ ولكان من المحتمل أن يقول، بدلاً مما قال، إن هذا النموذج هو ما نجده في النحو العربي.

وهناك دليل آخر على عدم أخذ تشومسكي عن النحو العربي في نظريته. ويؤخذ هذا الدليل من قول الدكتور مازن الوعر (علم اللسانيات الحديث: مدخل. ١٩٨٨، ص ٣٥٩ــ٣٦٠): "إنه لا غرابة أن نرى عالما لسانيا أمريكيا معاصرا هو نوم تشومسكي يقف وقفة دهشة وعجب من التراث العربي اللغوي (النحوي والدلالي)، عندما قرأ وعلق على عمل لساني كنت قد تقدمت به كرسالة للدكتوراه. ففي رسالة بعثها إليّ في ٢٦ نيسان ١٩٨٢ قال فيها:

"إنه من الواضح أن هذه الدراسة هي دراسة جدية ورائعة ومهمة . . . . ولقد دهشت بشكل خاص من تلك التعليقات اللغوية التي وردت في ثنايا هذه الدراسة والتي كان قد قالها العرب القدامى. إن هذا وحده يجعل هذه الدراسة إسهاما قيما جدا لتطوير الدراسات اللسانية الغربية. . . ".

كما أورد ما حدثه به الدكتور أحمد المتوكل (وهو لساني مغربي معروف) من أنه [أي المتوكل] "قد قال لي بأنه أرسل رسالة الدكتوراه التي وضعها والتي تدور حول النظرية الدلالية عند العرب القدامى إلى عالم اللسانيات الأمريكي تشومسكي وقد كان تعليق تشومسكي عليها [في رسالة بعثها إلى الدكتور المتوكل] بأن ما قاله العرب القدماء في حقل الدلاليات يعد فكرا فلسفيا عميقا لا بد من الأخذ به في الفكر الدلالي المعاصر، وقد وعد تشومسكي المتوكل بأنه سيعتمد هذه النظرية في الأعمال التي سيقوم بها في المستقبل".

وكما هو واضح تدل هاتان الحالتان بشكل صريح على أن تشومسكي لم يسبق له أن اطلع على إنجازات العلماء العرب القدماء قبل أن يقرأ ما كتبه هذان الباحثان العربيان المعاصران عن تلك الإنجازات.

ونخلص مما سبق إلى نتيجتين هما:

١ــ أن القول الذي يقضي بأخذ تشومسكي عن النحويين العرب لا دليل عليه؛ ذلك أن أكثر المعالجات تفصيلاً واستقصاء لهذه الدعوى لم تصل إلى نتيجة حاسمة يلزم منها الاطمئنان إلى حدوث هذا الأخذ المباشر، أو غير المباشر.

٢ــ ما يقوله تشومسكي نفسه من عدم اطلاعه على المنجزات النحوية واللغوية التي وصل إليها العلماء العرب القدماء. ولكي يلزم الرأي القائل بأخذ تشومسكي المباشر أو غير المباشر عن النحو العربي فإنه يلزم القائلين بهذا الرأي أن يثبتوا أن كلام تشومسكي ليس صحيحا، وأنه كان يعرف أكثر مما صرح به.

وسنرى فيما يلي بيانًا واضحًا لرأي تشومسكي في هذه المسألة، وتفسيرًا لأوجه التشابه بين النحو العربي وما نجده في النحو التوليدي.

فمن أوائل الباحثين الذين اهتموا في أبحاثهم بطبيعة الدراسات النحوية العربية اللساني الأمريكي المعاصر المعروف مايكل بريم في رسالته للدكتوراه. وهي رسالة حلل فيها النظام الصواتي للغة العربية الفصحى، وأنجزها في جامعة ماساتشوستس للتقنية بإشراف عالم الصواتة المشهور موريس هالي في سنة ١٩٧٠م. وينظر الباحثون إلى هذه الرسالة على أنها عمل بارز استخدم فيه مايكل بريم دراسة التراكيب الصواتية للغة العربية مثالاً يحتج به لتطبيق النظرية الصواتية التي جاء بها تشومسكي وموريس هاله في كتابهما الشهير "نمط الأصوات في اللغة الإنجليزية" The Sound Pattern of English, 1968. وقد انتشرت هذه الرسالة انتشارًا واسعًا في أقسام اللسانيات في أمريكا وغيرها، واعتُمدت مرجعًا رئيسًا في الدراسة الصواتية، وظهرت الإشارة إليها في عدد لا يحصى من الكتب والمقالات في تلك الفترة. وما يزال يشار إليها بوصفها عملاً كلاسيكيًا في النظرية الصواتية وفي الدراسات العربية على السواء.

ومما قاله بريم في مقدمة الرسالة (وهي ترجمتي):

أعتقد أن النحو العربي خاصة قد بلغ أدنى درجات الانحطاط على أيدي العلماء الغربيين. فقد تجاهلت اللسانيات الغربية تجاهلاً يكاد يكون تامًا كثيرًا من مظاهر العمق والأصالة اللذين أورثناهما النحويون العرب. وسوف أعالج هذا الموضوع [أي النظام الصواتي للغة العربية في تلك الرسالة] بالروح التي عالجه بها أولئك النحويون العرب، وهذا صحيح في الأقل في المسألة التي استرعت اهتمامهم، وهي مسألة تحديد الأصل أو التمثيل العميق للغة. . . .

فهو يشير هنا إلى مسألتين مهمتين من أوجه التشابه بين النحو العربي

والنظرية التوليدية: أنهما يفترضان أن الكلام الذى ننجزه مشتق من أصل ربما لا يكون متوافقاً مع الشكل المنجز له، وأن جمل اللغة المنجزة لها مستوى مجرد.

ومن الأبحاث التفصيلية الأولى التى تنحو هذا المنحى بحث كتبه ديفيد بترسون بعنوان "بعض الوسائل التفسيرية عند النحويين العرب"، ألقاه فى الندوة السنوية لجمعية اللسانيات فى جامعة شيكاغو فى سنة ١٩٧٢، ونشر فى مجموعة الأبحاث التى صدرت عنها. ويناقش بيترسون فى هذا البحث لجوء النحويين العرب إلى التأويل والتجريد فى تفسير الظواهر اللغوية، ويختمه بقوله:

. . . يجب أن يكون واضحاً من النقاش الذى تقدّم أن النحويين العرب لم يكونوا وصفيين لا يهتمون إلا بالظاهر بأى حال. بل هم بنيويون بالمعنى نفسه الذى يُصنَّف به أكثر الدرس اللسانى فى القرن العشرين، ومن ضمنه النحو التوليدى التحويلى. لقد كان النحويون العرب يهتمون بالتحليل البنيوى الذى يصل الأشكال بعضها ببعض وهو ما يؤدى إلى تفسيرها. ومن اللافت للنظر أن تكون بعض تحليلاتهم مجرَّدة ومصوغة بمصطلحات تشبه ما يستعمله اللسانيون اليوم . . . إن دليل نجاحهم يتبين من أن عملهم لم يُتجاوز إلا فى حالات قليلة.

ومن أشهر الباحثين الغربيين البارزين الذين اهتموا بدراسة تاريخ النحو العربى وطبيعة الدراسة النحوية عند العرب ثلاثة، وهم مايكل كارتر وكيس فرستيغ وجوناثان أوين، إذ كتبوا فى هذين الموضوعين عدداً كبيراً من المقالات والكتب.

فقد حرر كيس فرستيغ ومايكل كارتر كتاباً بالإنجليزية عنوانه: "دراسات فى تاريخ النحو العربى ــ ٢"، ونشر فى ١٩٩٠. ويقولان فى مقدمة هذا الكتاب:

يمكن أن يشار هنا إلى نقطتين مهمتين يُعنى بهما مؤرخ اللسانيات: فالأولى أن الاهتمام العميق الظاهر الآن باللسانيات العربية نتيجة من غير شك لتطور النظرية اللسانيات العامة ونُضجها، إذ وضع هذا التطورُ العلماء الغربيين في مستوى يمكن لهم فيه أن يقدّروا عمق التفكير اللساني العربي ودقّته؛ وبغض النظر عن النواحي التي يمكن أن تكون اللسانيات النظرية قد فشلت في إنجازها في الدوائر العلمية الغربية، إلا أنها أسهمت من غير شك إسهامًا موجبًا في فهمنا للسانيات غير الغربية. والنقطة الثانية أن من الواضح أنه على المستوى النظري الكلّي أو على المستوى التطبيقي أو كليهما هناك بعض الدروس التي يمكن للسانيات الحديثة أن تتعلّمها من النحويين العرب القدماء. إن مفهوم الكلّيّات اللسانية في الأقل ربما لا يمكن نقاشه الآن دون النظر في التنظيرات المشابهة في اللغة العربية، حيث يجب ألا يؤكّد تطبيق كثير من معطيات اللسانيات المعاصرة دون الإشارة إلى التقاليد اللسانية التي تُعد اللغة العربية أشهرها من حيث نضجها الذي لا يقل عن نضج التقاليد اللسانية المعروفة الأخرى كالهندية أو الصينية. وربما وجد المهتم باللسانيات العامة الذي يعرف العربية، أو الذي يكون على استعداد لأن يتعلم من العربية ما يُمكّنه من فهم محتوى الأبحاث في هذه المجموعة، بعض المعلومات التي يمكن أن تقوده إلى تعديل بعض آرائه التي تأسست كلها على التقاليد الغربية.

أما جوناثان أوين فقد كتب عددًا كبيرًا من الأبحاث التي تناقش قضايا معينة في النظرية النحوية العربية. وسأقتصر هنا على عَرْض ما قاله عن هذا الموضوع في كتابه "مقدمة للنظرية النحوية العربية في القرون الوسطى"، ١٩٨٨م. فهو يشير في المدخل الذي صدّر به الكتاب إلى أن الفكرة التي مؤداها أن الممارسة اللسانية العربية يمكن أن تُفهم حق الفهم من خلال المبادئ اللسانية العامة لم تبدأ إلا في أوائل السبعينيات من القرن العشرين. كما يشير في المقدمة إلى أن عبارة "القرون الوسطى" التي تظهر

فى عنوان كتابه يجب ألا يفهم منها الفهم المألوف فى الدراسات الغربية التى يمكن فيها أن تشير هذه العبارة إلى غموض المنهج وتعقيده؛ ذلك أن النظرية النحوية العربية فى تلك الفترة تتشابه مع النظرية اللسانية المعاصرة فى عدد من الأمور الأساسية، وهو ما يجعل مناقشتها أسهل للقارئ الغربى المعاصر. ويشير كذلك إلى أنه يمكن البرهنة على أن أحد الأسباب التى أدت إلى عدم تقدير النظرية العربية حين اكتشفها الغربيون فى القرن التاسع عشر، وهو الزمن الذى شهد تكوُّن التقاليد الاستشراقية، أنه لم يكن فى الدراسات الأوروبية فى تلك الفترة مثيل لها. ولم توضع هذه النظرية فى منظور أفضل إلا مع التقاليد البنيوية التى أسسها دى سيسور وبلومفيلد وتشومسكى.

وعلى الرغم من هذا التشابه بين النحو العربى واللسانيات الحديثة، والنحو التوليدى خاصة، فإنه يبيِّن أن هناك أربعة فروق بين النحو العربى والنحو التوليدى فى مسألة الحذف. وهى المسألة التى جعلت كثيرا من الباحثين ينتبهون إلى وجوه التشابه بينهما. وأول هذه الفروق أن الحذف فى النحو التوليدى لا يقع إلا إذا كان للمحذوف مثيل فى النص. أما فى النحو العربى فللحذف سببان: الأول تركيبى، والثانى "ذريعى" pragmatic ، ذلك أن المحذوف يمكن أن يفهم من السياق. والفارق الثانى بين النحوين فرقٌ فى الاهتمام؛ ففى حين ينظر النحو العربى إلى الحذف على أنه محاولة للوصول إلى معرفة المحذوف، يبدأ النحو التوليدى من الجمل الكاملة ويطبق عليها قواعد الحذف ليصل إلى الشكل الظاهرى لها. والفرق الثالث أن فى النحو التوليدى قواعد محدَّدة للحذف، أما فى النحو العربى فلم تحدد تلك القواعد، بل أسندت تلك القواعد إلى المتكلم نفسه. والفرق الرابع أن النحو العربى كان ينظر إلى المعنى حين يقع الحذف، وهذا ما لا نجده فى النحو التوليدى.

ويقارن أيضًا بين النحو العربى والنحو التحويلى من حيث أوجه التشابه والاختلاف فى مسألة التحويل. ويرى عدم التشابه بين النحوين؛ لأن النحو التحويلى يسعى لتحويل جمل إلى جمل أخرى، وذلك ما لا يفعله النحو

العربى. وينتهي إلى أن من المضلِّل أن نساوى بين النحوين، على الرغم من وجود بعض التشابه.

ويدرس فى الفصل التاسع وعنوانه "التركيب، والدلالة، والذريعيّة" ما عمله النحويون والبلاغيون العرب من ربط المعنى بالشكل والعلاقة بينهما. ومن الذين اهتموا بهذه المسألة، سيبويه وأبو على الفارسي من النحويين، والجرجاني من البلاغيين. ويعود مرة أخرى فى هذا الفصل للمقارنة بين النحو التحويلي والنحو العربى في مسألة دراسة المعنى. ويرى أنه لا يوجد تشابه بين النحوين، وذلك لاختلاف الاهتمام واختلاف التحليل.

وهكذا نجد من هذه النماذج للآراء التى يظهر فيها التقدير الكبير لما عمله النحويون العرب القدماء أن هناك تشابهًا فى كثير من المنطلقات والتقنيات بين النحو العربى والنحو التوليدى خاصة. لكن لم يقل أحد من هؤلاء المؤرخين الدارسين بأخذ تشومسكي عن النحو العربى. بل الواضح من دراسة جوناثان أوين أن هناك اختلافات عميقة بين النحو العربى والنحو التوليدى، تكاد تسد باب الافتراض بأخذ النحو التوليدى عن النحو العربى.

وما دام أن تشومسكي نفسه طرف فى القضية، فيحسن أن نطلع على ما قاله عنها تحديدا. وكنت بعثت إليه برسالة أسأله فيها عما سمعته من الدكتور عبده الراجحى الذى أكد فى محاضرة عامة فى النادى الأدبى فى الرياض أَخْذ تشومسكي عن النحو العربى، وذلك أنه، فى رأى الدكتور الراجحى، درس كتاب سيبويه، واطلع على دراسات عالم اللغة الألمانى فون همبولت الذى كان يعرف النحو العربى، يزاد على ذلك تأكيد الدكتور الراجحى أن هناك باحثًا عربيًا، هو الدكتور يوسف عون، يدرِّس تشومسكي كتاب سيبويه.

وقد أجاب تشومسكي عن تساؤلاتي في رسالة مؤرخة فى ٢٨ مايو ١٩٨٩م. وكنت ترجمت هذه الرسالة ونشرتها جريدة الرياض فى حينه، وأوردها هنا لملاءمتها للسياق.

يقول تشومسكي في جزء الرسالة الذي يتعلق بهذا الموضوع:

وتسألني عن تأثير النحو العربي التقليدي على منهجي في دراسة اللغة. إن أكثر الأقوال التي سمعتها صحيحة جزئيا، إلا تلك التي تتعلق بفون همبولت الذي لم أطلع على دراساته إلا في الستينيات. فقد كان والدي من علماء النحو العبري في القرون الوسطى، وقد حقق الطبعة المعتمدة لكتاب النحو الذي ألفه [النحوي اليهودي الأندلسي] ديفيد قمحي. وكنت مطلعًا اطلاعًا جيدًا في أيام صباي المبكرة على أعمال أبي، كما أنني درست حينها شيئًا قليلاً من الدراسات التاريخية عن نحو اللغات السامية. وكان أثر النحو العربي [على النحو العبري] عظيما، وهذا أمر مشهور. وكان هذا السياق ذا أثر مباشر كبير على دراساتي المبكرة. بل إن رسالة التخرج من الجامعة [البكالوريوس] ورسالة الماجستير اللتين أنجزتهما في جامعة بنسلفانيا عن الأنظمة الصواتية الصرفية للغة العبرية الحديثة كانتا متأثرتين بتلك الدراسات إلى درجة كبيرة، كما صممتا جزئيًا من حيث النموذج على مفاهيم مأخوذة من اللسانيات السامية التاريخية والنحو التقليدي. وكانت هاتان الرسالتان أقدم النماذج للنحو التوليدي المعاصر، وإن لم تنشرا إلا بعد سنين من تاريخ إنجازهما.

ولما التحقت بجامعة بنسلفانيا سنة ١٩٤٥م بدأتُ مباشرة بدراسة اللغة العربية مع جورجيو ليفي ديللا فيدا الذي كان مستعربًا متميـزًا جـدًا، ثـم درست، بعد أن تقاعد ديللا فيدا، مع فرانز روزينتال. ومع روزينتال درست مادة اللغة العربية لفصل واحد، وكنت الطالبَ الوحيد في تلك المادة، ودرست معه فيها كتاب سيبويه، وربما كان هذا هو أساس الشائعة التي سمعتَها [أي أن تشومسكي درس كتاب سيبويه وتأثر به]. وكان زيلك هاريس، الذي درست [اللسانيات] معه، أنجز أعماله الأساسية في اللسانيات التاريخية السامية، وكنت درست ما كتبه في هذا الموضوع أيضا. إن من الصعب دائمًا

أن نتتبع بدقة مثل هذه الأمور، لكن هناك من غير شك احتمالات كبيرة لمثل هذا التأثير.

كما كتب لي رسالة مؤرخة في ١٧ ديسمبر ١٩٩٠، بعد أن بعثت إليه نسخة من ترجمتي لكتابه "اللغة ومشكلات المعرفة" ضمنها النص التالي:

على الرغم من أنني كنت في فترة مبكرة من حياتي أعرف ما يكفي من اللغة العربية أستطيع به فهم ما ينشر في جريدة أو رواية (أما دراستي الفعلية فقد كانت مقصورة على الشعر الجاهلي، والمؤلفات النحوية التي ألفت في القرن الثامن الميلادي ["القرن الثاني الهجري"؛ ربما يشير هنا إلى كتاب سيبويه])، إلا أن ذلك كان قبل أربعين سنة خلت، أما الآن فإنني لا أثق بمعرفتي [للعربية]. لكنني سوف أعير الكتاب [الترجمة] إلى أحد زملائي أو أصدقائي [لقراءته].

ويتبين بوضوح من كلام تشومسكي أن تأثره بالنحو العربي لا يتجاوز كونه احتمالا. ولو كان يعرف العربية معرفة تمكنه من فهم دقائق كتاب سيبويه لما كان من الممكن لهذه المعرفة العميقة أن تضمحل إلى الدرجة التي يذكرها. بل إن من يعرف تشومسكي وأمانته ودقته في ذكر مصادره سيستغرب من عدم إشارته إلى كتاب سيبويه تحديدا، لو كان نقل عن سيبويه شيئًا محددًا في بناء نظريته.

كما أن كلام الباحثين العرب والغربيين على السواء لم يستطع على تفصيله في بعض الأحيان تأكيد هذه الصلة المباشرة بين تشومسكي والنحو العربي.

ومع ذلك فالسؤال المشروع عن سر هذا الشبه الذي يبدو واضحًا بين النحو العربي والنظرية التوليدية ما يزال قائما، وما يزال بحاجة إلى إجابة واضحة.

وربما رأى بعض الذين يربطون بين النحو العربي والنحو التوليدي

أننا لسنا بحاجة إلى البحث عن إجابة لهــذا الــسؤال؛ إذ لا بــد أن يكــون تشومسكي قد تأثر بالنحو العربي بصورة دقيقة، لأن هذه التشابهات لا يمكن أن تأتي من فراغ، خاصة أن تشومسكي صرح بدراسته للعربية وباطلاعــه على كتاب سيبويه. فلسنا بحاجة إذن إلى البحث عن إجابة غير هذه حتى إن لم يكن لدينا أي دليل.

لكن يجب علينا، لكي يسلَّم لنا بأخذ تشومسكي عن النحو العربــي أو التأثر به تحديدا، أن نبرهن على أمرين: الأول: أن النحو العربي وحده هــو الذي تبدو فيه هذه التشابهات مع النحو التوليدي، أي أن هــذه التــشابهات لا توجد في الأنحاء الأخرى في القديم والحديث.

وهذا الافتراض ليس صحيحا، كما سنرى فيما يأتي، ذلك أن كثيرًا من الأنحاء في الحضارات الأخرى قديمها وحديثها تتضمن كثيرًا مــن الأفكــار التي يتشابه فيها النحو التوليدي مع النحو العربي.

والأمر الثاني: أنه ما دام أن هذا التشابه موجود بين الأنحاء الأخرى، غير العربية والنحو التوليدي، فيجب علينا أن نبرهن على أن تشومسكي لــم يطلع على تلك الأنحاء.

وسأحاول هنا أن أبين أن كثيرًا من الأفكار التي يشترك فيهــا النحــو العربي مع النحو التوليدي موجودة في أنحاء أخرى كذلك، وأن تلك الأنحاء كلها كانت متوفرة في المجال العلمي والثقافي الذي نشأ فيه تشومسكي، بل إن تشومسكي صرح باطلاعه على بعض تلك الأنحاء؛ وصرح بتأثره بها.

ويكفي أن نطلع على بعض الكتب التي تــؤرخ لدراســة اللغــة فــي الحضارات القديمة المختلفة لنجد أدلة كافية على الأمر الأول. وأقرب كتاب موجز لتتبع هذا التاريخ هو كتاب اللساني البريطــاني المعاصــر ر. هــــ. روبنز "موجز تاريخ علم اللغة" الذي صدرت طبعته الأخيرة فــي ١٩٩٠م، وترجمه إلى العربية الدكتور أحمد عوض، ونشر في سلسلة عالم المعرفــة الكويتية في عددها ٢٢٧ ، رجب ١٤١٨هـــ/ نوفمبر ١٩٩٧م (وسأنقل هنــا

عن هذه الترجمة، مع تحفظي عليها من حيث دقة الترجمة والأسلوب في كثير من المواضع).

والواضح من هذا الكتاب أن دراسة اللغة في أوروبا منذ عصر النهضة إلى القرن التاسع عشر، وهي القرون التي قامت عليها الأفكار الحديثة عن اللغة ودراستها في الغرب، قد تأثرت بالدراسات اللغوية التي أنجزت خارج أوروبا، ومنها النحو العربي أيضا، وإن لم يكن هذا الأثر بالمستوى الذي كان للنحو الهندي، كما يتضح من هذا الكتاب.

يقول روبنز:

والعناية باللغة وبالمشكلات اللغوية العملية قد أدت إلى نشأة العلم اللغوي، بشكل مستقل في أكثر من مركز من مراكز الحضارة، وكان لكل مركز منها مزاياه ومنجزاته. وبمرور التاريخ اتصل كل مركز منها بالتراث اللغوي الأوروبي وساهم فيه. يصعب الاعتقاد في بعض الجوانب المهمة بأن علم اللغة الأوروبي كان سيصبح في الوضع الذي هو عليه الآن، دون الأفكار التي رفدته بها الأعمال اللغوية من خارج أوروبا، خاصة مؤلفات اللغويين الهنود القدماء عن قواعد اللغة السنسكريتية ونظامها الصوتي (ص٢٣).

ويقول عن علم الصوتيات: "أما علم الصوتيات في القرن التاسع عشر الذي شهد تقدما سريعا في هذا الجانب من علم اللغة [في أوروبا]، فيدين بانبعاثه الرئيسي للتكنيك الوصفي للعلماء الهنود، ومنهجية الملاحظة في التراث الإمبريقي للقرون الثلاثة الماضية" (ص٥٦).

ويقول:

. . .ويبرز اسم بانيني بين القواعديين الهنود متفوقا عليهم جميعا، ورغم أن تاريخ بحثه غير مؤكد فإنه على نحو واضح تماما أول بحث

قواعدى موجود في أية لغة هندو ـ أوروبية، وهو حسب كلمات [اللساني الأمريكي المعاصر] بلومفيلد "معلم من أعظم معالم الذكاء الإنساني". ومع ذلك فبينما وصل تقريبا إلى الكمال في أهدافه التي أعلنها في ميدان قواعد السنسكريتية التي يتعامل معها، فهو ليس ما يطلق عليه عادة قواعد كاملة للغة السنسكريتية، وربما يجب وصفه بشكل أفضل بلغة حديثة باعتباره صرفا توليديا للغة السنسكريتية (ص٢٣٨).

ويقول عن بعض التقنيات التحليلية في النحو الهندي: "والأداة الوصفية المألوفة للغويين اليوم، وهي التمثيل الصفْري لعنصر أو فئة، ترجع لبانيني بشكل مباشر، والصيغ الشاذة ظاهريا ربما نجعلها تبدو أكثر اطرادا عند مستويات التمثيل والتحليل الأكثر تجريدا، عن طريق افتراض مرفيم يمثله تنوع مورفيمي morph صفْري، أي دون تمثيل صريح في صورة مادية صوتية. . . " (ص٢٤٣).

كما اهتمت الدراسات اللغوية التي قامت في الحضارة اليونانية القديمة بدراسة اللغة اليونانية ووصلت إلى أفكار وتحليلات تشبه ما نجده في النحو التوليدي. يقول روبنز: إن ". . . المفكرين اليونان الذين فكروا في اللغة وفي المشكلات التي تثيرها البحوث اللغوية، قد استهلوا في أوروبا الدراسات التي يمكن أن نطلق عليها الآن العلم اللغوي بمعناه الواسع، ولأن هذا العلم كان مركز اهتمام مستمر منذ اليونان القدماء وحتى العصر الحاضر في تتابع متصل للمعرفة، بحيث إن كل من عمل في هذا المجال كان على دراية بأعمال سابقيه، وكان متفاعلا معها بطريقة معينة" (ص ٣١).

ويقول: "وأفضل الأعمال التي قام بها اليونان (والرومان) كانت في ميدان القواعد [التركيب syntax]. . . إضافة لهذا فإن النظريات والمقولات والمصطلحات التي ابتدعها العلماء القدماء [اليونان والرومان] فيما يتعلق

بقواعد لغاتهم هم، قد أصبحت جزءا من الأدوات القواعدية العامـــة للغـــويين الوصفين المعاصرين" (ص٥٧).

ويقول: "وتظهر بعض التهم الموجهة ليرشيان ولعلماء القواعد اللاتين الآخرين، تشابها لافتا للنظر مع تهم تجاهل الكفاية التعليلية للنظرية لمصلحة كفاية الملاحظة للمادة المسجلة، تلك التهم التى وجهها فى الوقـــت الحاضـــر علماء القواعد [التركيب] التوليديون، ضد سابقيهم الوصفيين بشكل خـــالص والمرتبطين ببلومفيلد، وبالاتجاهات السائدة في المؤلفات اللغوية فـــي الربـــع الثاني من القرن العشرين" (ص١٣٥).

أما في عصر النهضـة، فقد بدأ التفكير العلمى فى دراسة اللغة، ووصل إلى كثير من الأفكار التى نجدها فى النحو التوليدى. وفى ذلك يقول روبنز: "ومن هذا الموقف ظهر بشكل ثابت مفهوم قواعد أساسية وعمومية [كلّيـــة]، وهو بحث متكرر منذ ذلك الوقت للغويين النظريين. . . . وقد صرح روجر بيكون الذى كتب هو نفسه قواعد لليونانية كانت من أولى القواعد التأملية. . . بأن القواعد قواعد واحدة، وهى نفسها فى كل اللغات من حيث جوهرهـــا، وأن الخلافات السطحية فيما بينها هـــي مجـــرد خلافـــات عرضـــية" (ص ١٣٦ــ١٣٧).

كما أورد روبنز كثيرًا من خصائص التنظير النحـــوى فـــي عـــصر النهضة الأوروبية وما تلاه حتى القرن الثامن عشر. وقد برز فى تلك الفترة علماء اقترحوا كثيرًا من الاقتراحات التى تشبه اقتراحات تشومسكي. ومـــن أولئك نحويو بورت رويال والفيلسوفان ليبنز وبوازييه وغيرهم كثير.

وفى القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر بـــدأ الاهتمـــام الكبيـــر بالدراسات التى أنجزها النحويون الهنود القدماء. يقول روبنز عن ذلك: "كان لدراسة الأوروبيين اللغوية للسنسكريتية أثر مزدوج، فقـــد شـــكلت مقارنـــة

السنسكريتية باللغات الأوروبية المرحلة الأولى في التطور المنهجي لعلم اللغة المقارن وعلم اللغة التاريخي، وإضافة لذلك أصبح الأوروبيون على اتصال في الكتابات السنسكريتية بتراث العلم اللغوي في الهند الذي تطور بشكل مستقل، والذي تم الاعتراف بمزاياه في الوقت نفسه، وكان تأثيره في كثير من فروع علم اللغة الأوروبي عميقا وباقيا" (ص ٢٢٦ــ٢٢٧).

ثم يعرض لكثير من المدارس التي ازدهرت في القرن التاسع عشر فيقول: "والنظرية اللغوية التي أنجزها تروبتسكوي ورفاقه من مدرسة براغ واضعين في الذهن التحليل الفنلجي [الصواتي] أساسا قد قادت إلى عدد من التطورات عظيمة الأهمية. وتحليل الوحدات اللغوية في صورة مجموعة من الملامح المميزة الذي مده ياكوبسن بالفعل إلى الصرف، قد طبقه أيضا في التحليل القواعدي عموما، وهو الآن تحليل مركزي إلى حد بعيد في القواعد التوليدية ــ التحويلية" (ص٣٢٧).

ويقول: "ومشاركة تشومسكي في دراسة تاريخ علم اللغة قد نشأ ــ من اقتناعه بأن كثيرا من مقاربته هو أساسا، عبارة عن تطور مصوغ بشكل أفضل للممارسة الأوروبية التقليدية (والمرء يمكنه أن يضيف: وللممارسة الهندية السنسكريتية)" (ص٣٦٣).

ويتبين من هذه النصوص من كتاب روبنز أن كثيرا من الأنحاء القديمة تتمثل فيها الأفكار نفسها التي نجدها في النحو العربي. كما أن هذه الأنحاء كانت متوفرة بوضوح وقوة في المجال الثقافي والعلمي الذي نشأ فيه تشومسكي. وأن تشومسكي على معرفة بها. كما يتبين من سيرة حياة تشومسكي أنه درس اللسانيات على بعض الأساتذة الذين كانوا من أبرز المتخصصين في دراسة النحو الهندي.

ومن هؤلاء هنري هوينجزفالت Henry Hoenigswalt. وكان

تشومسكي الطالب الوحيد في الفصل الذي كان يدرس فيه هوينجزفالت اللسانيات التاريخية. ويقول عنه تشومسكي: كان "عالمًا متميزًا في اللسانيات التاريخية كما كان يعرف التقاليد [النحوية] الهندية. . . وكان على معرفة بالتقاليد البنيوية الأوروبية" (روبرت بارسكي، ص ٥٤–٥٥). ويقول تشومسكي إن هوينجزفالت "قرأ [رسالة البكالوريوس التي كتبها تشومسكي عن النظام الصرفي الصوتي للغة العبرية الحديثة، وهي التي تتضمن الأفكار الأساسية للنحو التوليدي]، ولا بد أنه لاحظ التشابهات [بين هذه الرسالة والأنحاء الأخرى] وصولاً إلى التقاليد الهندية [النحوية] الكلاسيكية" (ص٥٥).

يضاف إلى ذلك أنه كان هناك كثير من اللسانيين الذين ينتمون إلى المدرسة اللسانية التي ثار عليها تشومسكي، وكانوا لا يتركون سبيلاً ممكنا إلا سلكوه في التشنيع على نموذج النحو التوليدي الذي اقترحه. وكان ممكنا لواحد منهم في الأقل، في بحثه عن أي شيء يمكن أن يتخذ وسيلة للنيل من هذا النموذج ومن صاحبه، أن يشير إلى أن هذا النحو منسوخ من النحو العربي. لكن أحدًا لم يتهمه بشيء من ذلك.

وبهذا فإن افتراض أخذ تشومسكي عن النحو العربي على وجه الحصر أو تأثره به وحده لا يمكن أن يكون مقبولا؛ إذ تشير الأدلة كلها إلى وجود أنحاء أخرى اطلع عليها تشومسكي في أثناء تكوينه العلمي، وهي تتسم بالخصائص نفسها التي يتسم بها النحو العربي.

ويجب القول هنا أن عدم ثبوت أخذ تشومسكي عن النحو العربي مباشرة ليس عيبًا لهذا النحو؛ فالنحو العربي ينتمي إلى الأنحاء التقليدية التي لاحظت كلها بعض الخصائص الجوهرية لبنية اللغة.

وكثيرًا ما نجد تشومسكي يؤكد الصلة القوية بين النحو التوليدي والأنحاء التقليدية، من غير أن يحدد نحوًا بعينه، وإن أشار إلى بانيني

للنحوى الهندى القديم بكثير من التقدير، وإلى بعض النحويين التقليديين المعاصرين كالنحوى الدينماركى جسبرسن، الذى يشير إليه فى كثير من أبحاثه. وكان تشومسكى يحاول دائمًا أن يبين أوجه التشابه بين نظريته وهذه الأنحاء فى مواجهته المبكرة مع النظرية الوصفية التوزيعية التى سادت فى أمريكا بخاصة من الثلاثينيات إلى الخمسينيات من القرن العشرين.

ومن الطرائف التى تتصل بهذا الأمر أنه عقد مؤتمر للسانيات فى مدينة أوستن فى ولاية تكساس سنة ١٩٥٩م، وقد دعا منظمو هذا المؤتمر، وهم الذين كانوا القادة البارزين فى حقل اللسانيات فى تلك الفترة، تشومسكى لمناظرته فى آرائه اللسانية الجديدة. وكان الهدف من دعوته إلى ذلك المؤتمر، كما يقول، القضاءَ على النحو التوليدى فى مهده. وكان من بين المدعوين نحوى تقليدى وضعه منظمو المؤتمر فى صف تشومسكى لكى يجعلوا من هذا النحوى أضحوكة بعد أن يقضوا على تشومسكى. لكن تشومسكى بدأ فى الدفاع عن هذا النحوى لسببين كما يقول: "الأول أنه لم يرُق لى ما كان يجرى [من الاستهتار بهذا النحوي]، والثانى أن هناك فى الواقع أشياء كثيرة مشتركة بين النحو التوليدى والنحو التقليدى". وكانت النتيجة انتصار تشومسكى فى أعقاب تلك المناظرة على اللسانيين الوصفيين انتصارًا ساحقًا جعل بعض البارزين منهم يحوِّل ولاءه إلى النحو التوليدى مباشرة (بارسكى، ص ٩١ــ٩٣).

ومن النصوص المهمة التى كتبها تشومسكى عن العلاقة بين النحو التوليدى والأنحاء التقليدية ما جاء فى كتابه: "القضايا الراهنة فى النظرية اللسانية" ١٩٦٤:

ليس بعيدًا عن الصواب أن ننظر إلى النموذج التحويلى على أنه صياغة شكلية منضبطة للخصائص الموجودة بشكل ضمنى فى الأنحاء التقليدية، وأن ننظر إلى تلك الأنحاء على أنها أنحاء توليدية تحويلية ضمنيا؛ ذلك أن هدف الأنحاء التقليدية أن توفر لمستعملها القدرةَ على فهم أى جملة

من جمل اللغة، وأن يصوغها ويستعملها بشكل ملائم فى المقام الملائم. ولهذا فهدفها (فى الأقل) يماثل فى اتساعه وبُعده أهداف النحـو التوليـدى، الـذى وصفتُه آنفا. يضاف إلى ذلك أن الآليات الوصفية للنحو التقليدى تفوق بكثير الحدود التى تقيد النموذج النحوى التصنيفى [السابق لتشومسكي]، لكن هـذه الآليات يمكن صياغتها بشكل كبير، أو ربما بشكل كامل في إطار النمـوذج التحويلى. ومع ذلك فمن المهم أن نعى أنه حتى أدق الأنحاء التقليدية وأكملها إنما تعتمد بشكل أساسى على حدس مستعملها ونكائه، وهو الذى يُنتظر منه أن يَستنتج المقتضيات الصحيحة من الأمثلة والإيحاءات الكثيـرة (والقـوائم الواضحة للشواذ) التى يقدمها النحو. فإذا صيغ النحو صياغة جيـدة فـيمكن لمستعمله عندئذ أن ينجح فى استعماله، لكن الاطرادات العميقة للغـة التـى يمكن له اكتشافها تستعصى على الصياغة المنضبطة، كما أن طبيعة القدرات التى مكنته من استخدام النحو واكتشاف تلك الاطرادات ستظل أمرا محيـرا. ويمكن أن تقدر مدى اتساع هذه الفجوات إذا ما حاولنا أن نـصوغ قواعـد واضحة لكامل الحقائق البنيوية المتاحـة للمـستعمل الناضـج للغـة (ص ١٦ــ١٧).

ويُعدُّ اتفاقُ النحو العربى مع الأنحاء التقليديـة الأخـرى التـى رأى تشومسكي أنها تفوق الدراسات اللسانية الوصفية التوزيعية التصنيفية التـى كانت سائدة فى أمريكا بخاصة فى النصف الأول من القرن العـشرين أبلـغ إشارة إلى أن النحو العربى، خاصة فى صورته التى يمثلها كتاب سيبويه، قد بلغ حدًّا بعيدًا من العمق فى البحث عن الأسس العميقة للمعرفة اللغوية التـى يختزنها المتكلم فى عقله عن لغته. وما القول بالعامل وتقدير الأصول لبعض الكلمات والبنى المجردة لبعض الجمل إلا إشارة إلى ذلك العمق.

ومحصلة القول أن تشومسكي لم يتأثر بالنحو العربى على وجه اليقين، وأن التشابه بين نظريته التوليدية والنحو العربى إنما جـاءت مـن اهتمـام

الأنحاء التقليدية كلها، ومنها النحو العربي، ببعض القضايا الجوهرية في بنية اللغة، وهي التي جاء تشومسكي ليصوغها صياغة نظرية حديثة منضبطة.

وكما بينت فقد بنى تشومسكي نحوه التوليدي على أفكار استقاها من مصادر متعددة، كالأنحاء التي كانت تسمى بالأنحاء الفلسفية التي ظهرت في القرنين السابع عشر والثامن عشر، وبعض الأنحاء التقليدية الأخرى، ومن أعمال بعض الفلاسفة واللغويين الأوروبيين وبالأخص ديكارت وهمبولت وهيوم.

كما بنى النظرية التي ارتبطت باسمه على منجزات العلوم التي جدّت في أواسط القرن العشرين، وهي التي ساعدته في صياغة كثير من الأفكار التي استقاها من تلك المصادر القديمة صياغة نظرية متماسكة جديدة.

وسأعرض هنا ما يقوله تشومسكي نفسُه عن مصادر المعرفة التي انطلق منها ومثلت الأسس التي قامت عليها نظرية النحو التوليدي التي ارتبطت باسمه.

فيبين في عدد من كتبه ومقالاته الأسسَ العلمية التي انطلق منها. ومن أقدم الأمثلة على هذا ما نجده في كتابه ("القضايا الراهنة في النظرية اللسانية" Current Issues in Linguistic Theory، ١٩٦٤م، ص ٧ــ٢٧). فهو يقول (وهي ترجمتي): "يعبِّر النموذج التحويلي على الوجه الذي وصفته آنفاً عن وجهة نظر في بنية اللغة ليست جديدة أبداً" (ص١٥). ثم يبين تماثل هذا النموذج في بعض الخصائص المهمة مع النحو الذي يسمى "نحو بورت رويال" كما يظهر في كتاب "النحو العام والتعليل" Grammaire générale et raisonne، الذي نشر سنة ١٦٦٠م. ثم يورد بعض الأفكار الأساسية التي اقترحها اللغوي الألماني فون همبولت عن طبيعة اللغة وبنيتها واكتسابها، ويورد النصوص التي تمثل تلك الأفكار بلغتها الألمانية (ص ١٧ــ٢٢).

وعرض لتلك الأسس مرة أخرى بشكل موسع في كتابه "اللسانيات الديكارتية: فصل في تاريخ الفكر العقلاني"، ١٩٦٦م.

كما أشار إلى تأثير ديكارت وهمبولت وديفيد هيوم في مواضع متعددة من كتابه "اللغة والمسئولية"، ١٩٧٩م language and Responsibility ، وفي مقال له بعنوان "طبيعة اللغة واستخدامها واكتسابها" (نشر في كتاب "ثلاثون سنة من تطور اللسانيات"، Martin Putz (ed.): Thirty Years of Linguistic Evolution، ١٩٩٢، ص ٣-٢٩).

وكذلك في الكتاب الذي ألفه ديفد بارسكي عن سيرة تشومسكي. يقول بارسكي (ص١١١): "يشير تشومسكي في نقاشه للبنى العميقة والبنى السطحية في كتابه "اللسانيات الديكارتية" إلى قيمة النظرية الكلية أو الفلسفية لدراسة النحو التوليدي التحويلي. وهو يقوم بذلك مشيرًا إلى النحو والمنطق كليهما كما وُصفا في نحو جماعة بورت رويال Grammaire générale et raisonnee, 1660 ، فهو يقول [أي تشومسكي]:

تهتم هذه النظرية على وجه التأكيد بالقواعد التي تحدد البنى العميقة وتصلها بالبنى السطحية، وكذلك بقواعد التمثيل الدلالي التي تعمل على البنية العميقة وقواعد التمثيل الصواتي التي تعمل على البنى السطحية. وبكلمات أخرى، فليست هذه النظرية إلا تطويرًا وصياغة شكلية للأفكار الموجودة بشكل ضمني [في النحو الديكارتي]. . . . لذلك يبدو لي، من أوجه عديدة، أنه لا يبعد عن الصواب أن نعد نظرية النحو التحويلي التوليدي، بشكلها الذي تطورت به في الدراسة المعاصرة، وجهًا معاصرًا وأكثر جلاء للنظرية التي يتضمنها نحو بورت رويال.

وسألخص فيما يلي وجهة نظر تشومسكي عن هذا الموضوع كما وردت أخيرًا في الكتاب الذي حررته آسا كاشير: Asa Kasher (ed.): The Chomskyan Turn, 1991 ، "المنعطف التشومسكي". وهو كتاب يحوي

الأبحاث التي ألقيت في مؤتمر عقد في القدس سنة ١٩٨٨ لتكريمه. ويتضمن الكتاب بحثين ألقاهما تشومسكي في ذلك المؤتمر. ويهمنا هنا البحث الأول الذي جاء بعنوان Linguistics and Adjacent Fields: A Personal View "اللسانيات والعلوم المجاورة: وجهة نظر شخصية" (ص ٣-٢٥)، ويعرض فيه الأسسَ الفلسفية العميقة التي يقوم عليها النحو التحويلي والمنطلقات التاريخية التي سبقته إلى تلك الأسس التي يؤكد استفادته منها.

فيشير في نص سبق أن أوردته في هذه السلسلة إلى بعض العلماء السابقين ويخص النحوي الهندي القديم، بانيني واللغوي الألماني وليم فون همبولت. وهو ما يدل على المكانة التي يحلهما فيها.

ويؤكد (ص٤) أن ". . . دراسة النحو التوليدي تطورت ضمن ما أسماه بعض الباحثين بـ "الثورة المعرفية" التي حدثت في الخمسينيات [من القرن العشرين]، وكانت عاملاً مهمًا في إحداث هذا التغير في المنظور فيما يخص الطبيعة الإنسانية والسلوك الإنساني". أما هذه "الثورة المعرفية" فعلى الرغم "من أنها كانت مجهولة في تلك الفترة [الخمسينيات] ولا تفهم في الوقت الحاضر إلا فهمًا محدودا، فإنها لم تكن أكثر من عودة إلى الاهتمامات القديمة ومحاولة إحياء المفاهيم السابقة التي نُسيت، ووضْعها في منظور جديد أحيانا".

ومن المفاهيم المكوِّنة للثورة المعرفية المعاصرة التي ساعدت على إحياء المفاهيم القديمة، يخص تشومسكي ". . . نظريات التمثيل والحوسبة للدماغ، واختبار تيرنج [نسبة إلى عالم الرياضيات البريطاني المعاصر آلين تيرنج] عن الذكاء الإنساني، وقضية الشروط الفطرية الخاصة بنمو المعرفة والفهم، وبعض الفتوح الأساسية في علم النفس الجشتالي [الكلّي]، وغير ذلك كثير" (ص٤). و"كانت هذه الأفكار قد طورت وبُحثت بطريقة مفصلة وعميقة ضمن ما يمكن أن نسميه بـ "الثورة المعرفية الأولى"، في القرنين السابع عشر والثامن عشر"(ص٤).

ويقول:

فإذا كان التاريخ الفكرى يتصف بالخطِّية والاستمرارية والتراكمية، بدلاً من سجله الحقيقى الذى يتسم بالقفزات المتهورة والبدايات الخاطئة والتقهقر المألوف، فيمكننا أن نقول إن الثورة المعرفية التى حدثت فى الخمسينيات، ومن ضمنها ظهور النحو التوليدى، إنما تمثل نوعًا من تلاقى أفكار الثورة المعرفية الأولى وفتوحها بالفهم التقنى الجديد عن طبيعة الحوسبة والأنظمة الصورية التى طُورت على وجه العموم فى هذا القرن، وهو ما مكّن من صياغة بعض القضايا القديمة، التى كانت تتسم بقدر من الغموض، بطريقة أكثر جلاء، وهو ما جعل من الممكن إخضاعها للبحث الغنى المنتج فى بعض المجالات فى الأقل، وكانت اللغة واحدة منها (ص ٤ـ٥).

ثم يذكر بعض القضايا الأساسية فى دراسة اللغة، ويلخصها فى الأسئلة التالية:

١ـ مم تتكون معرفة اللغة؟

٢ـ ما الكيفية التى تُكتسب بها هذه المعرفة؟

٣ـ كيف تستعمل هذه المعرفة؟

ويقول بعد ذلك:

كانت هذه القضايا، وإن بشكل أوّلى، منطلقا لنقاش حتى فى بداية الخمسينيات، ولم يشارك فى ذلك النقاش بشكل رئيسى إلا عدد قليل من طلاب الدراسات العليا. ويمكن لى أن أذكر من هؤلاء على وجه الخصوص، فى مدينة كمبردج [فى ولاية ماساتشوستس الأمريكية]، إيريك لينبرج وموريس هالى، وكذلك يهوشوا بارهليل، الذى لم يُعط ما يستحقه من تقدير كفاء مشاركته البناءة ونقده المتعاطف [لهذا المنحى الجديد من البحث اللسانى]. وفيما كنا نقارب هذه القضايا من منطلقات وخلفيات مختلفة، فقد

كان يجمعنا شك مشترك في الجو العلمي المهيمن، كما كان يجمعنا منظـــور مشترك وحمس متنام بأن مناحي التفكير التي نحاولها، وهي المنـــاحي التـــي ترتبط بطرق معقدة ببعض التطورات الأخرى في تلك الفترة، كانت تسير في مسار صحيح (ص٦).

ويقول: "إن لكل واحد من هذه الأسئلة التي تؤطر هذا المنحـــى مـــن البحث طعمًا كلاسيكيًا وسوابق قديمة، شأنها شأن "الثورة المعرفية" عمومـــا" (ص٦). ثم يربط بين السؤال الأول وفون همبولت، ويسميه "مشكلة همبولت؛ وبين السؤال الثاني وديكارت وهيوم، ويسميه "مشكلة أفلاطون"؛ ويربط بين السؤال الثالث وديكارت، ويسميه "مشكلة ديكارت".

كما يربط بين النحو التوليدي والنحو التقليدي بالصورة التي رأيناهـــا فيما سبق.

ويشير إلى الصلة بين "الصواتة التوليديـــة" واللســـانيات التاريخيـــة، وبالأخص اللسانيات التاريخية السامية، على الوجه التالي:

أما الفكرة المتمثلة في النظر إلى اللغة على أنها نظام من القواعد مـــن هذا النوع [الذي اقترحه في التركيب]، فقد دُعمت بالممارسة التي تقوم عليها الصواتة التوليدية، وهي التي طُورت ـــ أو بصورة أكثر تحديدا، أُحييـــت ـــ قبل ذلك بسنوات قليلة، تأسيسًا على أنظمة من القواعد تكاد تكون مـــن هـــذا النوع على وجه التحديد. ولم يكن الدافع لذلك في هذا المنحى إلا اللـــسانيات التاريخية ـــ وبخاصة اللسانيات التاريخية السامية ـــ التي تقدم فكـــرة لـــــ "التفسير" لا توجد في التقاليد اللسانية البنيوية [التي سبقت تشومـــسكي، فـــي أمريكا على الأخص]. وكانت أبحاثي فـــي هـــذا الموضـــوع فـــي أواخـــر الأربعينيات تقوم بشكل صريح على هذا النموذج، وذلك بنقل فكرة التفـــسير والقواعد المرتّبة [التي كانت تقترح تفسيرا للتطور التعاقبي للغة] إلى الإطار

التزامني؛ وقد اقترح يهوشوا بارهليل تحسينًا شاملاً على هذا العمل، كما اقترح ـ بصورة صحيحة كما تبين فيما بعد ـ أنه يمكن أن تحسن هذه النظرية بصورة عميقة إذا ما أخذنا الصيغ المرسّسة تاريخيا [الصيغ التي يُقترح وجودها في طور أقدم للغة] على أنها هي الصيغ التي يقوم عليها النحو التزامني (ص ٢٠ـ٢١).

ويمكن أن نلحظ هنا أن استفادته من الدراسات اللسانية التاريخية السامية لا تعني استفادته من النحو العبري أو العربي، وإنما تعني استفادته من الدراسات السامية التاريخية التي نضجت في القرن التاسع عشر والقرن العشرين بتأثير الدراسات التاريخية التي أشار إليها روبنز في كتابه سابق الذكر.

ومما يلفت النظر أن تشومسكي لم يتكلم عن تأثره بالنحو العبري، على وجه الخصوص، على الرغم من معرفته بهذا النحو نتيجة لمعرفته بأعمال أبيه في هذا المجال. ولو ذكر تشومسكي أنه تأثر بالنحو العبري لكان ذلك مدخلاً للقول بأنه تأثر بالنحو العربي بصورة غير مباشرة. ذلك أن النحو العبري أسس، استشهادًا بالحقائق التاريخية المعروفة وبكلام تشومسكي نفسه، على النحو العربي. لكن عدم إشارته إلى النحو العبري يشير إلى أن هذا النحو، والنحو العربي تبعا لذلك، لا يختصان بشيء لا يوجد في الأنحاء التقليدية الأخرى. كما أن عدم إشارته إلى النحو العبري يدل على صدق كلامه عن عدم تأثره بالنحو العربي تحديدا؛ إذ إنه لو لم يكن موضوعيًا وصادقًا وأراد أن يعلي من شأن أي نحو، بسبب تشابهه مع النحو التوليدي، فالمتوقع منه أن يشير إلى النحو العبري.

ومن الأمور الجديرة بالذكر هنا أن هناك من يزعم بأن تشومسكي تأثر بتنظيرات بعض اللسانيين الذين سبقوه في القرن العشرين. ويشار هنا إلى عملين اثنين تحديدًا يُزعم أنهما يتشابهان مع نظرية النحو التوليدي. وهما

مقـــال اللـــساني الأمريكـــي المعاصــــر ليونـــارد بلومفيلـــد Menomini morphophonemics "النظام الصوتي الصرفي للغة المينـــومني" (إحـــدى اللغات التي تتكلمها بعض قبائل الأمريكية الأصلية) التي نشرت فـــي ســـنة ١٩٣٩م، أي قبل عشر سنوات من إنجاز تشومسكي رســـالته للبكـــالوريوس التـــي تـــضمنت البـــذور الأولـــى للنظريـــة التوليديـــة، ومقـــال رومـــان ياكوبسن Russian Conjugation "تصريف اللغة الروسية"، الذي نـــشر ســـنة ١٩٤٨م.

كما يشار كذلك إلـــى كتـــاب زيلـــك هـــاريس، أســـتاذ تشومـــسكي، Methods in Structural Linguistics "مناهج اللسانيات البنيوية"، الذي قـــرأه تشومسكي مخطوطاً سنة ١٩٤٧م، ونشر ١٩٥١م.

وقد تولى اللســـاني الأمريكي فريدريك نيوماير، الـــذي يمكـــن عـــدّه مؤرخَ المدرسة التوليدية، إيضاحَ عدم صلة هذه الأعمـــال الثلاثـــة بعمـــل تشومسكي. وهو ما يعني أن تشومسكي لم يتأثر بها فـــي وضـــع نظريتـــه. وعالج نيوماير هـــذا الأمـــر فـــي كتابـــه Linguistic Theory In America "النظريـــة اللـــسانية فـــي أمريكـــا"، ١٩٨٠م؛ وفـــي كتابـــه الآخـــر Generative Linguistics: A Historical Perspective "اللسانيات التوليديـــة: منظور تاريخي"، ١٩٩٦م.

ويلخص رأي نومابر في هذه القضية قولُه، بعد إيراد عدد من الأدلـــة (١٩٩٦: ص ١١): ". . . ليس هناك دليل ألبتة على أنه كان [لمقالي بلومفيلد وياكبسون] أي دور في بلورة لأفكار تشومسكي".

أما تأثير هاريس فتمثل، لا في بناء تشومسكي بصورة مباشرة علـــى آراء أستاذه، بل في استفادته من بعض آراء أستاذه وتطويرها بشكل مختلف (نيومابر ١٩٩٦: ص ١٤ــ١٦).

كما أشار نيوماير إلى أثر ". . . الأبحاث في أسس المنطق وفلسفة العلوم"، في الأربعينيات على فكر تشومسكي (نيومـاير ١٩٩٦: ص١٥). فيقول (ص١٥): "أعتقد أن تشومسكي [في رسالته للبكالوريوس] كان أول من أشار إلى أنه يمكن عقد الصلة بين الإجراءات التي كان يتبعها اللسانيون الوصفيون الأمريكيون وبين برنامج [الفيلسوف كارنـاب] فـي كتابه Der Logische Aufbau der Welt المنشور في سنة ١٩٢٨م، وهو البرنامج الذي يحاول أن يبني، بسلسلة من التعريفات، مفاهيمَ النوعية، والأحاسيس، وغير ذلك، بأخذها مباشرة من التجربة [الواقع الحسي]. وجاء التأثير الآخر من [الفيلسوف الأمريكي] نيلسون جولدمان [الذي كان أستاذاً لتشومسكي في جامعة بنسلفانيا] الذي تأثر تشومسكي تأثرًا صريحًا بكتاباته عن الأناقة بوصفها خصيصة من خصائص صياغة القوانين العلمية، بل وصل به الأمر إلى الاحتجاج بها [أناقة القوانين العلمية] في تسويغ القواعد المرتَّبة في النحو (جولدمان ١٩٥١). كما أن صياغة تشومسكي لقواعد بنية المركَّبات في رسالته للبكالوريوس(والمصطلحات التي رافقت تلك الصياغة) لا يمكن الشك بأنها متأثرة بكتاب كارنـاب The Logical Syntax of Language "التركيب المنطقي للغة"، المنشور ١٩٣٧م (نيوماير ١٩٩٦: ص ١٥).

ويمكن أن نخلص مما تقدم أن تشومسكي في صياغته لنظرية النحو التوليدي كان ينطلق من مصادر كثيرة، بعضها قديم وبعضها حديث؛ بعضها من النحو، وبعضها من العلوم المتعددة التي اطلع عليها. لهذا فـالقول بأنـه اعتمد على النحو العربي إنما يعني إلغاء تلك المصادر المتعددة كلها.

ويبقى أن نلحظ أن الأمر لا يتوقف على المصادر التي استفاد منهـا تشومسكي؛ بل يتوقف على عبقريته التي مكّنته من استغلال تلك المصادر على الوجه الأمثل لكي يأتي بشيء جديد يعرف به.

وهناك بعض الملحوظات التي لا بد لي من إبدائها هنا. ومنها أن كثيرًا

من العرب المعاصرين يكادون يحفظون كتاب سيبويه، إن لم يكونوا يحفظونه فعلا، إلا أنهم لم يستطيعوا حتى اكتشاف الصلة بين النحو العربي والنحو التوليدي، بشكل واضح. وكان من المنتظر أن يهبّ هؤلاء ليبينوا بالتفصيل تلك الصلة بشكل لا لبس فيه.

والملحظ الآخر أن كثيرًا من العرب المعاصرين، على الرغم من الادعاء بأن تشومسكي كان متأثرًا بسيبويه، فإنهم يتهمون من يتخصص في اللسانيات بأنه تابع للغرب، وعدو للنحو العربي. وكان المنتظر من هؤلاء ألا يقفوا هذا الموقف؛ إذ كان من الواجب عليهم أن يكونوا أولَ المبادرين إلى الاطلاع على النحو العربي بثوبه الجديد!

والملحظ الأخير أن وصول تشومسكي لنظرية النحو التوليدي إنما هو ثمرة للتقدم العلمي الكبير في مجالات متعددة في هذا العصر. وقد بيّن تشومسكي نفسه أن لكثير من الأفكار التي تقوم عليها هذه النظرية ما يشبهها في فترات متقدمة؛ لكن الصياغة العلمية المنضبطة لهذه الأفكار لم تصبح ممكنة إلا في هذا العصر. ويصدق هذا على كثير من الأفكار التي نجدها في الآثار اللغوية العربية القديمة. لهذا فالمنتظر منا الآن ألا نكتفي بترديد ما كان يقوله الأولون؛ بل علينا – مع الاعتراف بمكانة الأوائل وسابقتهم – أن ننظر في تلك الأفكار من جديد مستفيدين من الإنجازات العلمية في المجالات المختلفة التي تحققت في هذا العصر؛ لنصل إلى صياغات أكثر علمية وانضباطًا لتلك الأفكار.

ويلحظ القارئ الكريم أني لم أتحدث عن تشومسكي كثيرًا؛ إذ كان اهتمامي منصبًا على مناقشة القضية التي تثار دائمًا من غير أن تتلقى فحصًا جديًا، وهي القول بأخذ تشومسكي أفكاره مباشرة من النحو العربي.

وهناك قضايا في اللسانيات التوليدية، وفي فكر تشومسكي الاجتماعي والسياسي تستحق أن تناقش.

ولم يُترجم مما كتبه تشومسكي في اللسانيات إلى اللغـــة العربيـــة إلا القليل. ومن كتبه التي تُرجمت كتابه الأول "البنى التركيبية"، وترجمه الدكتور يوئيل يوسف عزيز، بعنوان "البنى النحوية"، الدار البيضاء: النجاح الجديدة، ١٩٨٧م). وكتابه الـــشهير الأخـــر The Aspects of the theory of Syntax, 1965، ترجمة الدكتور مرتضى جواد باقر، بعنوان "جوانب مـــن نظريـــة النحو"، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، جامعـــة البـــصرة، ١٩٨٥. و Language and the Problems of Knwoledge, 1988 ، وقد ترجمته بعنوان "اللغة ومشكلات المعرفة"، ونُشرت الترجمة في دار توبقـــال للنـــشر، ســـنة ١٩٩٠م. وكتابه الذي يحيل إليه كثيرًا في هـــذا الكتـــاب: Knowledge of Language, 1986، الذي ترجمه الدكتور محمد فتيح ـــ رحمه الله ، بعنوان: المعرفة اللغوية: طبيعتها وأصولها واستخدامها. القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٩٣م. وترجمه مرة أخرى الدكتور محيي الدين حميدي بعنوان "معرفـــة اللغة"، الرياض: دار الزهراء للنشر والتوزيع، ١٤٢٣هـــ/٢٠٠٢م، وهـــي ترجمة سيئة تبلغ حدًا بعيدًا من العبث .

أما أعماله السياسية فتُرجم منها عدد لا بأس به؛ ومنها بعض مقالاتـــه ومحاضراته التي تُرجمتها ونُشرتْ ضمن كتاب "العولمة والإرهاب: حـــرب أمريكا على العالم"، القاهرة: مكتبة مدبولي، ٢٠٠٣م. ويكفي أن تضع اســـم تشومسكي على أي محرك للبحث في الإنترنت لتجد عددًا كبيرًا من الروابط التي يظهر فيها اهتمام الثقافة العربية بما يقوله عـــن الـــسياسة الأمريكيـــة والإسرائيلية خاصة.

أما ما يخص الكتاب الذي أترجمه هنا فأود أن أبدي بعض الملحوظات العجلى. وأشير بداية إلى استخدامي مصطلح "ذهن" بدلاً من "عقـــل" الـــذي يمكن أن يوحي به المصطلح الإنجليزي. وكنت قـــد اســـتخدمت المـــصطلح الأخير في البداية؛ لكن بعض الزملاء أشار بأنه ينبغي التمييز بوضوح بـــين

مصطلح "عقل" الذي يعني في اللغة العربية أمورًا تتعلق بالحكمة والمعرفة الأخلاقية الناجزة، وبين ما يتحدث عنه تشومسكي في هذا الكتاب من أنظمة معرفية مختلفة ناشئة عن الدماغ لكنها لا تتعلق بالحكمة والمعرفة الأخلاقية الناجزة، بل تتعلق بكيفية عمل الدماغ في أثناء تعامله مع العالَم الخارجي. يضاف إلى هذا أن الفلاسفة العرب والمسلمين القدماء أشاروا إلى الذهن واحتوائه على صور الموجودات في الأعيان، أي في العالم الخارجي.

ويتصل ثاني الملحوظات بمحتوى الكتاب. فيشهد النقاش في الكتاب بعمق المسائل المناقشة وبغزارة التنظيرات الفلسفية الغربية المعاصرة عن كثير من القضايا التي تتعلق بالذهن والشعور واللغة، وغير ذلك. ومما يؤدي إلى شيء من الصعوبة في فهم ما يتضمنه هذا الكتاب أن تشومسكي لا يورد بالتفصيل مواضع التنازع بين النظريات الفلسفية المختلفة؛ بل يشير إليها مفترضًا اطلاع القارئ بصورة ما على ذلك النقاش الغني. لذلك لا بد من التروي في قراءة الترجمة والاستئناس بما قد يوجد من كتب باللغة العربية عن هذه القضايا، أو محاولة الرجوع إلى المراجع التي يذكرها تشومسكي في ثنايا النقاش، وأكثرها باللغة الإنجليزية. ومن الكتب التي يمكن الاستئناس بها كتاب الدكتور محمد غاليم: المعنى والتلقي: مبادئ لتأصيل البحث الدلالي العربي. (سلسلة أبحاث وأطروحات) الرباط: معهد الدراسات والأبحاث والتعريب، ١٩٩٩م. وكتاب الدكتور حسن عجمي: مقام المعرفة: فلسفة العقل والمعنى. بيروت: دار كتابات، ٢٠٠٤م. وقد حاولت أن أضيف بعض الهوامش التي تبين بعض تلك القضايا أو المصطلحات، لكن الوفاء بها جميعًا يكاد يكون متعذرًا؛ إذ سينشأ عن ذلك تطويل الكتاب وإغراقه بالتفاصيل.

وقد أوردت في نهاية الترجمة مسردًا بالمصطلحات المهمة التي وردت في الكتاب، راجيًا أن تكون عونًا على قراءته بصورة جيدة. ويحسن بالقارئ

من أجل الاطلاع على ما تدل عليه المصطلحات اللسانية في الكتاب الرجوع إلى كتب الدكتور عبد القادر الفاسي الفهري، خاصة كتابيه "اللسانيات واللغة العربية"، ١٩٨٦، و"البناء الموازي"، ١٩٩٠م، وكتاب تشومسكي "اللغة ومشكلات المعرفة"، ترجمة حمزة المزيني، الدار البيضاء: دار توبقال، ١٩٩٠م، و"الغريزة اللغوية: كيف يبدع العقل اللغة". تأليف ستيفن بنكر، ترجمة حمزة المزيني، الرياض: دار المريخ ٢٠٠٠م ، وكذلك معجم المطلحات اللغوية، تأليف رمزي منير بعلبكي، بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٩٠م.

وفي الختام أود أن أزجي جزيل الشكر للأستاذ الدكتور نعوم تشومسكي على تشجيعه لي على ترجمة هذا الكتاب إلى العربية؛ فقد أبدى سروره وترحيبه بهذا المشروع وعبر عن تمنياته الطيبة لي بإكماله.

كما أود أن أتوجه بشكر خاص للزملاء الذين تفضلوا بقراءة ترجمتي وأمدوني بملحوظاتهم التي أسهمت في تجنب كثير من مواقع الزلل. وأشير هنا إلى الزملاء الأستاذ الدكتور محمود نحلة في جامعة الإسكندرية، والأستاذ الدكتور محمد غاليم في جامعة محمد الخامس، والأستاذ الدكتور أبي يعرب المرزوقي، من الجامعة الإسلامية في ماليزيا، والأستاذ الدكتور محيي الدين محسب، من جامعة الملك سعود، والأستاذ الدكتور عصام عبد الله أستاذ الفلسفة في جامعة عين شمس، والزميل الدكتور نادر كاظم من جامعة البحرين، والأستاذ معيوف المعيوف طالب الدراسات العليا في قسم اللغة العربية الذي قرأ مشكورًا معظم فصول الكتاب في إحدى صورها الأولى. ويجب أن أقول إن الصيغة النهائية التي تظهر بها الترجمة هنا من حيث اللغة والأسلوب والمضمون مسئوليتي وحدي.

وأود أن أعبر عن شكري الخاص للمجلس الأعلى للثقافة في مصر ممثلاً في أمينه العام الأستاذ الدكتور جابر عصفور الذي أبدى حماسته لهذا المشروع ووافق على نشر هذه الترجمة.

ويسرني هنا أن أعبر عن شكري الخاص لأسرتي الصغيرة التي كان دعمها خيرَ عون لي في مكابدة إنجاز هذا المشروع، وأنا سعيد بأن أهـــدي لهذه الأسرة النموذجية هذا العمل.

الرياض
١٤٢٥/٩/١٠هـــ
٢٠٠٤/١٠/٢٣م

تمهيد

نيل سميث

يتبوأ تشومسكي مكانة فريدة في المشهد الفكري العالمي. فقد كان القائد الأبرز لـ "الثورة المعرفية"[١] في الخمسينيات والستينيات [من القرن العشرين]، وقد هيمن على حقل اللسانيات[٢] منذ ذلك الحين. وظلت نظريته عن النحو التوليدي، في عدد من الأشكال التي اتخذتها، الهادي والملهم لكثير من اللسانيين في العالم أجمع ومعيارًا للمقارنة عندهم جميعًا تقريبا. وربما لا تتفق مع مشروع تشومسكي، لكنّ تجاهله سيكون قصورًا في النظر وموقفًا غير علمي في آن.

وقد تخرّج تشومسكي في جامعة بنسلفانيا سنة ١٩٤٩م، حيث كتب أطروحته للتخرج عن اللغة العبرية الحديثة، ثم عدّلها ووسّعها بعد ذلك لتكون رسالته للماجستير. ومع أنها لم تتضمن إلا بذورًا متواضعة [لنظريته اللسانية التي طوّرها فيما بعد] فإنها كانت نقطة البداية للنحو التوليدي المعاصر. وقد تنامت القضايا التي تناولها حينذاك لتحدِّد ميدانًا لبحثٍ ما يزال يُسهِم فيه بعد خمسين سنة، وهو في جزء كبير منه نتاجٌ لعبقريته. ومع هذا لم تستغرق هذه الملحمة الفكرية إلا شطرَ وقته. أما الشطر الآخر فقد محّضه للنشاط السياسي، حيث يشتغل بفضح أكاذيب الحكومة [الأمريكية] والخطط الخفية للمؤسسات المالية والعسكرية الكبرى. وأدى به هذا إلى الاشتغال بإلقاء ما يبدو كأنه سلسلة لا نهاية لها من المحاضرات حول العالم، نتج عنها أكثرُ من خمسين كتابًا، ومئات المقالات وآلاف الرسائل. وربما لا يوجد رابط قوي بين هذين النوعين من نشاطه، لكنّ شهرته وجزءًا من تأثيره كانا الحاصل المشترك لهما. (والإنتاج [العلمي والفكري] لتشومسكي غزير جدًا؛ للاطلاع على نظرة عامة حديثة ومناقشة لكمٍّ ممثِّل من عمله، انظر Smith 1999)[٣].

وكان لعمله التأسيسي عن اللغة نتائجُ بعيدة المدى، لا على اللسانيات

وحدَها بل على عدد من التخصصات الأخرى كذلك، ومن أبرزها الفلسفة وعلم النفس. ويولي هذا الكتابُ الذي يضمُ عددًا من مقالاته عناية خاصة بهذا المنحى الثالث من فكره، ويتناول بشكل خاص بعضَ القضايا الميتافيزيقية "الغيبية" التي أثارتْها أبحاثه، ويسعى إلى إيضاح بعض أنواع اللغط والتحيزات التي ابتُليت بها دراسة فلسفة اللغة. ويُقدِّم بعمله هذا حلولاً جديدة لبعض المشكلات التقليدية المحيِّرة ومنظوراتٍ جديدة لبعض القضايا التي تَدخل في الاهتمام العام، بدءًا بمشكلة الذهن ـــ الجسد وانتهاء بقضية توحيد العلْم[٤].

وجوهرُ هذه المقالات أنها تأمُّلٌ موسَّع في تأويل تشومسكي "الداخلي" لملكة اللغة البشرية. فقد صرفتْ أكثرُ التقاليد الفلسفية اهتمامَها إلى اللغة بوصفها كيانًا عامًّا لا يَملك الأفرادُ إلا معرفةً جزئية به. وتنشغل وجهةُ النظر هذه بالعلاقة بين اللغة والواقع الخارجي: أي بالعلاقة بين الكلمة والعالَم التي تُعدُّ أساسًا للنظريات النموذجية لعلم الدلالة الإحالي. ويدافع تشومسكي بتوسُّع، في معارضته لهذه التقاليد، وبسلسلة من التحليلات اللغوية التي تبلغ مستوىً عاليًا من التخيُّل، عن وجهة النظر التي تقول إنَّ معرفةَ اللغة فردية وداخلية في الذهن/الدماغ البشري. ويترتب على هذا أنه يجب أن توجِّه الدراسةُ الحقيقية للغة اهتمامَها إلى هذه البنية الذهنية، وهي وحدةٌ نظرية يُسميها بالمصطلح الجديد "اللغة ـــ د"[٥]، أي أنها خصيصة داخلية للفرد. ومن لوازم وجهة النظر هذه أنَّ التصور العام (والفلسفي) "للغة"، الذي تكون به اللغةُ الصينية (بوصفها اللغة التي يتكلمها الناس في هونج كونج وبكين) أو الإنجليزية (كما استعملها شكسبير ونستعملها نحن)، ليس مجالاً صالحًا لأن نصوغ عنه نظريات علمية متماسكة.

ويُدخِل تَركيزُ تشومسكي على وجهة النظر الداخلية للغة أبحاثَه في مجال علم النفس، وعلمِ الأحياء في نهاية الأمر. ويعني هذا أن اللغة البشرية "موضوع أحيائي". وينبغي، تأسيسًا على هذا، تحليلُ اللغة بالمنهجية المتَّبعة

في العلوم الطبيعية، وليس هناك مكان لقيودٍ على البحث اللساني وراء تلك القيود المألوفة في الأبحاث العلمية كلها، ومع أن هذه المناهج طوِّرت بأوفى أشكالها في الفيزياء وهي تميِّزها، فإن هذا لا يعني إمكانَ اختزال اللسانيات إلى الفيزياء أو إلى أي علم آخر من العلوم "الصحيحة"؛ فللسانيات قوانينها الخاصة بها وتعميماتها التي لا يمكن وصفها بلغة "الكواركات وأشباهها". ومفهوم "المقاربة الطبيعية" بهذا المعنى مركزي لأبحاث تشومسكي كلها، وهي تنفي بصورة صريحة المتطلباتِ التي توجِّهها وجهةُ النظر الثنائية التي توجب أن يتوافق تحليلُ اللغة مع بعض المعايير التي تختلف عن المعايير الخاصة بالكيمياء أو علم الميكروبات أو تُزاد عليها. لذلك ينبغي أن يتمثَّل مقياسُ نجاح اللسانيات، كما هو الأمر في أي علم اختباري آخر[6]، في عمقها التفسيري وقوة نظرياتها، لا في موافقتها للقيود التي تفرضها الفلسفة.

ويترتب على دعواه العلمية الطبيعية عددٌ من المقتضيات، ومنها: أنه لا مسوِّغ للمسلَّمة العامة التي مفادها أنه ينبغي أن تُعامَل اللغاتُ الطبيعية بالطريقة التي تُعامَل بها اللغاتُ الصورية المصطنعة للمنطق أو الرياضيات؛ ولا مسوِّغ للمتطلب الذي يقضي بأنه ينبغي أن يكون النفاذُ الشعوري[7] إلى قواعد اللغة التي نعزوها للأفراد ممكنا؛ ولا مسوِّغ للاشتراط بأنه ينبغي أن يُختزل[8] الذهني إلى الفيزيائي.

ويتجلَّى رفضه لهذه الثنائية الفلسفية بأوضح صورة في تعامله مع مشكلة الذهن ـــ الجسد، وكانت إحدى المشكلات المزمنة في الفلسفة أن نفسِّر كيف يمكن للذهني أن يؤثِّر في الفيزيائي، أي كيف يمكن لشيء يقتضي تعريفه أنه لا يتحقَّق ماديًّا أن يُسبِّب إحداثَ بعض التغيرات في وحدات تُحدَّد مواضُعها في حيِّز مكاني: وبكلمات أخر، كيف يمكن للذهن أن يحرِّك الجسد. وقد قطع تشومسكي عقدةَ جورد[9] بتأكيده واحدةً من أكثر الصعوبات مركزية: وهي أن مشكلة الذهن ـــ الجسد لا يمكن حتى صياغتها؛ لا لأننا لا نفهم الذهن إلا فهما محدودا جدًّا، كما يُفترض عموما، بل لأننا لا نملك

معاييرَ لتحديد ما يكون جسداً. ويشير تشومسكي، في إحدى محاولاته التوضيحية الجذرية التي تميّز بها، إلى أنه مثلما أدت آراء إسحاق نيوتن العميقة إلى اندثار مفهوم آليات التّماس فقد زُعزعتْ فكرةُ الجسد عند ديكارت ولم يُقترح بديل لها منذ ذلك الحين. وفي غياب أية فكرة متماسكة "للجسد" لا تعود هناك مكانةٌ تصوُّرية خاصة لمشكلة الذهن ــ الجسد التقليدية، لذلك ليس هناك مشكلات سببية خاصة. ويعني هذا، على درجة أعم، أنه ليس هناك مشكلةٌ ميتافيزيقية "غيبية" خاصة تتصل بمحاولات التعامل بطرق علمية طبيعية مع الظواهر "الذهنية" (كمعرفة اللغة)، أكثرَ مما يكون هناك مشكلاتٌ غيبية عند الكيميائيين حين يعرِّفون ما يكون "كيميائيًا".

والمقتضى الآخر لهذه الحجة أن الأفكار العامة عن الاختزال في العلوم غير ملائمة. فمن الواضح أننا نرغب في دمج نظرياتنا عن الذهني ــ ويشمل ذلك على وجه الخصوص اللسانيات ــ بنظرياتنا عن الدماغ وأي مجال آخر ذي صلة. ومع هذا، وعلى الرغم من أن اختزال علم الأحياء إلى الكيمياء كان نتيجة للثورة في علم الأحياء الجزيئي، فلا يلزم أن يأخذ التوحيدُ شكلَ الاختزال. وأهم من ذلك أن الزعم بوجود نوع من الأولوية للفيزيائي أو للعضوي خاطئٌ؛ ذلك أن النظريات اللسانية على درجة من الغنى تجعلها قادرةً على تقديم بعض التنبؤات المحدَّدة عبْر مجال واسع مثلما تفعل النظريات الكيميائية والنظريات الأحيائية. لذلك ربما لا تكون محاولةُ اختزال اللسانيات إلى علم الأعصاب في الطور الراهن من فهمنا مثمرة. انظر إلى المثال المحدَّد الخاص بفهم ما يترتّب على النشاط الكهربائي في الدماغ، كما يقاس بـ "إمكانات الأدمغة التي تتصل بالحَدَث" event-related brains potentials (ERP)، فيَفهم اللسانيون إلى حدٍّ معقول بعضَ الأنواع المختلفة من البنى اللغوية "الشاذة"، حيث يعرِّف الشذوذ في ضوء معايير المخالَفة لمبادئ النحو، كما يَظهر الآن أن مثل هذه المخالفات ترتبط ببعض أنماط النشاط الكهربائي في الدماغ. وقد نظر إلى مثل هذه

الارتباطات على أنها توحي بأن من الممكن تفسير الوقائع اللغوية عن طريق علم الأعصاب. لكن اللسانيات، هنا وفي عدد من الحالات الأخرى، هي التي تعيننا كي نضفي معنىً على هذه النتائج، إذ ليس هناك نظرية كهربائية عضوية لافتة للنظر. وتماثل استحالة التعبير عن التعميمات المهمة عن اللغة في ضوء المفاهيم التقنية للخلايا والعصبونات استحالة عدم إمكان التعبير عن تعميمات علم طبقات الأرض أو علم الأجنة في ضوء المفاهيم التقنية لعلم الفيزياء الجسيمية. فمتطلبات الاختزال في كلتا الحالتين تذهب بعيدًا جدًا.

وربما يكون التوحيدُ العلمي، بَلْه الاختزال، مستحيلاً في بعض النواحي من حيث المبدأ. ولا يعني هذا ببساطة الزعمَ البديهي الذي مفاده أننا لا نستطيع فهمَ بعض المجالات، فالأمر الأعمق أنه لا يمكن لتكائننا النفاذُ إلى بعض مظاهر الهيئة التي صمِّمنا بها إطلاقًا. وليس من شكٍّ أن الفئران لا تستطيع التعاملَ فكريًا مع بعض الأفكار كالأعداد الأوليّة، لذلك ينبغي ألا نشكَّ في أنَّ تصميمنا المحدَّدَ أحيائيًا أنتج كائنًا عضويًا لا يستطيع ببساطة فهمَ بعض المجالات. وكما يقول تشومسكي: فالعالَم مصنَّف إلى "مشكلات" و"أحاج". وربما تخضع "المشكلاتُ" لتنظيراتنا؛ أما "الأحاجي" فلن تخضع لها إطلاقًا. فربما تستطيع ملكةُ صياغة العلم[10] لدينا أن تعيننا في تحقيق قدْرٍ من الفهم النظري عن علم الإبصار واللغة وعلم الوراثة، إلخ. لكنَّ هذا لا يعني أنه يمكن للمجالات كلها أن تخضع لذلك بالكيفية نفسها، بل إن بعض القضايا ـ كـ "حرية الإرادة" أو التحديد الصحيح للشعور ـ ربما تقع بعيدًا عن متناول قدراتنا الفكرية وتظل أحاجي، مثل احتمال كون الأعداد الأولية أحاجي عند الفئران. ولا يعني هذا الزعمَ بأنه لا يمكن أن نحصّل قدرًا من الفهم عن هذه المجالات، بل يعني أنه (ربما) لا نحصّل فهمًا علميًا، وهو ما يجعلنا بحاجة إلى الاعتماد على عبقرية الروائيين والشعراء للحصول على فهم أوسع.

وإحدى المجالات التي يَغلب على تشومسكي اليأسُ من الوصول فيها

إلى فهم علمي للوصفُ الصحيحُ لاستخدامنا المألوف للغة في مقابل معرفتنا بها. وقد شرعتْ أبحاثه طوال نصف القرن الماضي دراسةَ "معرفتنا اللغوية" (إن استخدمنا المصطلحَ الذي استبدل به الآن مصطلحَ "اللغـــة ـ د")، لكـنَّ الكيفية التي تُحوَّل بها تلك المعرفة إلى استخدامٍ في أثناء أدائنا ظلت إلى حد بعيد كتابًا مغلقًا، وربما لغزا. ولا يعني هذا إنكارَ أننا حقّقنا تقدمًا فـــي فهـــم الكيفية التي يحلّل بها الناسُ الجملَ التي يسمعون. ذلك أن النتائج التالية كلها زودتنا ببعض الفهم، أي: الدراسات الاختبارية ونظرية إدراك اللغة وإنتاجها؛ وما نفهمُه الآن عن اكتسابها وتغيُّرها؛ وتحليلِ وظيفة الدماغ عند المرضـــى والأصحاء. بل لقد تحقّق قدرٌ من الفهم الأوّلي عن كيفيـــة تأويلنـــا بعـــضَ المنطوقات[11] في الســـياق، لكننا ما نزال [نماثـــل في بعـــدنا عـــن الفهـــم الكامل] بُعد رينيه ديكارت عن معرفة السبب الذي يَجعل شـــخصًا ما يختار أن يَصـــوغ ردَّ فعله على صـــورة بأن يقول: how beautiful "ما أجملها"، أو it reminds me of Bosch "إنها تذكّرني ببوش"، بدلاً من أن يتمثل رد فعله بالصمت.

وسُميت هذه المجموعة من المقالات بـــ"آفاق جديدة"، إلا أن كثيرًا من القضايا التي نوقشت أعلاه هي ما كان محورًا للاهتمام لسنين عديدة. فقد أبان تشومسكي، منذ مغامرته في تاريخ الأفكار في كتابه "اللسانيات الديكارتيـــة" (١٩٦٦)، عن قدرة فائقة على وضع أفكاره في ســـياقٍ منظـــور تـــاريخي وعلمي عامٍّ أوسع. ومكّنه اهتمامُه العلمي بالتاريخ لا علـــى تـــسهيل تتبُّـــع السوابقَ الفكرية [المشروعه] وحسب، بل على تحديد التطورات في اللسانيات بمقارنتها بالتطورات في العلوم التقليدية كذلك، خاصة تاريخ الكيمياء. وهـــو يقيم الصلةَ، في الوقت نفسه، بين هذه التطورات والأبحاثِ الحالية في علـــم النفس والفلسفة والرياضيات وعلوم الإدراك على وجه أعم.

وهناك مظهران لما هو جديد [هنا]. أولهما أن فيها أنواعًا جديدة مـــن الأدلة على المواقف القديمة؛ وثانيهما، أن من الممكن الآن إثارة أسئلة كـــان

من المستحيل في الماضي حتى صياغتها. ولا نملك الآن إجابات عن هـذه الأسئلة، لكن قدرتنا على إثارتها دليلٌ مثير بنفسه.

ويمكن أن يوضِّح أولَ هذين المظهرين بالإشارة إلى زعم اشتُهر بـه تشومسكي منذ أمد طويل (أو اشتهر بالغلو في الإصرار عليـه)، وهـو: أن جزءًا كبيرًا من معرفتنا باللغة محدَّدٌ وراثيًا، أو هو فطري. والبرهان على أن هناك شيئًا لغويًّا فطريًّا واضحًا بنفسه يبيِّنه أنَّ الأطفال يكتسبون اللغةَ ــ أما القطط والعقارب والأحجار فلا. وتتوجَّه أغلبُ أبحاث تشومسكي في الأربعين سنة الماضية إلى تبيين التفاصيل التقنية لما نعزوه بدقة إلى "الحالة الأولـى" للملكة اللغوية البشرية من أجل تفسير تلك الحقيقة الأولية. وقد نتج عن التقدم في اللسانيات والتخصصات القريبة منها وضعٌ أتـاح الآن "إمكانـا بعيـدًا" للمجيء بأدلة من علوم الدماغ وعلوم الوراثة لتبيين الكيفية التي تحدث بهـا هذه الحتميةُ ومن ثم إمكانُ توحيد هذا الجزء مـن اللـسانيات مـع العلـوم الأخرى. وليس هذا التوحيد مركزيًّا لأبحاث تشومسكي نفسه، لكـنَّ درجـة النضج والتعقيد التي تتصف بها اللسانيات التي اقترحها تجعل هذا مـشروعًا ممكنًا.

والمظهر الثاني إمكانُ وَصل معرفتنا باللغة بتفسيرٍ معـيَّن للأجـزاء الأخرى من إدراكنا. ويتطلب تفسيرُ الكيفية التي يمكن لهذا أن يحـدث بهـا مراجعةَ عامة للتاريخ القريب جدًا. فيهيمن على اللـسانيات التوليديـة الآن موقفان: الأول هو نظرية "المبادئ والوسائط" ــ كما أوضحها تشومسكي في كتابه (1986) Knowledge of Language "المعرفة اللغوية"، والثاني "نظريـة الحد الأدنى" Minimalism ــ كما تبدو في أجلى مظاهرها في كتابه "برنامج الحد الأدنى" (1995c) The minimalist Program. وقـد بـذل تشومـسكي وأتباعه جهدًا ضخمًا لصياغة آليات صُوْرية وافية لوصف التعقيد الواسع جدًا للغات الطبيعية، وهو تعقيد تتزايد روعته كلما ردّدنا النظـر فـي اللغـات المعينة. وكانت بعضُ هذه الوسائل الصورية، ومنها التحويلاتُ وفكرتا البنية

العميقة والبنية السطحية خصوصًا، ناجحةً إلى حد أخّاذ، وحققت حدًا عاليًـا من القبول العام خارج اللسانيات، عند الفلاسفة وعلماء النفس، بل عند عموم الناس كذلك. وكانت المعضلة تتمثل في هذا الطور من النظرية في أنّ التعقيد الذي اكتُشف يَجعل اللغات تبدو كأنها مما لا يمكن تعلّمه: إذ كيف يمكن لطفل أن يتغلب على هذا التعقيد الباهر في السنوات القليلة التـي يَحـدث خلالهـا اكتسابُ اللغة الأولى؟

وكانت إجابةُ تشومسكي أنّ أكثر معرفتنا باللغة فطريةٌ إلى حدٍّ يفوق ما كان متوقعًا من قبل؛ فالواضح أنـه لا يمكـن أن تكـون اللغـاتُ المعينـة كالإنجليزية أو اليابانية فطريةً ـــ كما تَشهد بذلك الاختلافـاتُ بينهـا تبعًـا لاختلاف البيئة ـــ لكنّ اكتساب اللغة المألوف يَجعل من الواضح بشكل مماثل أنّ كمًّا ضخمًا منها لا بد أن يكون فطريًا. ولا يقتصر الأمرُ على أنّ هنـاك بعض القيود على نوع الفرضية التي يمكن أن يَصل إليها الطفلُ الذي يـتعلم لغتَه الأولى، بل إن خصائص اللغة الجوهرية كلها موجودة [في الدماغ] منذَ البداية. ويعني هذا أنّ الطفل ليس بحاجة إلى أن يَتعلم من العَدم خـصائصَ اللغة التي يتعرض لها؛ فهو ، بدلاً من ذلك، ينتقي وحسبُ بعضَ الخيـارات المحدَّدة من مجموعة محدَّدة بشكل مسبق. وللتمثيل على ذلك فاللغة إما تكون من نمط "الرأس ـــ أولًا" (حيث يسبق الفعلُ المفعولَ، كما في الإنجليزية) أو من نمط "الرأس ـــ آخِرًا" (حيث يسبق المفعولُ الفعلَ، كما فـي اليابانيـة). ويولَد الطفلُ وهو يَعرف أن هذين البديلين موجودان، وأنّ ما يجب عليـه لا يَختلف كثيرًا عن وَضْع المفاتيح في لوحة مفاتيح كي "يثبّت وسـائطَ" اللغـة التي يتعلّمها. ومن اللافت للنظر أن هذا الحل للتجاذب بين الوصف والتفسير يَعكـس التطـوراتِ فـي العلـوم الأخـرى. فقـد اسـتُبدل بالنظريـة "الموجِّهة" instructive لتفسير وجود الأجسام المضادة في علم المناعة نظريةٌ "انتقائية" تَستدعي فيها المحفِّزاتُ antigens، حتى الاصطناعية منها، الأجسامَ

المضادة الموجودة مسبقًا في الكائن العضوي قبل تعرُّضه للتأثير الخارجي. وهذا التوازي مع اكتساب اللغة لافت للنظر.

وربما تكون نظريةُ المبادئ والوسائط التي طُوِّرت في العقدين الماضيين أولَ مقاربة حقيقية مُبدِعة للغة طوال الألفين وخمسمائة سنة الماضية. وهي تختلفُ تصوُّريًا اختلافًا شاسعًا عن التفسيرات السابقة للغة، سواء التقليدية منها أو التوليدية، وهو ما يجعل تشومسكي يرى أنها المرة الأولى التي ربما أمكن أن يُسوِّغ فيها وصفَ النظرية اللسانية بأنها "ثورية"، وهو الوصف الذي توصف به أبحاثه في الخمسينيات دائما. ودخل الشكلُ الحالي من نظرية المبادئ والوسائط ــ التي تختلف اختلافًا كبيرًا عن شكل النظرية في الثمانينيات ــ في "برنامج الحد الأدنى" الذي اقترحه في التسعينيات. وهذا الشكل محاولةٌ جذرية لإعادة التفكير في أسس مشروع [البحث اللساني، كما يراه تشومسكي]، وهو يتخلى عن الصيغ غير الضرورية تصوريًا كلِّها أو التي لا تفرضها الضرورةُ الاختبارية، وتلك هي الشروط المألوفة في العلوم. وعنتْ إعادةُ التفكير هذه التخلي عن كثير من الوسائل الوصفية في الأشكال المبكرة من النحو التوليدي ــ بل حتى تلك الاختراعات الناجحة كمستوى البنية العميقة ومستوى البنية السطحية ــ وهو ما ألجأ إلى البحث عن تفسيرات جديدة.

ويتوخى تشومسكي الدقةَ في تأكيده أن "برنامج الحد الأدنى" لم يبلغ بعدُ أن يكون نظرية؛ فهو لا يعدو أن يكون برنامجًا لتحديد نوع معيَّن من المقاربة البحثية. ويجب على أية نظرية للغة ضرورةً أن تقترح صلةً بين الصوت والمعنى، أي بين تمثيلات النطق وتمثيلات الخصائص المنطقية للكلمات والجمل. وتبعًا لهذا يجب على النحو ــ أي "اللغة ــ د" أن يحدِّد مستويين من التمثيل، يطلق عليهما "الصورة الصوتية" و"الصورة المنطقية"، وأن يحدِّد الصلةَ بينهما. وينبغي – في الحالة المثالية – ألا يكون هناك

مستويات أخرى وأنْ تكون تعقيداتُ هذه الصلة على حد أدنى. ويوحي هــذا بسؤالين إما أنه لم يكن من الممكن تناولُهما في السابق بصورة جادة أو ربما حتى صياغتهما. فالأول: ما مدى صلاح اللغة البشرية لأن تكون حلاً لهــذه المشكلة التصورية الخاصة بتحديد الصلة بين الصوت والمعنى؟ فهل يمكــن اقتراح أن أنحاء اللغات الطبيعية "مُثلى" optimal بمعنى ما[١٢]؟ والثاني، مــا العلاقات بين الملكة اللغوية والأنظمة الأخرى للذهن/الدماغ؟ وعلــى وجــه أخص، هل يمكن لأي شذوذ محتمل عن "المثلوية" optimality فــي الــسؤال الأول أن يُعزى إلى الشروط التي يفرضها السؤالُ الثاني؟

ويتناول تشومسكي هذه القضايا في ضوء السؤال التالي: "إلى أي مدى تكون اللغة "مُحكمة"؟[١٣]، ويجيب عنه بإجابة تُعدُّ مفاجئةً عن نظامٍ أحيــائي، وهي أن اللغة قريبة جدًّا من الإحكام. ويعني هذا أن أي شذوذ عن الضرورة التصورية التي توجبها الملكةُ اللغوية (أي: "اللغــة ــ د") مــدفوعٌ بــشروط مفروضة من الخارج. ويسمي تشومــسكي هــذه الــشروط بـــ "شــروط المقروئية": أي الشروطَ التي تفرضها حاجةُ أنظمة الذهن/الدماغ الأخــرى، من أجل استخدام التمثيلات التي توفرها الملكةُ اللغوية. ويشير هذا على وجه الخصوص إلى حاجة النظامين النطقي والإدراكي لاستثمار تمثيلات "الصورة الصوتية"، وإلى حاجة النظام التــصوري لاســتثمار تمثــيلات "الــصورة المنطقيــة". وانطلاقًــا مــن هــذه الخلفيــة لا تبــدو عمليــاتُ النقــل أو "الإزاحة" displacement من النوع الذي نراه في الموضعين المختلفين اللذين يحتلهما الاسم "كلينتون" في الجملتين التاليتين:

They elected Clinton.

"انتخبوا كلينتون".

و:

Clinton was elected.

"أُنتخب كلينتون".

ضرورية تصوريًا. فما الذي يجعل اللغات الطبيعية تستثمر مثل هـذه الوسائل التي لا توجد في لغات المنطق والرياضيات الاصطناعية؟ وإحـدى الإجابات المؤقتة أن النقل ربما يكون مدفوعًا بالحاجة إلى تنظيم المعلومـات من أجل التواصل الأمثل. وإذا كان هذا هو التفسير الصحيح، حقًا، فيبدو كأن إحدى خصائص الملكة اللغوية مفروضةٌ من خارج النظام، أي من جزء آخر من أجزاء الذهن/الدماغ.

ولا يقف تشومسكي عند ذلك الحد، بل يحاول وصل عدم إحكام اللغـة الظاهر هذا بمظهر آخر من عدم الإحكام؛ فاللغات الطبيعية ملأى بالظواهر التي تَنشأ عنها بعضُ المشكلات لمتعلمي اللغة الثانية، وبعضُ أنواع الإزعاج للفلاسفة؛ فهناك تعقيدات صرفية كقوائم الإعراب والأفعال غير القياسية، التي لا يبدو أن لها معنى خاصًا بها حقيقيةً أو غير مفيدة دلاليًا. فهي من المظاهر الأخرى لعدم الإحكام، وتوجب افتراضَ بعض السِّمات التي لا يمكن تأويلها؛ أي سمات ليس لها تأويل دلالي. ومع هذا تَستغل النظريةُ التركيبية الحاليـة مثلَ هذه السمات التي لا تأويل لها استغلالاً مطـردا: فوظيفتهـا أن توجّـه عمليات النقل التي رأينا آنفًا أنها مدفوعةٌ بعوامل من خارج الملكة اللغويـة. وإذا كانت مثلُ هذه الافتراضات على جادة الصواب فإنها تـسمح بالإمكـان اللافت للنظر الذي يقضي باختزال نوعين من "عدم الإحكام" الظاهري إلـى نوع واحد. بل إن النوعين "الظاهريين" من عدم الإحكام ليسا إلا نوعًا واحدًا حقيقةً، إن كانت هذه الحجة صحيحة، حقًا. بل ربما لا يكون هناك بديل آخر، في ضوء القيودِ التي تَفرضها الأنظمةُ الأخرى من أنظمة الـذهن/الـدماغ على الحلول التي تسعى إلى ربط الصوت بالمعنى، لهذا تفـسِّر الـضرورة التصورية الشكلَ العام للنحو.

وأخيرًا، سأوجّه النظرَ الآن إلى المقالات واحدًا واحدًا. فالفصل الأول "آفاق جديدة في دراسة اللغة" مقدمةٌ مُختصرة غير تقنيـة عمومًـا لتفكيـر تشومسكي في الوقت الراهن عن طبيعة الملكة اللغوية، وتسعى لإيضاح مكان

أفكاره في إطارها التاريخي والفكري، أي: التقاليد الجاليلية والديكارتية [نسبة إلى جاليلو وديكارت]. ويُبيِّن هذا الفصل نزعته التي صارت مألوفة الآن حيث يأخذ أمثلة بسيطة ليُرتب عليها بعض المقتضيات العميقة. فإذا احتوت مكتبةٌ نسختين من رواية "الحرب والسلام" لتولستوي، واستعارَ كلٌ واحدة منهما شخصٌ مختلف، فهل أخذ الشخصان الكتابَ نفسه أم أخذا كتابين مختلفين؟ وكلا الإجابتين ملائمة تبعًا لما إن كنا ننظر إلى الكتاب بوصفه وحدة مادية أم بوصفه وحدة مجردة. وربما يبدو هذا واضحًا لكنَّ هناك مقتضيات جادة لهذه المسألة على فلسفة اللغة، كما يستمر تشومسكي في إيضاح الأمر. والملاحظة المهمة الأخرى أنه يبدو أن معرفتنا بإمكان النظر إلى بعض الأشياء كالكتب بهذه الطرق المختلفة تأتينا عمومًا باستقلال عن التجربة. ويمثِّل هذا حجةً من فقْر المنبِّه على أنَّ مثل هذه المعرفة محددةٌ فطريًا. وينبغي أن يكون أكثرُ ما يحويه هذا المقال سهلَ الفهم علَى غير المتخصصين، لكنه يمكن أن يقدِّم شيئًا كثيرًا للمتخصص كذلك.

والفصل الثاني "تفسير استخدام اللغة" نقدٌ لوجهات نظر الفلاسفة الذين يرون أنَّ اللغة شأنٌ خارجي، خاصة [الفيلسوف الأمريكي المعاصر] هيلاري بتنام، وهو دفاع عن المقاربة الطبيعية لدراسة اللغة كذلك. ويقدِّم تشومسكي سلسلةً طويلة من الأمثلة الجديدة للبرهنة على وجهة النظر التي مفادها أنَّ أكثر معالجات اللغة نجاحًا هي تلك التي تصاغ في ضوء الحوسبات التي تَجري على التمثيلات الذهنية الداخلية. وهذا بالطبع المجالُ الذي نجد فيه إسهاماته التقنية العظمى، ومع ذلك لا يتطلب هذا النقاش معرفةً مسبقة بالنظرية التركيبية. ويتضمن جزء من تحليله تعميمًا لفكرة "اللغة ـ د"، التي يقول بها الذين يرون اللغةَ موضوعًا داخليًا، إلى المجال المعرفي، مستعينًا بفكرة "الاعتقاد ـ د". ويُبيِّن هذه الدعوى، مرة أخرى، ببعض الأمثلة البسيطة لكنَّها لافتة النظر وتشهد بعمق معرفتنا وتفصيلها عن بعض الوحدات المعجمية مثل "بيت" house و "قريب" near. فنحن نعرف في جملة مثل:

John is painting the house brown.

"يصبغ جون البيت بُنيًا".

ـــ ومن غير توجيه فيما يبدو ـــ أن السطح الخارجي للبيت هو الذى يُصبغ، لا سطحه الداخلي. لكنْ لا يمكن أن يكون معنى "بيت" مقصورًا على سطحه الخارجي. وإذا كان هناك شخصان على بُعدٍ متساوٍ من السطح، أحدهما في الداخل والآخر في الخارج، فالشخصُ الذى في الخارج وحدَه هو الذى يمكن وصفُه بأنه "قريب" من البيت. ويبدو، مرة أخرى، وكما أوضحتْ ذلك الممارساتُ الاختبارية، أنه حتى الأطفال الصغار جدًّا يعرفون مثل هذه الحقائق، وهذا ما يوحى بأن المعرفة بمعنى من المعاني متوفرة بشكل مسبق لهذا الكائن العضوى [أى الإنسان].

ويأخذ الفصل الثالث "اللغة والتأويل" هذه الأفكارَ خطوة أبعد، ويُفصّل تفصيلاً أوسع، بشكل خاص، حججه ضد [الفيلسوفين الأمريكيين المعاصرين] ويلارد كوين ومايكل دوميت وآخرين عن قضايا مثل عدم وثوقية الترجمة، واللغة الخاصة فى مقابل اللغة العامة، وطبيعة المعرفة الذاتية، ومكانة "القواعد" اللغوية. ويأخذ تشومسكى بعضَ الأمثلة التركيبية البسيطة التى تورَد بكثرة فى الأبحاث التقنية ويستخدمها للاحتجاج لعدد متنوع من المواقف الفلسفية. انظر إلى تأويل جملة مثل:

Mary expects to feed herself.

"توقعتْ مارى أن تُطعم نفسَها".

(حيث تُفهم "ماري" Mary و"نفسها" herself على أنهما تحيلان إلى الشخص نفسه)، في مقابل الجملة المماثلة جزئيًا:

I wonder who Mary expects to feed herself.

"ليت شعرى من تتوقع مارى أن تُطعم نفسها".

حيث يكون هذا الفهم للإحالة المشتركة مستحيلاً؛ ويبيّن تشومسكى عددًا من المقتضيات لمثل هذه الأمثلة وتحليلاتها. فهى تنفى زعمَ كوين بأنه

"ليس هناك حقيقة للأمر"؛ ويمكن استخدامها لتأييد التمييز بين التحليل والتأليف[١٤]؛ وتثير بعضَ المشكلات لأية فكرة عن شبكيَّة للمعنى meaning holism[١٥]؛ كما تشير إلى استقلال ملكتنا اللغوية عن المظاهر الأخرى لنظامنا الاعتقادي.

ويعود الفصل الرابع "المقاربة الطبيعية والمقاربة الثنائية في دراسة اللغة والذهن" إلى الهجوم على الفلاسفة؛ لتبنيهم الضمني "للدعوى التفريعية": وهي أنه ينبغي أن تخضع اللغةُ لنماذج وشروط إضافية على تلك التي تراعى في العلوم الطبيعية عموما. ويبدأ تشومسكي بملاحظة أنّ مصطلح "ذهني" يُحدِّد ببساطة بعضَ مظاهرِ العالَم المعيَّنة التي نود أن نُخضعها للبحث العلمي الطبيعي، ثم يتوجه إلى عرْضٍ تاريخٍ دقيق للأفكار ــ من حيث صلتها بدراسة اللغة خاصة ــ بدءًا من ديكارت إلى الوقت الحاضر، مستخلصًا الأشياءَ من علم الكيمياء ودراسة "الإبصار تحديدا، وتقتضي هذه الممارسة أنه لا يمكن صياغة مشكلة الذهن ــ الجسد، وأن الدور المزعوم للشعور في تحديد ما يكوِّن المعرفةَ اللغوية لا برهان عليه؛ وأن الفهم الداخلي للمعرفة اللغوية وحدَه هو القادر على إمدادنا بأي تفسير لقدراتنا.

ويعود الفصل الخامس "اللغة موضوعًا طبيعيًّا" إلى عدد من القضايا نفسها، لكن مع التركيز مباشَرةً بصورة أكثرَ على اللغة ومعرفة اللغة. فيرى تشومسكي أن اللسانيات تنتمي إلى العلوم الطبيعية، ثم يتتبع السوابق الفكرية له في تلخيصٍ أخاذٍ ومُلمٍّ بتاريخ العلم. وعلى الرغم من تكراره لهذا الزعم المسوَّغ عن مكانة اللسانيات "العلمية" فإنه كان صارمًا في نقاشه للمحاولات الاختزالية التي تَسعى إلى اختزال اللغة إلى العضوي والفيزيائي. أما ما نحتاجه هنا فهو التوحيد، ثم إن الاختزال ليس إلا حالةً نادرة من هذا الإلحاق [بالفيزيائي والعضوي]. ويتضمن مدى اللسانيات الحالية مشكلاتِ الكيفية التي يتعلم بها الأطفال لغاتِهم الأولى، وكيف يستخدم البالغون هذه اللغة. ويقدِّم تشومسكي هنا ملاحظتين مفاجئتين. فالأولى أنه إن كانت اللغات مما يمكن

تعلّمه حقًا فسيكون هذا اكتشافًا اختباريًا مفاجئًا؛ والثانية أنه يبدو أنّ اللغات لا يمكن استخدامها جزئيًا، كما يَشهد بذلك إخفاقُ أنظمة الأداء غالبـًا. ويَختـتم المقالَ بمناقشة رصينة لحدود الحدس. ويُعَدُّ الحـدسُ أو الأحكـام اللغويـة مركزيًا للحجاج في اللسانيات، لكن تشومسكي يشير إلى أنه ربما لا يمكن أن نمتلك حدوسًا مماثلة حين يتعلق الأمر بالمفردات التقنية في الرياضـيات أو الفلسفة، وأنّ اعتماد الفيلسوف على الاحتجاج بالحدس عن توأم الأرض[١٦]، مثلاً، ضارٌ دائما.

ويتناول الفصل السادس "اللغة من وجهة نظر داخلية" بعضَ القـضايا نفسها لكن باستخدام أمثلة أخرى وبمناقشة مطولة للاختلافات بـين البحـث العلمي الطبيعي وما يسمى غالبًا بـ"العلم الشعبي"[١٧]. وليست العلاقة بـين الاثنين واضحة بنفسها. فنحن لا نتوقع في الفيزياء أن تُفيد وجهـاتُ النظـر الشعبية صياغةَ النظرية عند الخبير، ومع أن "العلم الإثني"[١٨] بنفسه مجـالٌ بحثي لافت للنظر إلا أنه ليس هناك سبب للافتراض بشكل مسبق أنه ينبغي للتصورات والصيغ في الحوار ما قبْل العلمي أن تنتقل من غير تغيير إلـى النظريات الصُّورية عن "اللغة ــ د". وليس هناك سبب، على وجه أخـص، لفرض شروطِ النفاذ إلى الشعور على القواعد التي تُحدِّد لغتنا. فإذا قال طفل:

I rided my bike.

"ركبتُ عجلتي"

[بصياغة ماضي الفعل الإنجليزي ride "يركب" بشكل يختلـف عـن صياغته المعهودة]

فلن نكون محقِّين في إنكار أنّ هذا الطفل يتبع القاعدةَ القياسية لصياغة الفعل الماضي [في الإنجليزية]، وأقل من ذلك أن نفترض أنـه يعـي هـذه الحقيقة. وكما هي الحال دائمًا، تَترتب النتائجُ العميقة والمعقدة ــ عن عُقْـم التصورات الخارجية عن اللغة وضرورة التصورات الداخلية ــ على أمثلة بسيطة.

ويتابع الفصلُ السابع الأخير "المقاربة الداخلية" تبيينَ المنظور الداخلي عند تشومسكي، ويأتي بأمثلة وحجج جديدة، موسّعًا نَقْدَه إلى مدى أوسع من الأهداف، وإلى مظاهر توأم الأرض خاصة. يضاف إلى ذلك أن هذا الفصل يُحكِم الربطَ بين هذا النقاش وأبحاثِ تشومسكي الأخيرة في برنامج الحد الأدنى، وينتهي بمناقشة موسّعة لمدى الأفكار الفطرية وأهميتها.

وإلى جانب أبحاث تشومسكي السياسية (التي لا يتضمن هذا الكتاب شيئًا منها) فقد اشتهر بتنظيراته التركيبية. وتشتمل كثير من المقالات هنا على أمثلة واضحة ومحيِّرة من الأنواع التي اشتُهر بصياغتها؛ ومن ذلك التقابل بين:

John was too clever to catch.

"كان جون ذكيًّا جدًّا مما يجعل القبض عليه صعبا".

والمثال المماثل:

John was too clever to be caught.

"كان جون ذكيًّا جدًّا أن يقبض عليه".

والجملة المستحيلة:

John was clever to catch.

"كان جون ذكيًّا ليُقبض عليه".

ومن اللافت للنظر أنه بالإضافة إلى هذه الأمثلة التركيبية، فأكثر التمثيل في هذه المقالات معجمي، مع حجج عميقة تقوم على عدد من الوحدات التي تَخدَع ببساطتها. ويُقدِّم تشومسكي هذه الحجج بالمنطق القوي نفسه كما في السابق، ثم تقود النتائجُ إلى وجهة نظر عن العالَم ظَلّ يدافع عنها طوال أربعين سنة؛ لكن هذه الحجج جديدة.

أما ما يَشدُّ الانتباه فيما يكتبه تشومسكي فليس عمقَه الأخاذ ومداه الرائع وحسبُ بل يتجاوز ذلك إلى حقيقة أنه ما يزال بعد نصف قرن يمتلك القدرة

على المفاجأة: فمن ملاحظته أن بني البشر ليسوا نوعًا طبيعيًّا إلـــى تبيينـــه أهمية اللغة اليابانية لتحليل اللغة الإنجليزية؛ ومن رفضه لاختراعه المشهور "البنية العميقة" إلى افتراضه أن اللغة، على الرغم من طبيعتها الأحيائية، ربما تكون أقرب إلى الإحكام؛ ومن التجاذب بين البديهة والعلم إلى مقتضيات مـــا نعرفه عن بيت بني أو كأس ماء؛ فكل شيء يتعاضد ليقدّم وجهة نظر اللغـــة والذهن فريدة ومقنعة.

هوامش التمهيد

(١) انظر مقدمة المترجم. (المترجم)

(٢) هناك مصطلحات عدة تطلق فى اللغة العربية الآن على هذا العلم؛ منها "علم اللغة العام" و"الألسنية" و"اللغويات". لكن هناك ما يكاد يكون توجهًا عامًا لاستخدام هذا المصطلح. (المترجم)

(٣) انظر مقدمة المترجم. (المترجم)

(٤) انظر تفسير هذين المصطلحين فيما يأتى فى هذا التمهيد. (المترجم)

(٥) يفسر تشومسكى هذا المصطلح فى الفصل الأول من الكتاب. وهو يشير إلى ما تتصف به نظريته اللسانية بأنها داخلية فردية مفهومية. والملاحظ أن الكلمات الثلاث فى الإنجليزية، أى: internal, individual, intensional، تبدأ كلها بحرف I، لذلك استعمل هذا الحرف فى الدلالة عليها جميعا. أما فى العربية فالكلمات النظيرة تبدأ بحروف مختلفة، لذلك اكتفيت هنا باستعمال الحرف "د" ("الذى تبدأ به كلمة "داخلية")، وينبغى أن نتذكر، كلما ورد هذا المصطلح، أن المقصود به الكلمات الثلاث. (المترجم)

(٦) اخترتُ أن أترجم كلمة empirical بـ "اختباري"، وكذلك مشتقاتها؛ ذلك تجنبًا للبس الذى يمكن أن ينشأ من ترجمة هذه الكلمة بـ"تجريبي" التى يمكن أن تدل على التوجه الفلسفى المعروف. (المترجم)

(٧) النفاذ إلى الشعور هو قدرة الشخص على الكلام بصورة علنية عن حالاته الشعورية. (المترجم)

(٨) الاختزال هو أن يُعالج علمٌ ما فى ضوء مقولات ومصطلحات علم آخر يُعد أرقى منه، كأن تفسر الكيمياء بمصطلحات ومفاهيم الفيزياء، أو يُفسر علم الأحياء بمصطلحات ومفاهيم الكيمياء، وهكذا. (المترجم)

(٩) نسبة إلى القصة اليونانية القديمة عن شخص اسمه "ميداس" عقد عقدة عجز عن حلها كل الذين حاولوا ذلك. لكن الإسكندر الأكبر، القائد اليوناني الشهير، حلها بطريقته الخاصة، حيث قطعها بالسيف. (المترجم)

(١٠) Science Forming Faculty وهي إحدى الملكات التي توجد في الذهن وتُعين البشر على تكوين النظريات العلمية. (المترجم)

(١١) Utterances مصطلح عام يطلق على أي مجموع من الكلام سواء كان كلمة أو جملة أو جزءًا من جملة. (المترجم)

(١٢) يعني مصطلح "الحد الأدنى" التخلص من كثير من التقنيات الوصفية والتفسيرية التي كانت تستعمل في الأطوار السابقة من النظرية التوليدية وتقليص هذه الوسائل إلى عدد قليل من المبادئ العامة والوسائط. ويعني الوصف optimal التوافق مع بعض الشروط الاقتصادية الطبيعية المحددة نحو: محلّية النّقل، وعدم وجود خطوات غير ضرورية للاشتقاق، إلخ. (المترجم)

(١٣) يصف تشومسكي اللغة بأنها "مُحكَمة" perfect، لأن الملكة اللغوية محدَّدة ببعض الشروط العامة التي تُحدِّد مكانتها داخل مجموعة الأنظمة المعرفية للذهن/الدماغ، وتحددها كذلك بعضُ الاعتبارات العامة للطبيعية التصورية التي تتصف ببعض معايير المعقولية المستقلة كالبساطة والاقتصاد والاتساق وعدم الزيادة unredundancy إلخ. وربما يكون هناك كلمة عربية أوفى لترجمة هذه الكلمة. (المترجم)

(١٤) يميز بين الفلسفة التحليلية والفلسفة التأليفية تبعًا لصياغة كانط بأن تصوُّرَ المحمول في القضية التحليلية proposition متضمَّن في تصوُّر الفاعل، ويمكننا من ثم الحكم على صدق القضية أو زيفها

بالتحليل. أما في القضية التأليفية فيضيف تصورُ المحمول شيئًا جديدًا لتصور الفاعل، أما صدق القضية أو زيفها فلا يمكن تحديدهما من خلال التحليل. (المترجم)

(١٥) تعني الشبكية الذهنية (أو الدلالية) أن ماهيةَ مضمونِ اعتقاد ما (أو معنى جملةٍ ما) يُحدَّد بالمكان الذي يشغله في شبكة من الاعتقادات التي تكوِّن مجملَ نظريةٍ ما أو مجموعة من النظريات. (المترجم)

(١٦) إشارة إلى التجربة الذهنية التي اقترحها الفيلسوف الأمريكي المعاصر هيلاري بتنام في مقاله (١٩٧٥). ويدعونا فيها إلى تصور وجود أرض أخرى تشبه أرضنا بدقة، من حيث المظاهر الفيزيائية والخصائص الأخرى جميعها. لكن سكان هذه الأرض التوأم يختلفون عنا في أفكارهم ومعتقداتهم، وغير ذلك. وسوف يعرض تشومسكي لمناقشة هذه الفكرة في بعض فصول الكتاب هنا، ويبين مآخذه عليها. (المترجم)

(١٧) العلم الشعبي هو أحد فروع البحث العلمي الطبيعي – الفهمَ البديهي – التي تهتم بالكيفية التي يؤوِّل بها الناسُ ثباتَ الموضوع، وطبيعةَ الحركة ومسبباتها، والفكرَ والفعل، كما يقول تشومسكي في الفصل السادس. (المترجم)

(١٨) العلم الاثني هو دراسة لـ "التفسير النفسي البديهي للسلوك الإنساني"، كما يقول تشومسكي في الفصل السادس، نقلا عن بيلجرامي. (المترجم)

مقدمة

شهد النصف الثانى من [القرن العشرين] نشاطًا بحثيًا مكثفًا، كان أغلبُه مثمرًا جدًا فى دراسة الملكات المعرفية البشرية، من حيث طبيعتها والطرق التى تدخل بها فى الفعل والتأويل. ويتبنى هذا البحثُ عمومًا دعوى مفادُها "أنّ الموضوعات الذهنية، بل الأذهان حقيقة، خصائصُ ناشئة للأدمغة"، مع إدراكه أنّ "هذه الخصائص الناشئة. . . حصيلةٌ لعمل بعض المبادئ التى تحكم التفاعلات بين الأحداث فى المستويات الدنيا – وهى مبادئ لم نفهمها بعد" (Mountcastle 1998:1). وتعبّر كلمةُ "بعدُ" عن التفاؤل الذى ظل، خطأً أم صوابا، ملازمًا للبحث طوال هذه الفترة.

وتبعث هذه الدعوى الحياةَ فى اقتراحاتِ القرن الثامن عشر التى قُدّمت آنذاك لأسباب قوية جدًا؛ ومن أهمها النتيجةُ التى يبدو أن نيوتن قرَّرها، على الرغم من انزعاجه القوى منها، وهى "استحالةُ" أن يكون "علمُ الفيزياء ماديًا أو آليًا محضا" (koyré: 1957: 210)؛ وكذلك المقتضيات التى تترتب على "اقتراح لوك" بأن الله ربما شاء أن "يضيف إلى المادة "قدرةَ تفكير"" مثلما "ألحقَ الآثارَ بالحركة التى لا يمكننا بحالٍ أن نتصور الحركةَ قادرةً على إحداثها" (Locke 1975: 541, Book IV, Chapter 3, Section 6). وتستحق هذه السوابقُ التى اقتُرحت فى فجر العصر الحديث، والفكرُ الذى كان وراءها، اهتمامًا أعمق من الاهتمام الذى أُوليتَه من قبل، كما أظن. ومما يجدر ذكره كذلك أن قصور الفهْم لـ "تفاعلِ الذهن/الدماغ" لم يكن الوجهَ الوحيد الذى كان التقدم فيه محدودًا منذ بدايات الثورات العلمية الحديثة. ذلك أنه على الرغم من تحقيق البحثِ فى الملكات الذهنية العليا تقدمًا كبيرًا فى بعض المجالات، فإن نتائجه لم تلامس القضايا التى كانت تؤخذ ـ بحق، فى رأيى ـ على أنها تمثّل جوهر المشكلة. وسوف أتناول بعضًا من هذه القضايا فى الفصول التالية من هذا الكتاب.

وكانت دراسةُ اللغة إحدى المجالات التى تحقَّق فيها تقدمٌ كبيـــر، فـــى العشرين سنة الماضية خاصة. لكن الأسئلة التقليدية ظلت، هنا كذلك، علـــى الأفق، هذا إن كانت هناك ابتداء. ويأخذ هذا البحث، كما أفهمه، أحدَ صـــيغ الدعوى عن الذهن /للدماغ التى أوردتُها آنفًا أمرًا مسلَّما (بصورة ضمنيَّة فى الغالب)، وهو الوجه الذى يمكن تأويلُه بصورة معقولة على أنه جزء من علم النفس أو جزء من علم الأحياء البشرى، بصورة أعم. وقـد أطلـق بعـضُ الباحثين على هذا المنحى من البحث، بشكل مسوَّغ، مـصطلحَ "اللـسانيات الأحيائية" (Jenkins 1999). وهى تأخذ موضوعًا لها بعضَ الحالات المحدَّدة للناس، وهو ما يعنى غالبًا حالاتِ أدمغتهم: ولْنسمِّها بـ"الحالات اللغويـــة". وتسعى إلى الكشف عن طبيعةِ هـذه الحـالات وخصائـصها، وتطوراتهـا وأنواعها، والأسسِ التى تقوم عليها فى الإعداد الأحيائى الفطرى. ويبدو أن هذا الإعداد يُحدِّد "ملكةً لغوية" تتصف بأنها مكوِّنٌ فريدٌ من مكوِّنات الملكات الذهنية العليا (وربما يكون لعناصرها، بوصفها نظامًا، أنـواعٌ كثيـرة مـن الوظائف)، أى أنها "خصيصة مقصورة على النوع" ومشتركة بين بنى البشر إلى حد بعيد، مع بعض التنوعات العامة لها. والملكة اللغوية تطوُّرٌ أحيـائى حديث جدًّا، وهى، على حد ما نعلم، قدرةٌ معزولة أحيائيًّا من حيـث بعـض المعايير المهمة. ويسعى البحث فى اللسانيات الأحيائية إلـى توحيـدها مـع المقاربات البحثية الأخرى لخصائص الدماغ، مع الأمـل فـى أن تكتـسب الشَّرطةُ [/]، فى عبارة "الذهن/الدماغ"، مـضمونًا أكثـرَ جوهريـة فـى المستقبل. ولا يقتصر اهتمامُها على طبيعة الحالات اللغوية وتطورها، بـل تهتم كذلك بالطرق التى تدخل بها [هذه الحالات] فى استخدام اللغة. ويـشمل هذا الاهتمامُ من حيث المبدأ، وأحيانًا من حيث الواقع، علاقاتِ هذه الحالات بوسيط خارجى ما (كإنتاج الكلام وإدراكه)، والدورَ الذى تؤديه فى التفكيـر والكلام عن العالَم والأفعال الأخرى التى يقوم بها الإنسان والتفاعلات بينها. وتوحى هذه المقاربة، كما يبدو لى، بأننا ربما نحتاج إلى قدر كبير من إعادة

التفكير، فى بعض المجالات، ومنها على الأخص تلك التى تتصل بالإحالة والمعنى فى اللغة الطبيعية، وذلك لأسباب ناقشتها فى الفصول التالية.

ويجب بالطبع أن نبرهن على أن هذه المقاربة "العلمية الطبيعية" naturalistic طريق ملائم للبحث في ظواهر اللغة، واستخدامها. والدعوى الأكثر طموحًا أن هذه المقاربة قضية مسلّمة (بصورة ضمنية في الأقل، وأحيانًا برغم الإنكار الصريح لوجودها) فى البحث البنّاء غالبًا فى هذه المجالات؛ وأنّ شيئًا شبيهًا بها صحيح فى دراسة الملكات المعرفية الأخرى. كما تجب البرهنة كذلك على أن أنواع النقد الموجّهة لهذه المقاربة مضلِّلة، ويشمل ذلك أنواع النقد الشائعة جدًا والمؤثرة. وهذا كله معقول جدًا، كما أظن. وتحاول الفصول التالية، التى كان أصلها محاضرات ألقيتها خلال السنوات القليلة الماضية، أن تقدّم بعضَ الأسباب التى تقود إلى هذه النتائج، وأن ترسم بشكل أولى بعضَ الاتجاهات التى تبدو لى ملائمة وتستحق الاستقصاء.

الفصل الأول
آفاق جديدة في دراسة اللغة

تُعدُّ دراسةُ اللغة واحدة من أقدم فروع الدراسة المنهجية، فقد بدأت عند الهنود واليونانيين القدماء، وشهد تاريخها كثيـرًا مـن الإنجـازات الغنيـة والمثمرة. لكنها من زاوية مختلفة، ما تزال حديثة جدًا؛ ذلـك أن المـشاريع البحثية الرئيسة السائدة اليوم لم تأخذ الشكل الذى هى عليه إلا منذ أربعـين سنة تقريبا، حين بُعثت بعضُ الأفكار التقليدية الرئيسة ورُسِّست، وهو ما فتح الطريق أمام ما بُرهن على أنه دراسة مثمرة جدًا.

أما حظوة اللغة بمثل هذا الاهتمام عبر السنين فليست أمرًا مفاجئـا. إذ يبدو أن الملكة اللغوية البشرية "خصيصة مقصورة على النوع" حقيقـةً، ولا يختلف البشرُ فيها إلا اختلافًا ضئيلا، وليس لها نظير مهمٌّ عند سواهم. وربما كان أقربُ النظائر لها ما نجده لدى الحشرات التى يفصلها عن البشر تاريخٌ تطورى يمتد لبليون سنة. وليس من سبب جوهرى اليوم للاعتـراض علـى وجهة النظر الديكارتية التى ترى أنَّ القدرة على استخدام الإشارات اللغويـة للتعبير عن الأفكار التى تُكوَّن بصورة حرة هى ما يَرسم "الفارقَ الحقيقى بين البشر والحيوان"، أو الآلة، سواء عنينا بـ "الآلة" تلك "الأتمتة" التى ألهبـت خيالَ الناس في القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين، أم الآلات التى تحفز الفكر والخيال في الوقت الحاضر.

وتَدخُل الملكةُ اللغوية، زيادة على ذلك، بشكل جوهرى فـى مظـاهر الحياة كلها، وفى الفكر والتفاعل البشريين. وهى مسئولة بشكل كبير عن أن للبشر وحدَهم فى العالم الأحيائى تاريخًا وتطورًا ثقافيًـا وتنوعًـا لا حـدود لتعقيده وغناه، بل هى مسئولة كذلك عن النجاح الأحيائى الذى حققوه بالمعنى التقنى الذى يعنى أن عددهم كبير جدًا. وربما لا يمكن لعـالم مـن المـريخ يلاحظ الأحداث الغريبة التى تَحدث على الأرض ألا يُدهشه نشوءُ هذا الشكل

من التنظيم الفكرى الفريد الواضح وأهميّته. بل إن الأمر الأكثر طبيعيـــة أن يكون هذا الموضوع، بألغازه الكثيرة، مصدرًا لإثارة حب الاستطلاع عنـــد أولئك الذين يسعون لفهم طبيعتهم هم ومكانهم فى العالم الأوســـع [أى عنـــد البشر].

وتقوم اللغةُ البشرية على خصيصة أوّلية، يبدو أنها نفـسَها معزولـــةٌ أحيائيًا، وهى "اللانهائية المتمايزة"، التى تتجلى فى أنقى أشكالها فى الأعـــداد الطبيعية، أى: ١، ٢، ٣، . . . . فالأطفال لا يتعلمون هذه الخصيصة؛ أما إن لم تكن المبادئ الأساسية [لهذه الخصيصة] موجودة بـــشكل مـــسبَق فـــى الدماغ فلا يمكن لأى قدر من الأدلة أن يوفّرها. ولا يلزم أى طفل، كذلك، أن يتعلم أن هناك جملاً تتألف من ثلاث كلمات وجملاً من أربع، لكن ليس هناك جمل من ثلاث كلمات ونصف، وأنّ عدد الكلمات فى الجملة يمكن أن يتزايد بصورة غير نهائية؛ فمن الممكن دائمًا تكوين جملة أكثر تعقيدا، لهـــا شـــكل ومعنى محدَّدان. ويجب أن تكون مثل هذه المعرفة قد جاءت إلينا من "اليـــد الأصلية للطبيعة"، كما تقول عبارة ديفيد هيوم (108 :1748/1975؛ القسم ٨٥)، بصفتها جزءًا من إعدادنا الأحيائى.

وقد أدهشتْ هذه الخصيصةُ جاليليو الذى رأى أنّ لكتـــشافَ طريقـــةٍ نَستطيع بها إيصالَ "أكثر أفكارنا سريّةً إلى أى شخص آخر باستخدام أربعةٍ وعشرين شكلاً صغيرًا" (Galileo 1623/1661, end of the first day) أعظـــمُ الاكتشافات البشرية. وينجح هذا الاختراع؛ لأنه يُصوّر خصيصةَ اللانهائيـــة المتمايزة للغة التى تُستخدَم هذه الأشكال فى تمثيلها. وبعد ذلك بفترة وجيـــزة دُهش مؤلفو كتاب Port Royal Grammar بذلك "الاختراع الرائع" لوسيلة يمكن بها أن نكوّن من عددٍ قليل من الأصوات تعبيراتٍ غير نهائية تمكننا من أن نُطْلِع الآخرين على ما نفكّر فيه وما نتخيله وما نشعر به ـــ وليست هذه "اختراعًا" من وجهة نظر معاصرة، لكنها لا تقِل "روعة" بوصـــفها ثمـــرة لعمليـــة التطـــور الأحيائى، التى لا نكاد نعرف عن الدور الذى قامت به شيئًا، فى هذه الحالة.

ويمكن أن ننظر إلى الملكة اللغوية بشكل معقول على أنها "عضوٌ للغة" بالمعنى نفسه الذى يتحدث به العلماء عن نظام الإبصار، أو نظام المناعة، أو نظام الدورة الدموية بوصفها أنظمة للجسد. وإذا فهمنا العضوَ على هذا النحو فهو ليس شيئًا يمكن نزْعه من الجسد، في حين يُترك سائرُه كما هـو. فهـو نظام فرعى لبنية أكثر تعقيدا. ونأمل أن نفهم التعقيدَ الكامـل [لهـذه البنيـة] بتقصّى أجزائها التى لها خصائص فارقة، وبتقصى تفاعلاتها. وتسير دراسة الملكة اللغوية بهذه الطريقة نفسها.

ونفترض كذلك أن عضو اللغة شأنه شأن الأعضاء الأخرى من حيث كون طبيعتها الأساسية تعبيرًا عن "المورِّثات". أما الكيفية التى يحدث بها هذا فستظل هدفًا بعيدًا للبحث العلمي، لكننا نستطيع أن ندرس "الحالـة الأولـى" للملكة اللغوية المحدَّدة وراثيًّا بطرق أخرى. فمن الواضح أنَّ أى لغة محصِّلةٌ للتفاعل بين عاملين هما: الحالة الأولى، ومسارُ التجربة. فيمكن أن ننظر إلى الحالة الأولى على أنها "جهازٌ لاكتساب اللغة" يأخذ التجربةَ "دَخْلاً" ويُعطـى اللغةَ "خَرْجا" ــ أى "خرْجًا" يمثِّل داخليًّا فى الذهن/الدماغ. والدخلُ والخـرج كلاهما موضوعان للبحث: فيمكن أن ندرس مسارَ التجربة وخصائصَ اللغات التى اكتُسبت. ويمكن لما نتعلمه بهذه الطريقة أن يَكشف لنا الكثيرَ عن الحالة الأولى التى تتوسط بين الاثنين.

وهناك سبب قوى – زيادة على ذلك – للاعتقاد بأنَّ الحالـةَ الأولـى مشتركةٌ بين أفراد النوع [البشرى]؛ فلو نشأ أطفالى فى طوكيو لاكتسبوا اللغة اليابانية، شأنهم شأن الأطفال هناك. ويعنى هذا أن للأدلة عن اليابانية صـلةً مباشرة بالمسلَّمات عن الحالة الأولى للإنجليزية. ويمكن بهـذه الطـرق أن نضع شروطًا علمية اختبارية قوية يجب على نظرية الحالة الأولى أن تخضع لها، وأن نَخلق مسائلَ عديدة لعلم الأحياء الخاص باللغة، مثل: كيـف تحـدِّد المورِّثاتُ الحالةَ الأولى، وما آليات الدماغ التى تدخل فـى الحالـة الأولـى والحالات التالية التى تتخذها؟ وهذه مشكلات صعبة جدًّا، حتى فى الأنظمـة

الأكثر بساطة حيث يكون التجريب المباشر ممكنا، لكن بعض هذه المشكلات ربما تقع على آفاق البحث.

وتهتم المقاربةُ التي بيَّنت خطوطَها العامة هنا بالملكــة اللغويــة، أي: بحالتها الأولى، والحالات التالية التي تتخذها. افرض أن عضوَ اللغــة عنــد بيتر كان في الحالة "ل" [من لغة]. ويمكن عندئذ أن نأخذ "ل" على أنها "اللغة التي استبطنها" بيتر. وهذا ما أعنيه حين أتحدث عن اللغة هنــا. وإذا فهمنــا اللغةَ بهذه الكيفية فهي أشبه ما تكون بـــ: "الطريقة التي نتكلم بهــا ونفهــم"، وهي إحدى التصورات التقليدية لها.

وتسمى النظرية الخاصة بلغة "بيتر"، إذا استخدمنا مصطلحًا تقليديًا في إطار جديد، "نحو" لغته. وتحدِّد لغةُ بيتر عددًا غير نهائي من التعبيرات، لكل منها صوته ومعناه. و"تولِّد" لغةُ بيتر، إذا استخدمنا المــصطلحات التقنيــة"، تعبيرات لغته. لذلك تسمى النظرية الخاصة بلغته "نحوًا توليديًا". وكلُّ تعبير منها مجموعٌ معقد من الخصائص يوفِّر "تعليمات" لأنظمة الأداء عنــده، أي: لأعضاء نطقه، والطرق التي ينظِّم بها أفكاره، وهكذا. وإذا ما اتَّخذتْ لغــة بيتر وأنظمةُ الأداء التي تتصل بها الأوضاعَ التي تكون عليها، فيعني هذا أنه يمتلك معرفةً واسعة جدًّا بصوت تلك التعبيرات ومعناها، وقدرةً مماثلة لتأويل ما يَسمعه، والتعبير عن آرائه، واستخدامِ لغته بطرق متنوعة كثيرة أخرى.

وقد نشأ النحوُ التوليدي في سياق ما يُسمى في أكثر الأحيان بـــ "الثورة المعرفية" في خمسينيات [القرن العشرين]، وهو الذي كان عاملاً مهمًــا فــي تطورها. وبغضِّ النظر عن إن كان مصطلح "الثــورة" مُلائمًــا أم لا [عنــد إطلاقه على النحو التوليدي]، فقد كان هناك تغيُّر مهمٌّ في المنظور: إذ تحولَ الاهتمامُ من ملاحظة السلوك والنتائج المحصَّلة منــه (كالنــصوص)، إلــى الآليات الداخلية التي تدخل في التفكير والفعل. فلا يَأخذ المنظورُ المعرفــي السلوكَ وما يَنتج عنه موضوعًا للدرس، بل مادةً أولية يمكن أن تقدِّم لنا أدلةً على آليات الذهن الداخلية والطرقِ التي تنفُذ بها هذه الآلياتُ الأفعالَ وتؤول

بها التجربة. وما يزال هناك مكان للخصائص والأنماط التي كانت محل اهتمام اللسانيات البنيوية، لكنْ بوصفها ظواهرَ ينبغي تفسيرُها مع ظواهر أخرى كثيرة، في ضوء الآليات الداخلية التي تولِّد التعبيرات. وهذه المقاربة "ذهنية"، لكنْ بمعنى ينبغي ألا يكون موضعًا لخلاف. فهي تهتم بـ "بالمظاهر الذهنية للعالَم"، التي توجد جنبًا إلى جنب مع مظاهره الآلية والكيميائية والمناظيرية optical، إلخ. وتسعى لأن تدرس موضوعًا واقعيًا في العالم الطبيعي ـ كالدماغ وحالاته ووظائفه ـ وبهذا تدفع بدراسة الذهن نحو التوحيد مع العلوم الأحيائية في نهاية الأمر.

وقد جدَّدت "الثورةُ المعرفية" كثيرًا من الفهوم العميقة والإنجازات والمآزق فيما يمكن أن يسمى بـ "الثورة المعرفية الأولى" في القرنين السابع عشر والثامن عشر وأعادت صياغتها، وهي التي كانت جزءًا من الثورة العلمية التي غيَّرت فهمنا للكون بصورة جذرية. فقد أدرك الباحثون في تلك الفترة أنَّ اللغة تتميز بـ "استخدامٍ غير محدود لوسائل محدودة"، كما يقول وليم فون هامبولت؛ لكنْ لم يكن لهذا الفهم العميق أن يتطور إلا بطرق محدودة، ذلك أن الأفكار الأساسية ظلت مشوشة وغامضة. أما في أواسط القرن العشرين فقد وفَّر التقدمُ في العلوم الصُّورية تصوراتٍ ملائمة بشكل محدَّد وواضح جدًا، كما مكَّن، بشكل جزئي في الأقل، من إعطاء تفسيرٍ دقيق للمبادئ الحوسبية التي تولِّد التعبيراتِ اللغوية، ومن ثمَّ فهمِ فكرة "الاستخدامِ غير المحدود لوسائل محدودة". كما فتحت بعضُ أوجه التقدم الأخرى الطريقَ إلى دراسة القضايا التقليدية، مع قدر كبير من الأمل في النجاح. وحققت دراسةُ التغيُّر اللغوي إنجازاتٍ كبيرة. وقدَّمت الأناسة اللغوية فهمًا أغنى لطبيعة اللغات وتنوعاتها، وهو ما زلزل كثيرًا من المقولات المقبولة. وكانت بعضُ الموضوعات، ومن أبرزها دراسةُ الأنظمة الصوتية، قد حققت تقدمًا كبيرًا في إطار اللسانيات البنيوية في القرن العشرين.

وسرعان ما كشفت المحاولاتُ المبكرة لتنفيذ برنامج النحو التوليدي أن كثيرًا من الخصائص [اللغوية] الأساسية لم تلاحَظ، حتى في اللغات التي

دُرست بكثافة، وأنّ أكثر الأنحاء التقليدية تفصيلاً وشمولاً والمعاجمَ التقليدية لم تتجاوز ظاهرَ اللغة. وظلت خصائصُ اللغة الأساسية مفترَضة طوال تلك الفترة، لكنها لم تُدرك ولم يعبَّر عنها. وهذا ملائمٌ جدًا إن كان الهدفُ من الدراسة مساعدةَ الناس على تعلُّم لغة ثانية، أو اكتشافَ المعنى المتواضع عليه للكلمات أو الطريقة التي تُنطق بها أو تحصيلَ فكرة عامة عن الكيفية التي تختلف بها اللغات بعضها عن بعض. أما إن كان الهدفُ فهمَ الملكة اللغوية والحالاتِ التي يمكن لها أن تتخذها فلا يمكن أن نفترض ضمنيًا "ذكاء القارئ". بل إن هذا هو موضوع الدراسة، بدلاً من ذلك.

وتقود دراسةُ اكتساب اللغة إلى النتيجة نفسها؛ إذ سرعان ما تكشف النظرةُ المتأنية لتأويل التعبيرات اللغوية أن الأطفال، منذ الأطوار المبكرة، يعرفون أكثرَ بكثير مما توفِّره التجربة. ويصح هذا حتى في الكلمات البسيطة. فيكتسب الطفلُ الكلمات، في فترات ذروة نمو اللغة، بمعدَّل كلمة في الساعة، برغم التعرُّض المحدود جدًا للغة وحدوثه في ظروف غامضة جدا. وتَفهم الكلماتُ بطرق دقيقة ومتداخلة بعيدة جدًا عن متناول أي معجم، وهي طرق لم يُبدأ في دراستها إلا قريبًا جدًا. وحين نتخطى مستوى الكلمة الواحدة تُصبح النتيجةُ أكثرَ إثارة. فيبدو اكتسابُ اللغة قريبَ الشَّبه بنموِّ الأعضاء عموما؛ فهو شيء يَحدث للطفل، لا شيء يُنجزه، ومع أنه لا جدال في أن البيئة مهمةٌ إلا أنّ المسار العامّ للتطور والسمات الرئيسة لما يَحدث محدَّدان بالحالة الأولى بشكل مسبق. لكن الحالة الأولى مشتركة بين الناس. لذلك يجب أن تكون اللغات، في خصائصها الأساسية بل في تفصيلاتها الدقيقة، مفصَّلةً من قماش واحد. ويمكن للعالِم المريخي أن يستنتج بصورة معقولة أن هناك لغةً بشرية واحدة وحسب، مع بعض الاختلافات الهامشية.

ومع تطور الدرس المتأني للغات انطلاقًا من وجهة نظر النحو التوليدي، صار واضحًا أن تنوُّعها كان ضحيةً لبخسٍ متطرِّف يماثل التطرفَ في بخس تعقيدها وبخس مدى تحديدِ الحالة الأولى للملكة اللغوية. إلا أننا

نعرف، في الحين نفسه، أن هذا التنوع والتعقيد ليسا إلا مظهرًا سطحيا.

وكانت هذه النتائج مفاجئة، ومتعارضة لكن لا يمكن تكرانها. وقد أثارت بشكل صارخ ما صار قضية مركزية في الدراسة الحديثة للغة، أي: كيف يمكن أن نبيِّن أن اللغات جميعها لا تعدو أن تكون تنوعات لشيء واحد، في الحين الذى نرصد فيه خصائصها الصوتية والدلالية المتشابكة بصورة دقيقة، وهي التي تبدو مختلفة بشكل لا لبس فيه؟ ويوجب هذا أن تحقق النظرية الدقيقة عن اللغة البشرية شرطين اثنين، هما: "الكفاية الوصفية" و"الكفاية التفسيرية". فيجب أن يحقق نحوُ لغة ما شرطَ الكفاية الوصفية ليُقدِّم رصدًا دقيقًا كاملاً للخصائص التي يعرفها متكلمُ تلك اللغة. أما تحقيقُ شرط الكفاية التفسيرية فيوجب أن تبيِّن أيةُ نظرية للغة كيف يمكن أن تُشتق أيةُ لغة من الحالة الأولى المتماثلة [عند البشر] تحت "شروط الحدود" التي تفرضها التجربة، وتوفِّر – بهذه الطريقة – تفسيرًا لخصائص اللغات في مستوى أكثر عمقا.

وهناك تجاذبٌ خطير بين هذين الهدفين للبحث. إذ يبدو أن البحث عن الكفاية الوصفية يقود إلى مزيد من التعقيد والتنوُّع في أنظمة القواعد، في حين يتطلب البحثُ عن الكفاية التفسيرية وجوبَ أن تكون بنيةُ اللغة متجانسة، إلا في الهوامش. وهذا التجاذب هو ما يرسم الخطوطَ الموجِّهة للبحث غالبا. وتتمثل الطريقةُ الطبيعية لحل هذا التجاذب في مساءلة الفرضية التقليدية، التي نُقلت إلى النحو التوليدي المبكِّر، وتقضي بأن اللغة نظامٌ معقد من القواعد، وأنّ كلَّ واحد منها خاصٌ ببعض اللغات والتراكيب النحوية المعينة، كقواعد تكوين جُمل الصلة في اللغة الهندية، والعبارات الفعلية في السواحلية، والمبني للمجهول في اليابانية، وهكذا. أما اعتبارات الكفاية التفسيرية فتبيِّن أن هذا المسار ليس صحيحا.

وكانت المسألة المركزية أن نجد الخصائصَ العامة لأنظمة القواعد التي يمكن عزوُها إلى الملكة اللغوية نفسها، مع الأمل في أن يبرهن ما فضَل

عن ذلك أنه أكثر بساطة وتجانسا. وقد تمثلت هذه الجهود، قبل خمس عشرة سنة تقريبا، في مقاربة للغة كانت مفارقتها للتقاليد البحثية القديمة تفوق في جذريتها مفارقة النحو التوليدي المبكر لتلك التقاليد؛ فقد رفضت هذه المقاربة التي سميت بـ "المبادئ والوسائط" تصورَ القاعدة والتركيب النحوي رفضًا تامًا: فليس هناك قواعد لتكوين جمل الصلة في اللغة الهندية، ولا عبارات فعلية في السواحلية، ولا مبني للمجهول في اليابانية، وهكذا. أما التراكيب النحوية المألوفة فننظر إليها على أنها مظاهر تصنيفية، ربما تكون مفيدة في الوصف العام لكنّ ليس لها أهمية نظرية. ذلك أن وضعها لا يبعد عن وضع أفكار مثل "الحيوانات الثديية الأرضية" أو "الحيوان المنزلي الأليف". ثم حُللت القواعدُ لتكون على صورة مبادئ عامة للملكة اللغوية، وهي المبادئ التي تتفاعل لتُنتج خصائصَ التعبيرات اللغوية.

ويمكن أن ننظر إلى الحالة الأولى للملكة اللغوية على أنها شبكة قارّة موصولةٌ بلوح مفاتيح؛ وتتكون هذه الشبكة من مبادئ اللغة، أما المفاتيح فتمثّل الخيارات المعيّنة التي تحدّدها التجربة. ونحصل حين توضع المفاتيحُ في وضع معين على اللغة السواحلية؛ ونحصل على اليابانية حين توضع بشكل آخر. ويُنظر إلى أية لغة بشرية على أنها وضعٌ معيّن للمفاتيح ـ أي وضعٌ للوسائط، بالمصطلحات التقنية. وينبغي أن يكون باستطاعتنا على وجه الدقة، إن كان برنامجُ البحث ناجحا، أن نحصل على السواحلية من اختيار معين للمفاتيح، واليابانية من وضع آخر لها، وهكذا عبْر اللغات التي يمكن للبشر اكتسابها. وتوجب الشروطُ الاختيارية على اكتساب اللغة أن يكون من الممكن وضعُ المفاتيح بناءً على ما يتوفر للطفل من معلومات محدودة جدًا. لاحظ أنه يمكن لبعض التغييرات البسيطة في وضع المفاتيح أن تقود إلى تنوعات هائلة ظاهريًا، تبعًا لتكاثر آثار هذا الوضع في تضاعيف النظام. هذه هي الخصائص العامة للغة التي يجب على أية نظرية حقيقية أن تبيّنها بطريقة ما.

ولا يعدو هذا بالطبع أن يكون برنامجًا للبحث، فهو أبعد ما يكون عن كونه نتيجةً ناجزة. وربما لا يمكن للنتائج التي تقترح مرحليًا أن تبقى على شكلها الحاضر؛ بل ربما لا يمكن الاطمئنان إلى أن هذه المقاربة بأجمعها تسير في الطريق الصحيح. ومع هذا فقد حققت، بوصفها برنامج بحث، قدرًا عاليًا من النجاح، وقادت إلى توسع حقيقي في البحث الاختباري في لغات تنتمي إلى أُسَر لغوية متنوعة جدًا، وأثارت أسئلةً جديدة لم يكن بالإمكان حتى صياغتها من قبل، وإلى إجابات عميقة مدهشة كثيرة. واتخذت بعض القضايا، كاكتساب اللغة وتحليل الجمل وعلاج العيوب اللغوية وقضايا أخرى، أشكالاً جديدة، وبَرهنت على أنها أبحاث خصبة جدًا. ويوحي هذا البرنامج، زيادة على ذلك، بغض النظر عما سيئول إليه، بالكيفية التي يمكن بها أن تتوافق النظريةُ اللغوية مع الشرطين المتعارضين للكفاية الوصفية والكفاية التفسيرية. فهي ترسم في الأقل خطوطًا عريضة لأية نظرية حقيقية للغة، وهذا ما يحدث لأول مرة، حقيقة.

والمهمة الرئيسة، ضمن هذا البرنامج للبحث، أن نكتشف المبادئ والوسائط والطريقةَ التي تتفاعل بها ونوضحها، وأن نوسع الإطار ليشمل بعضَ المظاهر الأخرى للغة واستخدامها. ومع أن قدرًا عظيمًا من المسائل ما يزال غامضا، إلا أنه قد تحقق ما يكفي من التقدم الذي جعلنا في الأقل قادرين على النظر في بعض القضايا الجديدة ذات المقتضيات البعيدة جدًّا مما يتعلق بتصميم اللغة، وربما بدراستها. ويمكن أن نسأل، على الأخص: ما مدى جودة هذا التصميم؟ وما مدى قرب اللغة مما يمكن لمهندس ماهر جدًّا أن يصممه، حين نأخذ في الحسبان الظروف التي يجب على الملكة اللغوية أن تتوافق معها؟

ويجب أن تصاغ هذه الأسئلة بصورة أكثر تحديدًا ووضوحا، وهناك عدد من الطرق للسير في هذا السبيل. فالملكة اللغوية مدمجة في البنية الأوسع للذهن/ الدماغ، وتتفاعل مع الأنظمة الأخرى التي تفرض شروطًا

يجب على اللغة التوافق معها إن كان لها أن تكون صالحةً للاستخدام ابتداء. ويمكن أن ننظر إلى هذه الشروط على أنها "شروط للمقروئية" legibility conditions ، بمعنى أنه يجب أن يكون باستطاعة الأنظمة الأخرى أن "تقرأ" تعبيرات اللغة وأن تستخدمها بوصفها "تعليمات" للفكر والفعل. فيجب مثلاً أن يكون باستطاعة الأنظمة العصبية الحركية قراءة التعليمات ذات الصلة بالصوت، أي "التمثيلات الصوتية" التي ولَّدتها اللغة. ولأعضاء النطق والإدراك تصميمٌ محدّد يجعلها قادرة على تأويل بعض الخصائص الصوتية المحدّدة، لا خصائص أخرى. وبهذا تفرض هذه الأنظمةُ شروطًا للمقروئية على العمليات التوليدية للملكة اللغوية، وهي التي يجب أن توفر للتعبيرات الصورةَ الصوتية الملائمة. ويَصدق الأمرُ نفسه في الأنظمة التصورية والأنظمة الأخرى التي تعتمد على موارد الملكة اللغوية، فلهذه الأنظمة خصائصُ ذاتية توجب أن يكون للتعبيرات التي ولَّدتها اللغةُ أنواعٌ محدّدة من "التمثيلات الدلالية"، لا تمثيلات أخرى. لهذا ربما نسأل عن الحد الذي تكون اللغةُ عنده "حلاً جيدًا" لشروط المقروئية التي تفرضها الأنظمةُ الخارجية التي تتفاعل معها. ولم يكن من الممكن لهذا السؤال، إلى وقت قريب جدًا، أن يُطرح بشكل جاد، أو أن يصاغ بطريقة معقولة كذلك. لكن يبدو الآن أن هذا ممكن، بل هناك ما يدل على أن الملكة اللغوية ربما تكون قريبة جدًا من أن تكون نظامًا "مُحكمًا" بهذا المعنى؛ وإذا كان هذا صحيحًا فهو نتيجة مفاجئة.

وما اصطُلح على تسميته بـ "برنامج الحد الأدنى" جُهدٌ موجَّهٌ نحو تقصّي هذه المسائل. ومن المبكر جدًا تقديم حكم نهائي على هذا المشروع. أما حكمي الخاص فهو أن من الممكن وضع هذه المسائل بشكل مثمر على جدول العمل، وأن نتائجها المبكرة واعدة. وأود هنا أن أتحدث باختصار عن هذه الأفكار والتطلعات، ثم أعود بعد ذلك إلى بعض القضايا التي ما تزال على الأفق.

فيوجب برنامجُ الحد الأدنى إخضاعَ الافتراضات التقليدية للتقصي المتأني. وأكثر هذه القضايا تبجيلاً أنَّ للغة صوتًا ودلالةً، وتترجَم هذه

القضية، في المصطلحات الجديدة بشكل طبيعي، إلى الدعوى التي تقضي بأن الملكة اللغوية تلتقي بالأنظمة الأخرى للذهن/الدماغ عند "مستويين وجيهيّين" interface levels [١] يتصل أحدهما بالصوت والآخر بالدلالة. فيحوي أي تعبير معين ولّدته اللغة تمثيلاً صوتيًا يمكن أن "تقرأه" الأنظمةُ العصبية الحركية، وتمثيلاً دلاليًا يمكن أن "يقرأه" النظامُ التصوري والأنظمة الأخرى للفكر والفعل.

وأحد الأسئلة السؤالُ عن إن كان هناك مستويات أخرى غير المستويين الوجيهيين هذين: أي هل هناك مستويات "داخلية" للغة، وعلى الخصوص، مستويا البنية السطحية والبنية العميقة اللذان افترضا في البحث المعاصر؟ (انظر، مثلاً: تشومسكي ١٩٦٥؛ ١٩٨١؛ ١٩٨٦). ويسعى برنامج الحد الأدنى لتبيين أنّ كلّ ما حُلّل بموجب ذينك المستويين كان ضحية لخطأ في الوصف، ويمكن فهمه بشكل مماثل أو أفضل في ضوء شروط المقروئية في المستويين الوجيهيين: ويعني هذا، عند المطلعين على الأبحاث المتخصصة، مبدأ الإسقاط، ونظرية الربط، ونظرية الحالة الإعرابية، وشرط السلسلة، وغيرها.

ونحاول كذلك أن نبيّن أنّ العمليات الحوسبية الوحيدة هي تلك التي لا يمكن تجنبها في ضوء أضعف الافتراضات عن خصائص المستويين الوجيهيين. ومن هذه الافتراضات أن هناك وحدات شبيهة بالكلمة: أي أنه يجب على الأنظمة الخارجية أن تكون قادرة على تأويل وحدات مثل "بيتر" و"طويل". والافتراض الآخر أن هذه الوحدات منظمة في تعبيرات أكبر، كـ Peter is tall "بيتر طويل". والافتراض الثالث أن لهذه الوحدات خصائص صوتية ودلالية: فتبدأ الكلمة "بيتر" Peter بإغلاق الشفتين وتستخدم في الإحالة إلى أشخاص. لذلك تتضمن اللغة ثلاثة أنواع من العناصر:

- خصائص الصوت والمعنى، وتسمى بـ"السمات"؛
- وتُبنى الوحدات بجمع هذه الخصائص، وتسمى "الوحدات المعجمية"؛
- وتركب التعبيرات المعقدة بجمع هذه الوحدات "الذرية" بعضها إلى بعض.

ويترتَّب على هذا أن النظام الحوسبي الذى يولِّد التعبيرات يقوم بعمليتين: فتَجمَع الأولى السماتِ فى وحدات معجمية، وتكوِّن الثانية وحدات تركيبية أكبر بجمع تلك الوحدات التى سبق تركيبها، بدءًا بالوحدات المعجمية.

ويمكن أن نَنظر إلى العملية الأولى على أنها قائمةٌ بالوحدات المعجمية أساسًا. وتحوى هذه القائمةُ، أى المعجم ـ بالمصطلحات التقليديَّة، "الاستثناءات"، أى الارتباطات الاعتباطية بين الصوت والمعنى، والاختيارات المعيَّنة للخصائص التصريفية التى توفِّرها الملكة اللغوية التى تحدِّد الكيفية التى يمكن بها أن نعبِّر عن كون الأسماء والأفعال مفردةً أو جمعًا، وأنَّ الأسماء يمكن أن تكون مرفوعة أو منصوبة، إلخ. ومن الواضح أن هذه السمات التصريفية تؤدى دورًا رئيسًا فى الحوسبة.

ولن يُدخِل التصميمُ الأمثل optimal أيةَ سمات جديدة فى أثناء الحوسبة. لذلك ينبغى ألا تكون هناك إشارات [تُعيِّن العلاقة بين الأسماء] indices ولا وحدات مركَّبية ولا مستويات بشَرْطة bar levels (ومن هنا ليس هناك قواعد للبنية المركَّبية أو نظرية "س ـ بشَرْطة"؛ انظر Chomsky 1995c)[٣]. كما نحاول أن نبيِّن أنه لا تَفرض أيةَ علاقات بنيوية عدا تلك التى تَفرضها شروطُ المقروئية أو تستدعيها بعضُ الطرق الطبيعية للحوسبة نفسِها. ومن الصنف الأول خصائصُ مثل شرط التجاور adjacency فى المستوى الصوتى، وعلاقات البنية الموضوعاتية argument – structure وعلاقات السوَّر بالمتغيِّر quantifier-variable فى المستوى الدلالى. أما فى الصنف الثانى فهناك بعض العلاقات المحلِّية المحض بين السمات، وبعض العلاقات الأوَّلية بين موضوعين تركيبيين يوصل أحدهما بالآخر فى أثناء الحوسبة؛ فالعلاقة التى تقوم بين أحد هذين الموضوعين وبعض أجزاء الموضوع الآخر هى علاقة التحكُّم المكوِّنى c- command؛ وكما أشار

صامويل إيبستين (١٩٩٩) فهذه فكرة تؤدي دورًا رئيسًا عبر تصميم اللغـة كلِّه، وكان يُنظر إليها على أنها غيُر طبيعية إلى حد بعيد، إلا أنها تجد مكانها بطريقة طبيعية من هذا المنظور. لكننا سنتخلص من "العمـل" government وعلاقاتِ الربط الداخلية في اشتقاق التعبيرات، إضافةً إلى أنواع أخرى من العلاقات والتفاعلات.

وكما يعرف أي مطِّلع على الأبحاث التي أُنجزت في الماضي القريب، هناك أدلةٌ اختبارية وافرة تدعم النتيجةَ المضادة لهذا كله، وأسوأ من هذا أنَّ إحدى المسلَّمات المركزية في البحث الذي أُنجز في إطار نظريـة المبـادئ والوسائط، والإنجازاتِ الباهرة إلى حد بعيد التي حققتْها، تقضي بأنَّ كل مـا اقترحتُه آنفًا زائف ــ وهو ما يعني أن اللغة "غير محكمة" إلى حد بعيد بهذه المعايير، كما يمكن أن يُتوقع؛ فليست مهمةً سهلة – إذن – أنْ نبيِّن أنَّه يمكن التخلص من هذه الوسائل التقنية بوصفها تقنيات وصفية غير مرغوبة؛ وربما أفضل من ذلك، أنَّ القوة الوصفية والتفسيرية ستتعاظم إن تخلَّصنا من هـذا "الحملِ الزائد". لكنني أظن، مع ذلك، أن الجهود البحثية التي أُنجـزت فـي السنوات القليلة الماضية توحي بأن هذه النتائج، التي كانت تبدو مستحيلة قبل ذلك، ممكنة في الأقل، بل ربما صحيحة.

ومن الجلي أن اللغات تختلف الواحدة منها عن الأخرى، ونحن نرغب أنْ نعرف كيف تختلف. وأحد المعايير التي تختلف فيها اللغات بعضها عـن بعض اختياراتُها من الأصوات، وهي التي تتنوع تنوعًا محدودا. والمعيـار الثاني أنها تختلف من حيث الارتباط بين الصوت والمعنى، وهـو ارتبـاط اعتباطي أساسا. وهذان المعياران واضحان، وينبغـي ألا نتوقـف عنـدهما كثيرا. وأكثر من ذلك لفتًا للنظر اختلافُ اللغات فـي الأنظمـة الـصرفية: كاختلافها في أنظمة الإعراب، مثلا. فهذه الأنظمة غنية جدًّا فـي اللاتينيـة، وأغنى من ذلك في السنسكريتية أو الفينلندية، لكنها محدودة في الإنجليزيـة وخفيَّة في الصينية. أو هكذا تبدو؛ وتوحي اعتباراتُ الكفايـة التفـسيرية أن

المظهر ربما يكون مضللاً هنا كذلك، بل تشير الأبحاث التى أُنجزت فى الماضى القريب (تشومسكى ١٩٩٥ج؛ ١٩٩٨) إلى أن هذه الأنظمة تتنوع بقدر أقل مما يوحي به الوضعُ الذي يبدو من الصيغ السطحية. فمن المحتمل مثلاً أن يكون نظامُ الحالة الإعرابية في الصينية والإنجليزية هو نفسه الذى في اللاتينية، لكنْ تحققه الصوتى مختلف. كما يبدو، زيادة على ذلك، أن من الممكن اختزال أكثر مظاهر التنوع إلى خصائص الأنظمة التصريفية. وإذا كان هذا الأمر صحيحًا فتنوعُ اللغات موجود، إذن، فى جزء ضيق من المعجم.

وتفرض شروطُ المقروئية تفريعًا ثلاثيًا للسمات التى تُجمع فى الوحدات المعجمية:

* سمات دلالية، وتؤوّل عند المستوى الوجيهى الدلالى؛
* سمات صوتية، وتؤوّل عند المستوى الوجيهى الصوتى؛
* سمات لا تؤوّل عند أى من المستويين الوجيهيين.

وكلُ سمة، فى اللغة المصمَّمة تصميمًا محكمًا، إما دلاليّة أو صوتيّة، لا مجردَ وسيلة لخلق موضعٍ أو تسهيلِ حوسبة. وإذا كان الأمر كذلك، فلا وجود لأية سمات صُورية غير مؤوّلة. وهذا متطلّب قوى جدًا، كما يبدو. لذلك ليس هناك تأويل لبعض السمات الصورية النمطية كالحالة الإعرابية البنيوية ــ كالرفع والنصب فى اللاتينية، مثلا ــ فى المستوى الوجيهى الدلالى، ولا حاجة للتعبير عنها فى المستوى الصوتى كذلك، وهناك أمثلة أخرى فى الأنظمة التصريفية.

ويبدو، فى الحوسبة التركيبية، أن هناك مظهرًا ثانيًا من عدم الإحكام فى تصميم اللغة أكثر إثارة، وهو مظهرٌ سطحى فى الأقل، ذلك هو: "خصيصة الإزاحة" وهى من أكثر مظاهر اللغة شيوعًا: فتؤوّل بعضُ العبارات كما لو أنها تحتل موضعًا مختلفًا [عن الموضع الذى توجد فيه] فى الجملة، حيث يمكن أن تظهر أحيانًا بعضُ العبارات المماثلة ثم تؤوّل فى

ضوء العلاقات المحلية الطبيعية. انظر إلى الجملة التالية:

Clinton seems to have been elected.

"يبدو كلينتون كأنه انتُخب".

ونحن نفهم العلاقة بين elect "ينتخب" و Clinton بالطريقة التي نفهم بها هذه العلاقة حين ترتبط الكلمتان ارتباطًا محليًا في الجملة التالية:

It seems that they elected Clinton.

"يبدو أنهم انتخبوا كلينتون".

فالعبارة Clinton مفعول مباشر، بالمصطلحات التقليدية، للفعل elect "ينتخب"، إلا أنها "نُقلت" إلى موضع فاعل الفعل seems "يبدو"؛ ويتطابق الفاعل والفعل في السمات التصريفية في هذه الحالة، لكن ليس هناك علاقة دلالية بينهما؛ ذلك أنَّ علاقة الفاعل الدلالية مع الفعل البعيد elect "ينتخب".

فلدينا الآن حالتان من "عدم الإحكام": السماتُ التي لا يمكن تأويلها، وخصيصةُ الإزاحة. ونتوقع، بحسب مسلَّمة التصميم الأمثل، أن يكون بينهما صلة، وهذه هي الحال كما يبدو، فالسمات التي لا يمكن تأويلها هي الآلية التي تُنفِذ خصيصةَ الإزاحة.

ولم يسبق أن جُعلت خصيصةُ الإزاحة جزءًا لازمًا في الأنظمة الرمزية التي تصمَّم من أجل بعض الأغراض الخاصة، وتسمى "لغات"، أو "لغات صورية" بمعنى مجازي، كـ "لغات الرياضيات"، و"لغات الحاسوب"، و"لغات العلم". وليس لهذه الأنظمة أنظمةٌ تصريفية كذلك؛ لهذا ليس فيها سمات لا يمكن تأويلها. والإزاحة والتصريف خصيصتان مقصورتان على اللغة البشرية، من بين خصائص كثيرة لا يُلتفت إليها حين تُصمَّم الأنظمة الرمزية لأغراض أخرى، وهي التي يمكن أن تتغاضى عن شروط المقروئية التي تفرضها بنيةُ الذهن/الدماغ على اللغة البشرية.

وتُنفَذ خصيصةُ الإزاحة في اللغة البشرية بمقتضى التحويلات النحوية أو بوسائل أخرى، لكنْ لا بد أن تُنفَّذ بطريقة ما دائما. أما السبب الذي يوجب

وجود هذه الخصيصة في اللغة فأمر لافت للنظر، وكان محلاً للنقاش منذ الستينيات ولم يتحقق أي اتفاق نهائي بشأنه. ويعود جزءٌ من السبب، كما أظن، إلى الظواهر التي كانت توصف في ضوء تأويل البنية السطحية؛ وكثير منها مألوف في النحو التقليدي، كالمبتدأ والخبر Topic-Comment، التخصيص specificity، والمعلومات الجديدة والقديمة، والقوة المنفذة agentive force التي نجدها حتى في الموضع المنقول إليه، إلخ. وإذا كان ذلك صحيحا، فخصيصة الإزاحة تفرضها شروط المقروئية: فالدافع لها هو المتطلبات التأويلية المفروضة من الخارج على أنظمة تفكيرنا، وهي التي تتصف بهذه الخصائص الخاصة (كما تبيّن ذلك دراسة استخدام اللغة). وتناقش هذه المسائل الآن بطرق لافتة للنظر حقًا، وهو ما لا يمكنني الحديث عنه بالتفصيل هنا.

وقد افتُرض، منذ البدايات الأولى للنحو التوليدي، أن العمليات الحوسبية نوعان:

* قواعد للبنية المركّبية تؤلّف من الوحدات المعجمية قطعًا تركيبية أوسع.
* قواعد تحويلية تنفّذ خصيصة الإزاحة.

وللعمليتين كلتيهما جذور تقليدية، لكنْ سرعان ما اكتُشف أنهما تختلفان اختلافًا كبيرًا عما كان يُفترض من قبل، مع قدر واضح من التنوع والتعقيد. وقد سعى برنامج البحث ليبيّن أن التعقيد والتنوع عارضان وحسبُ، وأنه يمكن أن يُختزل نوعا القواعد إلى شكل واحد بسيط. فربما يكمن الحل "المحكم" لمشكلة تنوع قواعد البنية المركبية في التخلي عنها تمامًا في صالح العملية التي لا يمكن اختزالها وتتمثل في أخذ موضوعين سبق التأليف بينهما وربْط أحدهما بالآخر، مما يُنتج موضوعًا أكبر يتصف بالخصائص المقصورة على هدف ذلك الربط وحسب، ويمكن أن نسمي هذه العملية بـ "الدمج" Merge. ويُشير البحث الذي أُنجز في السنوات القريبة الماضية أن هذا هدف يمكن تحقيقه.

ويتكون الإجراء الحوسبي الأمثل، إذن، من عملية "أدمج" والعمليات التي تصوغ خصيصةَ الإزاحة، أي: العمليات التحويلية أو عمليات أخرى تماثلها. وقد سعى المنحى الثاني من المشروعين المتوازيين لاختزال المكوِّن التحويلي إلى أبسط شكل؛ ولا يبدو أن من الممكن التخلي عنه، بعكس قواعد البنية المركبية. وكانت النتيجة النهائية دعوى مفادها أنه فيما يخص مجموعة مركزية من الظواهر، هناك عملية واحدة فقط هي "انقل Move" — وتعني أساسًا، انقل أية وحدة إلى أي مكان، وهي لا تتصف بأية خصيصة مقصورة على لغات أو تراكيب معينة. أما كيفيةُ انطباقها فتحدِّدها مبادئ عامة تتفاعل مع بعض الاختيارات المحدَّدة للوسائط — أي: وضع المفاتيح — الذي يحدِّد لغةً معينة. فتأخذ عمليةُ "ادمج" موضوعين متمايزين "س" و"ص" وتدمج "س" بـ "ص". وتأخذ العمليةُ "انقل" موضوعًا مفردًا "س" وموضوعًا آخر "ص" هو جزء من "س"، وتربط "ص" إلى "ص".

والمشكلة التالية أن نبيِّن أن السمات التي لا يمكن تأويلها هي، حقًّا، الآليةُ التي تنفِّذ خصيصةَ الإزاحة، وهو ما يعني اختزال النوعين الأساسيين من "عدم الإحكام" في النظام الحوسبي إلى نوع واحد. وإذا تبيَّن أنّ الدافع وراء خصيصة الإزاحة هو شروط المقروئية التي تفرضها الأنظمةُ الخارجية للتفكير، كما اقترحتُ آنفًا، فيعني هذا أننا تخلصنا من أنواع "عدم الإحكام" كلِّها وأن تصميمَ اللغة أمثلُ، في نهاية الأمر. ذلك أن الغرض من اشتراط وجود السمات غير المؤوَّلة أن تكون آليةً لإرضاء شروط المقروئية التي يفرضها المعمار العام للذهن/الدماغ.

والطريقة التي يسير بها هذا التوحيد بسيطة جدًّا، لكن تفسيرها بشكل متماسك سيأخذنا بعيدًا عن مدى هذه الملحوظات. والفكرة الحدسية الأساسية أنه يجب أن تُحذف السماتُ التي لا يمكن تأويلها لإرضاء شرط المستوى الوجيهي، ويتطلب هذا الحذف علاقةً محلية بين السمة المخالفة offending وسمة أخرى مشابهة لها يمكن أن تحذفها. وهاتان السمتان في العادة

متباعدتان لأسباب تتعلق بالطريقة التي يعمل بها التأويل الدلالي. كما في الجملة:

Clinton seems to have been elected.

إذ يتطلب التمثيل الدلالي أن يكون الفعل elect "ينتخب" والاسم Clinton مرتبطين محليًا في العبارة: elect Clinton كي يؤوّل التركيب تأويلاً ملائما، كما لو أن الجملة في الواقع:

seems to have been elect Clinton.

ويظهر الفعل الرئيس في الجملة seems "يبدو" بسمات تصريفية لا يمكن تأويلها؛ فهو متصرف للمفرد الغائب، وهي خصائص لا تضيف شيئًا مستقلا إلى معنى الجملة، ذلك أنها موجودة في العبارة الاسمية [كلينتون] التي تتطابق معها، ولا يمكن حذفها هناك. ويوجب هذا أن تُحذف هذه السمات المخالفة في الفعل seems حين يكون في علاقة محلية، وهذا شكل صريح لمقولة "التطابق" الوصفية التقليدية. ولإنجاز ذلك تجذب السماتُ المخالفة في الفعل الرئيس seems السماتِ المماثلةَ لها في العبارة المطابقة Clinton، ثم تُحذف بعد ذلك في ضوء التماثل المحلي. لكن العبارة Clinton نُقلت الآن.

لاحظ أن سمات "كلينتون" وحدَها هي التي جُذبت؛ أما العبارة بكاملها فتنتقل لأسباب تتعلق بالنظام العصبي الحركي، الذي لا يمكنه أن "ينطق" أو "يسمع" السماتِ المفردة معزولةً عن العبارة التي تنتمي إليها. أما إذا لم ينشّط النظامُ العصبي الحركي - لأسباب معينة - فالسمات وحدَها "تُرفَّع"، ونحصل من ثَمَّ، بالإضافة إلى جمل مثل:

an unpopular candidate seems to have been elected

"يبدو أنَّ مرشحًا غير محبوب انتخب".

التي تعرّضت لـــ "نقل" ظاهر، على جمل مثل الجملة التالية:

seems to have been elected an unpopular candidate.

"يبدو انتخب مرشح غير محبوب" [يبدو أنه انتخب مرشح غير محبوب].

وتتطابق العبارة البعيدة an unpopular candidate ، في هذه الجملة، مع الفعل seems ، وهو ما يعني أن سمات هذه العبارة جُذبت إلى علاقة محلية مع الفعل seem أما سائر العبارة فتترك في مكانه. ويسمى عدم تنشيط النظام الحسي الحركي بـ "الإزاحة الخفية" covert movement ، وهي ظاهرة تتسم بخصائص لافتة للنظر. وتوجد مثل هذه الجمل في بعض اللغات ـ ومنها الإسبانية مثلاً. وفي الإنجليزية كذلك، وإن كانت بعضُ الأسباب الأخرى توجب إدخالَ عنصر فارغ دلاليًا هو there "هناك" لنحصل على الجملة:

there seems to have been elected an unpopular candidate.

كما توجب أسبابٌ أخرى لافتة للنظر أن يُعكَس الترتيب بين مكوِّنات الجملة لتَظهر على الشكل التالي:

there seems to have been an unpopular candidate elected.

وتترتب هذه الخصائص على بعض الاختيارات المحددة للوسائط، وهي التي تُحدث بعضَ الآثار في اللغات عمومًا وتتفاعل لتعطي طيفًا معقدًا من الظواهر التي لا يتمايز بعضها عن بعض إلا ظاهريًا. ويمكن في الحالة التي نناقشها هنا اختزال الأمور كلها إلى حقيقة بسيطة تتمثل في أنه يجب حذف السمات الصورية التي لا يمكن تأويلها حين تكون في علاقة محلية مع علاقة مماثلة، مما ينشأ عنه خصيصةُ الإزاحة الضرورية للتمثيل الدلالي في المستوى الوجيهي.

وهناك قدر من الإجمال في هذا الوصف المختصر. أما التفصيل الكامل فيكشف لنا عن صورة أكثر لفتًا للنظر، وتترتب عليها مقتضيات كثيرة في لغات مختلفة من حيث التصنيف النَّسَبي. لكن الاستمرار في هذا سيأخذنا بعيدًا عما تتسع له هذه الملحوظات.

وأود أن أختم بإشارة مختصرة في الأقل إلى بعض القضايا الأخرى،

وهي قضايا تتعلق بالطرق التي تتصل بها الدراسة "الداخلية" internalist للغة بالعالم الخارجي. وللتبسيط دعنا لا نتجاوز الكلمات البسيطة. افرض أن الكلمة book "كتاب" تنتمي إلى معجم "بيتر". وتتألف هذه الكلمة من مجموع معقّد من الخصائص، الصوتية والدلالية. فتستعمل الأنظمةُ الحسية الحركية الخصائصَ الصوتية من أجل النطق والإدراك، وتصلهما بالأحداث الخارجية، كحركات الجزيئات، مثلا. وتستعمل الأنظمةُ الأخرى للذهن الخصائصَ الدلالية للكلمة حين يتكلم بيتر عن العالم، وحين يؤوِّل ما يقوله الآخرون عنه.

وليس هناك خلاف بَعيد الأثر عن كيف نقارب الأمرَ على الجانب الصوتي، أما على جانب المعنى فهناك خلافات عميقة جدًا. فيبدو لي أن الدراسات الاختبارية تقارِب قضايا المعنى بطريقة لا تبعد كثيرًا عن الطريقة التي تَدرس بها الصوت، كما في الصواتة وعلم الأصوات. فتبحث هذه الدراسات عن الخصائص الدلالية لكلمة book: أي كونها اسميّة لا فعلية، وتُستخدم في الإحالة إلى شيء مادي مصنوع لا إلى جوهر طبيعي كالماء أو إلى شيء مجرد كالصحة، إلخ. وربما صح لسائل أن يَسأل إن كانت هذه الخصائص جزءًا من معنى الكلمة book أم أنها جزء من التصوُّر الذي يرتبط بها؛ وليس هناك – في الفهم السائد الآن – طريقة معقولة للتمييز بين هذين الاقتراحين، لكن ربما أمكن في المستقبل اكتشاف أن هناك قضية اختبارية. وبغض النظر عن أي الاقتراحين نتبناه فبعضُ السمات الداخلية للوحدة المعجمية book تحدِّد طريقةَ التأويل من النوع الذي أشرنا إليه هنا.

ونجد، حين نَستقصي استخدامَ اللغة، أن الكلمات تؤوَّل في ضوء عوامل كالتكوين المادي، والصياغة، والاستخدام المقصود أو المألوف عادة، والوظيفة المؤسَّسية، إلخ. فتُصنَّف الأشياء وتُعزى إلى المقولات في ضوء هذه الخصائص ــ التي أعدُّها سمات دلالية ــ بشكل مماثل للسمات الصوتية التي تُحدِّد صوتَها. ويمكن لاستخدامِ اللغة أنْ يُتعامل مع هذه السمات الدلالية

بطرق شتى. افرض أن مكتبة تحوى نسختين من رواية تولستوى "الحرب والسلام"، ثم أخذ بيتر واحدة وجون الأخرى. فهل أخذ بيتر وجون الكتاب نفسه، أم أخذا كتابين مختلفين؟ فإذا وجّهنا اهتمامنا إلى العامل المادى لهذه الوحدة المعجمية فقد أخذا كتابين مختلفين؛ أما إذا وجهنا الاهتمام إلى العامل المجرَّد فقد أخذا الكتاب نفسه. ويمكن أن نوجه الاهتمام إلى العاملين المادى والمجرد فى وقت واحد، حين نقول، مثلاً:

The book that he is planning will weigh at least five pounds if he ever writes it.

"الكتاب الذى يخطِّط لتأليفه سوف يزن خمسة أرطال فى الأقل إنْ ألّفه".

أو:

His book is in every store in the country.

"يوجد كتابُه فى كل دُور بيع الكتب فى البلاد".

ويمكن، بالمثل، أن نصبغ الباب بلون أبيض ثم نمشى عبْره، مستخدمين الضمير it "هو" فى الإشارة بشكل غامض إلى الباب نفسه أو إلى المدخل. ونستطيع أن نروى الخبر التالى:

The bank was blown up after it raised the interest rate.

"نُسف المصرفُ بعد أن رفع نسبة الفائدة".

أو:

It raised the rate to keep from being blown up.

"رفع الفائدةَ خوفاً من أن يُنسف".

ويمكن أن يؤوَّل الضمير it هنا و"المقولة الفارغة" التى هى فاعل العبارة being blown up بالعاملين المادى والمؤسسى، بشكل متزامن.

والحقائق عن مثل هذه الأمور واضحة في الغالب، لكنها ليست تافهة. لهذا تحترم العناصرُ التي تعتمد بعضها على بعض إحاليًا، حتى أكثرها تقييدا، بعضَ التمييزات وتتجاهل بعضها الآخر، بطرق تتنوع بحسب تنوُّع أنماط مختلفة من الكلمات بطرق لافتة للنظر. ويمكن أن ندرس هذه الخصائص بطرق كثيرة، كأن ندرسها من حيث الاكتساب اللغوي، والشيوع بين اللغات، والكلمات المصطنعة، إلخ. وما نكتشفه معقد بصورة مفاجئة؛ ويُعرف، بصورة غير مفاجئة، بشكل سابق على أي دليل، ومن هنا فهو مشترك بين اللغات. وليس هناك ما يُلزمنا بأن نتوقع وجود مثل هذه الخصائص في اللغة البشرية؛ وربما تكون لغة سكان كوكب المريخ مختلفة. أما الأنظمة الرمزية للعلم والرياضيات فمختلفة بكل تأكيد. ولا يَعلم أحد إلى أي مدى تكون الخصائصُ المحدِّدة للغة البشرية نتيجةً لبعض القوانين الكيميائية الأحيائية العامة التي تنطبق على أشياء لها السمات العامة للدماغ، وهذه قضية مهمة أخرى ما تزال على أفق أبعد.

وقد طوَّرت إحدى مقاربات التأويل الدلالي بأشكال مماثلة لهذه في فلسفة القرنين السابع عشر والثامن عشر بطرق لافتة للنظر، مستخدمةً في الغالب مبدأ هيوم الذي مفاده أن "الهوية التي نعزوها" إلى الأشياء "لا تعدو أن تكون خرافة" (Hume 1740: section 27)، ابتدعها الفهمُ البشري. وهذه النتيجة التي وصل إليها هيوم معقولة جدًا. فلا يتضمن الكتاب الذي أمامي على المكتب هذه الخصائصَ الغريبة في ضوء تكوينه الداخلي؛ بل في ضوء الطرق التي يفكِّر بها الناس، ومعاني الكلمات التي يصوغون بها هذه الأفكار. فتستعمل الخصائصُ الدلالية للكلمات للتفكير في العالَم والكلام عنه في ضوء المنظورات التي توفرها مواردُ الذهن، بشكل لا يبعد كثيرًا عن الطرق التي يستخدمها التأويل الصوتي فيما يبدو.

أما الفلسفةُ المعاصرة للغة فتنتهج مسارًا مختلفا. فهي تَسأل عن ما الذي تُحيل إليه الكلمة، وتقدِّم أجوبة متنوعة. لكنْ ليس هناك معنى واضح

لهذا السؤال. ومثال "الكتاب" نموذجي. فلا يعني شيئًا مهمًا أن تسأل عن ما الشيء الذي يُحيل إليه التعبير:

Tolstoy's *War and Peace.*

«كتاب تولستوى "الحرب والسلام"».

حين يأخذ جون وبيتر نسختين متماثلتين من المكتبة. فتعتمد الإجابة على كيفية استخدام السمات الدلالية حين نفكّر ونتكلم، بأي واحد من الطريقين. وعلى العموم، فلا تُعيّن كلمةٌ ما، حتى أبسط أنواع الكلمات، شيئًا معينًا في العالم، أو في "حيّزنا الاعتقادي". وتبدو الافتراضات المتواضع عليها عن هذه الأمور مشكوكا فيها إلى حد بعيد.

وقد ذكرتُ أن النحو التوليدى المعاصر سعى لتناول الاهتمامات التي شغلت أنظار التوجهات التقليدية، ومنها على وجه الخصوص الفكرة الديكارتية التي مفادها أن "الفارق الحقيقي" (Descartes 1649/1927: 360) بين البشر والمخلوقات الأخرى أو الآلات هو قدرة البشر على التصرف بالطريقة التي يرون أوضح تمثيل لها في الاستخدام العادي للغة، الذي يتصف بأنه: لا تحدُّه حدود نهائية، وتؤثّر فيه الحالةُ الداخلية، لكنها لا تحدّده، ويتوافق مع المقامات من غير أن يكون نتيجة لها، ومتجانسٌ ويثير الأفكار التي ربما أمكن للسامع التعبير عنها، إلخ. ويتمثل هدف البحث الذى أناقشه هنا في أن نكتشف بعضَ العوامل التي تدخل في مثل هذه الممارسة المألوفة. ومع ذلك فهي "بعض" العوامل وحسب.

ويسعى النحو التوليدى إلى اكتشاف الآليات التي تُستخدم في هذه الممارسة، لذلك يسعى إلى الإسهام في دراسة "كيف" تستخدم هذه الآليات بالطريقة الخلاقة للحياة العادية. أما كيف تُستخدم فقضيةٌ شغلت أنظار الديكارتيين، وهي التي ما تزال تمثل لغزًا لنا كما كانت لغزًا عندهم، ذلك مع أننا نفهم اليوم عن تلك الآليات التي تدخل في هذه الممارسة أكثر مما كانوا يفهمونه عنها.

وتشبه دراسةُ اللغة من هذا الوجه، مرة أخرى، دراسةَ الأعضاء الأخرى؛ فقد كشفتْ دراسةُ الأنظمة الإبصارية والحركية الآليات التي يؤوِّل بها الدماغُ المثيراتِ المشتّتة على أنها مكعَّب والذراعَ التي تمتد لتُمسك بكتاب على المكتب. لكن فروع العلوم هذه لا تثير أسئلةً عن كيف يقـرِّرُ النـاسُ النظرَ إلى كتاب على طاولة أو الإمساك به، ولـيس مـن فائـدة، كـذلك، للتخرصات عن استعمال الأنظمة الإبصارية والحركية، أو الأنظمة الأخرى. إن هذه القدرات، التي تتمثل بأجلى مظاهرها في استخدام اللغة، هـي لُـبّ الاهتمامات التقليدية: فهي عند ديكارت في الفترة المبكرة من القرن السـابع عشر "أكثر الأشياء التي يمكن أن نمتلكها نُبلاً" وهي ما "نمتلكه حقـا". كمـا لاحظ الفيلسوف الطبيب الإسباني خوان هوارتي، قبل نـصف قـرن مـن ديكارت، أن هذه "الملكة التوليدية" للفهم والفعل البشريين العاديين غريبةً عند "الوحوش والنباتات" (Huarte 1575/ 1698: 3؛ انظـر كـذلك Chomsky 1966: 78 الهامش) مع أنها شكل متواضع من الفهم يقصُر عـن الممارسـة الحقيقية للخيال الخلاق. بل إن هذا الشكل المتواضع نفسه يقع خارج قـدرتنا التنظيرية، إذا استثنينا دراسة الآليات التي تَدخل فيها.

وقد تعلّمنا في السنوات القليلة الماضية، في عدد من المجالات، ومـن بينها اللغة، الكثيرَ عن هذه الآليات. والمشكلاتُ التي يمكننا الآن أن نواجهها صعبةٌ ومتحدِّية، لكن كثيرًا من الألغاز ما تزال بعيدة عـن متنـاول شـكل التقصي البشري الذي نسميه "علْما"، وهذه نتيجة ينبغي ألا تفجؤنا إن نظرنـا إلى البشر على أنهم جزء من العالَم العضوي، وربما ينبغي ألا نجدها مُحبِطة كذلك.

هوامش الفصل الأول

(١) والمصطلح interface مأخوذ من لغة الحاسوب، ويعني الحدّ المشترك بين نظامين مختلفين. ويعرّف محمد غاليم هذه القوالب "الوجيهية" بأنها "... هي التي تضمن التواصل بين مستويات الترميز عن طريق ترجمة جزئية للمعلومات من صورتها في مستوى معين إلى صورة موافقة في مستوى آخر، أو أن القالب الوجيهي يقيم تشاكلاً جزئيًا بين مستويين للمعلومات. فتصبح ملكة مثل ملكة اللغة قائمة على تفاعل عدد من القوالب التمثيلية والقوالب الوجيهية" (محمد غاليم. المعنى والتوافق: مبادئ لتأصيل البحث الدلالي العربي. ص ٤٢٩). (المترجم)

(٢) انظر مقدمة المترجم عن هذه المصطلحات والمصطلحات الأخرى التي ترد في الكتاب. (المترجم)

الفصل الثاني
تفسير استخدام اللغة

يُجادل هيلاري بُتْنام، في [سلسلة المحاضرات التي ألقاهـا بعنـوان] "محاضرات جون لوك"، "أنَّ بعض القدرات البشرية ـــ والمثال النموذجي لها "تكلُّمُ اللغة" ـــ ربما يتعذَّر تفسيرها نظريًا حين تؤخذ منفردةً"، إلا أن أُخـذت ضمن نموذج كامل "للتنظيم الوظيفي البشري" الذي ربما يُستعـصى علـى الفهمِ البشري حين يُبيِّن بأي قدر من التفصيل". وتكمن المشكلةُ في أننا لـن نستطيع، واقعيًا، الظفرَ بنموذج تفسيري مفصَّل للنوع الطبيعي natural kind "بشر"، لا بسبب "التعقيد وحسب"، بل "لأننا محجوبون جزئيًا عن أنفسنا، أي أنه يتعذر أن يفهم أحدُنا الآخرَ بالطريقة التي نفهم بها ذرات الهايـدروجين". وهذه "حقيقة تكوينية" عن "البشر في الفترة الحاضرة"، مع احتـمال ألا تكون كذلك بعد مئات قلـيلة من السنين (Putnam 1978).

فيتطلب "النوعان الطبيعيان": "بشر" و"ذرة الهايدروجين"، إذن، نوعين مختلفين من البحث، يقود أحدُهما إلى "نماذج تفسيرية مفصَّلة"، أما الآخر فلا، في الوقت الحاضر في الأقل. والصنفُ الأول "بحث علمـي"، نـسعى عـن طريقه إلى الوصول إلى نظريات تفسيرية يمكن فهمها ونتطلع إلى دمجه في نهاية الأمر بالعلوم الطبيعية الصِّرفة؛ ولنسمِّ هذا المنحى مـن البحـث بـــ "البحث العلمي الطبيعي"، مركِّزين على ما لهذا النشاط من خصائص وأهداف معقولة، بمعزل عن الإنجازات الفعلية التي حققها. ويقع وراء ما يمكـن أن يشمله "التنظيمُ الوظيفي البشري" الكاملُ قضايا تتعلق بالمدى الذي يَصل إليه، وليس هذا المدى موضوعًا جادًّا للبحث العلمي الطبيعي (في الوقت الـراهن) فهو أكثر شبهًا بـــ "دراسة كلِّ شيء"؛ إذ يُشبه محاولاتِ الإجابة عن أسـئلة زائفة مثل: "كيف تعمل الأشياء؟" أو "لماذا تحدث؟" ويمكن الادعاء بأن أسئلة كثيرة ـــ ومنها بعضُ الأسئلة المهمة جدًّا للبشر ـــ لا تدخل في إطار البحث

العلمي الطبيعي؛ وهو ما يَجعلنا نقاربها بطرق أخرى. وليست هذه الفوارق صارمة، كما يؤكد بتنام، لكنها مفيدة، مع ذلك.

ويضيف بتنام، في نقاش نقدي "للنزعة الذهنية المُحنَّكة من النوع الذي يُنتج في جامعة إم. آي. تي" (ويمثلها كتاب جيري فودر: "لغة التفكير"؛ Fodor 1975، تحديدا) بعضَ المِلحوظات المتمِّمة عن البحث النظري الذي ربما "لن" يساعِدنا في تفسير تكلُّم اللغة. ومنها احتمالُ اكتشاف العلوم المتخصصةِ في دراسة الدماغ أنه حين "نفكِّر بالكلمة cat 'قطة'" (أو حين يفكر متكلمُ اللغة التايلندية بما يقابلها) تتكوّن الصورة C [الصوت الذي تبدأ به كلمة Cat] في الدماغ. ويخلُص إلى القول بـ "أن هذا شيء مثير إن كان صحيحا"، بل ربما يكون إضافةً مهمَّةً لعلم النفس وعلوم الدماغ، "لكنْ ما الصلة بين هذا و'معنى قطة'" (أو ما يناظرها في اللغة التايلندية، أو الصوت C)؟ — ومقتضى قولِه أنْ ليس هناك صلة (Putnam 1988a).

فلدينا الآن دعوِيان مترابطتان. الأولى: أنَّ "تكلُّمَ اللغة" والقدرات البشرية الأخرى لا تَدخل في الوقت الراهن في البحث العلمي الطبيعي. والثانية: أنه ليس هناك ما يُمكن أن نتَعلَّمه عن المعنى (وهو ما يعني أنه لا يمكن أن نتعلَّم شيئًا عن أحد المظاهر الأساسية لتكلُّم اللغة) من دراسة التكوينات في الدماغ والعملياتِ التي ينفِّذها (من النوع الذي تكلَّم عنه، في الأقل). ويبدو لي أن تعبيره عن النتيجة الأولى ليس كافيًا ولم يَصغها بشكل ملائم؛ أما الثانية فقوية جدا. فدعنا نتفحَّصهما بالترتيب.

والتصوُّر "بشر" جزء من فهمنا البديهي، وله خصائص مثل: الفرادة، والثبات النفسي، إلخ، مما يُصور بعضَ اهتمامات البشر المعينة، وتوجهاتهم، ومنظوراتهم. والشيء نفسُه صحيح عن تَصوُّر "تكلُّم اللغة". ولن تَدخل مثل هذه التصورات، إذا غضضنا النظر عن الصُدف غير المتوقَّعة، ضمن النظريات التفسيرية التي تنتمي إلى البحث العلمي الطبيعي؛ ليس الآن وحسب، بل إلى الأبد. ولا يعود ذلك لبعض الموانع الثقافية أو حتى لأنواع

القصور البشرى الذاتية (مع أن مثل هذه موجودة فعلا)، بل لطبيعتها. وربما يمكن أن نقول أشياء كثيرة عن الناس، حين نتصورهم بهذا الشكل؛ بل أن نأتى كذلك ببعض التعليلات التى تقدّم بعض التفسيرات الضعيفة. لكن لا يمكن لمثل هذه التعليلات أن تُدمج في العلوم الطبيعية إلى جانب النماذج التفسيرية لذرات الهايدروجين، والخلايا، أو الوحدات الأخرى التى نفترضها فى سعينا نحو صياغة نموذج تفسيرى متماسك معقول ينتمى إلى التفسيرات العلمية الطبيعية. ومن هنا ليس هناك سبب لافتراض وجود "النوع الطبيعي "بشر""؛ إن كانت الأنواع الطبيعية أنواعًا موجودة في الطبيعة، في الأقل، أى تلك الأصناف التى نكتشفها عن طريق البحث العلمى الطبيعى.

وليس السؤال عن إن كان من الممكن أن تُدرس تصوراتُ الفهم البديهى نفسها في فرع من فروع البحث العلمى الطبيعى؛ فربما يكون ذلك ممكنا. بل السؤال عن إنْ كنا ننظر إلى العالم الطبيعى حين ندرسه (وفى دراستنا لهذه التصورات بوصفها جزءًا من العالم الطبيعى كذلك) من الزاوية التى توفرها لنا مثلُ هذه التصورات. والأمر ليس كذلك بالتأكيد. فربما يكون هناك دراساتٌ علمية لبعض مظاهر ماهية الناس وما يفعلونه، لكنها لن تستخدم الفكرتين البديهيتين "بشر" أو "تكلُّم اللغة" فى صياغتها لمبادئها التفسيرية ـــ بما لهما من دور خاص فى حياة البشر وفكرهم.

والشىء نفسه صحيح عن التصورات البديهية عموما. فلا تلائم بعضُ الأفكار كـ"مكتب" أو "كتاب" أو "بيت"، ناهيك عن بعض الأفكار الأكثر "تجريدا"، البحثَ العلمى الطبيعى؛ ذلك أنَّ وصفَ شىء ما وصفًا ملائمًا بأنه "مكتب"، بدلاً من كونه "طاولة" أو "سريرًا صلبًا"، يعتمد على قصْد مصمّمه وعلى الطرق التى "نقصد"، نحن والآخرون، أن نستعمله بها، من بين عوامل أخرى. فالكتب أشياء مادية. ويمكن أن نحيل إليها على أنها كذلك بجمل مثل:
The book weighs five bounds.

"يزن الكتاب خمسة أرطال".

أو نتكلم عنه من منظور تجريدى:

Who wrote the book?

"من ألّف الكتاب؟"

و:

He wrote the book in his head, but then forgot about it.

"ألف الكتاب فى ذهنه، لكنه تخلى عنه".

أو من المنظورين كليهما فى وقت واحد:

The book he wrote weighed five bounds.

"يَزِن الكتابُ الذى ألفه خمسة أرطال".

و:

the book he is writing will weigh at least five pounds if it is ever published.

"سوف يزن الكتاب الذى يؤلفه الآن خمسة أرطال فى الأقل إن نُشر".

وإذا قلتَ:

That deck of cards, which is missing a Queen, is too worn to use.

"تلك المجموعة من ورق اللعب، التى فُقدت منها "الملكة"، بالية جداً حتى إنها لا تصلح للاستعمال".

فستؤخذ هذه المجموعة فى آن واحد على أنها مجموعة معيبة وأنها "شيء مادى" غريب مشتَّت، ومن المؤكد أنها ليست مجموع أعدادها. وتُستعمل الكلمة house "بيت" فى الإحالة إلى أشياء محسوسة، انطلاقاً من منظور الاهتمامات البشرية والأهداف الخاصة مع بعض الخصائص اللافتة للنظر. فيمكن أنْ يُدمَّر "بيت" ويُبنى، شأنه شأن مدينة؛ فيمكن أن تُدمَّر مدينة لندن تدميراً كاملاً ثم يُعاد بناؤها على ضفة نهر التيمز بعد ألف سنة لكنها

ستظل هي لندن، تحت ظروف معينة. ومن الصعب أن نتخيل كيف يمكن لهذه الأمثلة أن تكون تصورات ملائمة للدراسة النظرية للأشياء والأحداث والعمليات في العالم الطبيعي. ولا خلاف على أن الأمر نفسه صحيح عن أفكار مثل "مادة" و"حركة" و"طاقة" و"عمل" و"سائل"، وغيرها من الأفكار البديهية التي يُتخلَّى عنها حين يقام بالبحث العلمي الطبيعي؛ فحين يسأل عالمُ فيزياء إن كان "كوْم" من الرمل جمادًا، أو سائلاً، أو غازًا — أو نوعًا آخر من المادة — فهو لا يُضيع وقته في السؤال عن كيفية استخدام هذه الكلمات في الخطاب العادي، ولن يتوقع أن تكون للإجابة عن السؤال الأخير علاقةٌ بالأنواع الطبيعية، إن كانت هذه أنواعًا في الطبيعة (Jaeger and Nagel 1992).

ولا يعدو المعقولَ أنْ نتوقع أنَّ هذا الأمر سيكون صحيحًا عن أفكار مثل "اعتقاد" و"رغبة" و"معنى" و"صوت" الكلمات، و"قصد"، إلخ، بقدر ما تكون مظاهرُ الفكر والفعل البشريين صالحةً لتكون موضوعًا للبحث العلمي الطبيعي. ويبدو أنَّ كون المرء "يقول بواقعية القصد" Intentional Realist يكاد يساوي في معقوليته كونه "يقول بواقعية المكتب"، أو "يقول بواقعية صوت اللغة" أو "يقول بواقعية القطة" أو "يقول بواقعية المادة"؛ ليس لأنه لا توجد أشياء مثل "مكاتب"، إلخ، بل لأن الأشياء، في المجال الذي تثار فيه أسئلةُ "الواقعية" بشكل جدي، أي في سياق البحثِ عن قوانينِ الطبيعة، لا تُتصور اعتمادًا على المنظورات الغريبة التي توفرها تصوراتُ البديهة. ومن الآراء الشائعة جدًا أنه "يجب أن يتخلى الكلام ذو النزعة الذهنية والوحدات الذهنية عن مكانها في نهاية الأمر في محاولاتنا وصفَ العالَم وتفسيره" (Burge 1992). وهذا صحيح إلى حد بعيد، لكنه يَصعب أن نرى كيف يكون هذا الموقف مهمًا، إذ لا خلاف على أن الشيء نفسه صحيح عن "النقاش الفيزيائي والوحدات الفيزيائية" (بقدر ما يكون التمييز بين "ذهني" و"فيزيائي" مفهومًا).

بل إنَّ بعضَ الأفكار المعقدة كـ "الفاعلية البشرية" human agency لتدخُل بشكل جوهري حتى في أكثر الأفكار أوّلية كـ "الشيء القابل للتسمية".

ذلك أنّ ما ننظر إليه على أنه "أشياء"، والكيفيةَ التى نحيل بها إليها وكيفيةَ وصفنا لها، وأنواعَ الخصائص التى نُسبغها عليها، تعتمد كلُّها على الموقع الذى تحتلُّه فى مصفوفةِ للفعل البشرى والاهتمامات والمقاصد البشرية فى ضوء معايير تقع بعيدًا وراء المدى المحتمل للبحث العلمى الطبيعى. كما يمكن لكلمات اللغة أن تُعيِّن مواضعَ معينة فى أنظمة الاعتقاد، وهو ما يُضفى مزيدًا من الغنى على المنظورات التى توفِّرها هذه الكلمات من أجل النظر إلى العالم، وإنْ بطرق لا تلائم أهداف البحث العلمى الطبيعى. وربما لا يمكن لبعض الكلمات ــ خاصةً ما يفتقر منها إلى "البنية العلائقية الداخلية" internal relational structure (ومن أبرزها ما يُطلق عليه: "مصطلحات الأنواع الطبيعية") ــ أن تفعل أكثر من ذلك، بقدر ما يتعلق الأمر بمعجم اللغة الطبيعية. (انظر، من بين آخرين، Moravcsik 1975؛ Chomsky 1975b؛ Moravcsik 1990؛ Bromberger 1992a). وأعنى بـ "البنية العلائقية الداخلية" الخصائصَ الانتقائية selectional properties لكلمات مثل "أعطى" (التى تأخذ فاعلاً منفِّذا، ومفعولاً محورًا theme ومفعولاً غير مباشر هدفا)، وهى خصائص لا تتوفر فى كلمات مثل "قطة" و"سائل"، وغيرهما؛ فلا تبلغ تصوراتُ اللغة الطبيعية – والتصوراتُ البديهية عمومًا – حتى أن تكون موضوعًا مرشَّحًا للنظريات العلمية الطبيعية.

ويوسِّع بتنام نتائجَه لتشمل دعوى برينتانو Brentano التى مفادها أن "القصديَّة لن يمكن اختزالها ولن تختفى"[1]، فيقول: إنه "ليس هناك خصيصة يمكن وصفُها علميًّا تشترك فيها الحالاتُ كلُّها لأية ظاهرة قصدية معينة" (كالتفكير فى القطط، مثلا) (Putnam 1988a). ذلك أن الظواهر القصدية، على وجه أعم، تتعلق بالناس وبما يفعلونه حين يُنظَر إليها من زاوية الاهتمامات البشرية والتفكير العفوى، لهذا لن تقع (إذا نُظر إليها هكذا) ضمن النظرية العلمية الطبيعية التى تسعى إلى تنحية مثل هذه العوامل جانبا. ويمكن أن ترتبط "إحدى الظواهر القصدية المحدَّدة" بمنطقة المطابقة فى

فضاء معقّد جدًا ومتحوّل للشئون والاهتمامات البشرية"، شأنها شأن الأجساد التي تهوي إلى أسفل أو السماء أو السوائل. لكنها ليست تصورات ملائمة للبحث العلمي الطبيعي.

ويمكن أن نفترض أن إحدى مكوّنات الذهن (سمّها "ملكة صياغة العلم"، إن شرّفنا الجهلَ بلقب) تدخل في البحث العلمي الطبيعي، بالطريقة نفسها تقريبًا التي تدخل بها الملكةُ اللغوية (التي نعرف عنها قدرًا لا بأس به) في اكتساب اللغة واستخدامها. وما تُنتجه ملكةُ صياغة العلم شذراتٌ من الفهم النظري، أي نظريات علمية طبيعية على درجات متفاوتة من القوة والمعقولية تتضمن بعض التصورات التي تصاغ ويُسبغ عليها معنى بطريقة منضبطة ومحدّدة، قدرَ الإمكان، مع النية في صقلها أو، إن تعذّر ذلك، تعديلها كلما حققنا مزيدًا من الفهم. وتُنتج ملكاتُ الذهن الأخرى تصورات الفهم البديهي، وهي التي تدخل في دلالة اللغة الطبيعية وأنظمة الاعتقاد. و"تنمو [هذه الملكات] في الذهن" بشكل لا يبعد كثيرًا عن الطريقة التي ينمو بها الجنين كي يصير شخصًا، أما السؤال عن درجة الدقة التي تكون عليها هذه الفوارق [بين الملكات] فربما كان سؤالاً مفتوحًا، لكنها تبدو واقعية، مع ذلك.

وهناك تشابه أحيانًا بين التصورات التي تَنشأ بهذه الطرق المختلفة؛ إذ ربما أمكن للبحث العلمي الطبيعي أن يصوغ نظيرًا للفكرة البديهية "بشر"، مثلما يشبه الرمزُ الكيميائي H2O تقريبًا "ماء" (وإن كانت "أرض" و"هواء" و"نار"، التي كانت تصنف مع الماء عند القدماء، ليس لها مثل هذه النظائر). ومن المعلوم أنه لا يترتب على أي تشابه مع الأفكار البديهية أيةُ مقتضيات للعلم. فليس مطلوبًا من الكيمياء الأحيائية، مثلاً، أن تحدّد النقطةَ التي نجد عندها "جوهرَ الحياة" essence of life، في سلّم الانتقال من الغازات البسيطة إلى البكتيريا؛ أما إن فُرض مثل هذا التصنيف عليها فلن يكون التشابه بينها وبين فكرة بديهية ما أكثرَ من التشابه في حالة أشياء كـ "جوار" (المكاني)، أو "طاقة"، أو "سمك".

ولا يُعنى البحثُ في نفسية الأحياء العضوية وبنيتها الأحيائية، كـذلك، بتناول بعض الأفكار التقنية في الخطـاب الفلـسفي، كمفهـوم "المـضمون الإدراكي"، بخصائصه المفترَضة (ويعزى أحياناً بشكل مشكوك فيه إلى "علم النفس الشعبي"، وهو مصطلح يبدو أنه مشتق جزئيًا من الأعـراف الثقافيـة الضيقة وتقاليد الخطاب الأكاديمي). ولا يلزم هذين النوعين مـن البحـث، كذلك، أن يُحددا وضعًا خاصًا "للإدراك الحقيقي" veridical perception تحت الشروط "العادية". لهذا فليس من المهمّ، في دراسة تحديد البنية مـن خـلال الحركة، إن كان الحدثُ الخارجي الذي أنتج التجربة البصرية لمكعب يتأرجح في الفضاء حزمةً من الأشعة الوامضة المتتالية تسقط على شاشـة عَـرْض tachistoscope، أو مكعبا فعليًا يتـأرجح، أو حفـزًا للـشبكة البـصرية، أو للعصب البصري، أو للقشرة المخية البصرية. فـ"تعنى الدراسةُ الحوسـبية، في أية حال، بطبيعة التمثيلات الداخلية التـي يَـستخدمها نظـامُ الإبـصار والعمليات التي تُشتق بها" (Ullman 1979: 3)، كمـا تفعـل ذلـك دراسـة الخوارزميات والآليات في هذا البحث وغيره بالطرق التي رادها ديفيد مـار (David Marr, 1982). وليس مهمًّا كذلك إن كان الناسُ يقبلون حالات الرؤية غير الحقيقية على أنها "رؤيةُ مكعب" (إذا أخذنا كلمة "رؤية" لتعني المـرورَ بتجربة، سواء أكانت "وهمية" أم حقيقية)؛ أو إن عُنـي البحـث باهتمامـات النظرية الفلسفية الخاصة بالعَزْو القصدي أم لا. ولن يكون "علمُ النفس" الذي يَنشغل بالاهتمامات الأخيرة معنيًا بدراسة الحالات الفردية، كما يجادل مارتن ديفز (Martin Davies 1991)، لكنه ربما يُفارق البحثَ العلمي الطبيعي فيمـا يخص طبيعة الكائنات العضوية كذلك، وربما يفارق علمَ النفس الشعبي بشكله المعروف(٢). وإذا أخذنا مثالاً نموذجيًا آخر، انطلاقًا من التسليم (غير المعقول إلى حد بعيد) بأن المقاربة العلمية الطبيعية المُغيِّرة، مثلاً، ممكنة، سنجد أنـه ربما لا يكون محتملاً أن تُميِّز هذه المقاربةُ بين الحالات التي تَـدخل فيهـا أشياءُ حقيقية أو متخيَّلة. وإذا نظرنا إلى "علم المعرفة" على أنه علـم يعنـى بالعزو القصدي فربما يكون اهتمامًا لافتًا للنظر (كما هي حال الأدب)، لكنه ربما لن يوفر لنا نظريةً تفسيرية يمكن دمجها بالعلوم الطبيعية.

وينحو مسارُ البحث العلمي الطبيعي، مع التقدم في الفهم وتحديد التصورات تحديدًا صارمًا، نحو اقتراح نظريات تَخلُص فيها الكلمات من البقايا المضللة للفهم البديهي، ثم تقام الصلة بينها وبين بعض الوحدات المفترضة ويعيَّن لها مكانٌ في مصفوفة من المبادئ، كالأعداد الحقيقية، والألكترون، إلخ. ومفارقتها للغة الطبيعية من جهتين: فتجرّد هذه الكلمات المصطنعة من الخصائص المتشابكة للتعبيرات اللغوية الطبيعية؛ وتعطى خصائص دلالية ربما لا تصح في اللغة الطبيعية، كـ"الإحالة" (وينبغي أن نحذر مما سمّاه ستراوسون مرة بـ "خرافة اسم العَلَم المنطقي"، في اللغة الطبيعية، والخرافات ذات الصلة به التي تُعنى بإشارات التوافق والضمائر؛ P. Strawson 1952: 216). وتتزايد المفارقة، مع التقدم في هذه المقاربة؛ وتتزايد معها المفارقة بين الطرق التي نفهم بها ذرة الهايدروجين، من جهة، و"بشر" (و"مكتب" و"سائل"، و"السماوات"، و"يقع"، و"يطرد"، و"لندن"، و"هذا"، إلخ)، من جهة أخرى.

لكننا لا نستطيع، وإن بوجه مُقوًّى من دعوى بتنام الأولى، أن ننتقل إلى دعواه الثانية، وبشكل أعم، أنْ نستنتج أنه لا صلة للنظريات العلمية الطبيعية عن الدماغ بفهم ما يفعله الناس. فالناس يرون، تحت شروط معينة، العروضَ على شاشة لوحة tachistoscopic إما مكعبًا يتأرجح أو شعاعًا من الضوء يتحرك في خط مستقيم. وربما أمكن لدراسة القشرة البصرية للدماغ أن تُعيننا على فهم سبب حدوث هذا، أو لماذا يسير الإدراك بالكيفية التي يعمل بها في الظروف العادية. كما يمكن للأبحاث المماثلة أن تقول أشياء كثيرة عن "تكلُّم اللغة" والنشاطات البشرية الأخرى.

انظر الآن إلى المثال الذي أورده بتنام: أي اكتشاف أنَّ التفكير في cats "قطط" يُثير الصوت C. فمن المؤكد أنه ربما يكون هذا الاكتشاف ذا صلة بالبحث فيما يعنيه بيتر (أو يحيل إليه، أو يفكر به) حين يستعمل كلمة cat، ومن هنا، ببعض "النقاش عن معنى كلمة cat". فقد كان هناك نقاش، مثلاً —

كان بتنام طرفًا فيه ـــ عن الخصائص الإحالية لـــ cat إن اكتُــشف أنّ cats "القطط" أجهزةٌ آلية يُتحكَّم بها من المريخ. افرض أنه بعد أن صار بيتر يَعتقد هذا، أخذ دماغه يكوِّن، أو لا يكوِّن، الصوتَ C حين يُحيل إلى cats (أو يفكر بها، إلخ). وربما يكون لهذا صلة بالحوار. أو، إذا أخذنا مثـــالاً واقعيًــا: أنّ الأبحاثَ التى أُنجزت مؤخرًا عن النشاط الكهربـــائى للـــدماغ ("الإمكانـــات الكهربائية ذات الصلة بالحـــدث" event-related potentials) تكــشف عـــن استجاباتٍ متمايزة للتعبيرات اللغوية الصحيحة والمُخالفة، ومـــن الأخيـــرة، مخالفات:

١- التوقعاتِ عن معنى الكلمة؛
٢- قواعدِ البنية المركّبية؛
٣- قيدِ دقة تحديدِ الإحالة بعد "استخراج الروابط" operators' extraction؛
٤- قيودِ المحلّية على النقل (Neville et al. 1991).

ومن المؤكد أنه ربما يكون لهذه النتائج صلةٌ بدراسة استخدام اللغـــة، وبدراسةِ المعنى خاصة.

ويمكن أن نذهب إلى أبعد من هذا، فترتبط أنماطُ النـــشاط الكهربـــائى للدماغ بأصناف البنية الخمسة التى أشرنا إليها، أى: البنية القياسية، وأنـــواع المخالفة الأربعة. لكنّ دراسةَ هذه الأصناف دراسةٌ للدماغ كذلك، فهى دراسةٌ لحالاته وخصائصه، مثلما أن دراسةَ الخوارزميات التى تدخل فى رؤية خط مستقيم أو القيامِ بعملية طرح حسابية طويلة دراسةٌ للدماغ. ويمكن أن يُدرس الدماغ، شأنه شأن الأنظمة المعقدة الأخرى، فى مستويات متعددة، كالذرات، والخلايا، ومجموعات الخلايا، والـــشبكات العـــصبية، والأنظمـــة التمثيليـــة الحوسبية، إلخ. وتَصل دراسةُ "إمكانات الدماغ الكهربائية ذات الصلة بالحدث" بين مستويين من هذه المستويات: أى بين النشاط الكهربائى للدماغ والأنظمة التمثيلية الحوسبية. ودراسةُ أى من المستويين دراسةٌ علميةٌ طبيعيةٌ من حيث طبيعة البحث ومن حيث أنّ توحيدَها مع العلوم الطبيعية الـــصِّرف مطمـــحٌ

يمكن السعي إليه بشكل معقول. وتتماثل الاكتشافاتُ عن الدماغ في مثل هذه المستويات، في سياق مناقشة بتنام، مع التكوُّن (المتخيَّل) للصوت C، حين يفكر بيتر في cats.

وتتمتع نظرياتُ التمثيلات الحوسبية، في حال اللغة، بقدر أعلى من التأييد الاختباري يفوق أي شيء متوفر في المستويات الأخرى، وهي أكثر تفوقًا من حيث القوَّة التفسيرية؛ وتقع ضمن العلوم الطبيعية إلى حد لا تبلغه دراسةُ "تكلُّم اللغة" في المستويات الأخرى. بل إن الأهمية الراهنة لدراسات "إمكانات الدماغ الكهربائية ذات الصلة بالحدث" تقع في المقام الأول في التلازم بينها وبين نظريات التمثيلات الحوسبية التي تقوم على أسس أكثر غنى وصلابة. وتتبوأ الأصنافُ الخمسة مكانًا في إطار نظريات التمثيلات الحوسبية، وتتمتع تبعًا لذلك بمدى واسع من التأييد الاختباري غير المباشر؛ أما حين تكون ملحوظاتُ "إمكانات الدماغ الكهربائية ذات الصلة بالحدث" معزولةً عن نظريات التمثيلات الحوسبية فلا تزيد عن كونها مجموعة من الغرائب وحسب، وتفتقر إلى مصفوفة نظرية. وبالمثل، سيكون اكتشافُ أنَّ الصوت C يرتبط باستخدام cat، حين يكون حقيقة معزولة، مجردَ اكتشاف عن C بدلاً من كونه اكتشافًا عن معنى cat ــ ولهذا السبب وحده لن يُلقي [هذا الاكتشاف] إلا ضوءًا باهتًا على الخلاف بشأن الأجهزة الآلية المتحكَّم بها من المريخ. وإذا أخذنا حالة أخرى، فلا يعدو اكتشافُ الإزاحة الإدراكية لــ "الطقطقات" clicks إلى حدود المركَّبات، في الوقت الحاضر، أن يكون اكتشافًا عن صحة التجربة أكثر من كونه اكتشافًا عن حدود المركبات. والسبب أن أنواعًا أخرى من الأدلة عن حدود العبارات ــ التي تسمى أحيانًا أدلةً "لغوية" لا "نفسية" (وهو مصطلح مضلِّل جدًا) ــ أكثرُ إقناعًا بكثير ومدمَجة في بنية تفسيرية أكثر غنى. وإذا وُجد أنه من الممكن الاعتمادُ بشكل مُرْضٍ على تجارب الطقطقات في تعيين الوحدات التي تُفترض في نظريات التمثيلات الحوسبية، وإذا ما عُمِّقت أُطُرها النظرية، فربما يمكن الاعتماد

عليها في حالات لا تكون فيها "الأدلة اللغوية" حاسمة؛ بل ربما يكون ذلك بشكل أكبر، مع التقدّم في البحث. (انظر، بشأن بعض حالات سوء الفهم لهذه القضايا، الفصل الثالث في هذا الكتاب، و Chomsky 1991a; 1991b).

ونظرياتُ التمثيلات الحوسبية أفضلُ النظريات العلمية الطبيعية للغة واستخدامها تأسيسًا، في الوقت الراهن. ونحن نفترض، بناءً على الاعتقاد أساسًا، أنَّ هناك نوعًا من الوصف في ضوء الذرات والجزيئات، وإن كنا لا نتوقع أن يكون من اليسير تبيين مبادئ اللغة العاملة وبنى اللغة والتفكير في هذه المستويات. كما نميل، بقفزة أعلى من اليقين، إلى افتراض أن هناك تفسيرًا في ضوء المصطلحات العصبية (بدلاً منه في ضوء الخلايا أو الأوعية الدموية glial and vascular، مثلاً، مع أن فحص الدماغ يكشف عن أن هناك خلايا وأوعية دموية glial cells إلى جانب العصبونات)(٣). وربما يوحي هذا بأن العناصر والمبادئ ذات الصلة في بنية الدماغ لم تكتشف بعد. وربما ستوفر نظرياتُ التمثيلات الحوسبية بعضَ الإرشادات للبحث في مثل هذه الآليات بشكل لا يبعد عما وفرته الكيمياء في القرن التاسع عشر من شروط اختبارية حاسمة للمراجعة الجذرية للفيزياء الأساسية. ويَضع الشعارُ المألوفُ: "إن الذهني هو العصبي العضوي في مستوى أعلى" ــ حيث تَدمج نظرياتُ التمثيلات الحوسبية في "الذهني" ــ الأمورَ بشكل معكوس؛ إذ يجب أن تعاد صياغة هذا الشعار، ليصير افتراضًا يقضي باحتمال أنْ يُكتَشف أنَّ العصبي العضوي "ذهني في مستوى أدنى" ــ أي الافتراض بأنّه ربما نجد، في المستقبل، أن لعلم وظائف الأعصاب بعضًا من الاهتمام بـ "الظواهر الذهنية" التي تَدرسها نظرياتُ التمثيلات الحوسبية. أما فيما يخص المزاعم الأخرى لـ"الإقصائية المادية"(٤)، فسيَظل هذا الموقفُ لغزًا حتى يُقدَّم تعليل لطبيعة "المادي"؛ وإذا ما قدِّم ذلك التعليل فيجب أن تقدَّم بعضُ الأسباب التي توجب الاحتفاء أو الاهتمام بما تقوله إن كانت النظريات الناجحة تقع وراء حدودها المفترَضة.

وتُقدِّم مقارباتُ التمثيلات الحوسبية، في الوقت الراهن، أفضلَ التفسيرات العلمية الطبيعية وأكثرها غنى للمظاهر الأساسية لاستخدام اللغة. فهناك تصوُّر أساس، في هذه النظريات، شبيه بالفكرة البديهية "لغة"، وهو: "الإجراء التوليدي" الذي يكوِّن "الأوصاف البنيوية" Structural Descriptions (SDs)، حيث يكون كلٌّ منها مجموعاً معقَّداً من الخصائص الصوتية والدلالية والبنيوية. دعنا نسمِّ هذا الإجراء بـ "اللغة ــ د" I-language، وهو مصطلح اخترناه لتبيين أن هذا الإجراء "داخلي"، و"فردي"، و"مفهومي"[٥] (ليكون من المحتمل أن تولِّد "اللغات ــ د" I-languages المتمايزة، من حيث المبدأ، المجموعةَ نفسَها من الأوصاف البنيوية، مع أن من المحتمل أنْ تترك خصائصُ الملكة اللغوية الفطرية المقيِّدة تقييدًا صارمًا هذه الخصيصة من غير تحقُّق). ويمكن أن ننظر إلى التعبيرات اللغوية في "لغة ــ د" ما على أنها الأوصاف البنيوية التي ولَّدتْها [هذه اللغة ــ د]. فالتعبير اللغوي، إذن، مجموعٌ معقَّد من الخصائص الصوتية والدلالية، وخصائص أخرى. ويُشبه امتلاكُ "لغة ــ د" امتلاكَ "طريقة للتكلُّم والفهم"، وهذه إحدى الصور التقليدية للغة. وهناك ما يدعو للاعتقاد بأن "اللغات ــ د" (أي "المعرفة النحوية") متمايزةٌ عن التنظيم التصوري و"المعرفة الذريعية"، وأنه يمكن أنْ تتعطل أيَّة واحدة من الثلاث بشكل منفرد وأن تنفصل في أثناء فترة النمو (انظر: Yamada 1990, John Marshall 1990).

وتُعيِّن "اللغةُ ــ د" أشكالَ بعض العناصر المعجمية مثل: "مكتسب"، و"عمل"، و"يقع"، ومعانيَها، بقدر ما تكون هذه العناصر محدَّدةً بالملكة اللغوية نفسها. ويجب، بالمثل، أن تُفسِّر [اللغةُ ــ د] خصائصَ تعبيراتٍ أكثر تعقيدا، نحو: أنَّ الجملة:

John rudely departed.

"غادر جون بصلَف".

تعني إما أنه غادر "بطريقة صلفة" أو أنه "كان صلفًا منه أن يغـادر"، وأنه، في الحالتين كلتيهما، غادر (لذلك ربما يحسن اقتراحُ "دلالـة الحـدث" event semantics لتكون إحدى مستويات التمثيل لكي يمكن التعامل مع حقائق كهذه، انظر Higginbotham 1985; 1989). كما ينبغي أن تُفسّر [اللغة ـــ د] أن الفاعل المفهوم [المستتر] للفعل expect "يتوقع" في (١) يعتمد على هل X "س" صفرٌ أم أنه Bill، مع ما يصحب ذلك من أنواع أخرى من المقتضيات الدلالية:

1- John is too clever to expect anyone to talk to X

"جون أذكى من أن يتوقع أنّ أحدًا يتكلم مع "س"".

وأنّ كلمةَ ladder "سلّم"، في لهجتي، تسجَع مـع matter "أمـر" أمـا madder "أكثر جنونًا" فلا. وهناك بعضُ التفسيرات غير التافهة الممكنة لكثير من هذه الحالات. وتلقي أنظمةُ التمثيلات الحوسبية قدرًا غير قليل من الضوء على الكيفية التي يعبّر بها الناس عن أفكارهم ويؤوّلون بها ما يسمعون، مع أنها لا تقلّ ـــ ولا تزيد، بالطبع، في كونها دراسةً لهذه الأحداث عن كـون دراسة العمليات العضوية والنفسية للإبصار دراساتٍ للبشر وهُـم يَـرون الأشياء.

وسيسعى البحثُ الأكثر عمقًا "للغات ـــ د" إلى تفسير حقيقةِ أنّ بيتـر يَمتلك "اللغةَ ـــ د": "لب" [لغة بيتر] أما خوان فيمتلك "اللغة ـــ د": "لخ" [لغة خوان] ـــ وهذان حكمان تجريديّان إلى حد بعيد جدًا، ذلك أنّ أهميةَ ما فـي رأسي بيتر وخوان للبحث العلمي الطبيعي لا تزيد، حقيقةً، عن أهمية مـسار ريشةٍ في يوم عاصف. ومن هنا يجب أن يتمثّل التفسيرُ الأساس [لمثل هـذه الحقائق] في خصائص الملكة اللغوية للدماغ. فتتماثل الحالـةُ الأولـى للغـة المحدّدة أحيانيًا عند بيتر وخوان وغيرهما من البشر، إلى حد بعيد. ولا تَسمح إلا لنوّعٍ محدّد من "اللغات ـــ د" أن يتطور تحـت تـأثير التجربـة القـادح المشكّل. ويمكن أن نفترض بقدْر من المعقولية، في ضوء فهمنا الراهن، أنّ

الحالة الأولى تحدد النظامَ الحوسبي للغة بشكل فريد، بالإضافة إلى تحديدها مدىً للاحتمالات المعجمية محدَّدًا تحديدًا بنيويًا دقيقًا وبعضَ الخيارات من "العناصر النحوية" الوظيفية التي لا معنى لها في ذاتها. أما وراء هذه الاحتمالات، فربما أمكن اختزال تنوُّع "اللغات ــ د" إلى خصيصة الاعتباطية التي اقترحها دي سوسور (أي الارتباط بين التصورات والتمثيلات المجردة للصوت) وإلى بعضٍ أجزاء النظام الصوتي التي يمكن النفاذ إليها، وهو ما يعني "إمكانَ تعلّمها" (إن استعملنا مصطلحًا ذا إيحاءات دلالية مضلِّلة). ويمكن للاختلافات الضئيلة في نظام معقَّد، بالطبع، أن تؤدي إلى اختلافات ظواهرية ضخمة، لكنْ ربما لا يَجد عالِمٌ مريخي واع يَدرس البشرَ الاختلافَ بين الإنجليزية ولغة النفاهو [إحدى لغات الأمريكيين الأصليين] لافتًا للنظر.

و"اللغة ــ د" خصيصةٌ للدماغ (حين توصف وصفًا دقيقًا محدَّدا)، وهي عنصر قارّ نسبيًا للحالات المتحوِّلة للملكة اللغوية. ويتضمن أي تعبير لغوي (أي كلُّ "وَصف بنيوي") مما تولِّده "اللغةُ ــ د" تعليماتٍ لأنظمة الأداء التي تُدمَج "اللغةُ ــ د" فيها. ولا تتأهّل حالةُ الدماغ هذه لتكُون لغةً إلا بسبب اندماجها في أنظمة الأداء هذه. فربما تملك بعضُ الكائنات العضوية، من حيث المبدأ، "اللغةَ ــ د" نفسَها (أي حالة الدماغ) التي لدى بيتر، لكنها مُدمَجة في أنظمة أداء تَستعملها [أي اللغة ــ د] من أجل الحركة. فما ندرسه، إذن، موضوع حقيقي، أي الملكة اللغوية للدماغ، يتّخذ صورة "لغة ــ د" كاملة ومُدمجة في أنظمةِ أداء تؤدي دورًا في النطق والتأويل والتعبير عن الاعتقادات والرغبات والإحالة وسرد الحكايات، إلخ. فموضوع البحث، لهذه الأسباب، هو دراسةُ اللغة البشرية.

ويبدو أن أنظمة الأداء تتبع نمطين عامَّين: الأول "نطقي ــ إدراكي"؛ والثاني "تصوُّري ــ قَصدي"[6]. وإذا كان الأمر كذلك فمن المعقول افتراضُ أن التعبير المولَّد يَشتمل على "مستويين وجيهيين"، يوفِّر أحدُهما معلومات وتعليمات للأنظمة النطقية ــ الإدراكية، ويوفر الآخر معلومات وتعليمات

للأنظمة التصورية ـ القصدية. ويُفترض عمومًا أن أحد المستويين الوجيهيين هو التمثيل الصوتي: أي: "الصورة الصوتية" (ص ص). أما طبيعةُ المستوى الثاني فموضوعٌ لخلاف أكبر؛ ولنسمه بـ"الصورة المنطقية" (ص م).

وخصائصُ هذه الأنظمة، أو وجودُها، من أمور الحقائق الاختبارية. ويَجب ألا يُضلِّل أحدً بالإيحاءات غير المقصودة لمصطلحَي "صورة منطقية" و"تمثيل" اللذين اجتُلبا من الاستخدام الاصطلاحي في أنواع أخرى مختلفة من البحث. وبالمثل، فمع أن هناك ما يوحي بفكرتَي "النحو العميق" و"النحو السطحي" في التحليل الفلسفي، إلا أن هذه التصورات لا تتماثل تماما. فما يُعدّ "سطحيًّا" من وجهة نظر "اللغة ـ د"، إن كان هناك شيء من ذلك، ليس إلا "الصورة الصوتية"، على أبعد تقدير، أي المستوى الوجيهي مع الأنظمة النطقية والإدراكية. وكل شيء غير ذلك "عميق". ولا يتمتع النحوُ السطحي في التحليل الفلسفي بوضع خاص في الدراسة الاختبارية للغة؛ فهو أشبه ما يكون بالأحكام الظواهرية، ويُكتسب عن طريق التعليم وتَفرضه السلطاتُ التقليدية والمواضعات، والوسائل الثقافية، إلخ. وتَبرز أسئلةٌ مماثلة عما يسمى، بصورة عامة جدًا، بـ"علم النفس الشعبي"، كما أشرنا من قبل. لهذا يجب أن يُنظر إلى مثل هذه الأفكار بحذَر؛ ذلك أنه من الممكن أن تتخفى أشياءُ كثيرة وراء الوضوح الظواهري الخادع.

ويَدخل المجموعُ المعقَّد المؤلَّف من "اللغة ـ د" وأنظمة الأداء في الفعل البشري. وهو موضوعٌ صالح للنظريات العلمية الطبيعية التي يمكن أن تأخذنا إلى موقع متقدم جدًّا نحو فهم الكيفية التي يَفعل الناسُ بها ما يفعلونه ولماذا، مع أنها تَقصُر دائمًا عن أن تكون تفسيرًا كاملا، وهو ما يُشبه تمامًا احتمالَ إخفاقِ النظريات العلمية الطبيعية التي تَدرس الجسدَ في أن تفسّر تفسيرًا كاملاً الأحداثَ أو الإنجازات البشرية مثل رؤية شجرة أو المشي.

لذلك ربما يكون مضلِّلاً، أو أسوأ من ذلك، أن نقول إن جزءًا معينًا من

الدماغ أو نموذجًا مجردًا له (نحو: شبكة عصبية أو حاسوب مبرمج) يرى شجرة أو يستنتج الجذور التربيعية. ذلك أن الناس ينطقون الكلمات تحت عدد من الظروف النموذجية غير الواضحة أو يحيلون إلى القطط أو يعبّرون عن أفكارهم أو يفهمون ما يقوله الآخرون أو يلعبون الشطرنج، إلخ؛ أما أدمغتهم فلا تقوم بشيء من ذلك ولا تفعل ذلك البرامجُ الحاسوبية — مع أنه يمكن لدراسة الأدمغة، التي ربما تستعين بنمذجة مجردة لبعض خصائصها، أنْ توفّر لنا فهمًا أكثر عمقًا لما يفعله الناس في مثل هذه الحالات. فيمكن أن يُقدّم خوارزمٌ يصاغ في ضوء نظرية للتمثيلات الحوسبية تفسيرًا صحيحًا لما يحدث في دماغ بيتر وهو يرى خطًا مستقيمًا أو حين ينفّذ عملية طرح حسابية طويلة أو "يفهم اللغةَ الصينية"[٧]، ويمكن [لهذا الخوارزم] أن يُدمَج دمجًا خالصًا في نظرية تقوم على أسس قوية في مستوى آخر من التفسير (كمستوى "الخلية"، مثلًا). أما الخوارزم، أو الآلة التي تنفّذه، فربما لا يُنفّذان هذه الأحداث، مع أنه يمكن لنا أن نقرر تعديلَ الاستخدامات اللغوية، كما في قولنا إن الطائرات تطير والغواصات تبحر (لكنها لا تسبح). وليس لشيء من هذا أهمية. ومثل ذلك أنه مع أن الناس ربما يُنفّذون الحدثَ لأن أدمغتَهم تنفذ الخوارزم، فإن هؤلاء أنفسهم ربما لا ينفّذون الحدث إن كانوا ينفّذون التعليمات بصورة آلية، بطريقة تشبه عملَ الآلة (أو عملَ أدمغتهم). فربما أرى خطًا مستقيمًا (أو أقوم بعملية طرح حسابية طويلة، أو أفهم اللغة الإنجليزية، إلخ) لأنَّ دماغي ينفّذ خوارزمًا معينًا؛ لكنْ إن كنت، أنا الشخص، أنفّذ التعليمات بصورة آلية، مُحوِّلاً تمثيلاً رمزيًا معينًا للدّخل إلى تمثيل معين للخرْج، فإني لا أرى، ولا يرى المجموعُ المكوَّن مني والخوارزم والذاكرة الخارجية خطًا مستقيمًا (إلخ)، وذلك مرة أخرى، لأسباب غير مهمة[٨].

وسيكون من الخطأ كذلك، حين ننظر في طبيعة أنظمة الأداء، أن ننتقل سريعًا إلى "دراسة كل شيء" الفارغة. وكمثال على ذلك، انظر إلى مناقشة دونالد ديفيدسون لـ"بيتر" بوصفه "مؤوّلا" يحاول أن يخمّن ما في ذهن "توم"

حين يتكلم. فيلاحظ ديفيدسون أن بيتر ربما يستخدم أيةَ معلومات أو مسلَّمات سابقة أو تخمين، أو غير ذلك، ليَصوغ "نظرية عابرة" تلائم المقام؛ لهذا ينقلنا النظرُ في فكرة "المؤوِّل" إلى نماذج كاملة للتنظيم الوظيفي البشري الكامـــل. ويستنتج ديفيدسون أنه لا حاجة "لتصور اللغة" الذي يَعمل كـــ "آلة تأويليـــة جاهزة تعمل على تحليل أي تعبير لاعتصار معناه"؛ ويقودنا هـــذا "لا إلـــى التخلي . . . عن المفهوم المألوف للغة وحسب، بل إلى إلغـــاء الحـــدّ بـــين معرفة لغةٍ ما ومعرفةِ الطرق التي نتعامل بها مع الأشياء في العالم عموما". ولعدم "وجود قواعدَ للوصول إلى نظريات عابرة"، يجب علينا "أن نتخلى عن فكرة وجود بنيةٍ مشتركة محدَّدة تحديدًا واضحًا يكتسبها مستعملو اللغـــة ثـــم يطبقونها على الحالات" (Davidson 1986b: 446;). وتَبدأ إحدى الدراســـات التي أُنجزت حديثًا عن فلسفة ديفيدسون بالقول إنه "ليس هناك شيء يمكن أن يُسمى لغة"، وهو قول حظي بموافقته (Davidson: 1986b; Ramberg 1989).

والملاحظة الأولى عن "النظريات العابرة" صحيحةٌ، لكن النتائج التـــي انتهى إليها [ديفيدسون] لا تترتب على تلك الملاحظة. فأحد الأجوبة المعقولة عنها ــ إن كان هدفُنا فهمَ البشر وما يفعلونه ــ أن نحاول عـــزلَ الأنظمـــة المتماسكة التي تَقبل الخضوعَ للبحث العلمي الطبيعي، وتلك التـــي تتفاعـــل لتُنتِج مظاهرَ التعقيد كلها. وسيؤدي ذلك، إن اتَّبعنا هـــذا المـــسار، إلـــى أن نفترض وجودَ إجراء توليدي يَعمل على "تحليل" التعبيرات اللغوية بما تتصف به من خصـــائص المستويات الوجيهية، وتبيين أنظمة الأداء التي تَنفذ إلى هذه التعليمات وتُستخدم في تأويل أفكار المتكلم والتعبير عنها.

والآن ماذا عن "فكرة البنية المشتركة المحدَّدة تحديدًا واضحًا ويكتسبها مستخدمو اللغة ويطبقونها من ثَمَّ على الحالات"؟ أيوجب هـــذا أن نفتـــرض كذلك وجودَ "بنى مشتركة"، إضافةً إلى "اللغة ــــ د" وأنظمة الأداء؟ وكثيرًا ما يُجادَل بأن بعض المفاهيم الشائعة كـــ "اللغة المشتركة" أو "المعاني المشتركة" ضروريةٌ لتفسير إمكان التواصل أو إمكان وجود "كنزِ الأفكـــار المـــشترك"،

بمعناه عند غوتليب فريجه (Frege 1892/1965: 71). لهذا، فإذا لم يمتلك بيتر وماري "لغة مشتركة"، بـ"معان مشتركة" و"إحالة مشتركة"، فكيف يمكن لبيتر أن يفهم ما تقوله ماري؟ (ومن اللافت للنظر أنه لم يستخلص أحدٌ النتيجةَ المماثلة عن "طريقة النطق المشتركة"). وترى إحدى الدراسات الحديثة أنه لا يمكن للسانيين أن يقولوا بـ "اللغة ـ د" إلا بـ "إنكار أن الوظيفة الأساسية للغات الطبيعية أنها وسيلةٌ للاتصال بين المتكلمين"، ويشمل ذلك مسألة "التواصل بين الفترات الزمنية في اكتساب لهجة فردية" (وهو ما يسمى بـ "التعلُّم التدرُّجي"؛ (Fodor and Lepore 1992)[٩].

ولا تقوم وجهاتُ النظر هذه على أسس قوية. فلا يَلزم عن التواصل الناجح بين بيتر وماري وجود معانٍ مشتركة أو طرائق نطق مشتركة في لغة مشتركة معينة (أو كنزٍ أفكار مشترك أو كيفيات مشتركة للتعبير عنها) إلا بقدر ما أنه يَلزم عن التشابه في الشكل بين بيتر وماري وجودُ شكلٍ عام يشتركان فيه. أما فكرة أنّ "وظيفة اللغات الطبيعية الأساسية أن تكون وسيلةً للتواصل"، فليس من الواضح ما المعنى الذي يمكن أن يُسبَغ على فكرة خالصة "للوظيفة الأساسية" في أي نظام أحيائي؛ وإذا أمكن التغلُّبُ على هذه المشكلة فربما نَسأل عن سبب كون "التواصل" هو "الوظيفة الأساس" [للغة]؟. كما يبدو أن مشكلة الانتقال [من مرحلة إلى مرحلة أخرى في أثناء اكتساب الطفل للغة] ليست أكثر غموضًا من مشكلة كيف يمكن لبيتر أن يكون هو الشخص نفسه، إذا نظرنا إلى الأطوار التي مر بها؛ لذلك فليس الأمر أن منظورَ "اللغة ـ د" وحدَه المنظورُ الملائم للتعامل مع المشكلة التي بين أيدينا، بل أنه يصعب أن نتخيل بديلاً متماسكًا له.

وربما يكون الأمر أن بيترَ حين يستمع إلى ماري وهي تتكلم يتعاملُ مع هذا الحدث مفترضًا أنها تماثله، مع بعض الاختلافات التقريبية، وهو ما يوجب أن يُجرى بعض التعديلات. وهذه مهمة سهلة أحيانًا، وصعبة في بعض الأحيان، ومستحيلة أحيانًا أخرى. ويستعمل بيتر، لكي يتعامل مع هذه

الاختلافات، أيةَ وسيلة تتوفر له، وإن كان معظم هذا العمل يحدث، من غير شك، بشكل آلي وعفو الخاطر(١٠). وسيستخدم – حين يكتشف هذه الاختلافات – وبشكل مماثل – أيةَ وسيلة ليصوغ "نظرية عابرة" ــ بل حتى إن لم يكن هناك اختلافات. وبقدر نجاحه في هذه المهمات فإنه يفهم ما تقوله ماري على أنه هو ما يعنيه بتعبيره المشابه. فــ "البنية المشتركة" (الفعلية) الوحيدة بــين البشر عمومًا هي الحالة الأولى للملكة اللغوية. أما وراء ذلك فلا نتوقــع أنْ نجد أكثرَ من مقاربات، وهو ما يماثل ما نجده في حالة الأشــياء الطبيعيــة الأخرى التي تنمو وتتطور.

ويقدِّم النقاشُ عن اللغة واستخدامها دائمًا أنواعًا أخــرى مــن البنيــة المشتركة، كالجماعات بلغاتها، واللغاتِ المشتركة عبر ثقافة أوســع، إلــخ. وهذه الممارسات نموذجيةٌ في النقاش اليومي العام كذلك. لهذا نقول إن بيتر وتوم يتكلمان اللغةَ نفسها، لكن خوان يتكلم لغة أخــرى مختلفــة. ونقــول، بالمثل، إن بوسطن قريبة من نيويورك، لكنها ليست قريبة من لنــدن، أو إنَّ بيتر وتوم يتشابهان، لكنَّ أيًا منهما لا يُشبه جون. أو ربمــا نــرفض هــذه المزاعم كلها. وليس هناك اختيار بين الصواب والخطأ حــين نجــرِّد مــن الاهتمامات التي ربما تتنوع بطرق لا حصر لها. ولا توجد كذلك أصــنافٌ طبيعية ولا تجريدات مثالية. ويتشابه تكلُّمُ اللغة نفسها، بهذه الاعتبارات، مع القُرْب المكاني أو التشابه في المظهر. والملحوظة النموذجية في الدرس الأول لمادة اللسانيات في المستوى الأول من الدراسة الجامعية هي قول [اللــساني الأمريكي المعاصر] ماكس فينرايخ الساخر إن اللغة لهجة بجــيش وســلاح بحرية [لهجة تتبناها دولة وتجعلها لغة رسمية لها]، و"اللهجات" مفاهيم غيــر لغوية كذلك، ويمكن أن تحدَّد بأية طريقة، بناء علــى بعــض الاهتمامــات والأهداف المعينة. ويمكن لبعض العوامل كالحدود الطبيعية (مثل المحيطات والجبال) والتلفاز الوطني، وغير ذلك، أن يؤسِّس بعضَ الصور الخادعة في هذا الشأن، لكن أحدًا لم يصغ إلى الآن مفهومًا "للغة المشتركة" بأية طريقــة

مفيدة أو متماسكة، ولا يدعو المستقبل إلى التفاؤل كذلك، كما يبدو. ومن هنا فأية مقاربة لدراسة اللغة أو المعنى تعتمد على مثل هذه المفاهيم مشكوك فيها إلى أبعد الحدود.

افرض مثلاً أن مفهوم "اتّباع القاعدة" حُلّل في ضوء الجماعــات، أي: أن جونز يتّبع قاعدةً ما إن كانت ممارسته تتطابق مع ممارسة الجماعة التى ينتمى إليها أو مع معاييرها. وإذا كانت "الجماعة" متجانسة فالإحالة إليهــا لا تفيد شيئا (وتثير مفاهيمُ: "المعيار"، و"الممارسة" و"العُرف"، وغيرُها أســئلةً أخرى). أما إن كانت "الجماعة" غير متجانسة ــ بغض النظر عــن القــدر الكبير من عدم الوضوح في مفهوم "المعايير" (والممارسة، وغيرها) فى هذه الحالة ــ فيبرز عددٌ من المشكلات. وإحداها أن التحليل المقترح غيرُ صحيح وصفيًا. ذلك أنا نُسبغ فى العادة اتّباع القاعدة على الحالة البيّنة لعدم "التطابق" مع الممارسة الاتباعية أو المعايير المزعومة. لهذا ربما نقول إن جونى، ذو الثلاث سنوات، يتبع القاعدة الخاصة به حين يقول brang بدلا مــن brought [الصيغة المألوفة لماضى الفعل bring "يُحضر"]؛ أو أن والــدَه بيتــر يتبــع "القاعدة الخطأ" ("يخالف القواعــد") حــين يــستعمل disinterested ليعنــى "غير مهتم" uninterested (كما يفعل أكثر الناس). لكن اللسانى وحــدَه هــو الذى يمكن أن يقول إن جونى وبيتر يحترمان الشرط "ب" فى نظرية الــربط العاملى (Chomsky 1981a: 188)، وهو ما تفعله "الجماعة" عموما (بل جماعةُ متكلمى اللغات كلها، على أكثر الاحتمالات). والاعتــراضُ الأكثــر خطرًا أنه ليس لمفهوم "الجماعة" أو "اللغة المشتركة" من المعنى أكثر ممــا لمفهوم "المدينة القريبة" أو "التشابه فى المظهر"، فى غياب مزيد من التحديد للاهتمامات، وهو ما يجعل التحليل فارغا(١١).

ولا يوحى شيء فى هذا الاقتراح، لأسباب مألوفة، بأى مــشكل فــى الاستخدام العام، أكثر مما يوحى به الاستخدامُ العادى لتعبيرات مثل: Boston is near New York "بوسطن قريبة من نيويورك" أو John is almost home

"يكاد جون يصل إلى منزله". فغاية الأمر أننا لا نتوقع أن تدخل هذه الأفكار في الخطاب النظرى التفسيرى. إذ ربما تكون ملائمة فى مناقشة عامة لما يفعله الناس، بناءً على بعض الافتراضات الضمنية التى يقوم عليها النقاش العادى فى ظروف معينة؛ أو حتى فى النقاش التقنى، حيث تكون التحديدات ذات الصلة مفهومةً ضمنًا. فليس لهذه الأفكار منزلةٌ أبعد من هذه فى البحث العلمى الطبيعى، أو فى أية محاولة للوصول إلى فهْم أدق.

. وللعوامل الاجتماعية المزعومة فى استخدام اللغة تأويل فردى طبيعى غالبا ــ أى، تأويل داخلى. فإذا كان بيتر يحاول إجادة اللغة الإيطالية التى يتعلّمها، أو كان "جيانى" يتعلم لغته [الإيطالية] فيمكن أن نقول إنهما فى طريقهما إلى التشابه (بطريقتين مختلفتين إلى حد بعيد) مع طيف واسع من الناس؛ مع تنوع طريقيهما للاقتراب من النموذج واختيارتهما للقدوة بشكل يتماشى مع اهتماماتنا، ولن يزداد فهمنا عمقًا بما يفعلانه إنْ افترضنا أن هناك وحدة قارّة يحاولان الوصول إليها، حتى إن استطعنا أن نضفى على هذه الفكرة الغامضة شيئاً من المعنى، فإذا اشتكى "بيرت" من التهاب المفاصل فى كعبه وفخذه، وأخبره طبيبه بأنه مخطئ فى شكايته من كليهما، فيمكنه (أو لا يمكنه)، وبطرق مختلفة، أن يختار تغييرَ استخدامه اللغوى ليتوافق مع استخدام الطبيب. وبغض النظر عن التفاصيل الأكثر توسُّعا، وهى التى ربما تتفاوت تفاوتًا واسعًا تبعًا لتغيُّر الاحتمالات والاهتمامات، لا يبدو أننا فقدنا شيئا نتيجة لهذا التفسير. ولا يتطلب الكلامُ العادى، كذلك، التساؤل عن إن كان شخصٌ قد اكتسب تصورًا معينًا فكرةَ اللغة المشتركة. فلا يعدو القولُ بأن بيرت لم يكتسب تصورَ "التهاب المفاصل" أو "الزكام" قولَنا إنّ استخدامه [اللغوى] لا يتماثل تماما مع استخدام الذين نلجأ إليهم ليعالجونا ــ وهذا وضعٌ مألوف. فإذا حكى لى جارى "بيرت" عن التهاب المفاصل الذى يشتكى منه، فسيكون افتراضى الأول أنه يماثلنى فى هذا الاستخدام. وسأحاول إدخال بعض التعديلات من أجل تأويل استخدامه فى ضوء ما تتطلّبه الظروف؛ لكن

الإحالة إلى "لغة مشتركة" مفترَضة ذات "مـضمون حقيقـي" لـــ"التهـاب المفاصل" لن تُلقي مزيدًا من الضوء على ما يَحدث بيننا، حتـى إن أمكـن إسباغ معنى واضح على الأفكار الضمنية المفترَضة. وإذا كنت لا أعـرف شيئًا عن أشجار الدردار والزان يتجاوز كونهمـا نـوعين مـن الأشـجار الضخمة، فربما لا يمكن لشيء وراء هذه المعلومات أن يُمثَّل فـي معجمـي الذهني (وربما لا يكون حتى هذا، كما أشرنا مـن قبـل)؛ إذ ربمـا يكـون الاختلاف المفهومُ في الخصائص الإحالية ناتجًا عن وضع يَصحّ عن المعجم بصورة عامة: فربما يؤخذ غيابُ الدليل على وجود علاقة دلالية دليلاً علـى عدم وجودها(٢٢).

وتبقى بعض الأسئلة ــ وهي أسئلة عن الحقائق، في رأيـي ــ عـن أنواع المعلومات التي توجد في المعجم على وجه الدقة، بوصفها متمايزةً عن الأنظمة الاعتقادية. وربما تكون التغييرات في الاستخدام، كما في الحـالات التي أوردناها، تغييراتٍ هامشيةً في "اللغة ــ د"، حقيقةً، أو تغييـرات فـي أنظمة الاعتقاد، التي نفهمها هنا على أنها (إن وُصفت وصفًا دقيقًا) أنظمـةً للتمثيلات الحوسبية للدماغ، وهي التي تُغني المنظوراتِ وزوايا النظر للفكر والتأويل واستخدام اللغة والأحداث الأخرى (ولنسمِّها "أنظمةَ "الاعتقاد ــ د"، وهي نظائر للاعتقادات يمكن اكتشافها بالبحث العلمي الطبيعي). ويقدِّم البحث في علم الدلالة المعجمي، إن اقتصرنا على الإطار الفردي الداخلي، أساسـا لحلٍّ اختباري في بعض الحالات (خاصة في نظام الأفعال، التي تتصف ببنية علائقية أكثر غنى).

ولا يَفهم الباحثون إلا قليلاً عن المعمار العام للذهن/الدماغ، وراء عدد قليل جدًّا من المناطق المتفرقة [فيه]، ولا تَشمل هذه المنـاطقَ التـي ظلَّـت مركزَ الانتباه لأكثر الاهتماماتِ العامة لما يسمى بـ"علم المعرِفة". فقد كـان هناك، مثلاً، قدر كبير من النقاش المهم عن نظريةٍ للاعتقاد وعن موضـعها المحتمل في الجهود التي تبتغيا تفسيرَ الفكر والفعل، إلا أنه لا يوجد إلا قـدر

محدود من البحث الاختباري المثمر الذي ربما يساعد في فحص هذه الأفكار، وصقلها، واختبارها. فيبدو من المعقول في الأقل، أن نفترض أن "الاعتقادات ـــ د" لا تكوّن مجموعة متجانسة؛ ذلك أن للنظام مزيدًا من البنية يمكـــن أن يوفر بعض الموادّ الضرورية لاتخاذ القرار عما يكون اعتقادات زائفة وخطأً في التعيين. افرض أن بعض "الاعتقادات ـــ د" اعتقاداتُ "تعيين" وبعـــضَها غيرُ ذلك، أو أنها تتوزع على طول مثل هذا الطيف، حيث يمكن أن تكـــون الأخيرةُ (أو الأقل) أكثرَ عُرضة للترك من غيـــر أن تـــؤثر علـــى شـــروط الإحالة. افرض، مثلاً، أن معلومات بيتر عن "مارتن فان بيرن" يَـــستغرقها الاعتقادُ بأنه كان (١) رئيسًا للولايات المتحدة و(٢) أنه كان الرئيس السادس عشر، حيث يكون الاعتقاد (١) أكثرَ اتصافًا بأنه اعتقادُ تعيين من (٢). فإذا تعلم بيتر أن لينكولن كان الرئيسَ السادس عشر فقد يتخلى عن "الاعتقاد ـــ د" غير المُعيِّن في حين يستمر في استخدام العبارة في الإحالة. أما إذا أكَّد له أن كتب التاريخ كلها خاطئة وأن "فان بيرن" لم يكن رئيسًا قط، فسيحتار كيـــف يتصرف. وتبدو هذه خطوة معقولة أولى نحو ما يصلح أن يكون تحليلاً يمكن أن يوفره منظورٌ داخلي، وأن يكون واضحًا من حيث الواقع. ويمكن إطلاق مزيد من الأحكام أحيانًا في بعض الظـــروف المعينـــة، وبطـــرق متنوعـــة ومتعارضة[١٢].

وربما كان سبب ذلك وجودَ خصيصة عامة (أو مشتركة بين النـــاس) للفكر والمعنى تنتج عن التماثل في الإعداد [الأحيائي] الأولي، وهي التـــي لا تسمح إلا بـــ "اللغات ـــ د" التي تتشابه من حيث بعض المعايير المهمة، ومن هنا توفر بعضَ الأسباب الاختبارية لتبني إحدى صيغ مبدأ فريجه الذي يقول: "إنه لا يمكن إنكار أنّ البشر يمتلكون كنزًا مشتركًا من الفكر يُنقل من جيـــل إلى جيل" (Frege 1892/1965: 71). وربما تقرُب الصياغاتُ المعيَّنة لملكـــة صياغة العلم أيضًا من كونها خصيصةً عامة (وهذا أكثر أهمية، لاهتمامـــات فريجه المحدَّدة). لكن طبيعة الفكر والمعنى، فيما يخص الأنظمة التي تنمـــو

بصورة طبيعية في الدماغ، بعد تشخيص الإعداد الأولي على صورة "لغة ــ د" (وربما "اعتقاد ــ د" والأنظمة ذات الصلة، كذلك)، تتنوع تبعًا لتنوع الاهتمامات والظروف، مع عدم وجود طريق واضح لوضع تصنيفات أخرى، حتى على المستوى المثالي. لذلك يبدو اللجوء إلى التفسير بالأصل المشترك للغة أو بالتخرصات عن مبدأ الانتقاء الطبيعي، وهو ما يشيع في الأبحاث المتخصصة، غير مفيد.

انظر إلى الحالة الأولى المشتركة لملكة اللغة في الدماغ، وإلى المدى المحدود لـ "اللغات ــ د" التي يمكن تحصيلها في أثناء تطورها في السنوات الأولى من حياة الطفل. فنجد، حين نبحث الخصائص المعجمية، نسيجًا غنيًا من الدلالة الداخلية الصرفة مع خصائص عامة لافتة للنظر، وبعض الأدلة على وجود علاقات دلالية صورية (ويشمل ذلك العلاقات التحليلية، انظر المراجع في ص). كما يبدو، زيادة على هذا، أن جزءًا كبيرًا من هذه البنية الدلالية مشتق من طبيعتنا الداخلية، وتحدده الحالة الأولى لملكتنا اللغوية، ومن هنا فهو غير متعلَّم وكلِّي في "اللغات ــ د"، ويصح الشيء نفسه تقريبًا عن الخصائص الصوتية والخصائص الأخرى، ويبدو، باختصار، أن "اللغة ــ د" (ويشمل ذلك الدلالة الداخلية) تشبه الأجزاء الأخرى من العالم الأحيائي.

ويمكن أن نأخذ هذا كله على أنه شكل من التركيب، أي أنه دراسة للأنظمة الرمزية لنظريات التمثيل الحوسبي ("التمثيل الذهني"). وتبقى المصطلحات نفسُها ملائمةً إن طوّرنا هذه الوسائل النظرية لتشمل النماذجَ الذهنية، وتمثيلاتِ الخطاب، والقيمَ الدلالية، والعوالمَ الممكنة على الوجه الذي تُفهم به عادة، وتركيباتٍ نظريةً أخرى يجب النظر إليها على أنها ترتبط بشكل ما بالأشياء في العالم؛ أو بالوحدات التي تفترضها ملكةُ صياغة العلم لدينا، أو تصوغها ملكاتٌ أخرى من ملكات الدماغ.

ويمكن أن تَصل خصائصُ التعبيرات اللغوية المحدّدة داخليًا إلى أمداء بعيدة جدًا، حتى فى أبسط الحالات البسيطة. انظر مرة أخرى إلى الكلمة house "بيت" فى التعبير التالى، مثلاً:

John is painting the house brown.

"يصبغ جون البيتَ بنيًّا".

وهو تعبير يتصف بأنه مجموع معيّن من الخصائص البنيوية والصوتية والدلالية، ولا يمكن أن نقول إنّ هذا التعبير هو نفسه عند بيتر وتوم إلا بالمعنى الذى يمكن أن نعنيه حين نقول إن نظام دورتهما الدموية أو نظام الإبصار عندهما متماثلان، أى أنهما متماثلان إلى درجة كافية للأغراض التى تعنينا. وإحدى الخصائص البنيوية لهذا التعبير أنه يتكون من ست كلمات [فى الإنجليزية]. وتميِّز خصائصُ بنيويةٌ أخرى هذا التعبير عن التعبير التالى:

John is painting the brown house.

"يصبغ جون البيتَ البنى".

وهو يتصف بشروط مختلفة للاستخدام. وإحدى الخصائص الصوتية أن الكلمتين الأخيرتين فيه house "بيت" و brown "بنى" تشتركان فى الحركة نفسها؛ فهما فى علاقة صورية للتجانس الصوتى، أما كلمتا: house و mouse فهما فى علاقة صورية للسجع، وهاتان علاقتان بين التعبيرات اللغوية يمكن تعيينهما فى ضوء سماتهما الصواتية[14]. وإحدى الخصائص الدلالية أن إحدى الكلمتين الأخيرتين يمكن استخدامها فى الإحالة إلى أنواع محددة من الأشياء، وتعبِّر الأخرى عن خصيصة أخرى لـ [هذه الأشياء]. ونجد هنا، مرة أخرى، علاقات صورية يمكن التعبير عنها فى ضوء بعض سمات الكلمات، مثل ما بين house و building "مبنى"، مثلاً. أو، إن أخذنا خصيصةً أكثر لفتًا للنظر، إن كان جون يصبغ البيت بنيًا، فهو يصبغ السطحَ الخارجى للبيت، لا السطح الداخلى؛ وهى علاقة "اقتضاء" تَلزَم بين التعبيرات اللغوية.

وحين ننظر فى علاقات الاقتضاء صوريًا نجد أن لها المنزلة نفسها تقريبًا التى للسجع؛ فهى علاقات صورية بين التعبيرات، ويمكن وصفها فى ضوء سماتها اللغوية. وبعضُ العلاقات مهمة، بوصفها متمايزة عن علاقات أخرى كثيرة ليست كذلك، وذلك للطرق التى تُدمج بها "اللغات ــ د" فى أنظمة الأداء التى تستخدم هذه التعليمات من أجل أنشطة بشرية مختلفة.

وبعضُ خصائص هذا التعبير كلّية، وبعضُها خاص بلغة معينة. فمن الخصائص الصوتية الكلية أن الحركة فى house أقصر من الحركة فى brown؛ ومن الخصائص الخاصة أن هذه الحركة فى "لغتى ــ د" أماميةٌ لا متوسطة، كما فى بعض "اللغات ــ د" الشبيهة بلغتى. ويبدو أن كون البيت البنى يتصف بأن سطحه الخارجى بنى، لا داخله، حقيقةٌ لغوية كلية، تصدق على الكلمات التى تدل على "الاحتواء"، ويشمل ذلك الكلمات التى يمكن أن نخترعها، مثل: box "صندوق"، و airplane "طائرة"، igloo "نوع من الأكواخ عند الإسكيمو"، و lean-to "ملحق بالبيت له سطح منحدر"، إلخ. فأن تصبغ مكعبًا كرويًّا بلون بنى يعنى أن تجعل له سطحًا خارجيًّا بنيًا. وتمييزُ house "بيت" فى الإنجليزية عن home "منزل" سمةٌ خاصة فى "اللغة ــ د". فأنا أعود، فى اللغة الإنجليزية، إلى "منزلى" home بعد العمل؛ أما فى العبرية فأنا أعود إلى "بيتى" house [١٠].

وإذا تجاوزنا البنية المعجمية، تتلقى النتائجُ عن غنى الحالة الأولى للملكة اللغوية، وبنيتها المقصورة عليها فيما يبدو، دعمًا أقوى. انظر إلى تعبيرات كالتى فى المثال رقم (٢):

٢أ ــ He thinks the young man is a genius.
"يظن أن الفتى عبقرى".

٢ب ــ The young man thinks he is a genius.
"يظن الفتى أنه عبقرى".

٢ج ــ His mother thinks the young man is a genius.
"تظن أمه أن الفتى عبقرى".

فيمكن أن يَعتمد الضمير في (٢ب) أو (٢ج) إحاليًا علــى the young man ؛ أما في (٢أ) فذلك غير ممكن (مع إمكان استخدامه في الإحالة إلــى الفتى المتحدَّث عنه هنا، وهو أمر لا صلة له هنا). فيبدو أن المبادئ التــي تقوم عليها هذه الحقائق كلية، إلى حد بعيد في الأقل[١٦]؛ كمــا ينــتج عنهــا شروطٌ غنية على التأويل الدلالي، والارتباطات الذاتية للمعنى بين التعبيرات، ومن ذلك الارتباطات التحليلية. يضاف إلى ذلك أن لدينا في هذا المجال نتائجَ نظريةَ على درجة بعيدة من العمق، ولها مقتضيات مفاجئة. فيبدو – لذلك – أن هذه المبادئ نفسها تُنتج الخصائصَ الدلالية للتعبيرات التي تماثل من حيث الشكل المثال رقم (١)، في ص.

ويَفرض التمثيلُ في المستوى الوجيهيي "ص ص"، في ضوء أنظمــة الأداء، شروطًا تقييدية على الاستخدام (أي على النطق والإدراك، في هــذه الحالة). ويصح الشيء نفسه عن التمثيل "ص م"، كما يوضّح المثــالان (١) و(٢)، أو كما يتمثل، في المستوى المعجمي، في الوضع الخــاص للسطح الخارجي في الكلمات التي تدل على "الاحتواء". ويبيِّن الفحصُ المدقِّقُ مزيدًا من التعقيد. فيميِّز السطحُ الخارجي بطرق أخرى ضمن دلالة "اللغــة ــ د". فإذا كنتُ أرى البيت فإني أرى سطحه الخارجي؛ أما رؤية سطحه الــداخلي فلا تكفي. وإذا كنت داخل طائرة فلا أرى سطحها الخارجي إلا إذا نظــرت عبر النافذة لأرى سطح الجناح، أو إذا كانت هناك مرآة في الخارج تعكــس سطح الطائرة الخارجي. لكن البيت ليس سطحَه الخارجي وحسب، فهو وحدة هندسية. فإذا كان بيتر وماري على مسافة متساوية من السطح ــ حيث يكون بيتر داخل البيت وماري خارجه ــ فلا يكون بيتر قريبًا من البيت، أما ماري فربما تكون، تبعًا للظروف الحالية للقُرب. ويمكن أن يحوي البيت كراسي في داخله أو في خارجه، وهو ما يتماشى مع اعتباره سطحًا. ومع أنه يمكن أن تكون الكراسي التي في خارج البيت قريبة منه، إلا أن التي في داخله ليست كذلك بالضرورة. لذلك يَدخل في البيت سطحَه الخارجي وسطحُه الــداخلي. لكنّ داخلَه يُدرك بشكل تجريدي؛ فسيَظل البيتَ نفسَه إن ملأتَــه بــالجُبن أو

أزلت جدرانه ــ مع أنى إن نظَّفت البيتَ فربما أتعامل مع الأشياء التى فى حيِّزه الداخلى فقط، وأنا أحيل إلى هذه الأشياء وحدها حين أقول إن البيت غير مرتَّب أو أنه بحاجة إلى زخرفته من جديد. فيُدرك البيتُ على أنه سطح خارجى وحيِّز داخلى (بخصائص معقدة). صحيح أن البيت نفسه شىء مادى محسوس؛ إذ يمكن أن يبنى بالطوب أو الخشب، كما أن البيت الخشبى ليس مكونًا من سطح خارجى خشبى فقط. والبيت الخشبى البنى له سطح خارجى بنى (بالمنظور المجرد) وهو مبنى من الخشب (بالمنظور الحسى). وإذا كان بيتى my house فى فيلادلفيا لكنه الآن فى بوسطن، فهذا يعنى أن شيئًا ماديًّا انتقل. وبالمقابل، فإذا كان منزلى my home فى فيلادلفيا لكنه الآن فى بوسطن فلا يعنى هذا بالضرورة أن شيئًا ماديًّا انتقل، مع أن منزلى my home شىء مادى كذلك ــ وإن كان بطرق أخرى مجردًا كذلك، سواء أفهم أنه البيت الذى أعيش فيه أم المدينة أم البلاد أم الكون؛ فالبيت مادى حسى بمعنى مختلف جدا. وللتمييز بين house-home "بيت ــ منزل" مقتضيات كثيرة: فأنا:

I can go home.

"أستطيع العودة إلى منزلى".

لكن:

I can not go house.

"لا أستطيع العودة إلى بيتى".

و:

I can live in a brown house.

"يمكن أن أعيش فى بيت بنى".

لكن:

I can not live in a brown home.

"لا يمكن أن أعيش فى منزل بنى".

وتأتى الكلمة المماثلة لـ home "ظرفًا" فى كثير من اللغات، كما هى الحال فى الإنجليزية جزئيا.

فنحن نرى [من هذا] أن الشروط الداخلية على المعنى، حتى في هـذا المثال البسيط، غنية ومعقدة ولا تلفت النظر؛ بل لا تكاد تُعرف. ولا تحلم أكثرُ المعاجم تفصيلاً أن تبيِّن مثل هذه التفصيلات الدقيقة؛ فهي لا تـوفِّر إلا بعض الإيحاءات التي ربما تساعد الذين يعرفون التصورَ المقصود (من حيث بعض الاعتبارات الأساسية، في الأقل) على اكتشافه. لذلك يَعمل "النوعُ ـــ د" عند فريجه بطرق متداخلة غريبة.

ويبدو للنظر الأول أن هناك شيئًا متناقضًا في هذه التوصيفات، ذلك أن houses "البيوت"، و homes "المنازل" أشياء مادية، لكنه يُنظر إليهـا، مـن زاوية أخرى، على أنها مجرَّدة إلى حد بعيد، وإن كانت مجردة بطرق مختلفة جدًا؛ كذلك الكتبُ ومجموعةُ أوراق اللعب والمدن، إلخ. ولا يعنـي ذلـك أن لدينا أفكارًا مشوشة ـــ أو اعتقادات غير مطردة ـــ عن البيوت أو المنازل أو الصناديق أو الطائرات أو الكهوف أو المكعبات المكوَّرة، إلخ. بل يعنـي أن الوحدة المعجمية تمدُّنا بعدد من الزوايا للنظر إلى ما نعدُّه أشياءَ فـي هـذا العالم، أو ما ندركه بطرق أخرى؛ وتُـشبه هـذه الوحـداتُ المـصافي أو العدسات، فهي توفِّر لنا طرقًا للنظر إلى الأشياء وطرقًا للتفكير فيما تُنتجـه عقولُنا. والكلمات نفسُها لا تُحيل، إن استخدمنا الكلمةَ "يحيل" بمعناها في اللغة الطبيعية، في الأقل، لكن الناس يمكن أن يستعملوها في الإحالة إلى الأشـياء حين ينظرون إليها من زوايا معينة ـــ وهي زوايا بعيدة جدًّا عن طرق العلوم الطبيعية، كما أشرنا.

ويصح الشيء نفسه في أي جانب ندرُسه من "اللغـة ـــ د". فليـست "لندن" خرافة، لكن حين ننظر إليها على أنها "لندن" ـــ أي من خلال منظور اسمِ مدينة، وهو نوع خاص من التعبير اللغوي ـــ فإننا نُسبغ عليهـا بعـض الخصائص الغريبة: فنسمح، كما لاحظنا سابقًا، بأنه يمكن في بعض الظروف أن تدمَّر تدميرًا تامًا ثم يعاد بناؤها في مكان آخر، بعد سنين بل بعـد آلاف السنين، لكنها تظل هي "لندن"، أي المدينة نفسها. وقد وصف تشارلز ديكنـز

مدينة واشنطن بأنها "مدينة ذات مقاصد عظيمة"، فهي تتميز بـ "طرق واسعة، تبدأ من لا شيء، وتؤدي إلى لا مكان؛ وبشوارع طول الواحد منها ميل، لكنها لا تحتاج إلا إلى بيوت وجوادٍ وسكان ومبان حكومية، لا تحتاج إلا إلى أناس لتكون كاملة [يتلاعب ديكنز بكلمة public في عبارة public buildings "مكاتب حكومية"، و public "الناس"]؛ وأبهة في الشوارع، لكنها لا تحتاج إلا لشوارع عظيمة ذات أبهة" ـ ومع ذلك تظل هي واشنطن. ويمكن أن ننظر إلى لندن باعتبار سكانها أو من غير اعتبار لهم: فهي، من جهة، المدينة نفسُها حتى إن هجرها سكانها؛ ونستطيع أن نقول، من جهة أخرى، إن لندن صارت ذات شعور فظ إبان رئاسة مارجريت تاتشر للحكومة، وهو تعليق يتصل بالكيفية التي يتصرف فيها الناس ويعيشون. وربما كنا نتحدث، في إحالتنا إلى لندن، عن موقع أو منطقة أو أناسٍ يعيشون هناك أحيانا، أو عن الهواء في سمائها (لكن يجب أن يكون الهواء القريب من سطح أرضها فقط)، أو عن مبانٍ أو مؤسسات، إلخ، وبطرق كثيرة للجمع بين هذه الأشياء (كما في: "لندن تعيسة جدًا، وقبيحة وملوثة إلى درجة توجب تدميرها وإعادة بنائها على بعد مائة ميل من موقعها الحالي"، لكنها تظل هي المدينة نفسها). فتستعمل كلماتٍ مثل "لندن" للحديث عن العالم الواقعي، لكن ليس هناك "أشياء في العالم" تتصف بالخصائص المعقدة لطرق الإحالة التي يلخصها اسمُ مدينة ولا يعتقد أحد أن هناك شيئًا مثل ذلك. ويمكن أن يدخل منظوران من مثل هذه المنظورات بشكلين مختلفين في نظام الاعتقاد عند بيتر، كما في الاختبار المحيّر عند سول كريبك Kripke's puzzle. (للاطلاع على نقاش مستفيض من وجهة نظر مماثلة تقريبا، انظر Bilgrami 1992).

ونحن نصوغ، من أجل أهداف البحث العلمي الطبيعي، صورةً للعالَم منفصلة عن هذه المنظورات "البديهية" (ولن يكون هذا الانفصال تامًا بالطبع؛ إذ لا يمكن أن تكون إلا الكائنات التي هي نحن)[٧٧]. أما إذا مزجنا بين هذين الطريقين المختلفين للتفكير عن العالم فربما نكتشف أننا نعزو إلى الناس

اعتقادات غريبة بل متعارضة أحيانًا عن أشياء ينبغى أن يُنظر إليها بمعزل عن الوسائل التى توفرها "اللغة ـــ د" وأنظمة "الاعتقاد ـــ د" التى تضيف مزيدًا من التعقيد للتأويل. وسيبدو الوضعُ أكثرَ غموضًا إن تبنينا الفكرة الغامضة التى مفادها أن لبعض الكلمات علاقةً بالأشياء (أى: "إحالة") محدَّدة فى لغة عامة مشتركة ما، وهى التى ربما توجد "باستقلال عن أى متكلِّمين معيَّنين" يمتلكون "فهمًا جزئيًا باللغة، وربما يكون وعيًا جزئيًا خاطئًا" (Dummett 1986)؛ وأنَّ هذه "الكلمات فى لغة عامة" تحيل فى اللغة المشتركة (بمعنى ما يزال بحاجة إلى تفسير) إلى أشياء مثل "لندن" منظورًا إليها على أنها شىء منفصل عن الخصائص التى يوفرها اسمُ المدينة (أو بعض الطرق الأخرى للتعيين) فى "لغة ـــ د" ما، ومنفصل عن العوامل الأخرى التى تدخل فى الطريقة التى يحيل بها بيتر إلى "لندن". وسيبدو كأن المشكلات تتعمق بشكل أكبر حين نجرِّد من خلفيات الاعتقادات الفردية أو المشتركة التى تقبع وراء الاستخدام المألوف للغة. وتذهب هذه المحاولات جميعها وراء حدود أية مقاربة علمية طبيعية، بل ربما يكون بعضها وراء أى نقاش معقول.

كما تذهب هذه المحاولات وراء حدود المقاربة الداخلية، وهو أمر مختلف. فلا تفرض المقاربة العلمية الطبيعية حدودًا داخلية فردية. ومن هنا، فإذا درسنا (بعض الأشياء المناظرة) للأشخاص بصفتها أطوارًا فى تاريخ بعض الخلايا الجرثومية التى لا تفنى فى الحالات المثالية، أو بصفتها مراحل فى تحولِ الأكسجين إلى ثانى أكسيد الكربون، فإنا بذلك نتخطَّى هذه الحدود. أما إن كنا نهتم بتفسير ما يفعله الناس، وبمعرفة السبب الذى يجعلهم يفعلون ما يفعلون، بقدر ما يكون ذلك ممكنا عن طريق البحث العلمى الطبيعى، فستبدو الحجة التى يُحتج بها لعدم تجاوز هذه الحدود مقنعة[٨].

وكنا بدأنا بالنظر فى الاكتشاف (الافتراضى) أن دماغ بيتر يُنتج الصورة C حين يفكر بالقطط. ثم انتقلنا إلى المثال الأكثر واقعية وهو

"الإمكانات الكهربائية ذات الصلة بالحدث" ERP ، وانتقلنا بعد ذلك إلى مثال يفوق ما سبقه واقعية (من وجهة نظر علميـة) وهـو "أنظمـة التمثـيلات الحوسبية"؛ ويمكن النظرُ إلى عناصرها على أنهـا تـشبه C، لكنهـا الآن عناصر واقعية، لا افتراضية، كما توحي بذلك الأدلةُ المتوفرة. وربما يكون الأمر نفسه صحيحًا عن مقاربة طبيعية علمية تتجاوز هذه الحدود الداخليـة، ناظرة إلى دماغ بيتر بوصفه جزءًا من نظام أوسع للتفاعلات. لذلك ربما لا يكون التشابه الآن مع الصورة C التي تتكوَّن في دماغ بيتـر حـين يفكـر بالقطط، بل مع صورة مادية ما ′C تتضمن C إلى جانـب أشـياء أخـرى، وربما يكون هذا الشيء عن القطط. ونحن الآن في مجال الافتـراض ـــ ولا أعرف بديلاً جادًا آخر. لكن افرض أنه صار من الممكن صياغة مثل هـذا البديل، وبَرهن على أنه يؤدي إلى فهم أعمق للأسئلة المتعلقة باستخدام اللغة. وإذا كان الأمر كذلك فربما يعدِّل هذا الطرقَ التي ندرس بها اللغـة وعلـمَ النفس، لكنه لن يقودنا إلى تفسيرٍ للناس وما يفعلونه.

ويلزم أن نميِّز بين مقاربة علمية طبيعية خارجية افتراضية من النوع الذي بيناه باختصار آنفا ومقاربة خارجية غير طبيعية تحاول أن تعامِل الفعل البشري (كالإحالة إلى القطط أو التفكير عنها، إلخ) في سـياق الجماعـات، سواء أكانت أشياءَ حقيقية في العالم أم متخيَّلة، إلخ. ويجب الحكم على هـذه الأنواع من المقاربات انطلاقًا من طبيعتها، بوصفها جهودًا لإضـفاء معنـى على الأسئلة التي تقع خارج البحث العلمي الطبيعي ــ كالأسئلة عن الطاقـة والأحجار الساقطة والسماء، إلخ ـــ بالمعنى المألوف لهـذه الكلمـات. وقـد ذكرتُ بعضَ الأسباب التي تشكك في اللجوء إلى الجماعاتِ وممارساتها، أو اللغات العامة بما لها من معان عامة. لكن دعنا نوجِّه أنظارنا إلى وجه آخر من المقاربة الخارجية، وهو العلاقة المزعومة بين الكلمات والأشياء.

فهناك نظريات تفسيرية مهمة جدًا ضمن علم الدلالة الداخلي طـوِّرت بحسب علاقة "ح" R (من refer) ["يحيل"] يُفترض أنها موجودة بين التعبيرات

اللغوية وأشياء أخرى، أى وحدات تُستخلص من مجال "م" D [Domain] مفترضٍ ما (وربما يكون "القيم الدلالية")[١٩].

فتلزم العلاقة "ح" R ، مثلاً، بين تعبيرات مثل "لندن" ("بيت"، إلخ) ووحداتِ المجال "م" D التى يفترض أن لها علاقة بما يحيل الناسُ إليه حين يستخدمون كلمة "لندن" ("بيت"، إلخ)، مع أن تلك العلاقة المدّعاة ما تزال غامضة. وكما لاحظنا من قبل، ينبغى، كما أظن، أن يُنظر إلى هذه النظريات على أنها نوع من التركيب. ذلك أن العناصر التى تفترضها شبيهةٌ، من حيث الاعتبارات ذات الصلة هنا، بالتمثيلات الصواتية أو تمثيلات البنية المركبية، أو الصورة المفترضة C فى الدماغ؛ وربما صح لنا دمج "ح" و"م" (D و R) فى الوصف البنيوي SD (أى التعبير اللغوى)، بوصفهما جزأين من مستوى وجيهى ما.

ويصاغ تفسيرُ الظواهر التى فى المثال (٢) (ص ١٣٢-١٣٣) عادةً فى ضوء العلاقة "ح". فيمكن أن نطبّق عليها نظرياتِ الربط وعودِ الضمائر نفسها من غير تغيير جذرى إن استبدلنا بـ young فى المثال (٢) صفاتٍ كـ average "متوسط"، أو typical "نمطى"، أو استبدلنا بـ John Doe the young man ، إذا أخذناه على أنه الرجل المتوسط من أجل أغراض خطاب معين[٢٠]. ويمكن أن تنطبق النظريات نفسُها على خصائص عود الضمائر فى الأمثلة (٣) و(٤):

٣أ — It brings good health's rewards.

"إنها تأتى بفوائد الصحة الجيدة".

٣ب — Good health brings its rewards.

"الصحة الجيدة تأتى بفوائدها".

٣ج — Its rewards are what make good health worth striving for.

"إن فوائدها هى ما يجعل الصحة الجيدة تستأهل السعى لها".

٤أ ـــ [There is a flew in the argument], but it was quickly found.

"[هناك عيب في الحجة]، لكنه اكتُشف بسرعة".

٤ب ـــ [The argument is flawed], but it was quickly found.

"[الحجة معيبة] لكنه سرعان ما اكتُشف".

فنحن نستطيع في ضوء العلاقة "ح" التي تفترض بـــين the average man و John Doe, good health, flaw ، والوحدات المستخلصة من "م"، أن نعلل السلوكَ المختلف للضمير بالطريقة نفسها التي يمكن أن نفسر بها حالة the young man, Peter, fly (كما فـــي الجملـــة there is a fly in the coffee "هناك ذبابة في القهوة"). فتختلف علاقات الضميرين العائـــدين فـــي (٤أ، و ٤ب)، مع أنه ليس هناك اختلاف في المعنى بين العبارتين المحصورتين بين الأقواس المعقوفة. وربما نكتشف أن هذه التعبيرات، إلى جانـــب تعبيـــرات أخرى مثل the argument has a flaw "في الحجة عيب" (مع اختيارات عـــود الضمائر في (٤أ))، ما تزال تشترك في بعض الخصـائص البنيويـــة الأكثـــر عمقا، بل ربما تشترك حتى في التمثيل البنيوي نفسه في المستوى ذي الصلة بالدلالة الداخلية للعبارات، وهو احتمال كان مجالاً للبحث منذ سنوات عـدة (انظر Tremblay 1991)[٢١] ويصح الشيء نفسه في حالات أكثـــر غرابـــة. فربما يبدو نوعًا من الحُمْق أن نبحث عن علاقة بين بعض الوحدات في "م" والأشياء الموجودة في العالم ـــ سواء أكانت تلك الأشياء حقيقية أم متخيلة، أم غير ذلك ـــ أي علاقة تتصف بأي قدر من العمومية، في الأقل. وربما يتخيل أحدٌ أنّ علاقة العناصر في "م" بالأشياء في العالم أكثرُ "شفافية" مما هي فـــي حالة التمثيلات التركيبية الأخرى، مثلما أن علاقة الموجات الصوتية أكثـــرُ "شفافية" بالأصوات منها بالتمثيلات الصواتية؛ لكن حتى إن كان الأمر كذلك، فلا تتجاوز هذه الدراسات حدود تركيب التمثيلات الذهنية. أما العلاقـــة "ح" والمركبُ "م" فيجب تفسيرهما بالأسباب نفسها التي تسوّغ الأفكارَ التركيبيـــة التقنية الأخرى، أي الأفكار الصواتية، أو أصناف المقولات الفارغـــة فـــي

التركيب. ومن هنا فليس للتشابه العارض بين العلاقـة "ح" R والمصطلح refer "يحيل" في اللغة العادية من الأهمية ما يزيد عن الأهمية التـي ربمـا تكون له في حال المصطلحين [الفيزيائيين التقنيين] momentum "الزَّخم"، و undecidability "اللايقين ".

فنحن لا نمتلك، على وجه التحديد، أى حدس عن "ح" إلا بقـدر مـا نمتلكه من حدس عن كلمات مثل momentum أو undecidability بمعنييهما التقنيـين، أو عـن c-command "الـتحكم المكـوِّنى" أو autosegmental "المستوى القطعى المستقل" في (الأجزاء الأخرى) من النظريات الحوسـبية للتركيب[٢٢]؛ إذ تأخذ هذه المصطلحات المعانى التى نسبغها عليهـا. ونحـن نمتلك أحكامًا حدسية عن الفكرة المستخدمة في تعبيرات مثل:

Mary often refers to the young man as a friend.

(to the average man as John Doe, to good health as life's highest goal)

"تحيل مارى غالبًا إلى الفتى بوصفه صديقا (وللرجل المتوسط بوصفه جون دو، وللصحة الجيدة بوصفها أسمى هدف للحياة)"

لكننا لا نملك مثل هذه الأحكام عن العلاقة "ح" الموجودة بـين Mary (أو: the average man, John Doe, good health, flaw) والعناصر المفترَضة في "م". ذلك أن "ح" و "م" هما ما نحدِّد أنه هما، ضمن إطار معين للتفسـير النظرى. ويمكن أن نقارن "ح" و "م" بـــ P "ص" و PF "ص ص"، حيـث تكون "ص" P علاقة بين تعبير ما والتمثيل الصوتى "ص ص" PF له (وربما بين الكلمة look وكيفية نطقها، أى: [thuk])، مع أن التصورات فى الحالـة الأخيرة تدخل ضمن نظرية أقوى تأسيسا وأكثر غنى للعلاقات الوجيهية.

هب أننا استطعنا تسويغ افتراض وجود "ح" و "م" بنجاحه التفسـيرى ضمن نظرية التمثيلات الحوسبية "للغة ــ د"، إلى جانـب "ص" و "ص ص" و "الـتحكم المكـوِّنى" c-command و "المـستوى القطعـى المـستقل"

autosegmental. لكن هذه النتيجة لن تعزّز الاعتقاد بأن هناك علاقةً شـبيهة بالعلاقة "ح"، ولنسمها العلاقة ´R "´ح"، تقوم بين الكلمات والأشياء، أو بينهـا وبين الأشياء كما نُتخيَّل أن تكون، أو كما نتصوّر بدلاً من ذلك. فيجـب أن يسوّغ افتراضٌ مثل هذه العلاقة على أساسٍ ما، كما هي الحال في أية فكـرة تقنية مخترَعة أخرى. ثم إننا إنْ صُغنا علاقةً ´R "´ح" تلزم بـين التعبيـرات اللغوية و"الأشياء" التي تفهم بشكل ما، فلن نمتلك حدسًا عنهـا؛ إذ لا تزيـد الأمورَ إلا غموضًا إن توسَّلنا ببعض الأفكار التي لم تُفـسَّر "للجماعـة" أو "اللغة العامة"، حين نأخذهما بمعنى خالصٍ ما. ومع ذلك فنحن نمتلك بالفعـل أحكامًا حدسية عن التعبيرات اللغوية والمنظورات وزوايا النظر المعينة التي توفرها للتأويل والتفكير. ويمكن كذلك أن ندرس كيف تدخل هذه التعبيـرات والمنظورات في النشاطات الإنسانية المختلفة، كالإحالـة. أمـا وراء ذلـك، فندخل في مجال النقاش التقني، محرومين من الأحكام الحدسية.

انظر مثلاً إلى التجربة الذهنية المشهورة "توءم الأرض" عنـد بتنـام (Putnam 1975). فهي تُبيِّن أنه لا يمكن الحدس بما إن كان لـ water "ماء" "المرجعُ" نفسُه عند أوسكار وتوءم أوسكار: إذ الحكمُ في هذا من أمور القرار بشأن المصطلح التقني الجديد "إحالة" (وهو اختيار معين لـ "´ح" ´R). لكننا يمكن أن نُصدر بعض الأحكام عن الشيء الذي ربما كان أوسـكار وتـوءم أوسكار يحيلان إليه، وهي أحكام يبدو أنها تتنوع بشكل كبير، تبعًـا لتنـوع الظروف. وتبدو اقتراحات بتنام عن "السائل نفسه"، وهي فكرة (ربما لا تكون معروفة) في العلوم الطبيعية معقولةً جدًا، في بعض الظروف المعينة؛ كمـا يبدو أن فكرتَي "التماثل" و"التشابه" المأخوذتين من الفهم البديهي أكثرُ ملاءمة، في بعض الظروف الأخرى، ويمكن أن يقودا إلى أحكام مختلفة. ولا يبدو لي واضحًا أنه يمكن أن نقول شيئًا عامًا عن هذه الأمور، أو أنه يمكن أن نُسبغ معنى عامًا أو مفيدًا على أفكار تقنية كـ "المضمون الواسع" (أو أيـة فكـرة أخرى لتحديد "الإحالة") في أي تأويل خارجي.

وإذا كان الأمر كذلك فهذا يثير عددًا من الأسئلة عن وضع ما يسميه بتنام، في محاضرات لسوك (Putnam 1988a: Chapter 2)، بـ "التعاون الاجتماعي مضافًا إليه إسهامُ النظرية البيئية في تحديد الإحالة"، وهو وجهة أكثرُ كمالاً "للنظرية السببية للإحالة" التي طوّرت في بحثه: "معنى 'المعنى'" (Putnam 1975) وفي بحثِ سول كريبك: "التسمية والضرورة" (Kripke 1972)، وهما البحثان اللذان صارا الآن من المعالم البارزة في هذا المجال.

ويتعلق "التعاون الاجتماعي" بـ "تقسيم العمل اللغوي": أي بدور الخبراء [اللغويين] في تحديد ما تحيل إليه الكلمتان: Elm "شجر الدردار" و beech "شجر الزان"، في لهجتي، مثلاً. ويقدّم بتنام تفسيرًا مقنعًا لبعض الظروف المحدَّدة. فيمكن لي في بعض الظروف أن أوافق، حقيقةً، على أنّ ما أُحيل إليه حين أستخدم كلمة Elm هو المعنى الذي يعنيه أحدُ الخبراء، وربما كان هذا الخبير بستانيًّا إيطاليًّا لا أشترك معه إلا في المصطلحات اللاتينية (مع أنه ليس هناك معنى حقيقي نكون أنا وهو في ضوئه منتميَيْن إلى "الجماعة اللغوية" نفسها أو نتكلم "لغة مشتركة")؛ أما في ظروف أخرى، فربما لا أتفق معه، لكن هذا متوقع في بحث يتوسّع ليشمل "التنظيم الوظيفي البشري" الكامل، وهو ما يكاد يكون دراسةً لكل شيء. وكما ذكرنا من قبل، فليس واضحًا إن كان هذا السؤال يتعلق بـ "اللغة ـــ د" أم بـ "الاعتقاد ـــ د"، إن افترضنا صحة الصياغة النظرية.

أما "نظرية البيئة" فربما لا تستطيع الإسهام في تعيين الإحالة إلا بوجود فكرة متماسكة "للإحالة" ("ح" R) تلزم بين التعبيرات اللغوية والأشياء، وهو أمر غير واضح تمامًا، وإن كان الناس يستخدمون، حقيقةً، هذه التعبيرات (بطرق مختلفة) في الإحالة إلى الأشياء، متبنين وجهات النظر التي توفرها هذه التعبيرات. فهناك ظروف يمكن فيها أن تكون بعضُ النتائج المعيّنة التي تُستخلص عادةً ملائمةً، وهي التي تُساعد فيها أفكارٌ مثل "النوع نفسه" و"السائل نفسه"، إلخ، في تحديد الأشياء التي أُحيل إليها؛ كما أن هناك

بعض الظروف الأخرى التي لا يتحقق فيها ذلك(٢٣).

ولا يبدو واضحا كذلك إن كانت بعضُ القضايا الغيبيــة metaphysical تبرز في هذا السياق. ولا شك أن هناك اختلافا حدسيًا، حين ننظر في بعض الأمثلة التي جاء بها كريبك، بين الحكم باحتمال أن يكون نيكسون "الشخص نفسه" إن لم يكن قد انتُخب رئيسًا للولايات المتحدة سنة ١٩٦٨، في حين أنه ربما لن يكون الشخص نفسه إن لم يكن شخصًا أصلا (كأن يكون تمثالاً لــه مصنوعًا من مادة السليكون، مثلا). لكن هذا يترتب على كون "نيكسون" اسمَ علَم، وهو ما يوفِّر طريقةً للإحالة إلى نيكسون "بوصفه شخصا"؛ وليس لهذا أهمية غيبية. أما حين نجرِّد من المنظور الذى توفِّره اللغة الطبيعية التــى لا يبدو أنها تحوى أسماءً خالصةً بالمعنى الذى عند المناطقة (ويصح الــشيء نفسه عن "المتغيِّرات"، إن عُدَّت الضمائر متغيــرات، فــى الأقــل، وعــن الإشارات indexicals ، إن نظرنا إلى الــشروط الفعليــة لاســتخدامها فــى الإحالة)، فإن هذه الحدوس تتهاوى حينئذ: فربما يكون نيكسون، كما أفترض، "وحدةً" مختلفة، إن رُجِّل شَعرُه بطريقة مختلفة. وليس الشيء الــذى أمــامى مكتبًا أو طاولة أساسا؛ إذ ربما يكون ذلك الشيء على وجه الدقة عددا مــن الأشياء المختلفة، تبعًا لتنوُّع الاهتمامات والوظائف ومقاصد مخترعه، إلــخ. ومما يمكن الاستشهاد به البحثُ الذى أنجزه جوزيف ألموج مؤخرًا ويتضمن أنه يمكن فهْم الحكم بأنّ جبَل Nanga Parbat جبلٌ "أساسًا" في ظروف معينة؛ إلا أنه يبدو لى أن "اختبار التجريد المتماسك" الذى اقترَحــه، وخلافــا لمــا يفترضه، يسمح لنا، في ظروف أخرى، أن نحرم Nanga Parbat مــن هــذه الخصيصة، ومع هذا يظل الشيء نفسه: كأن يرتفع البحرُ إلى مستوى كــاف لتصير قمَّته جزيرة، وهي الحالة التي لن يكون عندها جبلاً أكثر من كــون بريطانيا جبلا؛ أو إنْ تجمَّع الترابُ حوله حتى لم يبق بارزًا مــن قمتــه إلا مليمتر واحد، وهي حالة لن يكون عندها جبلاً، بل جزءًا من هضبة يحيط بها منخفض، ومع هذا يظل هو الشيء نفسه تماما (Almog 1991).

ولتلخيص ما قلناه، فمن المشكوك فيه أن تستطيع النتائج النموذجية الصمود في وجه تحليل مدقق للفكرتين التقنيتين لـ"إحالة" (بأحد المعاني الشبيهة بـ "ح" R) أو "تحديد الإحالة". وربما يكون هناك مسوغ للفكرة "ح" R في نظريات التمثيل الحوسبية (وهي فكرة تركيبية أساسًا، بالرغم من المظاهر التي تظهر بها). لكن لا يبدو أن هناك سببًا قويًا للافتراض بأنه يمكن أن تصاغ فكرة شبيهة بـ "ح" R بصورة متماسكة ومفيدة بوصفها علاقة تلزم بين التعبيرات وبعض أنواع الأشياء، بمعزل عن بعض الشروط والظروف الخاصة بالإحالة. وإذا كان الأمر كذلك فلن يكون هناك أيضًا بحث معقول في فكرة لـ"معنى" أو لـ"مضمون" تعمل على "تثبيت الإحالة" ("ح" R)، في اللغة الطبيعية في الأقل، مع أن هناك بحثًا (تركيبيًا) واعدًا عن الشروط التي تحكم استخدام اللغة (ويشمل ذلك الإحالة).

وكما ناقشنا من قبل، فربما يؤدي البحث العلمي الطبيعي إلى إيجاد أشباه للغة تزاد على "اللغة ـ د"؛ وربما تكون هذه الفكرة الشبيهة بـ R ملائمة لهذه؛ ذلك أن الكلمات تجرد الآن من خصائص "اللغة ـ د" التي توفر منظورات تأويلية وعلاقات دلالية، ويفك ارتباطها بـ"الاعتقاد ـ د"، ويسبغ عليها خصائص لا توجد في اللغة الطبيعية. وربما تستخدم هذه الأنظمة الاصطناعية موارد "اللغة ـ د" (كطريقة النطق والصرف وبنية الجملة، إلخ)، أو تتجاوزها (باستخدام بعض الصياغات الرياضية الصورية، مثلا). و"اللغة ـ د" نتاج للملكة اللغوية، وهي مجردة عن المكونات الأخرى للذهن؛ وهذه أمثلة بالطبع، لذلك يجب تسويغها أو رفضها اعتمادًا على الدور الذي تقوم به في إطار تفسيري. ويمكن توسيع هذه الصورة، بشكل معقول كما يبدو، بالتمييز بين نظام الاعتقاد البديهي وما تنتجه ملكة صياغة العلم. ولا ينتمي ما تنتجه ملكة صياغة العلم إلى أنظمة "اللغات ـ د" ولا لأنظمة "الاعتقاد ـ د"، لهذا ربما يكون من الملائم افتراض علاقة "ح" R لها.

وتأتي بعض الدوافع للمقاربات الخارجية من الانشغال بإضفاء معنى

على تاريخ العلم. لهذا، يرى بتنام أنه ينبغي أن نأخذ نتائج أبحاث نيلز بور Neils Bohr المبكرة على أنها تحيل إلى الألكترونات بمعناها في النظرية الكمية، وإلا ربما يلزمنا "أن ننظر إلى اعتقاداته كلها التى كان يعتقدها في سنة ١٩٠٠م على أنها خاطئة تماما" (Putnam 1988a)، وهى التى ربما كانت شبيهة بالاعتقاد بالملائكة [أى بأشياء غيبية]، وهذه نتيجة زائفة بكل وضوح. ويصح الأمر نفسه عن حديث علماء الكيمياء قبل دالتون Dalton عن الذرات. فربما نقول أيضًا، تأسيسا على الأسباب نفسها، إن علماء الكيمياء قبل أفوجادرو Avogadro كانوا يحيلون إلى ما نسميه ذرات أو جزيئات، مع أنهم كانوا يستخدمون هذه المصطلحات بعضها مكان بعض، كما يبدو.

ونفترض هذه المناقشة أن مصطلحات كـ"الألكترون" تنتمى إلى النظام نفسه الذى تنتمى إليه كلمات مثل "بيت" و"ماء" والضمائر العائدة، لذلك يمكن انطباق النتائج عن "الألكترون" بحذافيرها على الأفكار من الصنف الثانى. وتبدو تلك الفرضية ضمنيَّة فى اقتراح بتنام الذى مفاده أنه "لكى نكتشف التعقيد الذاتى لمهمة ما ينبغى أن نسأل: How hard is it in the hardest case? "ما مبلغ صعوبة هذه المهمة فى أصعب حالة؟"، حيث تمثل بعض التصورات مثل "الزخم" momentum، أو "ألكترون" electron فى الفيزياء "أصعب حالة" لـ "المرجع نفسه" أو "المعنى نفسه". لكن هذه الفرضية مشكوك فيها. إذ يجب أن تسعى دراسة اللغة إلى الوصول إلى صورة أكثر تبيينًا للفوارق، ثم إنَّ ما يصح فى الصياغات التقنيَّة التى تنتجها ملكة صياغة العلم ربما لا يصح عن معجم اللغة الطبيعية، لكن افرض أننا سلمنا بهذه النقطة مع ذلك. ثم وافقنا كذلك على أن الاهتمام بالمعقولية intelligibility فى الخطاب العلمى عبر الزمن اهتمامٌ مقبول، فإن هذا ما يزال غير صالح ليكون أساسًا لنظرية عامة عن المعنى؛ فهو اهتمام واحد من بين اهتمامات كثر، كما أنه لا يمثِّل اهتماما مركزيًّا فى دراسة النفسية البشرية. زد على ذلك أن هناك طرقًا تفسيرية داخلية بديلة. لهذا ربما نقول إن بور عبَّر، فى

استخدامه المبكر، عن اعتقادات كانت زائفة تماما، إذ لم يكن هناك شيء من النوع الذى كان فى ذهنه حين كان يحيل إلى الألكترون؛ لكن صورة العالم فى ذهنه والتعبير عنه كانتا تشبهان بنيويًا إلى حد بعيد التصورات اللاحقة، وهو ما يجعلنا نستطيع التمييز بين اعتقاداته عن الألكترون واعتقاداته عن الملائكة. وأكثر من ذلك أن هذا يبدو طريقًا معقولاً فى البحث.

وإذا أخذنا مثالاً أبسط من ذلك بكثير من دراسة اللغة، انظر إلى النقاش الذى كان يجرى قبل ثلاثين عامًا عن طبيعة الوحدات الصواتية. فقد افترض الصواتيون البنيويون وحدات صوتية (أى: الصوتيات phonemes) وسمات صوتية تتصف بمجموعة معيَّنة من الخصائص. وقد جادل الصواتيون التوليديون أنَّ مثل هذه الوحدات غير موجودة، وأن للعناصر الموجودة فعلاً خصائصَ مختلفة نوعًا ما. افرض الآن أن إحدى هاتين المقاربتين تبدو صحيحة (ولنقل الأخيرة). فهل يعنى هذا أن الصواتيين البنيويين كانوا يحيلون طوال الوقت إلى الوحدات الصوتية والسمات بمعانيها فى الصواتة التوليدية؟ ومن المؤكد أن الأمر ليس كذلك؛ فقد كان الصواتيون البنيويون ينكرون ذلك بصورة حاسمة، وكانوا محقِّين فى هذا الإنكار. أيعنى هذا أنهم كانوا يتكلمون كلامًا فارغا؟ ومرة أخرى نقول إن الأمر لم يكن كذلك بكل تأكيد. ذلك أن الصواتة البنيوية معقولة؛ بل إن من الممكن، إنْ نحَّينا افتراضَ وجودِ الوحدات التى افترضتْها، إعادةَ تأويل أكثر تلك النظرية ضمن الصواتة التوليدية، مع التطابق فى النتائج إلى حد بعيد. ولا يوجد طريق مقنن لتحديد الكيفية التى يُنجز بها هذا، أو لتحديد "التشابه فى الاعتقاد" بين المدرستين الفكريتين أو لتحديد ما الأفكار والاعتقادات التى تشتركان فيها. ومن المفيد أحيانًا الإشارة إلى أوجه التشابه وإعادة صياغة الأفكار، وأحيانًا لا. ويصح الشيء نفسه عن الأفكار المبكرة والتالية عند بور. ولا يتطلب الأمر تحديدًا أكثر من هذا كى نحافظ على كرامة البحث العلمى، أو المحافظة على الفكرة المحترَمة للتقدم باتجاه كشف ما هو صحيح عن العالَم، بقدر ما يقع [البحث العلمى] فى حدود القدرة المعرفية البشرية.

ومن الجدير بالملاحظة أن تحليلاً في ضوء هذه الطرق، إنْ غضضنا النظر عن المسلّمات الخارجية الخاصة بتحديد المرجع، يتوافق مع حدوس العلماء البارزين. ويلتفت النقاشُ عن معنى الألكترون والماء وغيرهما إلى الماضي، لكننا يمكن أن نوجّه أنظارنا نحو المستقبل كذلك. انظر إلى السؤال عن إن كانت الآلات تفكّر (أو تفهم أو تخطط أو تحل مشكلات، إلخ). فتقضي الحججُ الخارجية النموذجية بأن جواب هذا السؤال ينبغي أن يقرَّر بموجب الحقيقة عن التفكير، أي: ما معنى أن يفكر بيتر بأطفاله، أو يحلّ معادلةً من الدرجة الثانية، أو يلعب الشطرنج، أو يؤوّل جملة، أو يقرر أن يرتدي معطفًا أو"لا؟ لكن المسألة لا تبدو بهذه الشكل عند فتجينشتاين وآلان تيرنج، إن أُخذنا مثالَين مشهورين. أما عند فتجينشتاين فلا يمكن أن يكون السؤالُ عن إن كانت الآلات تفكر سؤالاً جادًا؛ ذلك "أنه لا يمكن أن تعزو التفكير إلا لمن ينتمي إلى بني البشر أو من يشبهه"(Wittgenstein 1958: 113)، ويمكن أن يدخل في ذلك الدمى والأرواح [الجن والملائكة]؛ فتلك هي الطريقة التي تستعمل بها الآلة. أما تيرنج فقد كتب في بحثه الكلاسيكي الذي نشره سنة ١٩٥٠م أنّ السؤال عن إنْ كان يمكن للآلة أن تفكر:

"ربما يكون سؤالاً لا معنى له حتى إنه لا يستحق النقاش، ومع هذا فأعتقد أن استخدام الكلمات والرأي العام المثقف سيكونان قد تغيرا عند نهاية القرن [العشرين] إلى حد سيجعل من الممكن لفرد أن يتكلم عن أن الآلات تفكر من غير أن يتوقع أن يعترض عليه أحد" (Turing 1950: 442).

فلا يتبنى فتجينشتاين وتيرنج التفسيرَ الخارجي النموذجي. أما عند فتجينشتاين فهذه الأسئلة ساذجة وحسب: ذلك أن الآلات تُستعمل في ضوء طبيعتها التي تكون عليها؛ أما إذا تغير الاستخدام فيعني هذا أن اللغة تغيرت؛ إذ لا تزيد اللغة عن كونها الطريقةَ التي نستعمل بها الآلات. كما يتحدث تيرنج عن التغير الذي يَعرض للغة "الرأي العام المثقف" تبعًا لتغير الاهتمامات والانشغالات. فسوف يحدث، بحسب مصطلحاتنا، تحولٌ من

"اللغات ــ د" التي يصفها فتجينشتاين إلى "لغات ــ د" جديدة ستختفي منها الكلمةُ القديمة "يفكر" لتحلَّ مكانها كلمةٌ جديدة يمكن استخدامها عن الآلات بالصورة التي تستخدم بها عن الناس. فيتماثل السؤالُ في سنة ١٩٥٠ عن إن كانت الآلات تفكر في احتمال أن يكون له معنى أنْ تسأل عن إن كانت الطائرات تطير فعلاً وكذلك الناس (كهواة القفز العالي، مثلا)؛ فالطائرات في اللغة الإنجليزية تطير أما هواة القفز العالي فلا (إلا بمعنى مجازي)، أما في اللغة العبرية فالاثنان لا يطيران، ويطير كلاهما في اللغة اليابانية. ولا تفيدنا هذه الحقائق شيئًا عن السؤال (غير المفيد) الذي أثير، إذ لا تفيدنا إلا عن بعض التنوعات الهامشية والعشوائية إلى حد كبير "للغة ــ د". ويبدو أنه يمكن أن يقارَن السؤالُ عما كان يعنيه مصطلحُ "ذرة" قبل دالتون، أو مصطلح "ألكترون" عند بور سنة ١٩٠٠م، في بعض الاعتبارات، بالسؤال عما كانت تعنيه كلمة "يفكر" عند فتجينشتاين وتيرنج؛ لكنها مقارنة غير تامة؛ ذلك أنه ربما ينبغي ألا يُنظر لكلمات "يفكر" و"ذرّة" و"ألكترون" على أنها تنتمي إلى "لغةٍ ــ د" متجانسة. ويبدو أنَّ المنظور الداخلي، في هذه الحالات كلها، كافٍ، لا لحدوس فتجينشتاين وتيرنج وحسب، بل لتفسير ما هو واضح؛ أو ما يمكن أن يحدث تبعًا لتنوع الظروف والاهتمامات.

وربما صح لأحد أن يحتج بأن النظريات الدلالية التي اقتُرحت في الفترة الأخيرة تتجاوزَ حدوسَ فتجينشتاين وتيرنج بسبب النجاح التفسيري الذي حققتْه. لكن هذا لا يبدو فكرة واعدة؛ إذ ربما لا يمكن للنجاح التفسيري أن يدّعي ذلك. ويبدو أن لدينا الآن، على العموم، من الأسباب ما يجعلنا نعتقد أن لدينا الآن قدرًا يفوق الأشياءَ المعينة التي كان ينظر إليها فتينجشتاين وتقع وراء حدود البحث العلمي الداخلي الذي يتصف بأنه أكثر غنى وأكثر دلالة مما يفترضه فتجينشتاين وجون أوستن (١٩٦٢) وآخرون.

وسوف يقصُر البحث العلمي الطبيعي دائمًا عن [تناول] القصدية؛ ذلك "أن القصديّة لن يمكن اختزالها ولن تختفي"، كما يقول بتنام، بحسب هذه الشروط في

الأقل، وسيظل "تكلُّمُ اللغة" "عصيًا على التنظير" (Putnam 1988a:1). وتبدو دراسة أنظمة التمثيل الحوسبي الآن، ويشمل ذلك "الدلالةَ الداخلية"، أكثرَ أشكال البحث العلمي الطبيعي وعدًا، بما ببرنامج البحث الناجح لها إلى حد معقول؛ أما فهمُ أنظمة الأداء فما يزال في بداياته، لكنه يدخل في حدود هذا البحث، من زوايا معينة في الأقل. وتثير هذه المقاربات مشكلات من النوع المألوف في أنواع البحث العلمي الطبيعي كلها، لكن لا يبدو شيء منها مختلفا من حيث النوع. ونحن نأمل، في تقصينا لها، أن نتعلم شيئًا كثيرًا عن الوسائل التي تُستخدم في التعبير عن الأفكار، والتأويل، إلخ. ولا تلامس هذه المقاربات عددًا كبيرًا من الأسئلة، لكن يبقى أن نبيِّن أن هذه الأسئلة حقيقية، لا زائفة، وتُشير إلى بعض مواضيع البحث التي يود المرء أن يبحثها، ولا شيء غير ذلك.

هوامش الفصل الثانى

(١) تعنى "القصدية" عند برينتانو أن الظواهر الذهنية ". . . تتجه إلى موضوع معين. فإذا رأينا، رأينا موضوعا، وإذا سمعنا وشممنا ونقنا، فإننا نسمع ونشم ونذوق موضوعا. وإذا افترضنا وعرفنا أو اعتقدنا، فإننا نفترض ونعرف ونعتقد موضوعا. ويصف برينتانو هذه الخاصية التى تميّز، فى نظره، الظواهر النفسية من كل الظواهر الأخرى، باعتبارها "علاقة بمحتوى" أو "اتجاها إلى موضوع" ليس واقعا بالضرورة، أو باعتبارها أيضا "موضوعية ملازمة" (محمد غاليم، هامش (٤١)، ص ٣٩٤. (المترجم)

(٢) ويقبل ديفز موقف بيرج الذى يرى أن البحث الذى ينتسب إلى مدرسة مار إنما يهتم بالتمثيلات "المعلوماتية" ذات المحتوى القصدى (ومن هنا فهو يهتم بالسوابق السببية الفعلية)، لكن لا يبدو ممكنًا أن يتماشى ذلك الموقف مع الممارسة الاختبارية الفعلية أو النتائج النظرية (كـ "مبدأ الصلابة" عند أولمان، مثلا)؛ بل من الصعب أن نرى كيف يمكن أن يكون هذا الموقف صحيحا، وإن لم يكن لذلك من سبب ــ كما يؤكد ديفز ــ إلا أنّ أبحاث مار لا تقارب أن تكون من نموذج التمثيل ثلاثى الأبعاد 3D أبدا. وبقدر ما تبلغ دراسة الإدراك البصرى هذا الحد (كما فى أبحاث أليزابث سبيلك عن تماسك الشىء فى مرحلة الطفولة المبكرة، مثلا؛ Spelke 1990)، فإنها تقف عند حدود التجربة البصرية، لا المحتوى الإدراكى بالمعنى التقنى فى الخطاب الفلسفى (Ullman 1979; Davis 1991).

(٣) يلاحظ ريتشارد ليونتن أن مما يشهد بمثل هذا الغنى فى نظام الأوعية الدموية أنه يمكن أن نضيف إلى تلك القصص المبهرَجة التى تُلفَّق عن تطور المعرفة التخرصات التى تقول إن الدماغ تطوَّر بوصفه منظِّما

حراريًا، يعمل على تبريد الدم كما كان أرسطو يظن وهو يُنتج النظامَ المعرفي البشري بوصفه ناتجًا ثانويا (Lewontin 1990).

(٤) الاقصائية المادية eliminative materialism هي وجهة النظر التي ترى أن تصوراتنا الذهنية، كالاعتقاد والرغبة، ليست ملائمة للتعليل العلمي الجاد للبشر، لذلك ينبغي إهمالها. (المترجم)

(٥) فهي "داخلية" internal لأنها تدرس الحالة اللغوية الداخلية عند فرد معين باستقلال عن العوامل الأخرى الموجودة في الكون، وهي "فردية" individual لأنها تعتنى بدراسة فرد معين، ولا تعنى بدراسة "الجماعة اللغوية" التي ينتمي إليها الفرد إلا بصورة ثانوية، وهي "مفهومية" intensional بمعنى أنها تنشغل باللغة "انشغالاً ذهنيًا مفهوميًا بالأساس، وليس انشغالاً بالتمظهرات السلوكية أو المنتوج، أو بمجموع العبارات التي تنتجها جماعة لغوية معينة، أي ما يمكن أن تنعته بأنه انشغال خارجي ماصدقي" (عبد القادر الفاسي الفهري، البناء الموازي، ص١٨) كما تنشغل بـ"تخصيص الإمكانات الذهنية التي تجعل المعرفة اللغوية أمرا ممكنا" (محمد غاليم، ص ٧٠). (المترجم)

(٦) ومرة أخرى، فهذا لا يعني أن أنظمة الأداء الفعلية ستتماثل إلى حد بعيد مع المصطلحات التي يستخدمها غير المتخصصين، أو في الخطاب الفلسفي أو في الأنواع الأخرى من الخطاب التقني.

(٧) بل أقل من ذلك بكثير، حتى إن أمكن إعطاء العبارة معنى إلى حد من الوضوح يجعل من الممكن إثارة السؤال بشكل أكثر معقولية.

(٨) وقد ظل هذا الموضوع مجالاً للنقاش منذ مقال جون سيرل: Minds, Brains, and Programs "الأذهان، والأدمغة، والبرامج" (Searle 1980). وليس من الواضح إن كان هذا النقاش قد أدى إلى صياغة أية قضية جوهرية حتى الآن.

(٩) ويُعتقد أن مشكلة الانتقال بين أطوار [الاكتساب] لا تَبرُز إلا عند افتراض "الشبكية الدلالية" semantic holism .

(١٠) ويجب عدم الخلط بين هذه الإجراءات ومبادئ التصدُّق charity وأشباهها، إن كان التمييز بين "اللغة والاعتقاد" صحيحا؛ انظر أدناه في هذا الفصل. ولكي نحقق أقلّ قدر ممكن من الواقعية يجب علينا أن نميز بين حالات كثيرة. لذا، فما يفعله بيتر حين تتكلم ماري لغة قريبة جدًا [من لغته] ربما لا يكون له إلا علاقة واهية بالإجراء الذي يقوم به حين تتكلم لغة لا يعرفها؛ لذلك فجمع هذه الأحداث جميعًا تحت مسمى "التأويل" أو "الترجمة" لا يُعدّ خطة جيدة للبحث.

(١١) انظر، عن تطوير سول كريبك لهذا التناول، والنتائج التي وصل إليها عن صلة [هذا التناول] باللسانيات: Chomsky 1986a: chapter 4.1 .

(١٢) يجادل بتنام في كتابه Representation and Reality "التمثيل والواقعية" (Putnam 1988a) ضد افتراض أن المدخل المعجمي يتضمن إحالة محدَّدة لأحكام الخبير. وتقوم هذه الحجة على بعض الافتراضات الضمنية عن اللغة العامة المشتركة والترجمة يصعب الدفاع عنها، أو حتى صياغتها، كما يبدو. ومع ذلك ربما نقبل هذه النتيجة آخذين الاعتمادَ على حكم الخبير (من بين خيارات أخرى) خصيصةً عامة لعدد كبير من المداخل المعجمية، وهو ما يتصل بالطرق التي تدخل بها [هذه المداخل] في أنظمة الاعتقاد.

(١٣) انظر Stich 1983. وتتضح المشكلة الأساسية ــ التي تتمثل في أن أي إجراء نقترحه يمكن أن يكون مباشَرةً قويًا جدًا وضعيفًا جدًا ــ فيما كتبه شيفلر Scheffler 1955 .

(١٤) وينبغي أن نتكلم هنا، تقنيًا، عن "السجع ــ د"، إلخ.

(١٥) لا يبدو أن في اللغة العربية تمييزًا يماثل التمييز الذي في الإنجليزية بين الكلمتين. فهناك كلمات كثيرة يمكن أن تطلق على أي من المعنيين، نحو: "بيت"، و"دار"، و"منزل". وسوف أستعمل "منزل"

ترجمة لـ home ، و"بيت" لـ house من أجل تبيين المعنيين في الإنجليزية فقط. (المترجم)

(١٦) انظر Lasnik 1989 : خاصة الفصل التاسع. وتبرز أسئلة مهمة في حالة (٢ج) (أي في حالة "عود الضمير على متأخر") عن أمور كالاستخدام الإحالي للأوصاف المحددة [المعرفة] والمعلومات القديمة والجديدة.

(١٧) يؤكد بتنام دائمًا أن المعايير التي تُستخدم في الاستدلال على الاعتقاد وتسويغه ترتبط بالاهتمام ارتباطًا لازمًا. زيادة على ذلك، تفرض الطبيعةُ الخاصة للفهم البشري (وحدودها، من ثم) بعضَ الاختيارات التأطيرية التي ربما لا تكون ملائمة على النظرية، وبذلك تترك المناطقَ المشكلة التي تتصف بأنها ألغاز حقيقية للبشر (وهذه خصيصة عامة للعضويات). انظر Chomsky 1975; McGinn 1991).

(١٨) واعتماد ما يفعله الناس على بعض الأحداث التي توجد في مكان وزمان مختلفين ليس موضع شك، بالطبع؛ أما السؤال فهو: هل سيكون البحث العلمي الطبيعي "ماركوفيًّا" أم لا (انظر Miller and Chomsky 1963: 422ff)، حيث تؤخذ الحالةُ الناتجة للعضويات فقط لتدخل في عملية الأداء المحلية الحاليّة. لهذا فقد تضمحل الذاكرة أو تُعدَّل، لكننا نسأل، من أجل أن نفهم ما يفعله شخص هنا والآن، عما يمثّل داخليًّا، لا ما يمكن أن يكون قد حدث في الماضي. وبالمثل، يعتمد نمو خلية ما لتصبح إصبعًا أو عظمًا في الذراع على ما انقضى من وقت، أما دراسة هذه العملية فتتوقف عند بعض المؤشرات كالمكونات الحالية للتركُّز الكيمائي التي تُزود الخليةَ بهذه الحقائق. وهذا إجراء نموذجي، ويبدو معقولاً جدًا.

(١٩) أما السؤال عن وجوب تطوير النظريات بحسب هذه الكيفيات فأمر مختلف. أما ما يعنيني توضيحه هنا فهو ببساطة أنه إن كانت هذه النظريات تعتمد على أفكار الإحالة المقصودة، أو الاعتماد الإحالي، إلخ، بصفتها تمثل شيئًا أكثر من مظاهر للكلام façon de parler فذلك يعني أن شيئًا آخر من النوع الذي بينته هنا يبدو مفترضًا — لا أنه إحالة إلى أشياء في الكون (أو ما يعتقد أنها فيه).

(٢٠) وهناك بعض الاختلافات في عود الضمير على متأخر، انظر الهامش ١٦.

(٢١) والنقطة الأساسية عن "التعبيرات المضلِّلة باطراد" بالمعنى عند رايل Ryle يمكن إرجاعها في الأقل إلى النقد الذي وجه في القرن الثامن عشر لنظرية الأفكار عند دو مارسي وبعد ذلك عند توماس ريد؛ انظر (Chomsky 1965: 199-200).

(٢٢) أو عن "المضمون الإدراكي" بالمعنى التقني الخاص في الخطاب الفلسفي؛ انظر الهامش (١) والمتن. والفارق الذي يرسمه ديفز بين "التأويل "المحافظ" والتأويل "المراجع" لهذه الفكرة التقنية ليس واضحًا، بأكثر من الفارق الذي يمكن أن نرسمه بين التأويل المحافظ والتأويل المراجع لمصطلح electromagnetic force "القوة الكهربائية المغناطيسية".

(٢٣) انظر ملحوظات ستك (١٩٨٣) عن عدم قدرة "أكثر الأسماع التي لم تتلوث بالنظرية الفلسفية" عن الوصول إلى أي حكم في كثير من هذه الحالات. وليست هذه الملحوظة مقنعة بالضرورة؛ فربما لا يمكن الوصول إلى حقائق علم النفس الشعبي إلا عن طريق الحدس المدرَّب أو الموجَّه. وربما كانت هذه الملحوظة نتيجةً معقولة في سياق نظري أغنى، لكن لا يوجد سياق نظري، بشكل يكاد يكون نهائيًا، ومن هنا ربما لا يكون هناك سبب يجعلنا ننظر إلى الأحكام المعزولة كأنها تعني شيئًا كبيرًا.

الفصل الثالث

اللغة والتأويل:

التأملات الفلسفية والبحث الاختبارى

ظهر في الكتابات الفلسفية خلال الأربعين سنة الماضية عددٌ من التيارات المؤثرة التى تبدو لى مثيرةً للإشكال من بعض الزوايا المهمة بل الأساسية. وأقصد هنا، فى المقام الأول، المقاربات التى تنطلق من بعض التصورات للكيفية التى يَدرس بها العالمُ الاختبارى — أو "اللسانى الميدانى"، بمصطلحات برنامج البحث المألوف عند ويلارد كوين، اللغةَ، أو ينبغى له أن يدرسها بها. ويمكن أن نذكر هنا كوين ودونالد ديفيدسون وآخرين ممن اتجهوا نحو شكلٍ من الذريعية و"الإبستيمولوجية العلمية الطبيعية"، يتضمن بعضَ القضايا التى يُظن أن لها أهمية فلسفية ضمن تصوُرهم للعلم الاختبارى، ويمكن أن نضيف إليهم آخرين ينطلقون من منطلق مختلف: مثل: مايكل دوميت، وكثير من الذين تأثروا بفتجينشتاين و"فلسفة اللغة العادية"، مثلا.

وللتمثيل على مذاق هذه الأفكار، انظر إلى بعض تعليقات رورتى فى كتاب ليبور (١٩٨٦) عن ديفيدسون. فهو يقول إن "ديفيدسون مُحق بالتأكيد فى قوله إن كوين "أنقذ فلسفة اللغة بوصفها موضوعًا جادًا" بتخليصها من التمييز بين التحليل والتأليف. وكانت أفضل حجج كوين فى عمله ذاك أن هذا التمييز غير مفيد للسانى الميدانى" (Rorty 1986: 339).

أما "اللسانى الميدانى" فكلُ ما "يجب أن يَنشغل به أن يلاحظ الطريقةَ التى يتآلف بها السلوكُ اللغوى مع أنواع السلوك الأخرى غير اللغوية فى أثناء تفاعل متكلم اللغة الأصلى مع بيئته، وهو التفاعل الذى ينظر إليه [اللسانى] على أنه موجَّه بقواعد الحَدْث. . ."، وعلى وجه أخص بـ"المبدأ التنظيمى" الذى ينص على "أنّ أكثر القواعد التى يتبعها متكلمُ اللغة مماثلةً

للقواعد التي نتبعها نحن، وهو ما يعني أن أكثرها صحيح" (ص ٣٤٠؛ وربما يشير مصطلح "قواعد" هنا إلى الاعتقادات). وينبغي ألا ننشغل بـ "خطة تصوُرية، أو بطريقة للنظر إلى الأشياء، أو بمنظور (أو. . . بلغة، أو بتقليد ثقافي)، [لأن] اللساني الميداني لا يحتاج إلى شيء من ذلك، [ومن هنا] فالفلسفة ليست بحاجة لها أيضا" (ص ٣٤٤). ويوافق كوين وديفيدسون على أن "نظرية المعنى للغة ما هي ما يتحصّل من البحث الاختباري في السلوك اللغوي"، حين يقام به بطريقة ملائمة، وبما يتوافق مع مبدأي "شبكية المعنى holism والسلوكية" (ص ٣٥٢).

ويمضي رورتي قائلاً إن هذا الخط من التفكير يقود إلى شكل من الذريعية التي يعتنقها هو وينسبها إلى [الفيلسوفين الأمريكيين المعاصرين] جيمس وديوي، وتتضمن بصورة جذرية نفي أية علاقة من نوع "أنْ يُجعل صادقًا" [يُبرهن على صدقه] being made true التي تلزم بين الاعتقادات والعالَم". وبدلاً من ذلك "فإننا نفهم كلّ ما يلزم فهمُه عن علاقة الاعتقادات بالعالَم حين نفهم علاقاتها السببية بالعالَم" (ص٣٣٥).

وإذا نحينا النتائجَ التي انتهى إليها رورتي جانبا[1]، دعنا ننظر في مسلّماته. فإذا كانت أفضل حجة للتخلي عن التمييز بين التحليل والتأليف أنّ هذا التمييز لا يفيد اللساني الميداني فيجب، إذن، أن يكون كلُ من يشتغل بعلم الدلالة الوصفي تقريبا، أو حدث أن اشتغل به، مخطئًا خطأ كبيرًا؛ لأن مثل هذا البحث محمّل بالمسلمات عن ارتباطات المعنى، وهي التي ستستدعي (على التحديد) أمثلةً من التمييز بين التحليل والتأليف. فمن الصعوبة بمكان أن نجد أية دراسة للغة لا تعيّن بنىً وتصف معنى للفعل kill والأداة so ، إلخ، بطرق توضّح أن هناك تمييزًا نوعيًا ــ تحدّده اللغةُ نفسُها ــ بين الجملتين:

John killed Bill, so Bill is dead.

"قتل جون بيل، لذلك فبيل ميت".

John killed Bill, so John is dead.

"قتل جون بيل، لذلك فجون ميت".

أو ربما يصعب، إن أخذنا حالة أخرى، أن نجد دراسة للاعتماد الإحالي فى اللغة الطبيعية لا تستنتج أن اللغة نفسها تحدِّد وجودَ علاقة لازمة بين Mary و herself فى (١)، لكنها لا توجد حين يكون التعبير نفسه مُدمجًا فى سياق جملة رئيسة من نوع "ليت شعرى مَنْ. . . I wonder" --who، وهو ما يُنتج الجملة فى (٢):

١- Mary expects to feed herself.

"تتوقع مارى أن تُطعم نفسَها".

٢- I wonder who Mary expects to feed herself.

"ليت شِعْرى مَنْ تتوقع مارى أنْ تطعم نفسَها".

فستَفرض مثل هذه الخصائص التركيبية ــ الدلالية حالاتٍ من التمييز بين التحليل والتأليف؛ لهذا سينتج عنها تمييزٌ بين:

Mary expects to feed herself, so Mary expects to feed Mary.

"تتوقع مارى أن تطعم نفسها، لذلك تتوقع مارى أن تُطعم مارى".

(وهى تحليلية، حيث تؤخذ الحالات الثلاث التى ظهرت بها مارى على أنها "شريكة إحاليًا")،

و:

I wonder who Mary expects to feed herself, so I wonder who Mary expects to feed Mary

"ليت شعرى من تتوقع مارى أن تطعم نفسها، لذلك ليت شعرى من تتوقع مارى أن تطعم مارى".

(وهي غير تحليلية، في ضوء التأويل نفسه). لكنَّ ما يُزعم أن كوين برهَن عليه يتجاوز مسألة التحليل، إذ يَصل إلى نتيجة مفادها أنه ليس هناك ارتباطات دلالية يمكن أن تُعزى إلى الملكة اللغوية تحديدًا بوصفها متمايزة عن الأنظمة العامة للاعتقاد لدينا، ويأخذ رورتي، في بحث آخر، هذه النتيجة على أنها أحد اكتشافين جوهريين يهدّدان صورةَ العالَم التقليدية.

وقدّم كوين وآخرون، كما هو مشهور، تفسيراتهم الخاصة لهذه التمييزات. وسأعود إلى هذه الاقتراحات، وإلى الكيفية التي يمكن أن تقوَّم بها في ضوء معايير البحث في العلوم الطبيعية، لكني سأكتفي هنا بملاحظة أنَّ من المؤكد أنه لا يمكن أن تفهم الإحالة إلى "اللساني الميداني" على أنها إحالة إلى أولئك الذين يقومون بالبحث اللساني فعلا. فهي تتصف، بدلاً من ذلك، بطعْم معياري، إذ تشير إلى الطريقة التي ينبغي لمثل هذا البحث أن يُنجَز بها، مع المحافظة على شروط "الشبكية الدلالية والسلوكية" التي يَفرضها الفيلسوف، ويخالفها العلماء الخاطئون حين يَبحثون. ومع أن البحث ربما يَكشف لنا احتمال أن يكون هذا الموقف مسوَّغا، إلا أنه ربما ينبَغي التسامح مع أولئك الذين يقدِّرون تاريخ [دراسة اللغة] إن عبَّروا عن بعض التشكك الأولي.

ومن الأمثلة الأخرى التي تبين طعمَ هذه النقاشات، انظر إلى حجة دوميت في الكتاب نفسه (Dummet 1986) وهي أن "المعنى الأساس" الذي يجب علينا أن نَفهم به تصوُّرَ اللغة هو ذاك الذي تكون به اللغةُ الهولندية واللغة الألمانية لغتين مختلفتين (وهو يعطي مثالاً مختلفا، لكن المسألة هي نفسها)، وكلٌّ واحدة منهما ممارسةٌ اجتماعية خاصة "يَنخرط فيها الناس"، وهي ممارسةٌ "تُتعلَّم من الآخرينَ وتقوم على قواعد تتصف بأنها جزء من الممارسة الاجتماعية التي يَلزَم اتباعها" (ص ٤٧٣). فتوجد اللغتان الهولندية والألمانية بهذا "المعنى الأساس"، "باستقلال عن أي متكلم لهما"؛ و"يمتلك" كلُّ متكلمٍ مثلَ هذه اللغة، لكنه لا يمتلك عادةً إلا "معرفةً جزئية بها، وهي معرفة خاطئةٌ جزئيًا". وتذهب الأهميةُ المقصودة لاقتراح دوميت إلى مدى أبعد. فهو

يُبيِّن لنا مفهومَ "اللغة" الذي يُعدّ أساسيًا للأغراض الفلسفية، ولنظرية المعنى خاصة؛ ويبيّن لنا بجلاء أيضًا، أن هذا التصور للغة ضروري في رأيه لتفسير استخدام اللغة، وعلى وجه الحصر، لفهم "ما النظرية البعيدة المدى التي يأتي بها شخصٌ ما في أول لقاء لغوي له مع شخص آخر". فلهذا الاقتراح – إذن – صلة وثقى بالدراسة الاختبارية للغة، وبالناس، وبما يعرفونه ويفعلونه. وربما يقصد أنه يمكن السماح للسانيين بأن يَنتهجوا مسارًا مختلفا من أجل اهتماماتهم الخاصة، لكن الواضح أن لهذه الاقتراحات علاقة وثقى بالممارسة الملائمة في للدراسة الاختبارية للغة واستخدامها.

وينتمي الطعمُ التناقضي هنا إلى رتبة مختلفة شيئًا ما. فهو يَتمثّل في التضارب بين اقتراح دوميت والمسلّمة المألوفة في الممارسة الاختبارية التي تقضي بانتفاء وجود معنى عامّ مفيد يمكن من خلال وصفُ "اللغة" بطريقة تكون بها اللغةُ الهولندية واللغة الألمانية "لغتين" مختلفتين لا يَعرفهما الناس إلا "جزئيًا" وبصورة "خاطئة". وهذه هي الحال سواء كنا نَدرس بنيةَ اللغة، أم اللسانيات النفسية، أم التغير اللغوي، أم التصنيف اللغوي، أم مشكلات التواصل، إلخ. فيمكن للمتكلمين الذين يعيشون قريبًا من الحدود الهولندية أن يتواصلوا بشكل جيد مع الذين يعيشون على الجانب الألماني من الحدود، لكنهم يتكلمون لغتين مختلفتين بالمصطلح الذي يدّعي دوميت أنه "أساسي"؛ كما أن الذين يعيشون على الجانب الألماني من الحدود، لا يستطيعون، بـ "معرفتهم الجزئية" "للغة الألمانية"، فهْمَ شيء مما يقوله الذين يعيشون في أقاليم أخرى [من ألمانيا] وهم الذين "يمتلكون" "معرفةً جزئية" أخرى بـ "اللغة الألمانية"، بالمعنى الذي يقصده دوميت. ولأسباب كهذه تحديدًا لا يوجد تصورٌ مثل هذا يمكن أن يؤدي دورًا في البحث الاختباري للغة أو علم النفس. وتُستخدم مصطلحاتٌ مثل مصطلح "اللغة الإنجليزية" أو "اللغة اليابانية" في الدراسات العامة للغة، لكنّ هذا مصحوبٌ بفهْمٍ مؤداه أن هذا الاستخدام البديهي لها، وهو الذي يعتنقه دوميت من غير مساءلة، ينبغي أن يُستغنى عنه حين نتوجه إلى الدراسة الفعلية للغة، والسلوك والتواصل(٢).

وإذا كان تصورُ دوميت أساسيًا للبحث الاختباري وللأغراض الفلسفية حقًا، فالفلسفةُ أو البحث العلمي للغة والسلوك، أو لكليهما، يواجهان مشكلات جمة، لأسباب ينبغي أن تكون واضحة. ذلك أنَّ تصورَ اللغة الذي يراه دوميت أساسيًا يتضمن عناصرَ اجتماعية ــ سياسية، وتاريخية، وثقافية، ومعيارية ــ غائيَّة معقدة وغامضة. وربما تكون هذه العناصر مهمة لعلم اجتماع الانتماء identification داخلَ مختلف الجماعات الاجتماعية والسياسية ولدراسة بِنية السلطة، لكنَ الواضح أنها تقع بعيدًا خارج متناول أي بحث مفيد عن طبيعة اللغة أو علم نفس مستعمليها.

ولكي نأخذ مثالاً آخر، انظر إلى دراسة لكتساب اللغة. فنحن نقول، في الاستخدام العادي، إن الطفل ذا السنوات الخمس والبالغَ الأجنبي يسيران نحو اكتساب اللغة الإنجليزية، لكننا لا نملك وسيلةً لوصف ذلك الشيء الذي "يمتلكانه". ذلك أن الطفل سوف ينتهي إلى "امتلاك" الإنجليزية، في المسار المألوف للأحداث (جزئيًا في الأقل وبشكل خاطئ)، أما البالغ الأجنبي فربما لن يحقق ذلك. ولو حدثَ أن مات البالغون كلُّهم فجأة وتمكّن الأطفال من البقاء أحياء بطريقة ما، فسيكون أي شيء يتكلمه الأطفال – إذن – لغةً إنسانية، مع أنها لغة لا توجد الآن. ولا يوفر الاستخدامُ العادي طريقةً مفيدة لوصف شيء من هذا، فهو يتضمن قدرًا كبيرًا جدًّا من الاهتمامات والانشغالات المتضاربة الغامضة، وهذا أحد الأسباب التي تجعل تصور اللغة الذي يراه دوميت غير مفيد لأغراض البحث العلمي الفعلي. ولهذا الأمر أهمية خاصة حين ننظر في الاعتماد على أفكار "الخطأ في استخدام اللغة"، و"معايير الجماعة"، و"الممارسة الاجتماعية"، و"اتِّباع القاعدة" التي تُستعمل كأنها واضحة إلى حد كاف؛ مع أنها ليست كذلك[٣].

وربما يكون مفيدًا، في هذا المجال، أن نتذكَّر بعض الحقائق البديهية الأخرى؛ ومنها أنه لا يوجد، في البحث المنضبط، والعلوم الطبيعية أو غيرها، موضوعاتٌ مثل "دراسة كلِّ شيء". فليس جزءًا من الفيزياء أن تحدِّد

بدقة كيف يتحرك جسمٌ ما تحت تأثير أي جُسيْم أو قوة في الكون، مع تدخُّلٍ بشري محتمل، إلخ. فليس هذا موضوعًا [صالحًا للبحث]. فما نقوم به عادة، بدلاً من ذلك، أننا في البحث المنهجي نؤمِّل من أجل أن ننتقي بعضَ المجالات المحدَّدة بطريقة تمكِّننا (كما نأمل) من اكتشاف السمات المهمة للعالَم. فتتصف المواد الأولية والملحوظات، في العلوم، بأنها أدوات ذات خصائص أداتية. فهي غير مهمة بنفسها، لكنها مهمة بقدر ما تكوِّن دليلاً يسمح بتحديد السمات الأساسية للعالَم الواقعي، في مسارٍ للبحث يُنجَز دائمًا تحت أمثلة صارمة، ضمنية غالبًا وتمثِّل فهمًا مشتركًا، لكنها حاضرة دائمًا. أما دراسة "اللغة" بالمعنى الذي يراه دوميت فلا تبعد أن تكون "دراسة لكل شيء"، ومن هنا ليست موضوعًا مفيدًا للبحث، وإن كنا نأمل، ربما، أنها ستتطور لتصير دراسةً لبعض المظاهر لقضايا مثل هذه في ضوء ما سيتيسَّر فهمُه عن بعض المكوِّنات المحدَّدة لهذا المجموع المستحيل.

ويثير تصوُّرُ اللغة بوصفها "ممارسة اجتماعية" الذي يقترحه دوميت وآخرون مزيدًا من الأسئلة، كما سيتَّضح حين يطبق على بعض الأمثلة الواقعية. انظر مرة أخرى إلى المثالين (١) و(٢) أعلاه (ص ١٥٩). فتؤخذ عبارة feed herself في المثال (١) على أنها ترتبط بماري، أما في المثال (٢) فترتبط بشخص (أنثى) مختلفة عن ماري؛ لهذا يترتب على المثال (٢) أنني أتساءل عن مَن الأنثى التي تتوقع ماري أن تُطعم [هي] تلك الأنثى تحديدا، لا مَن الأنثى ماري التي تتوقع ماري أن تُطعم ماري نفسَها. ويثير المثال عددًا من الأسئلة ذات الصلة، ومنها: كيف نعرف هذه الحقائق. والإجابة، كما يبدو، أن الحالة الأولى للملكة اللغوية المشتركة تتضمن بعضَ المبادئ عن الاعتماد الإحالي (أي نظرية الربط العاملي)، وحين تُثبَّت بعضُ الخيارات المعيَّنة عن طريق التجربة الأولية وهي التي تُركت من غير تحديد في الحالة الأولى، لا يبقى لنا خيار بشأن الكيفية التي ينبغي أن نؤول بها المثالين (١) و(٢) أكثر من الخيار المتوفر لنا عن إدراك شيء ما على أنه

إما مثلث أحمر أو شخص. ولا يبدو أن للممارسة الاجتماعية أثرًا في مثل هذه الحالات، مع أن التجربة المبكرة تساعد، فيها جميعا، على تحديد بعض التفصيلات المعينة لآليات الذهن/الدماغ غير المتنوِّعة المحدَّدة أحيائيا. ويبدو أن الأمر نفسه صحيح بشكل عام. أما إذا أخذنا اقتراحات دوميت وآخرين عن "الممارسة الاجتماعية"، حرفيًّا في الأقل، فإنها تبدو زائفة، كأمر من أمور الحقائق الاختبارية. إذ يجب، في الأقل، تقديم بعض الحجج لتبيين السبب الذي يوجب أن نأخذ هذه الاقتراحات بجد.

ومن المغري – حين تُفهم اللغةُ على أنها ممارسة اجتماعية بالطريقة التي تصوّرها هذه المناقشات – أن ننظر إلى معرفة اللغة على أنها القدرة المتعلَّمة من أجل القيام بمثل هذه الممارسات، كما يقترح دوميت أو ـ على وجه أعم ـ كأنها قدرة يمكن ممارستها بالتكلم والفهم والقراءة والحديث إلى النفس، إلخ: أي أنَّ "معرفةَ لغة ما لا تعدو امتلاكَ القدرةِ على القيام بهذه الأمور وأمور أخرى مماثلة" (Kenny: 1984: 138)[4]. ويُقوّي هذا الإغراء بالفهم الشائع للمعرفة بشكل عام على أنها قدرة. وتتقابل وجهةُ النظر هذه مع تصورِ اللغة بوصفها إجراءً توليديًّا يعيِّن الأوصافَ البنيوية للتعبيرات اللغوية، حيث تكون معرفةُ اللغة التمثيلَ الداخلي لمثل هذا الإجراء في الدماغ (في الذهن، كما يحتمل أن نقول حين نتكلم عن الدماغ في مستوى معين من التجريد). فتتميز قدرةُ شخصٍ ما على استخدام لغته (أي استخدامه لمعرفته) بشكل حاسم، من وجهة النظر هذه، عن امتلاكه مثلَ هذه المعرفة. وللتصور الأخير ميزتان أساسيتان:

١ـ فيبدو أن هذا التصور هو الطريق الصحيح لدراسة المعرفة البشرية ـــ ومعرفة اللغة بشكل خاص ـ ضمن الإطار العام للعلوم الطبيعية، كما برهن على أنه تناولٌ مثمر إلى أبعد الحدود.

٢ـ وهو يتوافق إلى درجة بعيدة مع الاستخدام [اللغوي] المألوف السابق على التحليل، وهذا أمر ثانوي لكنه ليس خلوًا من الأهمية تماما.

وفي مقابل هذا، فقد برهنت المقاربةُ في ضوء القدرة العملية أنها غير مثمرة أبدًا وأنه لا يمكن التمسكُ بها إلا حين تفهم "القدرة" بطريقــة مفارقــة للاستخدام اللغوى اليومي بشكل حاسم.

ولكي يتضح السببُ الذي يجعل الأمر على هذا الوجــه، افــرض أن جونز، وهو متكلم لنوع مما نسميه "اللغة الإنجليزية" في الاستخدام اللغــوى اليومي، حسَّن من قدرته على تكلم لغته بالتحاقه بدرس للخطابة، أو أنه فقــد هذه القدرة بسبب جرح أو مرض (ثم استردّ هذه القدرة نتيجة لأخذه علاجًا، مثلا). لاحظ أن متكلمَ اللغة "اليابانية"، في الظروف نفسها، ســوف يَــستعيد "اليابانية"، لا الإنجليزية، حين يستعمل العلاجَ نفسَه، ثم إن الاستعادة في مثل هذه الحالات تختلف اختلافًا جذريًا عن الاكتساب؛ ذلك أن الطفل لا يمكن أن يكتسب الإنجليزية أو اليابانية في غياب أي دليل. وفي هذه الحالات جميعها، فإنَّ شيئًا ما ظلّ ثابتا، ولنقل "الخصيصة "م""، مثلاً، في الوقت الذي تتنــوع فيه القدرة على الكلام والفهم، إلخ. فنحن نقول، في الاســتخدام اليــومي، إن الخصيصة "م" هي المعرفة اللغوية؛ لهذا بقيت معرفة جونز ثابتة في الوقــت الذي تحسَّنت فيه قدرته على استخدام معرفته، أو تــضاءلت، أو اســتُعيدت، إلخ. ويتوافق التفسيرُ في ضوء التمثيل الــداخلي للإجــراء التوليــدي مــع الاستخدام [اللغوى] اليومي في هذه الحال. ثم لاحظ أنه ربما تقودنــا الأدلــة الأخرى (من التشريح، مثلا، لو كنا نعرف ما يكفي عن العلوم المتخصــصة بالدماغ) إلى استخلاص أن سميث، الذي لم يستعدْ لغته الإنجليزيــة، لعــدم تناوله العلاج، احتفظ مع ذلك بمعرفته باللغة الإنجليزية كاملة بعــد أن فقــد قدرته على تكلمها وفهمها فقدًا كليًا. (ولمزيد من النقاش المفصل لهذه الأمور والتفسيرات البديلة الممكنة، انظر Chomsky 1980; 1986).

فيجب إذن، إن كانت المعرفةُ هي القدرة، أن تكون الخصيصة "م" نوعًا من القدرة، وإن لم تكن، بجلاء، قدرة بالمعنى المفيد جدًّا للكلمــة، ذلــك أن القدرة تنوعت أما الخصيصة "م" فظلت ثابتة. لهذا يجب علينا أن نختلق معنى

تقنيًا جديدًا للكلمة "قدرة"، ولنسمها بـــ "القدرة ـــ م"". ويعنى هذا أن "القدرة ـــ م"" ظلت ثابتة فى الوقت الذى تنوعت فيه القدرة(*). ومن الواضـــح أنّ "القدرة ـــ م"" معزولة تمامًا عن القدرة، وتتصف بخصائص التصور القديم للمعرفة؛ بل ربما أمكن تسميتها بـــ "المعرفة"، حين نتخلى عـــن المواقـــف المذهبية.

ومن المفارقة، كما يبدو، أن يَجرؤ أحدٌ على تقديم هذه المحاولات كأنها تنطلق من روح آراء فتجينشتاين الأخيرة، وهو الذى كان يجادل باطراد ضد الممارسة التى تسعى لصياغة تصورات اصطناعية، معزولة عن الاستخدام اليومى، من أجل الدفاع عن بعض الاعتقادات الفلسفية المعينة. بل يبـــدو أن فهم موقف فتجينشتاين عن المعرفة كأنها نوع من القـــدرة مثـــالٌ نمـــوذجى للممارسة التى كان فتجينشتاين ينظر إليها على أنها مصدرٌ رئيس للأخطـــاء الفلسفية.

لاحِظ أن بعض الاعتبارات المماثلة تُبيِّن أنّ "الدُرْبة" ـــــ أى معرفـــة كيف تركب الدراجة، مثلاً ـــ لا يمكن أن تُحلَّل فـــى ضـــوء القـــدرات، أو الاستعدادات، إلخ؛ إذ يبدو جليًا أنه يَدخُل فيها عنـــصر إدراكـــى لا يمكـــن اختزاله. لاحِظ أخيرًا أنّ من الواضح أنّ أى تفسير للمعرفة بأنها قـــدرة، إنْ أُخذت بأى معنى مماثل لمعناها المألوف، غيرُ مثمر إطلاقًا. وربما كان مـــن الممكن أن نحاول تفسير المثالين البسيطين فى (١) و(٢) أعلاه فى ضـــوء قدرات جونز، مثلاً. لكن لم يَسبق لأحدٍ أن حاول سلوكَ مثل هذا المنحى، ثم إنّ نظرةً فاحصة لهذه القضايا ستُسهِم إسهامًا بيِّنًا فى إيضاح الـــسبب الـــذى يجعل النجاح فى هذا المنحى مستحيلاً.

ويُصبِح التناقضُ بين الأفكار فى المدى الذى أوردتُ أمثلةً منـــه هنـــا أكثرَ وضوحًا حين نتفحَّص بعض الشروط المحددة، لنظر مرة أخرى إلـــى ملاحظة رورتى، التى تؤخذ على أنها أمر واضح لا يحتاج إلى نقاش، وهى أنّ كلَّ ما "يجب أن ينشغل به [اللسانى الميدانى] أن يلاحِظ الطريقـــة التـــى

يتآلف بها السلوكُ اللغوى مع أنواع السلوك الأخرى غير اللغوية فى أثناء تفاعل متكلم اللغة الأصلى مع بيئته" (Rorty 1986: 339)، بغض النظر عن "المبدأ التنظيمي" الذى يقضي بأن الراوية [اللغوى] صادقٌ فى روايته عموما. ويلاحظ أنّ هذا التصور مبني على آراء كوين وديفيدسون. لهذا يجب على "اللسانيين الميدانيين" الذين يدرسون جونز، في ضوء نموذج كوين المألوف "للترجمة الجذرية" (Quine 1960; 1987)، أن يؤيدوا فرضياتهم بشكل "مطلق" عن طريق ملاحظتهم لسلوك جونز (أو فى ضوء سلوك أعضاء "جماعة الغابة"، التى تُصنف بأنها متجانسة؛ وإذا كانت غير متجانسة، فلن يَصلح شيء من هذه الحجج، أما إن كانت متجانسة فربما نلغى الجماعةَ فى مقابل الاعتداد بجونز من غير أن نفقد شيئًا ذا بال لهذه الأهداف، كما سأفعل أنا). وينبغى أن ألاحظ هنا أنّ بعضَ القضايا النَّصيّة تبرز، حين الإحالة إلى كوين، ذلك أنه يعطى — فى إجابته عن بعض التساؤلات والنقد الذى يوجهُ إليه — عددًا كبيرًا من الوجوه المختلفة لنموذجه، وهذه الوجوه غير مطردة (انظر Chomsky 1975: 187f, 198ff). ومع ذلك فالحجة التى أوردتُها آنفا، وهى التى يتبناها ديفيدسون وروورتي، ضروريةٌ إن كان لنا أن نستخلص من النموذج الكوينى أيًّا من النتائج التى تُعدُّ مهمة.

وقبل أنْ نبدأ النقاش دعنا نلحظ مرة أخرى أن هذه الوصفات المعيارية تَختلف اختلافًا جذريًا عن الممارسة الفعلية "للسانى الميدانى". وهى غريبة تمامًا عن المناهج النموذجية في العلوم الطبيعية كذلك. أما فى الكتابات الفلسفية فتُناقش هذه القضايا عمومًا من حيث صلتها بنظرية المعنى، خصوصًا من حيث صلتها ببعض مظاهر نظرية المعنى التى لا نَعرف عنها إلا القليل (لا من حيث صلتها، مثلا، بما يتعلق بأمور كالاعتماد الإحالى، الذى نعرف شيئًا كثيرًا عنه). وهذه ممارسة مشكوك فيها، لأنها تعنى أن ضبط التخرصات عن طريق المعرفة الاختبارية والفهم النظرى محدودٌ جدًا. أما إن كان لهذا المذهب نصيب من الصحة، فيَجب أن يلْزَم فى كل ما يتصل

بما نعزوه للمعرفة اللغوية، كما كان كوين، فى الأقل، واضحا فى أنّ هذا صحيح. لذلك يجادل بشكل صريح أن الاعتبارات نفسها تلزَم حين يزعم "لسانيُّه الميدانى" أن الجملة:

John contemplated the problem.

"تمعَّن جون فى المشكلة".

تتضمن مركَّبين:

المركَّب الاسمى:	John
والمركَّب الفعلى:	contemplated the problem
لا المركَّبَيْن:	John contemplated
و:	the problem
أو:	John contemp
و:	lated the problem

مثلا. ويجب، تبعًا لكوين، حين يكون وفيًّا للمسلمات التى تتطلبها نتائجُه المشهورة لتكون صحيحة، فى الأقل، أن يوسّس هذا العزو لبعض الخصائص (سمِّها معرفةً أو ما شئت) إلى الراوية جونز على الأدلة عن "سلوك جونز" بصورة خالصة؛ وهى أدلة تستعمل فى ضوء المعايير الصارمة التى بيَّنها. وربما يكون الأمر نفسه صحيحًا فى دراسة البنية الصوتية، والعلاقات بين الضمائر العائدة ومفسِّراتها، أو أى شىء آخر[1].

وتجدر الإشارة إلى أنه لن يقبل أى لسانى، أو أى عالِم اختبارى عمومًا أنْ يُحدَّ بهذه القيود. وربما تكون المسلَّمةُ فى علم الأحياء التى يمكن مقارنتها بهذه المسلمة أنه لا يمكن، فى اختبارنا للفرضيات عن التطور الجنينى البشرى، أن نستأنس بأى دليل يأتى من دراسة "الخَمَج" E. coli أو ذباب

الفاكهة أو القرود أو الفيزياء. وإحدى الحالات الجوهرية، في الممارسة الفعلية، أن أي لساني يتناول دراسة لغة معينة إنما ينطلق من مسلمات استُخلصت من دراسة لغات أخرى. لهذا لن يتردد أي لساني، يَعمل في ضوء المعايير التي تَخضع لها العلوم، في استعمال الأدلة التي وُصل إليها من دراسة اللغة اليابانية لكي تساعده في إرساء فرضياته عن معرفة جونز للغة الإنجليزية. وهذا المنطق واضح، وهو صحيح إلى حد بعيد. فهناك أدلةٌ اختبارية مقنعة جدًا على أن الناس ليسوا "مهيَّئين" وراثيًا لاكتساب لغة ما بدلاً من لغة أخرى؛ بل يمكن الافتراضُ بدلاً من ذلك أن "الحالة الأولى" لملكاتهم اللغوية متماثلةٌ إلى حد بعيد. فإذا قدِّم للطفل كمٌّ من الأدلة فإنه يكتسب لغة معينة، مستفيدًا من موارد الحالة الأولى التي تحدِّد قدرًا عاليًا من المعرفة (القدرة) التي اكتَسبها؛ ويمكن عدّ الحالة الأولى دالَّةً function ثابتةً محدِّدة أحيانيًا تُحوِّل الأدلةَ المتوفرة إلى معرفة مكتَسبة، وبشكل متماثل في اللغات جميعها[٢]. وربما توفِّر دراسةُ اليابانية لنا دليلاً، وقد يكون دليلاً قويًّا، عن الحالة الأولى، أي عن طريق مقارنة ما سيُعرَف بما يقدَّم، حيث تتوسَّط مواردُ الحالة الأولى بين الطورين، فإذا استَخدم متكلمو اليابانية إحدى الخصائص الصورية لبنية اللغة (كخصيصة: "التحكُّم المكوِّني" c-command، مثلا) في تأويلهم الاعتمادَ الإحالي، ولم "يُلزِم" الدليلُ المتوفرُ للطفل الياباني بشكل ما بهذه النتيجة المتماثلة أو لا يَصلح حتى أن يكون سببًا فيها فسنكون محقِّين في أن نعزو للحالة الأولى وجهًا من أوجه نظرية الربط العاملي، التي تشتمل على هذه الخصيصة والمبادئِ ذات الصلة التي تَدخل فيها، وهو ما يقود إلى تفسير الحقائق الملاحَظة. لكن متكلم الإنجليزية جونز يَشترك [مع متكلم اليابانية] في الحالة الأولى، وسيترتب على فرضياته عن الحالة الأولى بالطبع بعض المقتضيات عن الوصف الملائم للحالة المعرفية التي حصَّلها. وربما تكون النتائجُ المحصَّلة من اليابانية عن معرفة جونز للإنجليزية بعيدة المدى. لهذا ربما يُبرهن الدليلُ عن الاعتماد الإحالي في اليابانية أنه ذو صلة

بتحديد موضع حدود المركّبات فى الإنجليزية[٨].

وهذا كلُّه نموذجى فى الممارسة العلمية، ولم يكن يومًا موضعًا للتشكُّك فى العلوم الطبيعية ـ أو النقاش، ذلك أنه واضح إلى حد لا يجعله موضعًا للخلاف. ومع ذلك نجد كوين والمتأثرين بنموذجه يُلزمون "اللسانيين الميدانيين" بالمخالفة الجذرية للإجراءاتِ المتّبعة فى العلوم، وقصْرِ عملِهم على جزء ضئيل من الدليل ذى الصلة، يُنتقى فى ضوء معايير المذهبية السلوكية؛ وأن يرفضوا الإجراءات النموذجية التى تُستخدم فى بناء النظرية فى العلوم كذلك. وليست هذه مسألة نظرية؛ ذلك أن ممارسة اللسانيين الوصفيين المألوفة تعتمد على هذه المسلمات اعتمادًا حاسما، مع أنها ينبغى أن تكون أوضح الحقائق البديهية.

ويمكن أن نصوغ هذه المسألة بشكل مختلف. فيواجه اللسانى والطفلُ مهمّتين تختلفان اختلافًا جذريًا. فيكتسب الطفل، المزوّدُ ببعض القدرات الفطرية المعينة، معرفتَه اللغوية بلغة ما ـ بصورة آليّة، ولا يتوفر له إلا خيارات محدودة جدًّا من هذا الأمر، إن كان هناك خيار أصلا. أما اللسانى فيحاول أن يكتشف ما المعرفة التى اكتسبها الطفل، وما خصائص الذهن/الدماغ الفطرية المسئولة عن هذه العملية لنمو المعرفة (فهو يحاول أن يكتشف ما يعرفه الطفلُ قبل التجربة، إن استعملنا التعبير الذى يبدو ملائمًا جدًا). وسيَستعمل اللسانى بصورة ملائمة إلى حد بعيد النتائجَ ذات الصلة بالخصائص الفطرية، بغض النظر عن المصدر الذى جاءت منه، لوصف المعرفة المحصّلة، فى دراسة المعنى خاصة، حيث يكون لهذا المجال المنزلة التى لغيره.

بل إن إلزامات كوين، إن طبّقت تطبيقًا مطّردا، ستكون أكثرَ تطرُّفًا مما يوحى به هذا المثال. لذلك سوف يَنظر أى عالم إلى الأدلة التى تأتى من الأمراض اللغوية أو للتنوعات اللغوية بين الأُسر اللغوية أو البنية العصبية أو الكيمياء الأحيائية، بل من أى دليل مهمّا كان مصدره، على أنها ذات صلة

محتملة من حيث المبدأ بتحديد طبيعة الحالــة الأولـــى أو حالـــة المعرفـــة المُحصَّلة، لأن هذه الحالات ببساطة عناصرُ للعالَم الأحيائى الطبيعى. ويُؤكد كوين نفسُه هذه النقطة فيما يخص دراسة العالم الطبيعى، باســتثناء دراســـة البشر فى "ما فوق الرَّقَبة" حين يقوم بها "اللسانيون"، بمعنى هذا المـــصطلح عنده. فإذا أمكن بيانُ أنَّ بعض الحقائق عن البنية العصبية للدماغ توفر تحققًا طبيعيًا لأنظمة القواعد من نوع معين (ولنقل عن تقسيم الجملة:

John contemplated the problem.

إلى مركَّبين هما: John و contemplated the problem) بدلاً مـــن تقسيمات أخرى، فستكون هذه الطريقة فى النقاش مقبولةً – إذن – فى العلوم للوصول إلى قرار بشأن الوصف الصحيح لمعرفـــة جـــونز — أى الحالـــة المعرفية التى حصَّلها جونز (وتعنى هنا قضيةَ اختيـــار بنيـــةِ المركبـــات). ويصح الأمرُ نفسه عن نظرية المعنى، أو عن أى بحث اختبارى آخر. لكن هذه الطرق كلها، المألوفةَ فى العلوم الطبيعية، مرفوضةٌ رفضًا قاطعًـــا فـــى ضوء القيود التى يضعها كوين على عمل "اللسانى" تبعًا للنموذج المـــستخدَم استخدامًا واسعًا فى النقاش الفلسفى.

ويقيِّد كوين هذه المذاهب بطرق تلفت النظر. وتكشف النظرةُ الفاحصة لهذه القيود بجلاء الطبيعةَ الاعتباطية للافتراضات التى يَصدر عنها، وعـــدم فهمه المستمر للقضايا الاختبارية. وكمثال على اعتباطية هذه الافتراضـــات، انظر إلى نقاشه للدليل الذى ربما يقودنا إلى تعيين بنيةٍ مركبيَّـــة أو أخـــرى لجُمل جونز الإنجليزية (Quine 1986). فإذا جاء هذا الدليل مـــن التجـــارب اللسانية النفسية عن إدراك إزاحة الطقطقات[9]، فهو مقبول، أما إن جاء مـــن القيود على الاعتماد الإحالى فى اليابانية أو على صياغة التركيبات الـــسببية فى عدد لا يحصى من اللغات فغير مقبول – إذن – مع أنه دليلٌ يمكـــن أن يؤوَّل بالكيفية المألوفة فى العلوم الطبيعية، فى ضوء الطرق التى ناقـــشناها قبل قليل. وربما تؤوَّل آراءُ كوين على أنه يرى أن الدليل من النـــوع الأول

(الذى يسمى "الدليل النفسى") أقوى وربما أكثر إقناعًا مما يسمى بـ "الدليل اللغوى"؛ وإذا كان الأمر كذلك، فسيكون هذا ببساطة خطأ آخر، ذاك أن الأمرَ بخلاف ذلك، في الوقت الحاضر فى الأقل. بل يبدو كأنَّ كوين يرى أن الدليل يَختلف من حيث طبيعته الإبستمولوجية، وهذه فكرة مستحيلة. ذلك أن الأدلة لا تأتي ممهورةً بأنها "صالحةٌ لإثبات النظريات" ("كالدليل النفسى") أو "صالحةٌ من أجل "البساطة وقبولها للترجمة"" ("الدليل اللغوى")، فهى أدلةٌ وحسب، وربما تكون جيدة أو رديئة، مقنعة أو غير مقنعة، فى ضوء الأطر النظرية التى يمكن أن تؤوَّل فى ضوئها لتحديد الفرضيات تحديدًا صارمًا أو تأكيدها.

ومن أمثلة عدم فهم كوين للقضايا الاختبارية، مناقشته لما يسمى بـ "القيْدِ على بِنْية العطْف"، وهو تعميمٌ وصفي يشمل، مثلاً، الفارقَ الجذرى من حيث المكانة بين التعبيرين الاستفهاميين اللذين يُشتَقان عن طريق السؤال عن مارى فى الجملتين التاليتين:

John saw Bill and Mary.

"رأى جون بيل ومارى".

و:

John saw Bill with Mary .

"رأى جون بيل مع مارى".

أى الاختلاف بين:

Who did John see Bill and?

Who did John see Bill with?

[حيث لا يمكن السؤال عن أحد المتعاطفين وترك الآخر (فى المثال الأول)، وإمكان السؤال عن أحد الاسمين المتعاطفين في غير هذه البنية (المثال الثاني)].

ويستنتج كوين أن "التماثل اللافت للنظر" [بين اللغات] الذى يبينه هـذا القيد "لا يوحى بأنه سمة موجودة فى اللغات كلها"، بل "هو إشارة إلى صـلة نسبية بين اللغات من الواضح أنها تحولت إلـى خصيـصة نحويـة بهـذه الأشكال"[١٠]. لكن هذه النتيجة تقوم على سوء فهم خطير للقضايا الاختبارية ذات الصلة هنا. إذ تكمن المشكلة فى أن تفسّر كيف يعرف الأطفال جميعًـا الفارقَ ذا الصلة بين:

Who did John see Bill and?

[وهى خاطئة]

و:

Who did John see Bill with?

[وهى صحيحة]

ولا يُمكن القول هنا إن الطفل يَعتمد على دليل يستقيه من تاريخ اللغة، وهو لا يمتلك فى العادة تجربةً ذات صلة لكى يُحدّد (بـــ "الاسـتقراء"، أو غيره) أن القاعدة البسيطة "قدّم عبارة ــ wh" مُنعت من العمل بصورة ما فى الجملة:

John saw Bill and who.

"رأى جون بيل ومَن".

لكنها لم تُمنع فى الجملة:

John saw Bill with who.

"رأى جون بيل مع من".

(فى العامية الإنجليزية). فلا يُنتج الأطفال، مثلاً، جملاً مثل:

Who did John see Bill and?

ثم يُرشِدهم أهلوهم إلى أن هذه ليست الطريقة التى تُنـتَج بهـا هـذه الجملة؛ كذلك فاللغات لم "تتجهْ" نحو هذا "التبسيط" فى قاعدة الاسـتفهام عبـر آلاف السنين[١١]. فتكمن المشكلة، باختصار، فى "فقر المنبّه"، كما أنه لـيس

للتخرصات عن الصلة النسبية بين اللغات صلةً بها إطلاقًا، في هذه الحالة وفي حالات أخرى مماثلة لا حصر لها(٢٠).

وتُبين حالاتٌ أخرى عن نوع مماثل من رفض السماح لدراسة اللغة بأن تسير بالكيفية التي تسير بها العلوم الطبيعية. انظر مقال ديفيدسون بعنوان: A Nice Derangement of Epitaphs "تحريف بسيط في شاهد قبر" في الكتاب الذي أشرنا إليه من قبل (Lepore 1986). فينظر ديفيدسون في الدعوى التي مفادها أن هدف الدراسة الوصفية للمعنى أنْ نصوغ "نظريةً صريحة" تكون "نموذجًا لمعرفة المؤوِّل اللغوية"، أي "نظريةً تكرارية من نوع ما"، وأننا لا نستطيع "وصفَ ما يقوم به المؤوِّل" إلا باللجوء إلى مثل هذه النظرية. ثم يمضي قائلاً إنه: "لا يُضيف شيئًا إلى هذه الدعوى أن نقول إنه إذا وَصَفت النظريةُ المعرفةَ اللغوية عند مؤوِّلٍ ما وصفًا صحيحًا، فيَلزم أن يكون عند المؤوِّل بعضُ الآليات التي تتماثل مع النظرية" (Davidson 1986b: 438). وقد اقترح دوميت وآخرون مثل هذه النقاط كذلك(٢١).

وسيجد مَن يقارب هذه المسائل من منظور العلوم الطبيعية أن التعليق الأخير الذي أوردناه خاطئ تمامًا؛ إذ لو كان صحيحًا لكان التعليق المماثل صالحًا في دراسة الإدراك أو الكيمياء. وكما هو الأمر في العلوم كلها، فقد يضيف إلى الدعوى إضافاتٍ مهمة أن يقال إن "بعض الآليات عند المؤوِّل . . يوجد ما يماثلها في النظرية". أي إن علماء العلوم الطبيعية الذين يصوغون نظريةً "تَصف ما يمكن أن يَفعله مؤوِّل" سيَستمرون ليَعزوا إلى الشخص الذي يَدرسونه بعضَ الآليات الثابتة الصريحة التي ستتصف بالخصائص التي تفترض في هذا التفسير الوصفي، لا في غيره. وربما يكون هذا العزو في مستوى مجرد، في ضوء أنظمة قواعد ممثَّلة في الذهن، أو في ضوء وحدات مجردة أخرى كالشبكات العصبية، أو في ضوء بنية الخلايا، إلخ؛ وهذا كلُّه نموذجي في العلوم الطبيعية. وبعد أن يعزو المشتغلُ بالعلوم الطبيعية بنيةً معينة وبعضَ الآليات المحدَّدة لذهن/دماغ شخصٍ ما ــ وغالبًا ما يكون ذلك

في مستوى مفارقٍ جدًا للآليات الفيزيائية "الأكثر أوّلية" غيــر المعروفــة ــ فسيكون عندئذ قادرًا على اختبار النظرية في ضوء مجموعــة مــن الأدلــة الكثيرة، ومنها مثلاً، الدليلُ الذي يؤخذ من لغات أخرى بالطريقة التي بيّناها آنفا، والدليلُ من الأمراض التي تصيب الدماغ أو من العلوم المتخصصة في الدماغ أو الكيمياء الأحيائية. لكن اشتراط ديفيدسون يَمنع هذه الجهودَ التــي تَستخدم مناهج البحث المنضبط في العلوم لتحديد إن كان التعليلُ المفتــرَض للمؤوِّل صحيحًا حقًا، وأنْ نعدّله إن لم يكن كذلك (كما هو المحتمل).

وتَبرز المشكلةُ نفسُها حين يَعترض كــوين وديفيــد لــويس (١٩٨٣) ودوميت، وكثير غيرهم بأن هناك مشكلةً تَبرز حين يَعزو اللــسانيون إلــى متكلمٍ ــ سامعٍ معيّنٍ نظامَ قواعد داخليًا محدَّدا، ثم يَسعى هؤلاء إلى استقصاء صدقِ هذه النظريةِ عن الشخص مستخدمين المناهج النموذجية التي تَــستخدَم في العلوم. بل يُجادل كوين (Quine 1972: 447)، أن هذا المنحــى ربمــا لا يزيد عن "حماقة" خالصة، وينبغي التغلبُ عليها بالتأمل الملائم عن المنهجية. وتكمن المشكلةُ الملاحظَةُ في أنَّ من الممكن أن نصوغ لأي مجمــوع مــن السلوك الملاحَظ، أو أي مجموع غير نهائي من الأقوال نختاره اعتمادًا على بعض الأسس الغامضة ويأخذه الفيلسوفُ على أنه "اللغة"، عددًا كبيرًا غيــر نهائي من النظريات التي تتوافق مع هذا الدليل (وتسمى أحيانــا: "أنحــاء")؛ لذلك يُنظر إلى الافتراض بأن واحدة من هذه النظريات "صحيحة" والأخرياتِ "زائفة" على أنه توجُّه غيرُ مسوَّغ ــ إلا، كما يرى كوين أحيانــا، إنْ كــان هناك "دليل نفسي" ــ بخصائصه الغامضة التي يفتقر إليها "الدليلُ اللغوي" ــ يؤيد فرضيةً معينة أو أخرى. وتُدعَم هذه الحجة في الغالب بالقيــاس علــى دراسة اللغات الصورية، التي ليس لها صلة البتة ومضلِّلةً إلى حد بعيد. ولو كانت هذه الحجة صحيحة لكان المتوقع أن تَصحَّ في العلوم كلها؛ لكنها ليست إلا شكلاً من التشكُّك الذي لا يَحمله أحدٌ على محمل الجد في دراسة العــالَم الطبيعي لأسبــاب اتَّضــحــت في القرن السابــع عشر، كــمــا يلاحِــظ

بوبكــين (Popkin 1979)[٤٤]. وسيَعزو المشتغلُ بــالعلوم الطبيعيــة إلــى الشخص الذى يدرسه نظامًا محدّدًا، بدلاً من نظام آخــر (أى: "نحــوًا"، إن استعملنا المصطلح المضلِّل)، ثم ينتقل بعد ذلك إلى التأكد من صــحة هــذه الفرضية عن طريق البحث عن أدلة متعددة بقدر الإمكــان، ويَــشمل ذلــك بصورة خاصة الأدلةَ من لغات أخرى، بالمعايير التى ناقشناها آنفــا. ومــن الطبيعى أنه سيَظل هناك دائمًا شيء من عدم التحديد الاختبارى، لأن هذا علمٌ اختبارى، لا رياضيات، لكن هذا هو كلُّ ما يمكن قولُه عن هذا الأمر. وهناك أبحاث كثيرة جدًا تجادل بأن العكس هو الــصحيح، إلا أنهــا تقــوم علــى احتجاجات واهمة جدًا[٤٥]. ومن هذه الأوهام الفرضياتُ الخاطئة التى ناقشناها آنفا: أى أنه لا يمكن أن يأتى الدليلُ عن معرفة جونز اللغوية إلا من ســلوك جونز (حين يؤوَّل فى ضوء المبدأ التنظيمى عن الصِّدق)، وأنه لا يــضيف إلى وصف سلوك جونز شيئًا أنْ نعزو إليه آليةً داخلية محدَّدة، وربما كانــت هذه نظامًا معينًا من القواعد أو شكلاً ما من التنظيم العصبى الذى تتحقق به.

ويمكن إيضاحُ هذه النقطة، مرة أخرى، بالنظر فى مسألة حدود البنية المركَّبية. افرض أن لدينا نوعين من الأدلة لوضع الحد الأكبر [للمركَّبــات] بعد الفاعل فى:

John --- contemplated the problem

ويأتى النوع الأول من الاعتماد الإحالى فى اليابانية ("الدليل اللغوى") والثانى من الإزاحة الإدراكية للطقطقات ("الدليل النفسى"). ويَخضع الــدليل الأول للنوع المألوف من عدم القدرة على التحديد. وكذلك الثانى. افرض أن الطقطقات، فى ضوء الشروط الاختبارية التى وُضعت للحصول على النتائج الصحيحة (بعد عدد كبير من المحاولات التى تنتهــى بالخطــأ، كمــا هــو المعهود)، ستُزاح إدراكيًا إلى الحدّ بين الفاعل والمفعول، لا إلى الحــد بــين الفعل والمفعول. ويمكن تأويل هذه النتائج على أنها تؤيد النتيجة التى مفادها أن بنية هذا المثال هى:

NP -V NP

[مركَّب اسمي ــ فِعل مركَّب اسمي]

لا:

[NP V –NP]

[مركب اسمي فعل ــ مركب اسمي]

أو:

[NP – V NP]

[مركب اسمي ــ فعل ــ مركب اسمي]

لكن من السهل أن نَستخدم حجةَ كوين لتبيين أنه "ليس هناك أمر من أمور الحقيقة" في هذه الحالة (Quine 1960: 303؛ وانظر Chomsky 1980: 15). فمن الواضح أن هناك تأويلات أخرى كثيرة لهذه النتائج الاختبارية. فيمكن تأويلها بأن الطقطقات أزيحت إدراكيًّا إلى وسط "مُكوِّنٍ ما"، لا إلى حدِّه؛ أو ربما كان المجرَّب عليه يجيب بتعيين حدود المكوِّن الذي يلي المكوِّنَ الأكبر مباشرة. ويمكن أن تؤوَّل التجاربُ الأخرى ذات الصلة كلها بطرق مماثلة، كما يمكن القيام بذلك من حيث المبدأ بكل تأكيد ــ وإن لم يكن بسيطًا من حيث الممارسة، سواء في حالة الدليل "النفسي" أو الدليل "اللغوي". فالقضايا هي نفسها في الحالتين كلتيهما؛ بل لا توجد قضايا خاصةٌ هنا، ذلك أنها تصح في البحث الاختباري بصورة عامة.

ويتردد كوين في قبول النتائج حين تُستخلص عن حدود المركَّبات أو عن المظاهر الأخرى للغة اعتمادًا على "الدليل اللغوي"، "إن لم يَصحب ذلك مزيدٌ من الوضوح عن الآلة المفترَضة"[١٦]، لكنه لا يثير هذه الاعتراضات حين تُستنتج هذه النتائج نفسُها اعتمادًا على "الدليل النفسي". وليس لهذه الثنائية الإبستيمولوجية من معنى البتة؛ وهي خطوة واسعة إلى الخلف من الثنائية الميتافيزيقية التقليدية، التي كانت ردَّ فعل معقولاً على مشكلات اختبارية ملحوظة، تنطلق من مسلمات نعرف الآن أنها كانت خاطئة[١٧].

وهذه الاعتراضات، على الوجه الذي هي عليه، متماثلة من حيث المبدأ، مهما كان الدليل الذي تقوم النتائج عليه، وهي لا تزيد عن كونها سمات للبحث الاختباري. أما فيما يخص "الآلة المفترَضة" فلا تثير مشكلةً مبدئية تختلف عن تلك المشكلات المعهودة في الأنواع كلها لصياغة النظرية في العلوم الاختبارية.

ومع ذلك فهناك نوع آخر من التناقض يبرز في هذا الإطار، فيجادل كوين بأنه من غير المسموح للسانيين أن يعزوا نظامًا لغويًا محددًا، بدلاً من أنظمة أخرى، للفرد أو الجماعة المُؤمثلة التي يدرسونها(١٨)؛ ولا يُسمح لهم أن يتفحصوا ما يكون صحيحًا عن الدماغ، حين يوصف في المستوى الذي نصوغ فيه أنظمةَ القواعد وما يشبهها. لكنْ هناك شيئًا صحيحًا عن الدماغ؛ فهناك شيء معينٌ عن دماغي يكون فيه مماثلاً تقريبًا لدماغك ومختلفًا اختلافًا مهمًّا عن دماغ متكلم اللغة السواحلية. لهذا يجب أن يُسمح لأحدٍ ما أن يَدرس مظاهر العالَم الواقعي هذه، لكن ليس اللسانيين، الذين يَقصُرون على بحث سلوك جونز، وربما لا يمكنهم أن يَعزوا بعضَ الآليات المحددة إلى ذهن/دماغ جونز أو أن يستخدموا أدلةً من اللغات الأخرى (أو من أي مجال آخر، من حيث المبدأ) لكي يختبروا دقةَ نتائجهم عن هذه الآليات، وستكون الخطوةُ المنطقية – إن قبلنا بهذه القيود المصطلحية على ما يَجب أن يَفعله اللساني – أن نهجر اللسانيات (ويشمل ذلك دراسة المعنى في ضوء الشروط المفروضة في نموذج البحث عند كوين). أما حين نتخلى عن هذه الممارسات غير المفيدة، فيمكن لنا الآن أن نلتفت إلى هذا الموضوع الآخر حيث يُسمح لنا بأن نَعزو بعضَ الآليات المحدَّدة إلى ذهن/دماغ جونز وأن نتفحص هذه الفرضيات مستخدمين المناهجَ التي تتبعها العلوم، مستعينين بأي دليل ممكن: والحق أن هذه الممارسة هي ما يقوم به اللسانيون، وهي التي أُدينت في هذا التقليد الغريب، وإن كان تقليدًا مؤثرًا جدًّا في الفلسفة الحديثة، وهو الذي يتباهى، وهذه مفارقة، بانتمائه إلى "النزعة الطبيعية" وبالتزامه بالمناهج العلمية.

ويقدّم كوين، في أحدث جهوده لتسويغ القيود التي يفرضها (Quine 1987) الحجةَ التالية. فهو يجادل بأنّ "المنهج السلوكي لازم" للساني؛ ذلك أننا في اكتسابنا للغة "نعتمد حصرًا على السلوك الظاهر في السياقات الملاحَظة. . . لذلك لا يتضمن المعنى اللغوي شيئًا وراء ما يُلتقط من السلوك في الظروف الملاحَظة" (Quine 1987: 5)، ويصح الشيء نفسه، اعتمادًا على تماثل الحجة، في دراسة طريقة النطق، أو البنية المركَّبية، أو غيرها من مظاهر اللغة. زيادة على ذلك، وكما يبيّن كوين بجلاء مرة أخرى، فالسلوكُ الذي يهتم به اللساني إنما هو سلوك متكلمي اللغة الذين يَعزو إليهم معرفةَ لغة: "فإذا اختلف المترجمون في ترجمة جملةٍ من لغة سكانِ غابة ولا يمكن لأي سلوك عند هؤلاء [الذين يسلِّم ضمنًا بأنهم متجانسون] أن يقرِّر أمرَ هذا الاختلاف، فيعني هذا أنه ليس هناك، ببساطة، شيء يمكن عدُّه أمرًا من أمور الحقيقة" (Quine 1990: 38)، وأن اللساني الذي يعتقد أن هناك حقائقَ يمكن اكتشافها، وأن بعض النظريات (الأنحاء) صحيح وبعضها غير صحيح، يَرتكب خطأً منهجيًّا خطيرًا أو هو ضحية لـ "حُمْق" خالص (لنتذكر أن "المترجم" يمثّل متعلِّم اللغة كذلك(١٩) وأنّ الحجة نفسَها تَنطبق على طريقة النطق، والبنية المركّبية، وغير ذلك).

انظر الآن إلى الحجة الشبيهة التالية، فيعتمد الكائنُ العضوي بشكل خالص، في مساره من الحالة الجنينية إلى الحالة الناضجة ليصل إلى بنيته المادية النهائية، على التغذية التي يستمدها من الخارج (ويشمل ذلك الأوكسجين، إلخ). فلا يوجد شيء في البنية المادية للكائن العضوي الناضج – إذن – وراء ما يمكن أن يُلتقط من الدخول الغذائية. لهذا يجب على دارس التطور البشري وما يؤول إليه، إذن، أنْ يَقصر انتباهه على هذه الدخول وحدَها؛ وهو ما يعني أن "المقاربة الغذائية لازمة" عند عالِم الأحياء. وتماثل هذه الحجة حجةَ كوين، وهو ما يجعلنا نرى سببَ عدم إمكانها فورا. فصحيح أن الجنين "يَعتمد" على البيئة الغذائية مثلما "يَعتمد" متعلمُ اللغة على السلوك

الظاهرى. لكن ما الذى يتضمنه مصطلحُ "يعتمد"؟ وهنا نلتفت إلى بنية الكائن العضوى التى يمكن أن ننظر إليها بشكل مجرد بوصفها تحويلاً لدخول خارجية إلى حالة ناضجة. وفى غياب مثل هذه البنية لن يؤدى السلوكُ الملاحَظ إلى معرفة للغة، ولن تقود التغذيةُ إلى نمو. وكوين يعرف هذا بالطبع. لهذا يَربط "اللسانى الميدانى" فى عُرْف كوين، فى تتبُّعه مسارَ متعلم اللغة، "بشكل مؤقت أقوالَ المتكلم بالسياق الملاحَظ المصاحب"، كما يُسمح له أن يستفيد من الفرضيات الأخرى التى يُزعم أنها تمثِّل القدراتِ التى زُوِّد بها متعلمُ اللغة، وربما أمكن لهذه الفرضيات، إذا ما وُضِّحت، أن تكون أساسًا لنظريةٍ عن البنية الفطرية للكائن العضوى وللتحويل.

وكما يتفق الجميع، فليس هناك أثرٌ للبيئة الخارجية على نمو اللغة (أو غيرها) فى غياب البنية الفطرية؛ ولن يمكن لجونز، على وجه الخصوص، فى غياب البنية الفطرية، أن يتطور بطريق محددة من جنين إلى شخص، ولا يمكن أن تَصل ملكته اللغوية إلى حالة المعرفة الناضجة التى تؤسِّس لسلوكه وتفسِّره. لكن الطفل مزودٌ بهذه البنية الفطرية، لهذا ينمو ليَصل حدَّ النضج بحسب مسارٍ موجَّهٍ داخليًّا بشكل كبير؛ ومهمةُ العالم أنْ يكتشف طبيعةَ هذا الإعداد الداخلى وطبيعةَ الحالة التى حُصِّلت. وأفضل نظرية – الآن – أنّ الحالة الأولى للملكة اللغوية تتضمن بعضَ المبادئ العامة لبنية اللغة، ويشمل ذلك المبادئ الصوتية والدلالية، وأنّ الحالة الناضجة للمعرفة اللغوية إجراءٌ توليدى يعيِّن الأوصافَ البنيوية للتعبيرات اللغوية وتفاعلاتها مع النظام الحركى والنظام الإدراكى والأنظمة الإدراكية الأخرى للذهن/الدماغ؛ لتُعطى تأويلاتٍ دلالية وصوتية لقولٍ ما. وهناك أنواعٌ كثيرة جدًّا من الأدلة الاختبارية ذات الصلة المبدئية بتحديد الكيفية الدقيقة التى يجب أن يبيَّن بها هذا الاقتراح بالتفصيل. ومرة أخرى، لا يعدو هذا كلُّه أن يكون علمًا نموذجيًا، وهو يؤدى إلى نظريات إما صحيحة أو زائفة(٢٠) عن المعرفة اللغوية لجونز وحالته الأولى، التى هى جزء من الإعداد الأحيائى البشرى.

وربما يَجب التخلى عن هذا الاقتراح فى ضوء بعض التصورات الأخــرى التى لا توجد الآن، لكن الوصول إلى هذه النتيجة لا يكفى لأن نطلــب مــن اللسانى هجْر المناهج العلمية.

وكما هى الحال فى صياغات كوين المبكرة لهذه الأفكار، فتقريراتُــه المحدِّدةُ عن البنية الفطرية (ومن هنا عن "التحويل") اعتباطيةٌ خالصة، وليس لها صلة هنا، بغض النظر عن سوابقها التاريخية. فليس هناك مِن سبب لأنّ تَقبلها فى حال اللغة، مثلما أن شبيهتها المذهبية عن "الاعتماد" ستُرفض فوراً فى دراسة المظاهر الأخرى لنمو الكائنات العضوية. وهناك أدلــة مقنعــة، زيادة على ذلك، على أنها زائفة، على حدّ ما صيغت به من وضوح. وكمــا هى الحال فى دراسة التطور المادى عموماً، سوف يَضرب الباحث المنهجى صفحا عن هذه المسلمات المذهبية عن طبيعة "الاعتماد" (الذى يتعلق بطبيعة البنية الفطرية) مع الاعتقادات الأخرى، كتلك التــى أشــرنا إليهــا آنفــا، وسيَستعمل أى دليل متوفر يَتيسر وجودُه عن بنية الكائن العضوى والتحويل وطبيعةِ الحالات المحصَّلة فى حالات معينة. وتبقى النتائجُ التى استخلــصها كوين وديفيدسون وروريتى وكثير غيرهم مفتقرةً إلى الحجة. وليس هناك ما يمكن بَعثُه من الصورة التى يَرسمها كوين لهذه الأمور، على حد مــا أرى، مع أن بعض نتائجه ــ خاصة ما يتعلق منها بـــ "شبكية المعنى" ــــ ربمــا يَثبت أنها صحيحة، إلى حد كبير فى الأقل.

لنعُد الآن إلى التمييز بين "التحليل والتأليف"، وإلى حجــة ديفيدســون (Davidson 1986a: 312) التى مفادها أن كوين استطاع "بالتخلص [من هــذا التمييز] إنقاذَ فلسفة اللغة بوصفها موضوعًا جادًا". لنتذكر أن موضوعَ النقاش هنا ليس هذا التمييزَ ببساطة، بل مسألةُ الارتباطات الدلالية التى تحدِّدها اللغة عموما. ونحن لا نستطيع، كما ذكرتُ، الاحتجاج بحجة روريتى، المنــسوبة إلى كوين، ومفادها أن "اللسانى الميدانى" يَجد هذا التمييز "غير مفيد". أما من حيث الممارسة فتُعزى البنيةُ الدلالية دائمًا إلى الوحدات المعجمية فى الأبحاث

الوصفية والدراسات النظرية لدلالة اللغة الطبيعية، ثم تُشتق الارتباطات الدلالية مختلفةُ الأنواع من هذه الخصائص البنيوية وغيرها، ويشمل ذلك الارتباطاتِ التحليلية، وهناك أسباب وجيهة وراء هذه المسلمات النموذجية عن البنية المعجمية. ذلك أن اكتساب الوحدات المعجمية يثير ما يسمى أحيانًا بـ "مشكلة أفلاطون" بشكل أكثر جلاء. فكما يَعي كلُّ مَنْ حاول جمْع معجم أو اشتغل بالوصف الدلالي أنَّ من الصعب أن نصف معنى أية كلمة، ثم إن مثل هذه المعاني تَبلغ حدًّا عاليًا جدًّا من التعقيد، وتشتمل على أكثر المسلمات لفتًا للنظر، حتى في حالة أبسط التصورات، كما في حالة الشيء الذي يمكن أن يكون قابلاً للتَّسْمية. ويكتسب الأطفال ("يتعلمون")، في ذروة فترة اكتسابهم للغة، عددًا كبيرًا من الكلمات يوميا، ربما يصل عدد هذه الكلمات أكثر من عشر، وهو ما يعني أنهم يكتسبون الكلمات في سياق عدد قليل جدًّا من مرات التَّعرُّض [للغة]، بل ربما لا يتعرضون لها إلا مرة واحدة. وربما يوحي هذا بأن التصورات متوفرة [في دماغ الطفل] بشكل مسبق، مع تحديد الجزء الأكبر من تعقيدها وبنيتها بشكل مسبق، إن لم يكن تحديد ذلك كله، وأنَّ مهمة الطفل لا تعدو أن تكون إعطاءَ أوصاف لهذه التصورات، وهو ما يمكن أن يُنجز بناء على عدد محدود من الأدلة في وجود بنية فطرية غنية بشكل كاف. كما يبدو أن هذه البنى التصورية تَعمل على إنتاج ارتباطات دلالية من النوع الذي سيسمح - بصفة خاصة - بوجود تمييز تحليلي - تأليفي، بوصفه حقيقة اختبارية.

ويبدو أن الوحدات المعجمية وطبيعتها، على حد ما يُعرف عنها، مؤسسة على بنى تصورية من نوع محدد ومتماسك جدًا. وتدخل التصورات ذات الطبيعة الموضعية بصورة واسعة في البنية المعجمية، وبطرق مجردة إلى حد بعيد غالبا، كما يُجادل بصورة معقولة أن بعض التصورات ذات الطبيعة المحلية ـــ ويشمل ذلك هدف الحدث ومصدره، والشيء الذي حرّك، إلخ ـــ تدخل فيها كذلك وبالكيفية نفسها. يضاف إلى ذلك أن مفاهيم كالمنفذ

وهدف الحدث، وآلة التنفيذ، والحدث والقصد والتسبيب وغيرها عناصرُ لازمة في البنية المعجمية، بخصائصها وعلاقاتها الداخلية المحدَّدة، خذ مثلاً كلمات مثل chase "يَطْرد" أو persuade "يُقنع". فيدخل في هاتين الكلمتين بوضوح الإحالةُ إلى القصد البشري. فلا يعني أنْ تَطردَ جونز أنك تتبعه وحسب، بل أنْ تتبعه بقصد أن تَسلك الطريقَ التي يَسلكها، ربما لتُمسك به. ويعني أن تقنع سميث أنْ تَفعل شيئًا يَجعله يقرِّر أو يقصد أن يفعل ذلك الشيء؛ فإذا لم يقرِّر أو يَقصد أن يَفعل ذلك الشيء فيعني هذا أننا لم ننجح في إقناعه. ويجب، زيادة على ذلك، أن يقرِّر هو أو يَقصد برغبته هو، لا بسبب إلزامه بذلك؛ فإذا قلنا إن الشُرطة أقنعتْ سميث، باستخدام التعذيب، أن يَعترف فإننا نَستعمل الكلمةَ حينئذ للمفارقة. وبما أن هذه الحقائق معروفة أساسًا من غير دليل فلابد أن نستنتج أن الطفل يقارب اللغةَ مزوَّدًا بفهْم حدسي عن التصورات التي تَشتمل على القصد والتسبيب والحدث وهدف الحدث إلخ؛ وأكثر من ذلك، لابد أنَّ الطفل يَضع الكلمات التي يَسمعها في سلسلة تَسمَح بها مبادئ النحو الكلي، وهي التي توفِّر الإطارَ للفكر واللغة، وتَكون مشتركةً بين اللغات البشرية بوصفها المبادئ التي تَدخل في مختلف مظاهر الحياة البشرية. كما يَبدو أن هذه العناصر تَدخل في "خطة تصوُّرية" متماسكة، وهي إحدى مكوِّنات الحالة الأولى للملكة اللغوية التي تتخذ شكلها النهائي بطرق محددة، ولها مدىً وحدودٌ محدَّدة مسبقة، في أثناء نمو اللغة، وهذا واحد من مظاهر التطور الإدراكي. وربما تخضع هذه الخطط التصورية لبعض التنقيحات وإعادة للبناء (انظر Carey 1985)، لكنْ يجب أن ندقِّق في التمييز بين العوامل المختلفة التي تَدخل في مسار التطور، ويشمل ذلك، إلى حد بعيد من المعقولية، النضجَ المحدَّد وراثيًا الذي يؤدي إلى بعض المؤثرات التي لا تُلحَظ إلا في المراحل المتأخرة من النمو الإدراكي.

لاحظ مرة أخرى أنه يبدو أن هناك ارتباطات للمعنى في حالات مثل هذه؛ فلدينا فارق واضحٌ إلى حد بعيد بين صدق المعنى وصدق الوقائع. لهذا

فإذا أقنع جونٌ بيلاً بأن يذهب إلى الجامعة فيعني هذا أن بيل قرَّر عند حد معين أن يذهب إلى الجامعة أو قصد أن يذهب إليها وقام بذلك من غير إرغام؛ أما إذا لم يكن الأمر كذلك فجون لم يُقنع بيل بالذهاب إلى الجامعة. وبالمثل، فإذا "قتل جونٌ بيلَ"، فيعني هذا "أن بيل مات" (مع أنه يمكن أو لا يمكن أن يكون جون مات، تبعًا للوقائع). وهذه أمثلة لصدق المعنى لا صدق الوقائع. ويُوفر الإطارُ المسبق للفكر البشري، الذى تكتسب اللغة ضمنه، بعض الارتباطات الضرورية بين التصورات، وهي التى تُبيِّنها ارتباطات المعنى بين الكلمات، وعلى نطاق أوسع، بين التعبيرات التى تظهر فيها هذه الكلمات، كما فى مثال الاعتماد الإحالى الذى أشرنا إليه سابقا. وتوفر العلاقاتُ التركيبية مجموعةً غنية من الأمثلة الأخرى. ومن ذلك، أنه يبدو أنّ هناك فارقًا واضحًا بين الجملة:

Everyone who lives upstairs lives upstairs.

"كلُّ إنسان يعيش فى الطابق الأعلى يعيش فى الطابق الأعلى".

والجملة:

Everyone who lives upstairs is happy.

"كلُّ إنسان يعيش فى الطابق الأعلى سعيد".

ويبدو أن كوين يَعتقد أن هذا الفارق أكثر إشكالاً وغموضًا من التمييز الذي وَضعه بين "صحيح نحويًا" و"غير صحيح نحويًا"، الذى يَعدُّه حاسمًا شيئًا ما للاستقصاءات التى يقوم بها اللساني[21]. لكن العكس هو الصحيح. ذلك أنه يبدو أنّ ليس للفارق المطلَق بين "صحيح نحويًا" و"غير صحيح نحويًا" إلا أهمية ضئيلة – إن كان له من أهمية أصلا – فهو فارق يمكن رسمُه بأية طريقة أو، ربما بشكل أفضل، ألا يُرسم إطلاقًا، ذلك أن من المشكوك فيه أن يؤدى هذا التصور، بمعناه عند كوين، أى دور فى أية نظرية عن اللغة. وقد نوقشت أسبابُ ذلك فى الأبحاث المبكرة فى النحو

التوليدي؛ بل إنها الأبحاثُ الوحيدة التي سعتْ لتطوير مثــل هــذا التــصور بطرق ربما تكون ذات صلة بالنظرية اللسانية، وإن كان ذلك بمعايير نُظــر إليها منذ زمن بعيد أنها غير ملائمة(٢٢).

فيظهر، إذن، أن إحدى النتائج المركزية في الفلسفة الحديثة مــشكوك فيها إلى حد بعيد، وهي: الاعتقادُ ــ الذي يؤخذ غالبًا على أنه قد بُرهِن عليه في أبحاث كوين وآخرين ــ بأنه لا يمكن لأحد أن يَرسم فارقًا مبــدئيًّا بــين مسائل الوقائع ومسائل المعنى، فلا يعدو التمييز بينهما أن يكون من أمــور الاعتقاد العميقة إلى حد ما، وقد دُعمت هذه النتيجة بالتأمل في صِنف محدود من الأمثلة السطحية؛ ومنها بعض التصورات التي إما أن لها بنية علائقيــة محدودة أو ليس لها مثل هذه البنية إطلاقًا. فليس من السهولة العثورُ في جمل مثل:

Cats are animals

مثلا، على دليل يقرِّر إن كانت هذه الجملة صحيحة بحسب المعنى أم بحسب الوقائع، أو إن كانت هناك إجابة عن السؤال في هذه الحالة؛ كما كان هناك خلاف واسع لم يؤدِّ إلى نتيجة محدَّدة في هذا الشأن، أمــا إن وجَّهنــا أنظارنا إلى تصورات ذات بنية علائقية لازمة مثل persuade أو chase أو إلى عبارات ذات تركيب معقَّد كالعبارات التي تشي بالاعتمــاد الإحــالي أو السببية أو عبارات الصلة، فيبدو أنه من الممكن حينئذ اكتــشاف العلاقــات الدلالية فورا. وعلى عكس ما يدعي رورتي وآخرون، فهذه مسلَّمة عامة من مسلمات البحث الاختباري في دراسة الدلالة اللغوية، وهي، زيادة على ذلك، فرضية معقولة، كما يبدو.

ولا يُمكِن تقريرُ إن كان حكمٌ ما ينتمي إلى صدق المعنى أم أنه حقيقة اختبارية إلا بالبحث الاختباري، وربما يكون هناك صــلةٌ لاعتبــارات مــن مختلف الأنواع بهذه المسألة؛ كالبحث في اكتساب اللغة والتنوع بين اللغات،

مثلا. فمسألةُ وجود الصدق التحليلي والارتباطات الدلالية بصورة أعمّ مسألة اختبارية، ويجب تقريرها عن طريق البحث الذي يذهب إلى حدٍّ بعيد جدًّا وراء الأدلة التي يُحتج بها عادة في الأبحاث التي تتناول هذه القضايا. افرض أن شخصين يختلفان في حكميهما الحدسيين عن إن كان باستطاعتي إقناعُ جون بأن يذهب إلى الجامعة من غير أن يُقرّر هو لو يقصد أن يفعل ذلك (انظر Harman 1980). ولا نواجه هنا طريقًا مسدودًا أبدًا. بل إن بإمكاننا أن نصوغ نظريات متعارضة ثم نختبرها. فسيعمد مَنْ يرى أن العلاقة بين persuade "يقنع" و decide "يقرر" أو intend "يقصد" علاقةٌ تصوُرية إلى تفصيل بنية هذه التصورات، كبيان عناصرها الأولية، والمبادئ التي تُلحقها ببعض الأنظمة الإدراكية الأخرى وتصلها بها، إلخ؛ ثم يسعى ليبين أنه يمكن تفسير الخصائص الأخرى للغة والمظاهر الأخرى لاكتسابها واستخدامها في ضوء المسلمات نفسها عن البنية الفطرية للملكة اللغوية، في اللغة نفسها وفي اللغات الأخرى، وأنّ التصورات نفسَها تؤدي دورًا في المظاهر الأخرى للفكر والفهم. أما من يرى أن العلاقة علاقةُ اعتقاد عميق يُعتقد لا علاقة ارتباط معنى فستكون مهمتُه أن يطوِّر نظريةً عامةً لتثبيتَ الاعتقاد من النوع الذي سيؤدي إلى العلاقات الملائمة في هذه الحالات وحالات أخرى كثيرة. هب أننا افترضنا – مع بول تشيرشلاند مثلاً – أن الارتباط يقوم على "الأهمية الدلالية" للجمل التي تَصل: persuade و decide أو intend (أي أن هذه الجمل تؤدي دورًا مهمًّا في الاستدلال، أو أنها تُستخدم لتقديم الكلمة persuade لرصيد الطفل من المفردات؛ ولهذا فهي أكثر أهمية من الكلمات الأخرى من أجل التواصل (Paul Churchland 1979: 51f)). ويواجه الباحث حينئذ مهمةَ تبيين أن هذه المزاعم الاختبارية حقيقيةٌ في الواقع. ويبدو الطريق الأول — الذي يقوم على البنية التصورية الفطرية — أكثر وعدًا كما أظن، وهو المقاربةُ الوحيدة التي تؤدي إلى نتائج بل إلى بعض الاقتراحات التي تُحمَد له؛ لكنّ هذا من أمور البحث الاختباري، لا من أمور الادعاء

الذي لا يقوم على دليل تقريبا. وبصورة أكثر تحديدًا فالحجج التي يؤتى بهـا لمعارضـة المقاربة الأولى (التصورية)، بناء على بعض الأسباب مثل عـدم التحديد وعدم الوضوح والقضايا التي لا حل لها، إلخ، لا تثبت شـيئًا إلا إنْ بُيِّن أن المقاربات البديلة التي تقوم على نظريات (لا توجـد الآن) لتثبيـت الاعتقاد أو الأهمية الدلالية ليست عرضةً لهذه المشكلات.

ويتطلب الأمرُ كلُّه إعادةَ تفكير واسعة، كما يبدو أنّ أكثر ما افتُـرض عمومًا في العقود القريبة الماضية عن هذه المسائل مشكوك فيه على أفـضل تقدير. فهناك، كما يبدو واضحًا، بنيةٌ تصورية غنية تحدِّدها الحالةُ الأولـى للملكة اللغوية (وربما تعتمد على موارد ملكاتٍ أخرى للذهن محدَّدة أحيائيًا)، تنتظر أن توقظها التجربة، ويتوافق هذا كله مع التصورات للعقلانية التقليدية، بل يتوافق كذلك - بمعايير أخرى - مع ما يسمى بالتفكير "التجريبي" عنـد جيمس هاريس وديفيد هيوم، وآخرين.

ويجد كثير من الناس أن هذه النتائج لا يمكن قبولها إطلاقًا، بل هـي سخيفة؛ ذلك أن فكرة وجود ما يُشبه أن يكون مجموعـةً مـن التـصورات الفطرية وأنّ الأمر لا يعدو "وَسْمَ" هذه التصورات بعلامة في أثناء اكتـساب اللغة ـــ كما يوحي الدليلُ الاختباري ـــ تخالف جذريًّا بكل تأكيد كثيرًا مـن المسلَّمات الشائعة. فيجادل بعضُ الباحثين، ومنهم هيلاري بتنام مـثلاً، أنـه ليس من المعقول أبدًا افتراضُ أننا نمتلك "رصيدًا فطريًّا من الأفكار" يَـشمل كلمةَ carburetor "آلة احتراق الوقود في الآلات" وكلمةَ bureaucrat "موظَف حكومي" (Putnam 1988a: 15). لكنْ حتى إن صحَّ رأيُه هذا فلن يكون دقيقًا؛ إذ تبرز المشكلةُ بطريقة أكثر جدًّا عن كلمات بسيطة مثل: table و person، و chase، و persuade، و kill ، وغيرها. ومع هذا فحجَّته عـن المثـالين اللذين أوردهما ليست مقنعة. فتعني هذه الحجة أنه لكي تُمدَّنا عمليةُ التطـور الأحيائي برصيد فطري من الأفكار "لا بد أنها كانـت قـادرةً علـى توقُّـع الاحتمالات كلِّها التي ستحدث نتيجةً لتأثير البيئات الماديـة والثقافيـة فـي

المستقبل. ومن الواضح أنها لم تفعل ذلك ولا تستطيعه" (ص ١٥).

لاحظ أن هذه الحجة غير صحيحة ابتداء؛ ذلك أنّ افتراض أنّ اكتساب البشر في مسار التطور رصيدًا فطريًا من الأفكار يشمل كلمات مثل: carburetor و bureaucrat لا يعني أنّ عملية التطور تستطيع توقُّع "كل" احتمال مادي أو ثقافي في المستقبل ـــ وهذه الاحتمالات فقط. وإذا تركنا هذا جانبا، لاحظ أنّ هناك حجةً تكاد تكون مماثلة لهذه الحجة كانت مقبولة منذ زمن طويل في علم المناعة: وهي أن عدد المستَضِدَّات antigens كبير جدًا، ويشمل ذلك حتى المواد المصنوعة التي لم توجد من قبل في العالم، وكان يُعدُّ أمرًا سخيفًا أن نفترض أنّ عملية التطور وفَّرت "رصيدًا فطريًا من المضادّات antibodies"؛ فيجب، بدلاً من ذلك، أن يكون تخلُّقُ المضادات نوعًا من "عملية للتعلُّم" تؤدي فيها المستضدات "دورًا توجيهيًا". لكن هذا الافتراض ربما يكون زائفا؛ فقد نال نيلز كاج جيرن جائزة نوبل عن أبحاثه التي تحدى بها هذه الفكرة، وعن تمسُّكه بتصوُّره الخاص الذي يقضي بأنه "لا يمكن أن يحثّ حيوانٌ لكي ينتج أنوعًا محدّدة من المضادات، إلا إنْ كان قد أُنتج مضاداتٍ من هذا النوع المحدّد، قبل وجود المستضد" (Jerne 1985: 1059)، فتخلُّقُ المضادات – إذن – عمليةٌ انتقائية يؤدي فيها المستضد دورًا انتقائيًا توسيعيًا[٢٣]. وبغض النظر عن إن كان رأي جيرن صحيحًا أم لا، وربما يكون صحيحًا بكل تأكيد، فالشيء نفسه ربما يكون صحيحًا فيما يخص معنى الكلمة؛ ذلك أن الحجة مماثلة إلى حد بعيد.

وهناك سبب وجيه، زيادة على ذلك، لافتراض أنّ هذه الحجة صحيحة إلى حد بعيد في الأقل حتى عن كلمات مثل carburetor و bureaucrat، وهي التي تثير المشكلةَ المعروفة لفقْر المنبِّه إن تأمّلنا بعناية الفجوةَ الواسعة جدًا بين ما نعرفه والدليل الذي تستند إليه هذه المعرفة. والشيء نفسه صحيح غالبًا عن المصطلحات التقنية في العلوم والرياضيات، وهذه هي الحال فيما يبدو مؤكدًا عن مصطلحات الخطاب العادي. ومهما كانت درجة المفاجأة في

القول بأن الطبيعة أمدّتنا برصيد فطرى من التصورات، وأن مهمة الطفل أنْ يكتشف علاماتها، فلا تترك الحقائقُ الاختبارية لنا فيما يبـدو إلا احتمـالات قليلة أخرى. أما هذه الاحتمالات الأخرى (ومنها الاحتمالات التى تصاغ فى ضوء "آليات التعلُّم المعمَّمة"، مثلا) فما نزال بانتظـار أن تـصاغ بـشكل متماسك، وإذا نجح أحدٌ فى صياغتها مستقبلاً، فربما يُسهم ذلك فى حلّ هـذه المسألة المتخيَّلة.

وليس واضحًا ما الفرضية التى يقترحهـا بتنـام والآخـرون الـذين يَرفضون ما يَدْعونه بـ "الفرضية الفطرية"؛ وينبغى أن أضيف هنا أنه مـع أننى أُتَّهم بأنى من القائلين بهذه الفرضية، بل ربما المجرمُ الرئيس، إلا أنه لم يسبق أن دافعتُ عنها ولا أعرف الوجه الذى يُفترض أن تكون عليه. ومهما كانت الحقيقة عن تخلُّق المضادات فهى تعتمد على الموارد الفطرية للجسد ونظامه المناعى، ومهمةُ العالِم أن يكتشف ماهيةَ تلك الموارد. وهذا الأمـر صحيح تمامًا عن تكوُّن التصورات واكتساب اللغة. وهذا هو الـسبب الـذى يَجعل أولئك الذين يُفترَض أنهم المدافعون عن "الفرضية الفطرية" لا يُدافعون عنها، بل لا يَستخدمون هذه العبارةَ، إذ لا توجد فرضية عامة كهذه، أما مـا يوجد ففرضياتٌ محدَّدة عن الموارد الفطرية للذهن، وعن ملكته اللغوية على وجه الخصوص. وليس للحجج العامة التى لم تُصَغ ضد "فرضـية فطريـة" صلةٌ بالفرضيات الفعلية عن مفهوم "الفطرية"، فى حالة نمو اللغة والأنظمـة التصورية أو الأشكال الأخرى للنمو المادى.

ويقدِّم بتنام حجةً مضادة للحجة التى أوضحتُ معالمها العامة آنفًا قياسًا على نظام المناعة. فيشير إلـى أنَّ التـصورات "كثيـرًا مـا تنـشأ عـن 'النظريات'"، وأن عدد النظريات الممكنة (وربما "أنواع" النظريات) كبيـر جدًا، حتى فى النظريات "القصيرة"، وهو ما يَجعل فكرةَ اسـتغراقِ عمليـةِ التطور للاحتمالات كلها بشكل مسبق غير معقولة إلى حد بعيـد" (Putnam 1988a: 128). وهذه حجة صحيحة، لكن لا صلة لها – مرة أخـرى – بمـا

نناقشه. ذلك أننا معنيُّون، في المقام الأول، بما يمكن أن يكتسبه البشر، وليس هناك سبب لأن نعتقد بأن البشر يستطيعون تعلُّم "النظريات كلها" أو أن يصوغوها، بل إن مغزى تلك الأطروحة ليس واضحًا[٢٤]. كما يُفترض أن لحجَّة بتنام الأساسية صلة بالكلمتين المحدثتين: carburetor و bureaucrat ، وأنه ليس لأية حجة مبدئية صلة بهما، أو بأية فرضية اختبارية جوهرية أخرى عن البنية الفطرية. وبكلمات أخر، فحجته التي مفادها أن "عملية التطور لا يمكنها أن تقوم بذلك" لا تصح في الحالات التي قدَّمها من أجلها. أما الاحتجاج بأنه لا يمكن أن تكون عملية التطور قد أنجزت "كلَّ شيء" ـــ حتى ما يقع خارج القدرة البشرية ـــ فيمكن أن تكون صحيحة إن استطعنا إضفاءَ معنى عليها؛ وليس لهذه الحجة صلة هنا، حتى إن كان من الممكن صياغتها بشكل متماسك.

ويُجادل بتنام، في السياق نفسه، أن دعوى "شبكية المعنى" مصحوبةً بمبدأ كوين القائلِ بأن "المراجَعة يمكن أن تحدث في أي مكان"، تُسهم في تقويض بعض النتائج المحدَّدة عن البنية الفطرية للأنظمة التصورية واللغة عموما. لكن هذا النهج من الاحتجاج لا يستقيم. هب أن دعوى "شبكية المعنى" صحيحة بمعنى أنه "ليس هناك، كما يقول بتنام، وحدات "واقعية نفسيًّا" تتحلى بما يكفي من الخصائص التي نُسبغها على "المعاني" قبل التحليل من أجل أن تكون صالحةً للتعيين"، وأن الإحالة تُحدَّد تحديدًا خالصًا اعتمادًا على أسس شبكية فقط. لكنْ لا يترتب على هذا أن الارتباطات الدلالية لا يمكن أن تكون مثبَّتة وقارة بشكل خالص نتيجة للإعداد الأحيائي. لهذا ربما تظل بعضُ العلاقات المحدَّدة قارّةً في الوقت الذي تقود فيه بعضُ الاعتبارات الأخرى إلى اختيارات أخرى مختلفة فيما يخص تثبيت الإحالة. إضافة إلى ذلك، فللاعتبارات الاختبارية من النوع الذي ناقشناه من قبل صلةٌ بالسؤال عن إن كان صحيحًا حقًّا أنّ "المراجعة يمكن أن تحدث في أي مكان". ولا يمكن أن تقوم هذه الفكرة عن اللغة الطبيعية بالإحالة إلى الممارسة في العلوم

الطبيعية التي يأخذ بتنام منها كثيرًا من أمثلته؛ ذلــك أن هــذه الحجــج، إن افترضنا صحتها، لا تكفي لتبيّن عدم وجود بنية دلالية وتصورية ذاتية تقوم على خصائص قارّة للذهن البشري. وربما كانت دعوى "شــبكية المعنــى" صحيحة بمعيار معين أو شكل ما، لكنّ مسائل الارتباطات الدلالية في اللغــة الطبيعية ما تزال تنتظر أن تحلّ عن طريق الدراسة الاختبارية، كما يبدو أن الدليل يؤيّد وجودها ــ في الوقت الحاضر في الأقل ــ بل يؤيده بشكل قوي، كما يبدو لي.

دعنا نستمر في استقصاء حجة ديفيدسون في بحثه: A Derangement of Epitaphs (1986b)، "تحريف بسيط في شاهد قبر" الذي قصد به أن يبيّن أنّ دراسة التواصل الفعلي تقوّض "التفسيرَ الشائع للمعرفة اللغوية والتواصل" وأنه "ليس هناك ما يمكن أن يسمى لغة، إن كانت اللغة شيئًا يُشبه ما يَفترضه كثيرٌ من الفلاسفة واللسانيين. لهذا فليس هناك شيء يمكن أن يُتعلّم، أو يُجاد، أو نولَد به" (Davidson 1986b: 446). ويقوم تصور اللغة هذا، الذي يَعتقــد ديفيدسون أنه أثبت خطأه، على ثلاث مسلمات أساسية عما يسميه بــ "اللغــة الأولى" أو "النظرية المسبقة"، أي "نظام معقد أو نظرية" يَشترك فيها المــتكلمُ والسامع تقريبا (ص ٤٣٦). والمسلمات هي:

١ــ أن النظرية المسبقة "نَسَقيّة" systematic بمعنى أن "المؤوِّل" الذي يمتلــك هذه النظرية يستطيع أن يؤوِّل الأقوالَ انطلاقًا من خصائص الأجــزاء المكوِّنة لهذه الأقوال وبنيَتها.

٢ــ أن منهج التأويل هذا مشتركٌ.

٣ــ أن العناصر المكوِّنــة للنظــام محكومــة بالمواضــعات المتعلَّمــة أو الاطرادات.

والمسلمة الثالثة غير ممكنة لأسباب أخرى، لكن بدلاً من الانشغال بها دعنا نقدّمها بالشكل الذي توجبه حجةُ ديفيدسون: فالعناصرُ المكوِّنة للنظــام

متوفرة، كما يقول، "بشكل سابق على مناسبات التأويل"؛ فهي عنصر قارٌّ في السياقات التواصلية، عند مؤوّلين في حالةٍ قارة من المعرفة اللغوية.

ويلاحِظ ديفيدسون، ليبين خطأ هذا التصور، أن المؤوِّل يستغلُّ في المقامات التواصلية العادية أنواعًا كثيرةً من الحدوس والمسلمات عما يمكن أن يكون في رأس المتكلم، معتمدًا على خصائص السياق، والقصد المفترَض للمتكلم، إلخ. لهذا فالمؤوِّل "يكيِّف نظريته"، ويعدِّل "النظرية المسبقة" لتصير "نظريةً عابرة" "مناسبةً للمقام". لكن هذه "النظرية العابرة لا يمكن في العموم أن تكون متوافقة مع المعرفة اللغوية عند المؤوِّل". ذلك أن هذه "النظرية العابرة ليست نظرية عما يمكن لأحد (باستثناء الفيلسوف، ربما) أن يسميه لغة طبيعية حقيقية" (Davidson 1986b: 443)، ويستمر قائلاً، و: "ربما لا تكون "إجادة" مثل هذه اللغة مفيدة؛ ذلك أن معرفةَ نظريةٍ عابرة لا تعدو أن تكون معرفةً بكيفية تأويل قول ما في مناسبة معينة" (ص٤٤٣). يضاف إلى ذلك، أنه يمكن للتواصل أن يَحدث بصورة جيدة إلى حد بعيد في حال لا تكون النظريةُ المسبقة فيه مشتركةً بين المتكلم والسامع، كما أن النظرية المسبقة نفسها ليست ما "يمكن أن نسميه عادةً لغة" ذلك أنها خصيصة نفسية، مقصورة على المتكلم ـ السامع وسماتها ليست مشتركة بين أفراد "الجماعة". فيمتلك المؤوِّل نوعًا من "الخطة"، أي "عمليةً غامضة يمكن أن يَستخدمَ المتكلمُ أو السامع بواسطتها ما يَعرفه من قبل بالإضافة إلى المادة الحاضرة ليصوغ نظريةً عابرة"، أما ما يحتاجه شخصان لإنجاز التواصل، فهو "القدرة على الوصول إلى نظريات عابرة لكلِّ قول على حدَة". وفي ضوء هذه الحقائق ليس هناك مكان لـ "تصوُّر اللغة"، أو لـ "نحوٍ مشترك أو قواعد مشتركة"، أو "آلة خفيفةٍ مؤوِّلة لاعتصار المعنى من قولٍ ما"؛ فما نحتاجه، بدلاً من ذلك، شيءٌ أقلُّ وضوحًا، وأكثر غموضًا وأكثر اتصافًا بـ "شبكية المعنى"، وهو "قدرة الاتفاق على الوصول إلى نظرية عابرة من حين إلى آخر" (ص ٤٤٥). ويقودنا هذا إذن "لا إلى التخلي. . . عن المفهوم العادي

للغة وحسب، بل إلى إلغاء الحدّ بين معرفة اللغة ومعرفة كيفية التعامل مع العالم بصفة عامة . . . لهذا ليس هناك شيء في التواصل اللغوي يمكن أن يتماثل مع أية معرفة لغوية" (ص ٤٤٥ ــ ٤٤٦) تقوم على المبادئ الثلاثة التي أوردناها آنفا، إذ "ليس هناك قواعد للوصول إلى النظريات العابرة". ويؤكد ديفيدسون، في ختام النقاش، مع ذلك، أنه يمكن أن تُشتق نظريةٌ عابرة بشكل ما "من المفردات والنحو عند فرد معين" أي من "نظرية مسبقة" تتوافق مع الشرط الأول وربما مع إحدى صيغ الشرط الثالث، لكنها قد لا تكون مشتركة بين أفراد "الجماعة"؛ فهناك إذن، "نظرية مسبقة" وهناك على اليقين بعض الطرق المعينة، بدلاً من طرق أخرى، "للوصول إلى نظريات عابرة"، سواء أردنا تسمية هذه الطرق "قواعد" أم لا (ص ٤٤٦).

والأقسام المتعددة للحجة صحيحة عموما، لكن لا يبدو أنها تكشف عن شيء كثير. فلم يقدّم، على الأخص، أي سبب للتشكيك في وجود "نظرية مسبقة" بالمعنى المألوف في دراسة اللغة ومعرفة اللغة؛ أي إجراء توليدي محدّد مدمَج في حالة للملكة اللغوية تتصف بأنها ناضجة محدّدة. وستكون هذه "النظرية المسبقة" بالطبع، مختلفة جدًّا عما يسمى "لغة" في الاستخدام العادي، لكن هذا يعود إلى أن أي تصور مثل هذا لا يؤدي دورًا في البحث الاختباري في اللغة والذهن، كما لاحظنا من قبل.

ويمكن لنا، في مواجهة حجج ديفيدسون، أن نستمر في افتراض أن هناك، إلى حد بعيد من التقريب، ملكةً لغوية ثابتة غير متنوّعة تُحوِّل للدليلَ المقدَّم إلى نظامٍ من القواعد والمبادئ (أو أي شيء يثبُت أنه صحيح عن الحالة الإدراكية المحصّلة) التي تعطي تأويلات للتعبيرات. دعنا نسمِّ هذا النظامَ المكتسب "إجراءً توليديًا". فيعني أنْ تَعرِف لغةً ما أن يَكون لديك تمثيلٌ داخلي لهذا الإجراء التوليدي، وهو الذي سنعبِّر عنه في مستويات متعددة من التجريد عن الآليات "الأكثر أولية" وسنسعى لربطه بمثل هذه الآليات، بالطرق المعهودة في العلوم الطبيعية[٢٥]. كما يمكن أن نسعى – إن اتبعنا الممارسة

المعهودة – إلى صياغة "محلِّل" ـ وهو آلة تُعزى إلى الذهن/الدماغ كذلك ـ يَدخل فيه الإجراء التوليدي الذي حُصِّل مع البنى والخصائص المحدَّدة الأخرى[٢٦]، ويحوِّل الأقوالَ المقدَّمة إلى أوصاف بنيوية تؤوِّلها المكوِّناتُ الأخرى للذهن. وإلى هنا فنحن نتعامل مع الأسئلة الممكنة في البحث الاختباري.

وهناك مشكلة أخرى، يمكن أن نصوغها بطريقة تقريبية لكن لا يمكن دراستها عمليًا: وهي أن نصوغ "مؤوِّلا" يَشتمل على المحلِّل بوصفه أحد مكوناته إلى جانب القدرات الذهنية الأخرى كلها ـ أيًّا كانت ـ ويقبل الدخولَ اللغوية إلى جانب الدخول غير اللغوية. ويعطي هذا المؤوِّلُ، حين يقدَّم له قولٌ ومقام، تأويلاً معينًا لما قاله شخصٌ ما في هذا المقام. ودراسةُ التواصل في عالَم التجربة الفعلي دراسةٌ للمؤوِّل، لكن هذا ليس موضوعًا للبحث العلمي؛ للأسباب المعهودة: وأهمها أنه لا يوجد موضوع يتصف بأنه دراسةُ كل شيء. كذلك لا يَدرس العلمُ المظاهرَ الأخرى للعالَم كما تُقدَّم لنا في التجربة اليومية. فيَشتمل المؤوِّلُ ـ كما يلاحظ ديفيدسون بحق ـ على أي شيء يَستطيع الناسُ فعله، وهذا ما يَمنعه أن يكون موضوعًا للبحث الاختباري، وهو ما يمنعنا أن نقول أي شيء ذا معنى عنه. وربما نأمل أن نتعلم شيئًا عن عناصر المؤوِّل المتعددة، متوسِّلين بالمناهج المعهودة في العلوم، بادئين بـ "المفردات والنحو عند فردٍ ما" وهذا ما يكوِّن اللغةَ المحصَّلة، ثم ننتقل إلى المحلِّل، ثم نلتفت، ربما ـ بأقصى ما يمكن من الوضوح ـ إلى العناصر الأخرى للذهن والمقامات التي تدخل في الحياة البشرية العادية. ومع ذلك، فإذا بدأنا بالمطالبة بنظرية لكل شيء فلن نحصل على شيء؛ وليس ضروريًّا هنا صياغةُ حجج مفصَّلة لتأكيد هذه النقطة[٢٧]. ولا يختلف هذا الوضع عنه في العلوم التي حقّقت قدرًا كبيرًا من التقدم. ولا تتمثل النتيجةُ الملائمة في وجوب أن نتخلى عن تصورات اللغة التي يمكن أن تُدرس بطريقة مثمرة، بل في أنّ موضوع التواصل الناجح في العالَم

الفعلى للتجربة معقد جدًا وغامض مما يجعله لا يستحق الدرس فى البحث الاختبارى، إلا بوصفه دليلاً على الحدوس فى أثناء اشتغالنا بالبحث الذى يصمم لكى يقود إلى قدر من فهم العالم الواقعى، ويشمل ذلك التواصل. وليس لهذه الملحوظات أهمية لوجود "نظرية مسبقة" أو عدم وجودها، أى لوجود أو عدم وجود إجراء توليدى مستبطن، بالمعنى المألوف فى الممارسة الاختبارية.

و"النظرية العابرة" عند ديفيدسون فكرة غير مفيدة؛ وكلامه عن هذا الأمر صحيح بالتأكيد. فسيصوغ المؤول "نظريات عابرة" كثيرة (لكن ليس "أى" نوع منها، وهذا أمر مهم)، وهى تتغير من لحظة إلى أخرى، ذلك أن المؤول كما يرى ديفيدسون يشتمل على أى شىء متاح للذكاء البشرى؛ ومع هذا، ليس هنالك معنى لأن نسمى حالاتها الانتقالية "نظريات" أو نعدّها موضوعًا للبحث المباشر. وليس لحجة ديفيدسون، من ناحية جوهرية، صلة بمسلّمة أنّ "النظرية المسبقة" (مع فهمها بطريقة مغايرة شيئًا ما لفهمه هو) تظل عنصرًا قارًا غير متنوّع لـ "المؤول" (وللمحلّل المؤمثل المحدّد تحديدًا أضيق)، وأنها تدخل فى الطريقة التى يقوم بها المؤول بوظيفته.

ويركّز ديفيدسون انتباهه، فى هذا النقاش، على ظاهرة سبْق اللسان فى نطق الأصوات malapropisms وعلى ما يسمى بـ "الخطأ فى استخدام اللغة" بصفة عامة. وينبغى الاحتراس شيئًا ما هنا. لنأخذ مرة أخرى جونز، وهو متكلم لنوع مما نسميه عمومًا بـ "الإنجليزية". فقد أجاد جونز إجراءً توليديًا يربط الأقوال بأوصاف بنيوية، ويشمل ذلك الخصائصَ الدلالية، ويمتلك قدرات ذهنية أخرى تسمح له بإنتاج بعض التعبيرات اللغوية وتأويلها بناء على هذه الأوصاف البنيوية. ولنسمِّ هذا الإجراء التوليدى بـ "اللغة ـــ د" لجونز، حيث توحى "د" بـ "داخلى" (فى الذهن/الدماغ) و"مفهومى" (بمعنى أنّ الإجراء دالّةٌ تحدّد الأوصاف البنيوية، منظورًا إليه على أنه مفهوم يرتبط بوصف خاص به)[٢٨]. ونحن نشير هنا إلى آليات مفترضة معيّنة

للذهن/الدماغ، منظورًا إليه بشكل مجرد.

ويمكن لجونز أن يتكلم بطريقة لا تتوافق مع "لغتـــه ــ د" أو يُـصدر أحكامًا لا تتوافق معها؛ وربما تكون أحكامنا عن أنفسنا، كالآخرين، خاطئة، وربما يَدخل فى السلوك ما هو أكثر من "اللغة ــ د". وهذه حالة من الخطـــأ فى استخدام اللغة لا تلفت النظر؛ ولنسمها بـــ "المعنى الفردى".

افرض أن جونز، شأنه شأن كثير منا، يقول عادة جملاً مثل:

Hopefully, we'll be able to solve that problem.

"أملاً، سوف نتمكن من حل تلك المشكلة"

أو يستخدم كلمةً مثل disinterested ليعنى uninterested "غير مهتم". ويقول لنا كثير من المهتمين بالتصحيح اللغوى إن هذه الاستخدامات "غيـــر صحيحة" أو "خطأ"، أو لا تتوافق مع "قواعد اللغة الإنجليزية"، فجونز "مخطئ فى استخدام لغته"، أى الإنجليزية، ولا يملك إلا معرفة جزئية بهـــا وربمـــا تكون معرفةً مشوشة، كما فى مفهوم "المعنى الأساس" للغة عند دوميت. بـــل حتى إنْ تكلم ٩٥ بالمائة من متكلمى الإنجليزيـــة ــ أو متكلموهـــا جميعًـــا باستثناء وليم سافير [وهو صحفى أمريكى يكتب عمودًا أسبوعيًّا بعنوان "عن اللغة" فى مجلة نيويورك تايمز التى تصدر مع عدد يوم الأحد] وعدد قليـــل آخر ــ بالطريقة التى يتكلم بها جونز، فستظل هذه الحالات تمثل "خطأ فـــى استخدام اللغة". وربما كان جونز يحاول التكيفَ مع ممارســـة جماعـــة مـــا لأسباب معينة، أو لغير ما سبب، وربما يُخفق فى هذا التكيف، وهـــى حالـــة ربما يَصفها الذين يلاحظون جونز من غير المتخصصين بأنها خطـــأ فـــى استخدام لغة هذه الجماعة. وقد تكون هذه التصورات "للخطأ فـــى اســـتخدام اللغة"، وهو ما يمكن أن نسميه "معنى الجماعة"، مهمـــةً لدراســـة اجتمـــاع التماهى مع الجماعة، وبنية السلطة، وما أشبه ذلك، لكن ليس لـــشىء منهـــا صلة مهمة بدراسة اللغة، على حد ما نعلم. ونحن نفهم هذا الأمر فهمًا جيـــدًا

فى مسألة طريقة النطق. لهذا ليس للقول بأن نوعية معينة من الإنجليزية "صحيحة" وأخرى "خاطئة" من المعنى إلا ما للقول بأن الأسبانية صحيحة والإنجليزية خطأ؛ والأمر نفسه صحيح عن المظاهر الأخرى للغة — وإن بدت هذه النقطة، لبعض الأسباب، أكثر غموضا.

ويأتى أحد المعانى المحتملة لفكرة "الخطأ فى استخدام اللغة" من فكرة هيلارى بتنام عن "تقسيم العمل اللغوى". لهذا ربما تشتمل كلمات: elm و beech أو mass "كتلة" و kinetic energy "الطاقة الحركية" فى المعجم الممثَّل فى ذهني/ دماغي على الإيحاء بأن المحال إليه فى هذه الكلمات يجب أن يحدّده الخبراءُ الذين أرجع إلى أحكامهم. وربما استَخدمتُ هذه الكلمات استخدامًا غير دقيق، بمعنى أن المحال إليه لا يتوافق مع التحديدات التى يراها هؤلاء الخبراء. وفى هذه الحالة، ربما يقال عنى إنى "مخطئ" فى استخدام لغتى"[29]. دعنا نسمِّ هذا بـ "المعنى عند الخبير" للخطأ فى استخدام اللغة. ومرة أخرى، لا يبدو أن شيئًا مهمًّا يترتب على هذا، ومن المؤكد أنه لن يترتب شيء له صلة بمقاربة اللغة فى إطار علم النفس الفردى الذى أشرنا إليه باقتضاب فيما مضى، وهو الذى يتّبع فى الممارسة عادة[30]. لاحظ أنه لا ينتج عن هذه الاعتبارات أى تصور مفيد لـ "اللغة" أو "الجماعة". لهذا ربما يكون الخبير الذى أقلّده بشأن كلمتى elm و beech بستانيًا إيطاليًا لا يَعرف كلمةً من اللغة الإنجليزية، وهو الذى يصحح لى استخدامى بالإحالة إلى الأسماء اللاتينية التقنية التى نتشارك أنا وهو فيها، وربما يكون الخبير الذى أقلده بشأن كلمتى mass و kinetic energy عالمَ فيزياء ألمانيًا لا يتكلم إلا الألمانية. لكن لا يمكن لنا أن نستنتج من هذا أن الألمانية والإيطالية داخلتان فى الإنجليزية، أو أننا جميعًا ننتمى إلى "جماعة" واحدة بأى معنى مفيد للمصطلح.

فهل هناك تصور آخر لمفهوم "الخطأ فى استخدام اللغة"؟ أما أنا فلا أعرف تصورًا كهذا. وإذا كان الأمر كذلك، فلا يؤدى هذا التصور أى دور

مهمّ في دراسة اللغة أو المعنى أو التواصل أو غير ذلك. وإذا أخذنا بعض الأمثلة من النوع الذي ناقشه تايلور بيرج، افرض أن جونز يستخدم مصطلح "التهاب المفاصل" في الإحالة إلى ألم في الفخذ. ثم افرض أن هذا هو المستخدَم في قريته، لكنه ليس الاستخدامَ خارج تلك الجماعة. ويعني هذا أن جونز ليس مخطئًا في استخدام لغته بالمعنى الفردي؛ إذ إن استخدامه صحيح في "لغته ــ د". وهو ليس مخطئًا في استخدام لغته في قريته بمعنى الجماعة، أما خارج حدود قريته فمخطئ. ويحدِّد كونُ استخدامِ جونز للغته خاطئًا أم لا بــ "المعنى عند الخبير" اعتمادًا على الكيفية التي يمثِّل بها مصطلحُ "التهاب المفاصل" في معجمه الذهني. لكن كيف ينبغي لنا أن نعزو الاعتقاد عن التهاب المفاصل إلى جونز؟ وهنا تختلف الحدوس، وربما يكون السبب أنَّ الدليل الذي يمكن أن يحلَّ هذا الإشكال بطريقة مرضيَة ضئيل في هذه اللحظة. دعنا ننحِّ "المعنى عند الخبير" جانبا، ثم نفرض أننا استخدمنا مصطلح "الاعتقاد ــ د" في الإحالة إلى تصوُّر يشبه الاعتقاد، باستثناء أن جونز يمتلك الاعتقادَ نفسه في قريته وفي الجماعة الأوسع، أي الاعتقاد الذي يمكن أن نعبر عنه في "لغتنا ــ د"، بالقول بأن لديه نوعًا من الألم الجسدي[31]. وربما يكون هذا مماثلاً لتصور الاعتقاد في لغتنا العادية أو لا يكون، لكنه هو التصور الذي يبدو ضروريًا لدراسة ما يسمى خطأ بــ "تسبيب السلوك" ــ ونقول "يسمى خطأ" لأنه ليس واضحًا إن كان السلوك أمرًا "يَتَسبَّب في حدوثه" بأي معنى مفيد لهذا المصطلح. ومن الواضح أنه لن يكون هناك سبب للافتراض بأن تصورات علم النفس العام سوف تكون هي نفسها في الاستخدام العادي، مثلما أن الأمر في تصورات الفيزياء، أو في علم النفس الفرعي الذي يسمى "اللسانيات"، ليس كذلك، بصفة عامة. كما لا يبدو لي واضحًا إطلاقًا أنَّ هناك فرعًا معقولاً للعلم (أو بصورة أدق، للعلم البشري وهو ما يعني نوعًا من البحث العلمي الذي يستطيع البشر، بقدراتهم المعرفية الخاصة، أن يقوموا به) يشتغل بأسئلة من هذا النوع.

ولم يُثبت أحد، كما أظن، أن هناك ما يمكن قوله أكثر من هذا عن هذا الأمر. ويبدو، على وجه الخصوص، أن الإحالة إلى "الخطأ في استخدام اللغة"، وإلى "المعايير"، وإلى "الجماعات" إلخ، تتطلب مزيدًا من العناية يفوق العناية التى تتناول بها هذه القضايا عادة. ذلك أن هذه التصورات غامضة، ولا يبدو واضحًا أنها مفيدة في مجال البحث في اللغة والسلوك البشرى. وتستحق أيةُ حجة تَعتمد على مثل هذه الأفكار استقصاء أدق، وربما لا يمكن أن تصمد الحجج المألوفة [عن هذه القضية] أمام هذا الاستقصاء؛ ذلك أن الجماعات تتألف بطرق عديدة جدًّا ومتداخلة، وسرعان ما تتحول دراسة الجماعات لتصير دراسةً لكل شيء. أما الحقيقةُ الباقية فهي أن جونز يتكلم ويفهم بالطريقة التى هو عليها معتمدًا على "اللغة ــ د" التى اكتسبها فى أثناء نمو لغته، وإذا اتَّبع جونز أو لم يتبع ما يمكن أن نسميه، من أجل بعض الأغراض العابرة، بـ "معايير الجماعة" أو "الممارسة الاجتماعية"، فهو يقوم بذلك انطلاقًا من هذه "اللغة ــ د" المستبطَنَة (إلى جانب أشياء كثيرة). أما بورس، الذى لا يتكلم إلا اللغة الروسية، فيمتلك "لغةَ ــ د" مختلفة، ويتبع "معايير" مختلفة. وقد أفهم ما يقوله جونز، إلى حدٍّ ما؛ لأن "لغتى ــ د" لا تختلف كثيرًا عن لغته؛ ولأننا نتشارك تقريبًا فى الخصائص الأخرى غير المعروفة التى يتضمنها المؤوِّل الكامل، لكن هذا لا يصلح أن يكون موضوعًا للبحث الاختبارى على الحال التى هو عليها، أى على حاله المعقدة قبل أن يحلَّل. ويبدو لى أن هذا هو الطريق الواجب اتباعه فى مقاربة هذه المسائل.

ويمكن أن نطوِّر، بمقتضى هذه الطرق، تصورًا لـ"المعرفة اللغوية" يكون ملائمًا للبحث في اللغة والذهن؛ وهو إجادةُ "لغة ــ د" معينة وتمثيلاتُها الداخلية. والنحو الذى يصوغه اللسانى نظريةٌ عن "اللغة ــ د"، كما أن النحو الكلى نظريةٌ للحالة الأولى للملكة اللغوية. وتمثِّل "اللغة ــ د" عند جونز حالة معينة ناضجة ــ أو خَرْج، إذا نظرنا إلى الملكة اللغوية على أنها دالَّةٌ تحوِّل الدليلَ إلى "لغة ــ د". لكن ماذا عن تصور اللغة؟ وربما نفهم اللغات ببساطة

على أنها "لغات ــ د"، أي أن ننظر إلى اللغة على أنها تشبه أن تكون "طريقةً في الكلام"، أي "الوسائل المتناهية" التي تمكِّن من "الاستخدام غير المتناهي"، كما يحدِّد وليم فون همبولت اللغةَ (von Humboldt 1836: 122, paragraph 13; 1988: 91؛ انظر Chomsky 1964: 17)، كما أنهـا جهـدٌ للإحاطـة بتصوُّره للغة على أنها "عمليةُ توليد" بدلاً من كونها "وحداتٌ مولَّـدة". لهـذا نأخذ اللغة على أنها – في نهاية الأمر – "فكرةٌ للبنية" توجِّه المـتكلمَ عنـد صياغته "للتعبيرات الحرة"، كما يقول أوتو جسبرسن (19 :1924؛ وانظـر Chomsky 1977). وهذا قرار ملائم لغرض البحث العلمي، في ظني، وإن لم يكن كذلك في الخطاب العادي. وربما كنا نرغب، بدلاً مـن تلـك، فـي أن نصوغ تصورًا للغة مفصولاً عن الحالات الإدراكية، وقد يكون ذلك بـشكل يشبه اقتراح جيمس هيجنبوثم (James Higginbotham 1989). وإذا نظرنـا إلى معرفة اللغة على أنها حالة إدراكية فربما نفهم "اللغة" على أنهـا شـيء مجرد، أي "موضوعًا للمعرفة"، أي نظامًا مجردًا يتألف من قواعد ومبـادئ (أو أي شيء نكتشف أنه صحيح) يمثِّل صورةً للإجراء التوليدي، أي "اللغـة ــ د"، التي تمثَّل في الذهن، ومن ثم في الدماغ بآليات "أكثر أوَّلية" لا نَعرفها الآن. ولما كانت اللغة بهذا المعنى تحدَّد تحديدًا كاملاً بـ "اللغـة ــ د"، وإن كانت مجردةً عنها، فمن غير الواضح تمامًا إن كانت هذه الخطوة الإضـافية ضرورية؛ إلا أنها ربما تكون، مع ذلك، كذلك.

ويبدو، مع ذلك، أنَّ صياغة الأسئلة التي يمكن أن تكـون موضـوعًا للبحث الاختباري عن اللغة واستخدامها ممكنةٌ بهذه الطرق، وأن هذه الطرق هي الأفضل لمقاربتها، على حد ما نعلم. وربما يكون هناك مزيد من الأسئلة التي لا تَصلح أن تكون موضوعًا للبحث الاختباري بالطرق المستخدمة فـي العلوم ــ وقد لا تَخضع لها أبدا ــ إنْ كان البشر أنفسُهم جزءًا مـن العـالَم الطبيعي، وهو ما يعني أنهم يمتلكون بعضَ القدرات الأحيائية المحدَّدة التـي تتصف بمدى وحدود خاصة بها، كالكائنات العضوية الأخرى جميعها. ويجب

علينا بذل مزيد من العناية كي لا نقع فريسة لبعض التخيلات السّرابية عن عملية التطور ومعجزاتها التكيفية. فلا تتضمن نظرية التطور شيئًا يوحي بأنه ينبغي أن يكون بإمكاننا الإجابة عن بعض الأسئلة التي نستطيع إثارتها، حتى من حيث المبدأ، بل حتى إن كان من الممكن الإجابة عنها، أو إن كنا نستطيع إثارة الأسئلة الصحيحة. وبقدر ما لدينا من قدرة فإننا نمتلك العلم الاختباري، وهو نوع من التلاقي الصُّدَفي بين خصائص الذهن وخصائص العالَم غير الذهنية. وليس هناك شيء مفاجئ في هذا؛ ذلك أننا نراه أمرًا مسلمًا أنّ شيئًا شبيهًا صحيحٌ عن الفئران والنمل، ويجب ألا نُفْجأ حين نكتشف أن البشر كائنات عضوية أحيائية، لا ملائكة. ويبدو لي مع ذلك، وفي حدود العلم البشري، أن أفضل تخمين في الوقت الحاضر هو أن الإطار الذي بيّنت ملامحه العريضة باختصار آنفًا ملائم للبحث في الأسئلة الاختبارية عن اللغة والذهن؛ وقد تحقق، في إطاره، قدر عظيم من النجاح وكثير من المنظورات العميقة.

هوامش الفصل الثالث

(١) لهذا يترتب على النص الأخير الذى أوردناه، أنى إن اعتقدتُ أن السماء تمطر؛ لأنى سمعت ذلك من المذياع، أى أنَّ هذا التفاعل هو التفسير التام للعلاقة السببية بين اعتقادى والعالَم، فلن نكون بحاجة، إذن، إلى أن نعرف أى شيء آخر عن علاقة اعتقادى بأن السماء تمطر بحقيقة كونها تمطر أو لا تمطر؛ فليس هناك حاجة إلى مزيد من الأسئلة بخصوص علاقة اعتقادى بالعالم.

(٢) ومع هذا ربما يختار باحثٌ، بالطبع، أن يتجاهل فارقًا أو آخرَ من أجل بعض الأغراض فى نوع معين من البحث. أما النقطة الأساس هنا فهى أنه ليس هناك تأويل عام لـ"المعنى الأساس" عند دوميت (ليس له تأويل ضيِّق، مثلا) يمكن أن يتغلب على مشكلات من النوع الذى أشرنا إليه، وليس من طريق معروف لصياغة تصور عام كهذا بوصفه أمثلةً مفيدة، أو أى سبب لمحاولة القيام بذلك، لاحظ أنه ليست كلُّ أمثلة تستحق أن تصاغ، أما هذه الأمثلة فيبدو أنها ليست كذلك، بغض النظر عن المقصود بها.

(٣) ولا أعرف إلا محاولةً واحدة نجحت فى فهم هذه القضايا (Pateman 1987). فقد طوَّر باتيمان فكرةَ للغة بوصفها "حقيقة اجتماعية" بطريقة تبدو معقولة، لكنها لا تتصل بأى من القضايا التى أناقشها هنا. فسيتكلم الشخصُ الذى يعى بعض الحقائق الأولية عن اللغة والمجتمع، بالمعنى الذى يقصده باتيمان، عددًا كبيرًا من اللغات يتغير من لحظة إلى أخرى، اعتمادًا على الكيفية التى يختارها للتماهى مع هذه الجماعة أو تلك، أما الذى لا يعى هذه الحقائق فسيكون لديه مدى واسع جدًا من الاعتقادات (والتخيلات، كالعادة) عما يفعل، وهى اعتقادات يمكن أن تؤدى دورًا اجتماعيًا معينًا فى بعض الجماعات.

(٤) وعن خطأ كيني في فهم رفضي لهذه الآراء، والنتائج المترتبة على عدم صلة ردّه على ذلك الرفض، انظر (Chomsky 1988b).

(٥) وهذا هو المنحى تحديدًا الذي اتخذه كيني (Kenny 1984) ضد بعض الاعتبارات التصورية من هذا النوع، مع أنه لم يكن واعيًا بأن تغيرًا جوهريًا حدث عن فهم التمييز بين "القدرة" أو "الطاقة"، انظر (Chomsky 1988b).

(٦) سأعود مباشرة إلى بعض التقييدات التي وضعها كوين، فيما يخص هذه المذاهب الغريبة.

(٧) ولتركيز المناقشة سوف أترك جانبًا كثيرًا من التعقيدات؛ ومن تلك مثلا، حقيقةُ أنّ موارد الحالة الأولى تؤدي دورًا في تحديد ما يُعدُّ دليلاً وكيف يُستَعمل (أو يُهمل)، وسيؤدي النظر في مثل هذه العوامل الإضافية إلى دعم النتائج هنا.

(٨) وهذا المثال حقيقي، في الواقع. انظر (Chomsky 1986: 61).

(٩) وهو يقترح كذلك دراسات التماثل في اكتساب اللغة؛ وتنطبق الاعتبارات نفسُها في هذه الحالة.

(١٠) ويمكن لنا أن نلحظ، عرَضًا، أن العبارة الأخيرة ليست ملائمة إلا إن أمكن رفض الكلام عن النظريات بأنها صحيحة في الفيزياء، أي حين تكون مفيدة لبعض الأغراض في مجالٍ من الظواهر؛ وربما رفض كوين هذه النتيجة انطلاقًا من شروطه الخاصة بدراسة "اللساني" للذهن/الدماغ، وهي الحال التي تعدُّ فيها المعاييرُ السائدة في العلوم الطبيعية (بصورة ضمنية) غير مقبولة، كما ناقشنا ذلك في النص.

(١١) وأنا أضع كلمة "التبسيط" بين مزدوجات؛ لأن هذا التصور مضلّل جدًا، فستكون قاعدةُ "قدِّم عبارة --who"؛ لأنها ليست موضوعًا لـ"قيد

البنية على العطف" والشروط المحلية الأخرى، أبسط بالتأكيد من القاعدة الحقيقية، التي تخضع لهذه الشروط، عند كائن عضوي يفتقر لهذه الشروط (أو بشكل أكثر ملاءمة، للمبادئ التي تشتق منها) بوصفها جزءًا من بنيتها الفطرية؛ أما عند البشر، فالعكس صحيح. وبغض النظر عن معنى تصور "البساطة المطلقة"، باستقلال عن بنية النظام المناقش، فليس له صلة هنا. للاطلاع على مناقشة هذه الأمور، انظر (Chomsky (1955/1975)).

(١٢) ويفترض كوين أن "قيد البنية" على العطف مربوط بالقابلية للترجمة، مسلمًا بأننا يجب، إن أردنا تحديد إن كان صحيحًا في بعض اللغات، أن نحدد التعبيرات التي تصلح أن تكون نظائر لعبارات العطف في الإنجليزية. ولهذا القيد صلة بالبنى، باستقلال عن علاقاتها الدلالية بعبارات العطف في بعض اللغات، وربما أمكن اشتقاقها، في جزء مهم، في الأقل، من بعض الشروط الأكثر عمومية على محلية العلميات النحوية المستقلة تمامًا عن الارتباط بأي تعبير معين، ومن المؤكد أن كثيرًا من أمثلة القيود التي تثير القضايا نفسها تتسم بهذه الصفة، وربما كلها.

(١٣) ولمناقشة وجه هذا الرأي عند دوميت، انظر تشومسكي ١٩٨٦، لاحظ أنه يبدو أن ديفيدسون يقصر عنايته هنا على ما يسمى بـ "كفاية الملاحظة"، لا "كفاية الوصف"، في الأبحاث اللسانية؛ وإذا صح أن تفهم نظرية المعرفة اللغوية بالمعنى الأخير فربما تعزو بعض الآليات المحددة (وسيكون ذلك، في مستوى مجرد، بكل تأكيد).

(١٤) انظر تشومسكي (Chomsky 1986: 240) للاطلاع على مناقشة هذه المسألة، وينسب روجر جيبسون إلى الاعتقاد بأنه "ليس في علم الفيزياء واللسانيات حقائق" (Gibson 1986: 141)، وهي نتيجة لا أقبلها ولا توحي بها الحجة، التي يشير إليها، وهي أن دراسة اللغة لا

تواجه مشكلة من عدم التحديد لا نجدها فى العلوم الطبيعية. ويُخفق جهده الآخر لرسم فارق يقوم على أسس وجودية، وهو الفارق الذى وافقه عليه كوين فى إجابته إياه، وذلك لأسباب أشار إليها فى المراجع التى أوردها. ويمكن أن نؤكد بكل ثقة، وبصوت عالٍ إن أردنا، أنه لا توجد إلا عناصر كيميائية وتكوينات مادية (غير معروفة) تعمل على تحديد مسار النضج الجنسى، وأنه ليس هناك معانٍ معجمية إطلاقًا، ولا ارتباطات للاعتماد الإحالى، ولا مكوِّنات، وربما سيَظهر فى المستقبل أن هذه النتيجة معقولة؛ أما ما نحن بحاجة إليه هنا فأن نجد حجة على هذا، أما القول بأنه "يمكن لكتابين تعليميين فى الترجمة متعارضين أن يَفيا بتحويل الميول إلى سلوك" وأنهما "يتماشيان مع التوزيعات نفسها للحالات والعلاقات فى الجسيمات الأولية كلها" (Quine 1981: 23) – فليس له من المعنى أكثر من معنى قول الشىء نفسه عن نظريتين فى الكيمياء أو النضج المادى؛ وربما كان بإمكان أحد أن يضيف فى القرن التاسع عشر، بقدر مماثل من عدم الصلة، أنه لا يمكن كذلك دمج النظرية الكيميائية فى "نظرية طبيعية ــ مادية مقبولة" (Gibson 1986: 143)، إن كنا نعنى بالنظرية الأخيرة "علمَ الفيزياء الأساسية" الذى يجب أن يُعدَّل بطريقة مهمة لكى يَكون صالحًا ليشمل اكتشافات الكيميائى، وليس لشىء من هذه الاعتبارات مقتضيات سواء أكانت إبستيمولوجية أو وجودية، على اللغة أو أى شىء آخر.

(١٥) للاطلاع على بعض النقاش، انظر (Chomsky 1987) ــ ومنه أخذنا بعض هذه الملحوظات، وفيه توجد المراجع.

(١٦) يصف كوين (Quine 1986: 186) "الآلة المفترَضة" بأنها "أنحاء هيكلية فطرية" ويوحى هذا بأنه يخلط بين بنية الحالة الأولى للملكة اللغوية والحالات الناضجة المحصّلة لها.

(١٧) وكانت الفرضية الأساس أن نظرية الجسد يمكن أن تُحدَّد بحدود صارمة، وهى أساسًا حدودُ آليات التماس عند ديكارت، وقد هدم إسحاق نيوتنُ هذه الحدود، ولم يعد من الممكن - منذئذ - صياغة مشكلة متماسكة للذهن ـ الجسد عن طريق أى شىء يشبه المصطلحات الديكارتية، أو أية مصطلحات أخرى، على حد ما أرى، ذلك أنه لا يوجد أى تصور ثابت للجسد.

(١٨) وتختلف الأنحاء، عند كوين، "ماصدقيًا" extensionally إن "تمايزت فى الخَرْج المحصَّل" (Quine 1986). وهذا التعبير المألوف مضلِّل، ذلك أنه قُرِن بالاشتراطات عما يكوِّن "الخرجَ المحصَّل" لنحو ما. لنتذكر مرة أخرى أن كوين ليس مشغولاً بالتصور المهم اختباريًّا، وهو: "التوليد القوى" للأوصاف البنيوية، بل بـ "التوليد الضعيف" لفصيلة "م" من التعبيرات تُختار على أساس يبدو اعتباطيًّا إلى حد بعيد. فالفصيلة "م" هى "الخرج الخالص"؛ لكن بغض النظر عن الطريقة التى اختيرت بها الفصيلة "م"، لا يبدو أن لخصائصها أهمية اختبارية. انظر عن هذه الأمور (Chomsky (1955/1975); 1965)) وقد دأب كوين على أخذ "الصحة النحوية" لتعنى "وجودَ معنى"، ويَعتقد أن هذا التصور "بغض النظر عن أوجه القصور فيه أفضلُ درجة بكثير من تصور: 'التشابه فى المعنى'" (Quine 1986). لكن "الصحة النحوية"، على حد ما نفهمها، ربما لا تكون ذات صلة بـ "وجود معنى" كما يبدو، ثم إنه ليس لتصورَى "الصحة النحوية" و"وجود معنى" كما يراهما، أى معنى واضح بشكل مقبول، أو أية منزلة فى دراسة اللغة.

(١٩) وهذه فرضية خاطئة؛ ذلك أن مهمة الطفل ومهمة اللسانى، كما أشرنا من قبل، مختلفتان اختلافًا جذريًا.

(٢٠) إلى الحد الذى تستحق عنده أية نظرية علمية هذا اللقب. وربما صح

لنا أن تُنحى هنا أى سؤال يمكن أن ينطبق على البحث العلمى بصفة عامة. ولا يكاد يكون هناك من معنى لإثارة مثل هذه الأسئلة بخصوص "العلوم الهشّة" soft sciences. وإذا كان هناك من يهتم بالوصول إلى أجوبة عن بعض الأسئلة، بدلاً من أن يكون مُغرَمًا بالتنغيص على العلوم الناشئة، فيمكنه أن ينظر إلى المجالات التى يمكن أن توجد فيها إجابات؛ وهى فى هذه الحالة، تلك المجالات التى تتصف بعمق كاف من المعرفة والفهم الصالحَين لتوجيه البحث بطريقة جادة.

(٢١) للاطلاع على تكرار كوين لهذه الفكرة مؤخرا، انظر (Quine 1986). وهو يصف هنا "فكرةً بارعة" اقترحها هاس W. Hass تتصل بطريقةٍ لرسم الفارق الذى يراه، فيما يبدو، لكن هذه الطريقة، بشكلها هذا، لا توفر إلا فارقًا لا قيمة له فى دراسة اللغة. ويقوم الاعتقاد المضاد الشائع جدًا جزئيًا على قياس خاطئ على اللغات الصورية، حيث القضايا هناك مختلفة جدًا، وربما نال هذا الاعتقاد بعضَ الدعم من بعض الفقرات التى ظهرت فى الأدبيات المبكرة فى النحو التوليدى التى يبدو جليًا أنها مضللة، وإن كان الباحثون قد بينوا بعض التحفظات الملائمة.

(٢٢) انظر تشومسكى ((1955/1975) Chomsky) حيث نوقشت هذه القضايا بطرق يبدو لى أنها ما تزال دقيقة، وكان هناك محاولة لتعريف هذا التصور بموجب المبادئ التى تقوم بتعيين بنية المكوّنات المشتقّة.

(٢٣) للاطلاع على مناقشة فى سياق لغوى ــ إدراكى، انظر (Jerne, 1985) ولمناقشة مستفيضة انظر ((1986) Pittelli-Palmarini).

(٢٤) وليس ضروريًا أن تكون "النظريات القصيرة" هى تلك التى يمكن للبشر أن يكتسبوها، أو يدركوها كنظريات مفهومة، إذا أخذنا فى

الحسبان قدراتهم الفكرية المعيَّنة المحدَّدة أحيانيًا.

(٢٥) ونفترض هنا، مرة أخرى، الأمثلة المعهودة، كما ناقشنا ذلك في مكان آخر.

(٢٦) كالخطط وبنية الذاكرة، إلخ. لاحظ أن المحلِّل، كما يُنظر إليه في البحث الحالي، يُفترَض، صوابًا أو خطأً، أنه مكوِّن واقعي للذهن/الدماغ، أي أنه نظام فرعي متماسك من نوع ما يتضمن بعضَ العناصر المحددة للمحلل الكامل، بدلاً من عناصر أخرى. وهذه الافتراضات موضوع لتلك الأسئلة العامة نفسها التي تَبرز في البحث الاختباري. ويُنظر إلى دراسة المحلِّل دائمًا على أنها ليست عرضة نوعًا ما للمشكلات العامة التي تبرز في دراسة المعرفة اللغوية (أي: دراسة الإجراء التوليدي الذي يؤخذ كأحد مكوِّنات المحلِّل)، لكن هذا خطأ. ويُعترَض أحيانًا بأنه لمّا كان الدليل يؤخذ دائمًا من الأداء فلا يحقّ لنا استخدامه لتحديد طبيعة المعرفة اللغوية العميقة. ويمكن أن نستنتج، بناء على هذه الحجج (الزائفة) نفسها أننا لسنا محقّين في استخدام مثل هذا الدليل لتحديد طبيعة المُحلِّل المُؤمثِل، مثلما أنه لن يكون لدينا أي أساس لافتراض أن الفيزياء دراسة كل شيء يتجاوز قراءة العدّاد. لكن المادة الأولية لا تأتي معلَّمة بأنها "دليل صالح لـ "س"، لا لـ"ص"".

(٢٧) وتساعد بعضُ الاعتبارات ذات الصلة في تفسير السبب الذي يجعل الجهود في مجال الذكاء الاصطناعي الذي يتحمس له دانيال دينيت كثيرًا فقيرة من حيث المقتضيات (انظر Putnam 1988b; Dennett 1988). ويعتقد دينيت أن هناك، أو ربما يكون هناك، نتائج جوهرية تحت ما يسميه بـ "الهندسة"، لكن ليس من الواضح ما الذي يعنيه؛ كما يبدو لي أيضًا أن روايته للنقاش العام الذي جرى قبل سنوات، وهو الذي يقوم تفسيرُه جزئيًا عليه، خاطئة إلى حد بعيد، إن لم أقل أكثر من ذلك.

(٢٨) لاحظ مرة أخرى أنه ليس هناك سبب لافتراض أنّ "اللغة ــ د" "تولِّد توليدًا ضعيفًا" بعضَ المجموعات المركّبة تركيبيًا صحيحًا من التعبيرات، وهو ما يجعلها تعطي معنى للكلام عن "اللغات ــ د" (أي: "الأنحاء") بوصفها "متماثلة ماصدقيًا" أوْ لا، بمصطلحات كوين؛ وحتى لو اكتُشف أن لهذا التصور معنى أو أنه مهم، وهو ما لا نعرفه الآن، فليس هناك سبب لافتراض أنه ستكون للخصائص الصورية لهذه المجموعة أهميةٌ في دراسة بنية اللغة أو المعنى أو التعلّم أو التواصل أو التحليل، أو غير ذلك. انظر (Chomsky 1965). وقد حدث لبس كبير جدًّا عن هذه الأمور، لكني لن أتحدث عنه هنا.

(٢٩) بمعنى غريب، مع ذلك. وأنا في هذه الحالة أستخدم كلمة تفتقر إلى دليل له علاقة باستخدامها، كما يُحدِّده معجمي الداخلي. وربما لن نقول إن جونز مخطئ في استخدام لغته حين يشير إلى شيء أمامه بأنه شيء مكوَّر، حين لا يعرف أن للجزء المختفي منه شكلاً مختلفًا.

(٣٠) ويشمل هذا المتخصصين في اللسانيات الاجتماعية والآخرين الذين يزعمون أنهم لا يتبعون هذه الممارسة. انظر عن هذا الموضوع (Chomsky 1986: 17-18).

(٣١) لنفرض أن معجم جونز يتضمن تقليدًا لخبير ما، ولنقل متكلِّمًا للغة الألمانية، في مدخل معجمي لـ "مرض التهاب المفاصل". وحينها ربما اشتمل نَسْبُ "اعتقاد" لجونز تفصيلاً أكثر، أو ربما نرغب في إهمال هذا التصور؛ بوصفه غير مفيد بأي معنى من معانيه المألوفة في علم النفس. ولا يبدو أن هناك شيئًا مهمًّا هنا. للاطلاع على تفصيل أكثر عن المسائل التي أثيرت هنا باختصار انظر (Bilgrami 1987; Segal 1987).

الفصل الرابع
المقاربة الطبيعية والمقاربة الثُّنائية
في دراسة اللغة والذهن

يمكن فهمُ المصطلحات في عنوان هذا الفصل بطرق شتى، هي والأُطُر التي تُدمَج فيها. وأود هنا أن أبيِّن الخطوطَ العريضة لتأويلات أراها مفيدة وملائمة، وأن أقترح دعوى أكثر عمومية، ربما تتطلب حجة أكثر شمولا، وهي أنه ليس هناك بديل متماسك للبحث في ضوء هذه الطريقة لنقاش القضايا المتعددة المنظورة هنا، وأنَّ المشاريع الأخرى في المجال نفسه تقريبًا ستكون أكثر وضوحًا وأسهل تناولاً، إن فهمناها على أنها توسُّعات للمقاربة التي نرسم خطوطها العامة هنا.

التهوين من شأن المصطلحات

دعنا ننحِّ مصطلحَ "اللغة" جانبًا الآن ونبدأ النظرَ في المصطلحات الأخرى في العنوان بطرق بريئة من بعض المقتضيات بعيدة المدى، وعلى الأخص، بمعزل عن أية إيحاءات دلالية غيبية. خذ مصطلح "ذهن" أو، بداية، مصطلح "ذهني". انظر الآن إلى الكيفية التي نستخدم بها مصطلحات مثل "كيمائي" أو "مناظيري" أو "كهربائي". فنسمي بعضَ الظواهر والأحداث والعمليات والحالات "كيميائية" (إلخ)، لكن هذا الاستخدام لا يعني أي مُميِّز غيبي؛ فلا تزيد هذه الظواهر والعمليات والأحداث والحالات عن كونها مظاهرَ متنوعة للعالَم نختارها لتكون محورًا نوجِّه إليه الانتباه لأغراض البحث والتبيين. وسوف أفهم مصطلح "ذهني" بالطريقة نفسها تقريبا، أي بما يُشبه ما يعنيه في الاستخدام التقليدي، لكنْ مجرَّدًا من أية أهمية غيبية ومن غير إيحاء بأنه ربما يكون مهمًّا أن نحاول تعيينَ المعيار الصحيح لما يكون ذهنيا أو ما يكون علامةً عليه. وأعني بـ "ذهن" المظاهرَ الذهنية للعالَم، من

غير أن أتلبَّث لتعريف هذه الفكرة تعريفًا أكثر دقة أو أن نتوقَّع اتصافها بنوع لافت للنظر من الوحدة أو الحدود، يزيد عما في المجالات الأخرى؛ فلا أحد يأبه بتبيين حدود [ما يسمى] "كيميائيًا" تبيينًا صارما.

وأقصُر اهتمامي هنا على الذهن البشري (أي على نظــام الإبــصار، والتعليل، واللغة، إلخ). ذلك أنه لا يسعى أحد إلى تأسيس علْمٍ موحَّد للحركة، بدءًا من الأميبيا وانتهاء بالنَّسر، فالسفنِ الفضائية في روايات الخيال العلمي؛ أو [تأسيسِ علمٍ موحد] للتواصل بدءًا من الخلية وانتهاء بالخطاب الــشعري، ثم إلى الكائنات غير الأرضية المتخيَّلة. فيَدرس علماءُ الأحياء، بدلاً من ذلك، كيف تَسبَح الدلافين وكيف تَتواصل النمل، بادئين بتعليلٍ "داخلي" و"فــردي" (بالمصطلحات المعاصرة). ولا يهتمون كثيرًا، حين يَعملون بهذه الطريقــة، بالكيفية التي تُستخدَم بها كلماتُ "دلفين" و"يتواصل"، إلخ، في الخطاب العــام الذي أُثيرتْ فيه هذه المسائل للمرة الأولى. فهم يعملون، بدلاً من ذلك، فــي تطويرِ بعضِ التصورات الملائمة لأغراضِ التفسير والفَهم التي يسعون إليها. ولا يقلل هذا الإجراءُ من شأن الخطاب العام والتفكير البديهي بحال؛ بــل إن ذلك مما يحرِّرهما من بعض المتطلبات الخطيرة غير الملائمة. والشيء نفسه صحيح في أنواع البحث العلمي الأخرى ذات الاهتمامات الأوسع (كدراســة جماعات النمل، مثلا)(1).

ويمكن أن ننقل هذه الملاحظات ـــ وهي بديهيات، كما أظــن ـــ إلــى دراسة اللغة البشرية والذهن البشري. ولكون الدماغ، أو بعــضِ عناصــره، يتدخل بشكل مهمٍّ جدًا في الظواهر اللغوية والظواهر الذهنية الأخرى، فيمكن أن نَستخدم مصطلح "ذهن" ـــ بصورة تقريبية لكن واضحة ـــ في كلامنا عن الدماغ، منظورًا إليه من زاوية مخصوصة طُوِّرت في مسار البحــث فــي بعض المظاهر المحدَّدة للطبيعة البشرية وتحققاتها. ولــدينا هنــا مــسلماتٌ اختبارية ـــ منها أن الذهن، لا القدَم، هو العضو الذي له صلة بـــ [اللغــة]، وأن البشر يتشابهون إلى درجة كافية في القدرة اللغوية وهو ما يَسمح بعَــدِّ

اللغة البشرية موضوعًا طبيعيًا، إلخ. لكن ينبغي ألا تشغلنا هذه المسلمات كثيرا.

دعنا كذلك نفهم مصطلحَ "المقاربة الطبيعية" بمعزل عن الإيحاءات الغيبية: فتبحث "المقاربةُ الطبيعية" للذهن المظاهرَ الذهنية للعالَم بالكيفية التى يمكن أن نبحث بها مظاهرَه الأخرى، ساعين إلى صياغة نظريات تفسيرية معقولة، مع الأمل بدمجها في نهاية الأمر بالعلوم الطبيعية "الصِّرف". ويمكن أن تقابَل هذه "المقاربةُ الطبيعية المنهجية"، بما يمكن أن يسمى بـ "المقاربة الثنائية المنهجية"، التى توجب التخلى عن المنهجية العلمية حين ندرس البشر "ما فوق الرَّقَبة" (مجازًا)، أى أن نتحول إلى متَصيدى غرائب في هذا المجال الفريد، وأن نَفرض بعضَ المصادرات الاعتباطية والمتطلبات "المسبقة" من أنواع لا يمكن أن تَرِد على أذهان المشتغلين بالعلوم، أو أنها تفارق، بطرق أخرى، المعاييرَ المألوفة الموجِّهة للبحث العلمى.

وهناك أسئلة مهمة عن الكيفية التى ينبغى أن يَسير البحثُ العلمى الطبيعى بها، لكن يمكن تنحيتها جانبًا هنا، إلا إنْ قدّم سببٌ يبيِّن أنَّ لها صلة فريدة بهذا البحث تحديدا. ولم يقدّم أحدٌ سببًا كهذا، على حدّ ما أعلم، بل يمكن على وجه التعيين اطِّراح الحجج المتشكّكة فى هذا السياق. فيمكن ببساطة أن نتبنى المنظورَ النموذجى السائد للعلم المعاصر، وهو، أساسًا، ردُّ فعل علماء القرن السابع عشر المتمثّل في معارضة النزعة الأسُسِيَّة anti- foundationalism [٢] على أزمة الشك الديكارتية، التى كانت تتمثل، كما يقول ريتشارد بوبكين، في "إدراك أنَّ من المستحيل إعطاءَ أسباب نهائية محدَّدة لتفسير معرفتنا، ومع هذا فنحن نمتلك معاييرَ نموذجية نقوِّم بها مدى ثقتنا بما اكتشفناه عن العالَم ومدى انطباقه عليه"، وهو ما يعنى "قبولنا بالمعرفة نفسها وزيادتها" فى الوقت الذى ندرك فيه أنَّ "أسرار الطبيعة، وطبيعة الأشياء الذاتية، محجوبةٌ عنا إلى الأبد" (Popkin 1979: 139ff). وربما يكون مهمًّا أن نذهب إلى أبعد من هذا، لكن المكان الذى ينبغى أن

نوجِّه أبصارنا إليه بحثًا عن إجابات، إن كان الأمر كذلك، هو حيث يَحتمـــل أن نجدها فيه: أي العلوم الصِّرفة، حيث يمدنا غنى الفهم وعُمقه بقـــدرٍ مـــن الأمل في تحصيل معرفة أعمق بهذه المسائل. أما إثارةُ هذه الأســـئلة عـــن ميادينِ بحثٍ ما تزال في بداياتها الأولى فغير مفيدة، وربما لا تزيد عن كونها شكلاً من التنغيص على هذه العلوم الناشئة.

وينبغي ألا تكون المقاربة العلمية الطبيعية، حين تُفهم على هذا الوجه، موضعَ خلاف، وإن كان المدى الذي يمكن أن تصل إليه لم يحدَّد بعدُ، أمـــا البديل الثنائي لها فينبغي أن يكون موضع خلاف كبير جدًا. ومع ذلك فالعكس هو السائد الآن، كما أظن، وهذه سمة غريبة لتاريخ الفكر المعاصـــر. فقـــد اقتُرحت بعضُ النظريات التفسيرية للذهن، وفي دراسةِ اللغة خاصة. لكنهـــا قوبلت بمعارضة قوية، لا لأنها تخالف معايير المقاربة الطبيعيـــة المنهجيـــة (التي يبدو أنها تتبعها، إلى حد بعيد)، بل انطلاقًا مـــن بعـــض الاعتبـــارات الأخرى، كـــ "الاعتبارات الفلسفية"، التي يُزعم أنها تشهد بأن هذه النظريات مُريبة، وربما متطرفة، على الرغم من النجاح الذي حققته بمقاييس النجـــاح المألوفة في العلوم؛ أو ربما تكون ناجحة، لكنها لا تعالج [مفهومَي] "ذهـــن" و"ذهني". وسأقترح أنَّ هذا النقد غالبًا ما يكون شكلاً مـــن أشـــكال النزعـــة الثنائية المنهجية، وأنَّ تبنِّي هذا الموقف (أو قبوله ضمنيًا) كان أحدَ المواقف البارزة في أكثر الأبحاث لفتًا للنظر في الفلسفة المعاصرة للذهن واللغة.

ومن الواضح أن المقاربة الطبيعية لا تُلغي الطرقَ الأخرى لمحاولـــة تفهُّم العالم. إذ يمكن لمن يتبنى [هذه المقاربة] أن يعتقد باطرادٍ (كما أفعل أنا) أن بإمكاننا أن نعرف عن اهتمامات البشر بالكيفية التي يفكِّـــر بهـــا النـــاس ويشعرون ويتصرفون من قراءتنا للروايات أو دراسةِ التاريخ أو النـــشاطات اليومية العادية أكثر مما نعرفه عنها من مجمل النتائج التي نحصِّلها من علم النفس الذي يقوم على المقاربة العلمية الطبيعية، وربما سيظل الأمر كـــذلك دائما، كما يمكن – بالمثل – أن تقدِّم الفنون مستوى عاليًا من التقدير لأسرار

السماء يفوق ما تحلم علومُ الفضاء الفيزيائية بالوصول إليه. ونحن نتحـدث هنا عن الفهم النظرى، وهو نوع خاص من الفهم. ويتحمل أى انحراف عن هذه المقاربة، فى هذا المجال، عبء التسويغ لهذا الانحراف. وربما أمكـن تقديم تسويغ ما، لكنى لا أعرف تسويغًا واحدًا.

اللغة فى البحث العلمى الطبيعى:

ولتأطير النقاش دعنا ننظر بإيجاز إلى المسار الذى تقودنا إليه المقاربةُ المنهجية الطبيعية فى دراسة الذهن، واللغة خاصة. إنها تقودنا، كما أظـن، إلى شىء يشبه الوضع التالى، على حد ما نفهمه فى الوقت الحاضر.

فيحوى الدماغ مكونًا ـــ سمِّه "الملكةَ اللغوية" ـــ مقصورًا على اللغـة واستخدامها. وللملكة اللغوية، عند أى فرد، حالةٌ أولـى، يحـدِّدها الإعـدادُ الأحيائى. وتتشابه هذه الحالات، إذا استثنينا الحالات المرضيَّة، عند أفـراد النَّوع إلى حد بعيد حتى ليُمكن أن نجرِّد "الحالةَ الأولى" للملكة اللغوية، وهى خصيصة مشتركة بين البشر. وتقدَح البيئةُ مسارَ النمو الموجَّه داخليًّا وتشكِّله شيئًا ما، وهو الذى يستقر عند سن البلوغ تقريبا. وستُحاول أيةُ دراسة جادة تحديدَ ماهية الحالات "الخالصة" للملكة اللغوية تحت الظروف المثالية، بتجريدٍ عن كثير من الاستثناءات والتدخلات التى تنتج عن عدد كبير من الظـروف المعقَّدة للحياة اليومية، وتأمل بهذا أن تُحدِّد الطبيعةَ الحقَّـة للملكـة اللغويـة وتحققاتها؛ وهذا ما تمليه معاييرُ المنهجية الطبيعية، فى الأقل. وتُعَد وجهـةُ النظر هذه، التى تؤخذ فى البحث العلمى الطبيعى أمرًا مسلَّما، مثيرةً للخلاف دائمًا، أو ربما أسوأ من ذلك، فى مجال اللغة والذهن، وهو ما يبرهن علـى النزعة الثنائية التى أشرت إلى مدى شيوعها وضررها.

وتُحدِّد حالةُ الملكة اللغوية المحصَّلةُ فصيلةً غير نهائية من التعبيـرات اللغوية، يتألف كلٌّ منها من مجموع محدَّد من الخصائص الصوتية والبنيوية

والدلالية. فتحدد هذه الحالةُ عندى خصائصَ الجملة السابقة [هنا]؛ وتماثل حالتك حالتى إلى حدٍّ يستطيع ذهنك عنده (أحيانًا) اكتشافَ شبيهٍ ملائم للجملة التى قلتُها، وهو ما يعنى أنك تمتلك وسائلَ معينة تعينك على تحديد ما قصدتُه (ولا يمثّل التعبيرُ الذى سمعتَه إلا جزءًا من الدليل لديك، أما التواصل فأمر "تقريبى"). والحالةُ المحصَّلةُ نظامٌ حوسبى (توليدى). ويمكن أن نسمى تلك الحالة "لغةً" أو، لكى نتجنب خلاف المصطلحات، I- languagc "لغة ـــ د"، وقد اخترتُ I "د" للإيحاء بأن هذا التصوُّرَ داخلى، وفردى، ومفهومى (بالمعنى التقنى؛ أى أنه تحديد لدالّة فى الفهم). فيعنى امتلاك جونز "لغة ـــ (د)"، أى "ل" [لغة]، أنْ تكون لغتُه فى الحالة "ل". وتمثّل الإشاراتُ المعينةُ تحققات للتعبيرات اللغوية (المتكلَّمة والمكتوبة والمؤشَّرة، إلخ)؛ والأفعالُ الكلاميةُ تحققاتٌ للتعبيرات اللغوية بمعنى أوسع، ويمكن أن نُفهَم التعبيرات على أنها "تعليمات" للأنظمة الأخرى فى الذهن/الدماغ "تتبعها" فى استخدام اللغة.

وانطلاقًا من المسلمات الاختبارية (الضعيفة جدًا) لهذه الملحوظات فإن فكرة "لغة ـــ د" واضحةٌ جدًا؛ أى لا خلاف على أن الدماغ نظامٌ معقَّد يتصف ببعض الحالات والخصائص. ويبقى بعد ذلك أن نفصّل تصورَ "حالة الدماغ" وأن نكتشف خصائصها. وتتطلب الأفكارُ الأخرى "للغة" مزيدًا من التسويغ ـــ الذى ربما لا يكون سهلاً، كما أظن.

ويجب عدم الخلط بين فصيلة التعبيرات التى تولِّدها "اللغةُ (ـــ د) "ل"" وفصيلةِ الجملِ الصحيحة صُوريًّا، وهى فكرة ليس لها مكانٌ معروف فى النظرية اللغوية، وإن تسببت بعضُ الكتابات غير المتخصصة أحيانًا فى غموض هذه النقطة، وهو ما أدى إلى كثير من اللغط والجهد الضائع. لهذا ربما تُعيِّن لغةُ جونز "ل" خصائصَ محدَّدة لما يسمى بالتعبيرات "الشاذة" إلى حد بعيد؛ وربما تعطى تأويلاً محدَّدًا لأية إشارة ممكنة، حيث تُحدِّد خصائصُ الحالة الأولى هذا الفكرةَ الأخيرة.

وربما يكون النظام الحوسبي نفسه غيرَ متنوِّع (أساسًا)، ومثبّتًا بالإعداد الأحيائي الفطري، حيث تقتصر التنوعاتُ بين اللغات وأنماط اللغات على بعض الخيارات المعجمية؛ وهي خيارات محدودة إلى حد بعيد. وربما تؤدي بعضُ التغيُّرات الضئيلة في نظامٍ معقّد إلى ما يبدو كأنه اختلافات مثيرة كبرى؛ لهذا، يبدو كأن اللغات تختلف الواحدة منها عن الأخرى اختلافًا جذريًا، مع أنه لا يختلف بعضها عن بعض إلا بأشكال هامشية جدًا، كما يبدو. وهذا ما يمكن أن يتوقعه أي عالِم منهجي يلاحظ البشر؛ أما لو لم يكن الأمر كذلك، فربما لن يتيسَّر لنا تعليل ما تتصف به الحالةُ المحصَّلة من تحديد دقيقٍ غنيٍّ وتعقيدٍ بناءً على معلومات محدودة جدًا توفّرها البيئة. وتؤخذ بعض الافتراضاتُ المماثلة أمرًا مسلَّمًا في دراسة النمو والتطور عامة؛ لذلك لا تميِّز المقاربةُ الطبيعية الحالةَ الفريدة للعمليات الذهنية [عن غيرها].

ولا توجَد خصائصُ الحالة الأولى والحالات المحصَّلة، حتى أكثر أشكالها بدائيةً، على حد ما نَعلَم، عند الكائنات العضوية الأخرى أو في العالَم الأحيائي، باستثناء ما يتعلق منها بنقاط الالتقاء بينها وبين المادة غير العضوية. ولا توجد إلا علاقات ضعيفة جدًا بينها وبين ما اكتشفته العلومُ المتخصصة بالدماغ. وينشأ عن هذا أننا نواجه مشكلات التوحيد المألوفة في تاريخ العلم، ونحن لا نعرف كيف ستُحلُّ هذا المشكلات ــ أو إن كانت قابلة للحل ابتداء.

وسأتوقف هنا عن إيراد مزيد من التعليل لنتائج البحث العلمي الطبيعي؛ وأعود إلى قضايا المقاربة الطبيعية والمقاربة الثنائية بصورة أكثر عمومية.

أنواعٌ من المقاربة الطبيعية:

ينبغي ألا نخلط بين المقاربة الطبيعية المنهجية وبعض التنوعات الأخرى [للمقاربة الطبيعية]. ولإيضاح ما أعنيه وما لا أعنيه، دعني أورد

أحدَ التفسيرات المفيدة لتصوُّر المقاربة الطبيعية، وهو ما كتبَه بولدوين مؤخرًا (Baldwin 1993: 171). فيبدأ بولدوين بحثه بملاحظة أنَّ "أحد أبرز الموضوعات في الفلسفة المعاصرة هو 'إخضاع الفلسفة للمقاربة الطبيعية' [تطبيع الفلسفة]. فقد كتب دانيل دينيت أن 'أحد أسعد التوجهات الفلسفية في العشرين سنة الماضية كان 'إخضاع الفلسفة للمقاربة الطبيعية'" (ص١٧١). أما كون ذلك التوجه بارزًا فصحيح، لكنَّ وصفَه بأنه سعيد يبدو أمرًا خلافيًا. فهو يختلف، على أية حال، عن المقاربة الطبيعية التي أتبنَّاها هنا.

ويَجد بولدوين "نمطين مختلفين من المقاربة الطبيعية في الفلسفة المعاصرة"، ويُسميهما المقاربةَ الطبيعية "الغيبية" والمقاربة "المعرفية" epistemic. والنمط الأول هو "ما كان يعنيه دينيت حين يحتفي بـ 'إخضاع الفلسفة للمقاربة الطبيعية': أي الفكرة التي مفادها، كما يقول دينيت، 'أنه يجب أن تكون التفسيرات الفلسفية لعقولنا ومعرفتنا ولغتنا متماشية، في نهاية الأمر، مع العلوم الطبيعية ومتناغمة معها'" (ص١٧٢) – خلافًا للمقاربة الفريجية الأفلاطونية، مثلاً، التي لا تتماشى مع الفرضيات "التي طوَّرتْها العلومُ الطبيعية"، كما يُزعم.

وتُشتق المقاربةُ الطبيعيةُ المعرفية المعاصرة من "علم المعرفة epistemology المُخضَع للمقاربة الطبيعية" عند ويلارد كوين، وهي تشترط وجوبَ أن تُلحق دراسة المعرفةِ والاعتقاد بفرع ضيِّق من علم النفس السلوكي الذي ليس له أهمية علمية معروفة، وهذا تصرُّف غريب بذاته، ومن المدهش أنه لم يُثِر إلا اعتراضًا قليلاً، ويلاحظ بولدوين أن توجهًا أوسع [منها] يعنى بالنظر في "العلاقات الطبيعية" بين الأوضاع الخارجية والحالات الذهنية بعيدًا عن أية قيود اعتباطية. ويمكن عدُّ هذا الوجه الأوسع شكلاً متطوِّرًا من علم النفس الذهني في القرن السابع عشر الميلادي، الذي كان يرى، كما يقول لورد هيربرت، أن هناك "مبادئ أو أفكارًا مغروسة في الذهن" وهي التي "تضفيها على الأشياء من داخلنا. . . [بوصفها]. . . هبة

مباشرة من الطبيعة، وتُمليها الغريزة الطبيعيـــة" – أي "أفكـــارًا مـــشتركة" و"حقائق فكرية" "طبعتْها على الروح إكراهاتُ الطبيعة نفسها"، وهي التـــي، وإن كانت "الأشياءُ تحفزها"، إلا أنه لا يُعبر عنها عن طريق [هذه الأشـــياء] (Herbert 1624/1937: 133). ويورد بولدوين [الفيلسوف] توماس ريد بوصفه مصدرًا لأحد أشكال "علم المعرفة المُخضع للمقاربة الطبيعية"، حيث يعبّـــر عن وجهة نظر مشابهة لكنها "محرَّرةً من التزام هيوم بنظرية الأفكار" [أو أي التزام مبكر آخر] (Baldwin 1993: 181)؛ أي محـــرَّرةً مـــن المحـــاولات المبكرة التي سعتْ إلى بيان ما يسميه ريد بـــ "الأحكام الأصيلة والطبيعيـــة" التي "زوّدت الطبيعةُ بها الفهمَ البشري" بوصفها "جزءًا من كينونتنا"، وهي ما يكوِّن "البديهةَ البشرية" (Reid 1785: 600-601). ولما لم يؤت ببديلٍ للخطوط العريضة للنظرية التي تُخلي عنها، فمن الصعب أن نرى كيف يتقـــدم هـــذا "الإخضاع للمقاربة الطبيعية" إلى ما يتجاوزَ الأشكالَ المبكرة. لكـــن الأمـــر بعكس ذلك، فتنظيراتُ الفلاسفة الديكارتيين وفلاسفة كامبردج الأفلاطـــونيين أكثرُ تقدمًا [من تلك النظرية] من وجوه عدة، كما أرى. وقد اقترح تـــشارلز ساندرز بيرس في فترة لاحقة (Peirce 1957: 253) أن الفكر الإنساني موجَّه بمبدأ "القياس الاحتمالي" abduction الذي "يَضع قيودًا على ما يمكن قبوله من الفرضيات" وهو فطري فينا، ويُزوِّد الذهنَ البشري بـــ "تكيُّف طبيعي ليتخيَّل النظرياتِ الصحيحة من نوع معين" (ص ٢٣٨) وهو (مع قليل من المعقولية) نتيجةٌ لمبدأ الانتقاء الطبيعي. وهناك مقتضيات أخرى كثيرة، ومنهـــا "علـــمُ المعرفة التطوري" الذي ظهر في السنوات الأخيرة. (للاطلاع على بعـــض النقاش، انظر: Chomsky 1966: Chapter 4; 1968/1972; 1975 Chapter 1).

ومشروعُ المقاربة الطبيعية المعرفية غيرُ خلافي، باستثناء المصطلح، وهو [مصطلح] مضلِّل بطريقة معاصرة غريبة. فقد كانت المقاربةُ الطبيعيـــة المعرفية علمًا في القرنين السابع عشر والثامن عـــشر، أي أنهـــا محاولـــة لصياغة نظرية اختبارية عن الذهن؛ وكان هيوم، مثلاً، يقـــارن مـــشروعه

بمشروع إسحاق نيوتن. أما المقاربة الطبيعية المعرفية [الآن] فقد قُدِّمت، بالمقابل، على أنها "موقف فلسفي"، وهو أمر مختلف، كما يبدو. ومن الواضح أننا لا نستطيع أن نفهم الآن ما كُتب في فترات متقدمة على أنه مماثل للتمييز المعاصر بين العلم والفلسفة الذي طُوِّر في فترة لاحقة. وربما لا يمكننا إطلاق مصطلح "المقاربة الطبيعية الإبصارية" على الدراسة الاختبارية لنمو النظام الإبصاري ووظيفيّته (الذي كان موضوعًا لاهتمام علم النفس الذهني في فترة مبكرة، كذلك)، قاصدين بذلك أنه كان هناك بديل متماسك لدراسة المشكلات نفسها. ويبدو لي أن مصطلح "المقاربة الطبيعية المعرفية" مضلِّل بالطريقة نفسها تقريبا، هذا إن لم نذكر بعض أوجُهها المعيَّنة المشتقَّة من مصطلح كوين: "علم المعرفة المُخضَع للمقاربة الطبيعية".

والمقاربةُ المعرفية الطبيعية التقليدية عند المشتغل بالمنهجية الطبيعية نوعٌ من العلم العادي normal science (انظر الفصل الثالث في هذا الكتاب)[٣]، بغض النظر عن الكيفية التي تقوِّم بها بعضَ تطبيقاتها المحدَّدة. فالبحث العلمي في الحالة الأولى للملكة اللغوية، مثلاً، محاولةٌ لاكتشاف "المبادئ والأفكار المغروسة في الذهن" التي هي "هبة مباشرة" من الطبيعة، أي إعدادنا الأحيائي. وينطلق البحث، كما في المجالات الأخرى، من الصياغات البديهية. انظر الجملة التالية، مثلا:

Jones knows (speaks, understands, has) English.

"يعرف جونز (يتكلم، يفهم، يمتلك) اللغةَ الإنجليزية".

فتوجِّه هذه الملاحظةُ الانتباهَ إلى حالة معيَّنة للعالَم، ومنها إحدى حالات دماغ جونز، وهي حالة إدراكية، تقوم عليها معرفةُ جونز بأشياء معيَّنة كثيرة، نحو: معرفته بكيفية تأويل الإشارات اللغوية، أو أنَّ بعض التعبيرات اللغوية تعني ما تعنيه، إلخ. ونحن نودُّ أن نعرف كيف وصل دماغُ جونز إلى هذه الحالة الإدراكية. ويقود البحثُ في هذا الأمر إلى بعض

الفرضيات الاختبارية عن الإعداد الأحيائي، والتفاعلات مع البيئة، وطبيعة الحالات المحصّلة، وتفاعلاتها مع الأنظمة الأخرى للذهن (كالأنظمة النطقية والإدراكية والتصورية والقصدية، إلخ). وتسمى النظريات التي نصل إليها عن نمو اللغة أحيانًا بنظريات "جهاز اكتساب اللغة" Language Acquisition Device (LAD)، وهي التي تحدث تحوُّلاً لحالة الملكة اللغوية الأولى إلى حالات تالية، أي تحوّل التجربة إلى الحالة المحصّلة؛ وتسمى النظرية عن الحالة الأولى أحيانًا بـ"النحو الكلي"، وهو استخدامٌ [معاصر] لمفهوم تقليدي في سياق مختلف شيئًا ما. (ولن أعرض فيما يأتي للفروق بين نظريتي "جهاز اكتساب اللغة" و"النحو الكلي"). وهذه دراسةٌ للذهن، كما أرى؛ وهناك آخرون يخالفونني، لأسباب سأعود إليها فيما بعد.

وتبدو المقاربةُ الطبيعية الغيبية أكثرَ إشكالاً من المقاربة الطبيعية المعرفية التقليدية. فأحد الأسئلة التي يثيرها بولدوين هو: "ما العلوم الطبيعية". ومن الإجابات الممكنة: إنها أي شيء يُنجَز بالعمل بانتهاج المقاربة العلمية الطبيعية. لكنْ لا يبدو أن هذا هو المقصود؛ فلنؤجل هذا السؤال قليلا. ومن القضايا ذات الصلة أن نفسّر ما "التعليلات الفلسفية لعقولنا، ومعرفتنا ولغتنا"، وكيف تختلف عن "التعليلات العلمية"، خاصة إن كانت "تتماشى مع العلوم الطبيعية" (Baldwin 1993: 172). فهل يعني هذا الاعتقادُ أنه ينبغي أن تكون أيةُ نظرية عن الذهن "متماشية" و"متناغمة" مع الفيزياء في الوقت الحاضر؟ ومن المؤكد أن هذا غير مقبول؛ إذ يحتمل ألا تتوافق فيزياءُ المستقبل مع هذا الشرط. أم ينبغي أن تتوافق مع أحد أشكال المثال البيرسي [نسبة إلى بيرس] لما سيكون عليه العلمُ في "الحدود القصوى"؟ لكن هذا لن يساعدنا كثيرًا، حتى إن كان له معنى. ذلك أنه ربما تتضمن فيزياء المستقبل وجهًا من التعليلات الممكنة في الوقت الحاضر (سواء سميت "فلسفيّة" أم لا)، حتى إن لم تتماش هذه التعليلات مع الفيزياء في الوقت الحاضر.

وإذا كان الأمر كذلك فلن يكون هذا جديدًا في تاريخ العلوم؛ فقد ظل

توحيدُ النظريات المختلفة عن العالَم هدفًا دائمًا للعلوم، لكنَّ السعي نحو هـذا الهدف اتخذ مسارات مختلفة عديدة. ولم يكن الاختزالُ الشاملُ النمطَ المعهود [نحو هذا التوحيد]؛ ويجب ألا تَخدعنا بعضُ الأمثلة المثيرة كاختزال كثير من علم الأحياء إلى علم الكيمياء الأحيائية في أواسط القرن العشرين. أمـا مـا يحدث دائمًا فهو أنَّ العلم الأكثر "أساسية" هو الـذي اضـطُرَّ لأن يَخـضـع للمراجعة، وبشكل جذري أحيانًا، من أجل أن يُنجز التوحيد. هب أن فيلسوفًا في القرن التاسع عشر أصرَّ على أنه "يجب أن تتماشى التحليلاتُ الكيميائيـة للجزيئات، والتفاعلات، وخصائص العناصر، وحالات المادة، إلخ مع العلوم الطبيعية وأن تتناغم معها، في نهاية الأمر"، حيث يُقصد بـالعلوم الطبيعيـة الفيزياء كما كانت تفهم حينذاك. لكن تلك التحليلات لم تكـن تتماشـى مـع الفيزياء آنذاك؛ لأن الفيزياء في تلك الفترة لم تكن قد تطورت بما يكفي. وقد تغيرت الفيزياء في ثلاثينيات القرن العشرين تغيُّرًا جوهريًا، ثـم أصـبحت التحليلات (التي عُدِّلت هي نفسُها) "متماشية" مع الفيزيـاء الكميـة الجديـدة و"متناغمة" معها. افرض أن عالمًا في القرن السابع عشر أوجب الشرطَ نفسَه على آلية الأجرام السماوية celestial mechanics، مشيرًا إلى "الفلسفة الآلية" السائدة [آنذاك] ورافضًا نظرية نيوتن الغامضة (كما فعل لايبنيز وهويجينز)، لأنها لم تكن تتوافق مـع "قـوانين الآليـة" Laws of Mechanics (انظـر Dijksterhuis 1986: 479f). ومع احتمال أن يكون رد الفعل هذا مفهومًا إلا أنه كان سيكون (وقد كان) خاطئًا؛ ذلك أنه لزِم أنْ تتغير الفيزياء الأساسـية تغيرًا جذريًا لكي تبدأ عمليةُ التوحيد.

ونحن لا نعرف إلى أين ستقودنا تلك العملية، بل لا نعرف حتى المدى الذي يمكن أن يصل إليه الذكاء البشري في تحصيله مثلَ هذا الفهـم للعـالَم الطبيعي؛ ذلك أننا لسنا إلا عضويات أحيائية، لا ملائكة. وتوحي الملاحظـة الأخيرة، وهي، مَرةً أخرى، غير خلافية، بطريق آخر للإجابة عن سؤال "ما العلوم "الطبيعية"". فمن مظاهر الذهن المظاهرُ التي تدخل في البحث العلمي الطبيعي؛ ولنسمِّها "ملكة صياغة العلم". فيُواجه الناسُ، المزوَّدون بـ"ملكـة

صياغة العلم"، "أوضاعًا مشكِلة" تتكون من بعض الحالات الإدراكية المحدَّدة (للاعتقاد والفهم أو عدم الفهم)، والأسئلة التى تثار، إلخ (وهى، أساسًا، مـــا سماه سيلفين برومبيرجر "معضلة ح" p-predicament؛ انظر كتابـــه الـــذى يحوى مقالاته Bromberger 1992b [وترمز "ح" لكلمة "حيرة"]. ولا تـــؤدى "ملكةُ صياغة العلم" غالبًا إلا إلى طريق مسدود. وتوفِّر أحيانًا بعضَ الأفكار عن الكيفية التى يمكن بها أن يجابَ عن بعـــض الأســـئلة أو كيـــف تعـــاد صياغتها، أو عن الحالة الإدراكية التى تُعدَّل، وهى أفكار يمكن تقويمها بعد ذلك بالطرق التى توفِّرها "ملكةُ صياغة العلم" (كالفحص الاختبارى، والتناغم مع الأجزاء الأخرى للعلم، ومعايير المعقولية والأناقة، إلخ). ولـــــ "ملكـــة صياغة العلم"، كالأنظمة الأحيائية الأخرى، مدىً ممكن وحدود، ويمكـــن أن نميِّز بين "مشكلات" تقع فى مداها من حيث المبدأ، و"أحاجٍ" لا تقع ضمن هذا المدى. وهذا التمييز مقصور على البشر؛ أما الفئران وسكان المـــريخ فلهـــم مشكلاتهم المختلفة وأحاجيهم، بل إننا نعرف، فى حال الفئران، قدرًا لا بأس به عن تلك المشكلات والأحاجى، وليس هناك حاجة لأن يكون هذا التمييـــز صارمًا، وإن كنا نتوقع وجوده بكل تأكيد، عند أيـــة عـــضوية وأيـــة ملكـــة إدراكية. فتقع العلومُ الطبيعية الناجحة، إذن، داخل منطقة تماسٍّ المدى الـــذى تصل إليه "ملكةُ صياغة العلم" مع طبيعة العالَم؛ وهى تتعامل مـــع مظـــاهر العالَم (المشتتة والمحدودة) التى يمكن أن نحيط بها ونفهمها عن طريق البحث العلمى الطبيعى، من حيث المبدأ. وهذا التمـــاس نتيجـــةٌ صُـــدفية للطبيعـــة البشرية. وليس فى نظرية التطور، أو فى أى مصدر آخر مما يمكـــن لنـــا فهمُه، على الضد من بعض التخرصات منذ بيرس، ما يوحى بأنه ينبغى أن تتضمن إجاباتٍ عن بعض الأسئلة المهمة التى نثيرها، أو حتـــى أن نكـــون قادرين على صياغة الأسئلة صياغةً ملائمة فى بعض المجالات المحيِّرة.

ونحن لا نعرف، تحديدًا، إن كانت مظاهرُ النظريـــة عـــن الـــذهن – كالأسئلة عن الشعور consciousness، مثلا – مشكلاتٍ عند البشر أم أحاجٍ، مع أننا ربما نستطيع من حيث المبدأ لاكتشاف الإجابة [عن هذا السؤال]، بـــل

أنْ نَكتشف أنها أحاج؛ فليس هناك تناقض في الاعتقاد بأن "ملكــة صــياغة العلم" ربما تَسمح لنا بأن نتعلم شيئًا عن حدودها. (انظر .Chomsky 1968 ch 3; 1975, ch. 4. وانظر عن مسألة الحدود الممكنة، وصلتها بالبحث الفلسفي خاصة McGinn 1991; 1993).

فيمكن الإجابة عن سؤال "ما العلوم الطبيعية"، إذن، بشكل أكثر تحديدا، بالسؤال عن ما الذى أنجزتْه؛ أو بصورة أعم، بالبحث في إحــدى ملكــات الذهن (البشرى) المعينة، بخصائصه المحدَّدة. لكن يبدو مع ذلك أنا بحاجــة إلى شيء آخر؛ أما ما هو ذلك الشيء فغير واضح.

ومن الموحي أن نُنعم النظر في أصول العلم المعاصر. وباختــصار، فقد وَضع التقدمُ العلمي خلال القرن السابع عشر الأسسَ لقواعــد "الفلــسفة الآلية"، التي أدت إلى القضاء على التخيلات العجيبة عن أشكال الأشياء التي تَطير في الهواء وتَغرس نفسَها في الأدمغة، وعن الطاقات والقوى الغامضة، و"النوعيات الســرية" للتعاطف، والتنابذ، إلخ، وهو ما سَمح باقتراح بعــض الخرافات كالتأثير عن بُعد عبْر فراغ. وقد لاحَــظ الــديكارتيون أن بعــض الظواهر الطبيعية (ومن أبرزها اســتخدامُ اللغة) لا تقع في نطــاق الفلــسفة الآلية، على ما يبدو، وهو ما جعلهم يفترضون مبدأ جديدًا لتفسيرها. فقــد افترضــوا، بناء على منظوراتهم الماورائيــة [الغيبيــة]، جوهــرًا ثانيًــا (res cogitans "ذهن")، ولأسباب أخرى كذلك. وبغض النظر عن التطبيق، لم يكن هذا الاقتراح بعيدًا عن المعقول، بل لا يختلف كثيرًا عن التفسير الــذى اقترحه نيوتن حين اكتشف أوجهَ القصور في الفلسفة الآلية. وأدى افتــراضُ شيء يقع وراء الفلسفة الآلية إلى نشوء مشروعين هما: تطويرُ النظرية وحلُّ مشكلة التوحيد؛ ويتمثل هذان، في الحالة الديكارتية، في "مــشكلة الــذهن – الجسد". وهذا كلُّه علمٌ عادي، وكان خطأ، لكن هذا الخطأ نفسه عادي كذلك.

وبمجرد أن بدا كأن الفلسفةَ الآلية انتصرت، قَوَّضها نيوتن، حيث أعاد إدخال نوع من السببية والنوعية "السرِّية"، مما أثار امتعاض العلماء البارزين

وفتذاك، بل امتعاضه هو نفسه. ولم تتأثر النظرية الديكارتية عن الذهن (بصورتها التى كانت عليها) باكتشافاته تلك، أما نظريته عن الجسد فقد بُرهن على أنها غير ممكنة. وبكلمات أخر، فقد قضى نيوتن على مشكلة "الروح فى الآلة" بالتخلص من الآلة؛ أما الروح فلم تتأثر. كما تركنا نستنتج أنه لا يمكن أن نتوقَّع أن يبقى الحدس البديهى – أى "الفيزياء الشعبية" التى كانت أساسًا للفلسفة الآلية – فى وجه التحوُّل نحو البحث العلمي المنهجي فى طبيعة الأشياء. وقد اختفت مشكلة الذهن – الجسد، ويَستحيل بعثُها، إن كان ذلك ممكنًا بأية حال، إلا بتقديم فكرة جديدة للجسد (كأن يكون ماديًا، أو فيزيائيًا، إلخ) لتحلَّ مكانَ الفكرة التى هُجرت، وهو مشروع ربما لا يكون معقولا، كما يبدو. أما إن لم يَحدث ذلك، فلن توفِّر لنا عبارةُ العالَم "المادى" ("الفيزيائى"، إلخ) إلا طريقةً غير منضبطة فى الإحالة إلى ما نَفهمه فهمًا تقريبيًا، ونأمل فى توحيده بطريق ما.

والنتيجة الطبيعية، التى استخلصها لو ميتر بعد ذلك بقليل ثم جوزيف بريستلى بعده، أنَّ الفكر والفعل البشريين خصيصتان للمادة المنظَّمة، تشبهان "قوى التجاذب والتنابذ"، والشَّحن الكهربائى، وأشباهها (Le Mettrie 1747؛ كذلك Cohen 1941؛ و Yolton 1983؛ و Wellman 1992). ونحن نسعى، حين نتبنى وجهة النظر تلك، إلى تحديد خصائص هذه الأشياء فى العالَم، وتعليلِ الظواهر الذهنية فى ضوئها، وتبيينِ كيفية نشوئها عند الفرد والنوع، وإلى ربط هذه النتائج بأى شيء آخر نَعرفه عن المادة المنظَّمة (وهذا هو الوجهُ الجديد لمشكلة التوحيد). ولم يَتحقق إلا تقدمٌ ضئيل، فيما يخص المشكلة الأخيرة. كما لم يتحقق تقدمٌ حقيقى فى تعليل خصائص الاستخدام العادى للغة، وغيرها من الظواهر، وهى التى دعت الديكارتيين إلى افتراض جوهر ثان (وإن لم تَعُد حدودُ الآلية موضوعًا مهمًا). وربما نكتشف فى نهاية الأمر أن هذه [الظواهر] أحاجٍ عند البشر. وقد تحقق قدر من التقدم فى فهم آليات الذهن من الزاوية الأكثر تجريدًا "للنحو الكلى" و"جهاز اكتساب اللغة"،

والحالاتِ المحصلّة، وتفاعلاتها مع الأنظمة الإدراكية الأخرى؛ وفى دراسة بعض هذه الأنظمة (كالنمو التصورى، مثلا). وهذه فروع للعلوم الطبيعيـــة، فى ضوء المسلمات العلمية الطبيعية ـــ سواء أكان ذلك أمرًا جيدًا أم ســـيئا، خطأ كان أم صوابا.

وتُحاول العلومُ الطبيعية أن تفهّمَ العـــالم فـــى مظـــاهره الكيميائيـــة والكهربائية والذهنية، إلخ. فهل يحوى العالم قوىً نيوتنية غامضة تؤثّر على أجسادٍ يفصل بينها فضاءٌ فارغ، أو يحوى مجالاتٍ كهربائيـــة ومغناطيـــسية تتصف، وإن كانت أشياء رياضية [من الرياضيات]، بأنها "أشـــياء فيزيائيـــة "واقعية"" نظرًا للطريقة التى "تتدافع بها عبر فضاء فارغ" (Penrose 1989: 186 -185). أو يحوى فضاءً منحنيًا "يبدو أنه يَسلب البنيةَ المحدّدة كلَّهـــا أى شىء يمكن أن نسميه صلابة"، أو أنه ربما لا يحوى "فى أعمق أعماقـــه" إلا شذرات من المعلومات (Wheeler 1994: 294f). وهل يحوى أفكارَ هيربرت ومبادئه العامة بوصفها جزءًا من "الغريزة الطبيعية"، أو مفـــاهيمَ هيـــوم، أو أفكارًا وتصوراتٍ، أو مبادئَ حوسبية وحالات، إلخ؟ ويسعى البحث العلمـــى الطبيعى للإجابة عن هذه الأسئلة، بقدر ما يستطيعه من نقد ذاتى، مبتعدًا عن المسلمات الاعتباطية حين يمكن اكتشافها، مع الوعى بأنه لا يمكـــن التغلـــب على القيود الأحيائية على الفكر البشرى، أما القيود الثقافية فربما لا يتيـــسر اكتشافها بسهولة.

دعنا نعُد إلى الاتهام بأن النظرية عن الذهن التى تقدّم أفكارًا كـــ "الفهم الدقيق للمعانى الفريجية" لا تتناغم مع الفرضيات التـــى "طوّرتهـــا العلـــوم الطبيعية" أو لا تتماشى معها. وهذه الملحوظة صحيحة لكنها غير مهمة، إن كنا نعنى العلومَ الطبيعية فى الوقت الحاضر، باستثناء "النظرية عن الذهن". أما الأسئلة الحقيقية فيجب أن تتعلق بمكانة "النظرية عن الذهن" بنـــاء علـــى أسس علمية طبيعية، وبمشكلة التوحيد (إن كانت "النظرية عن الذهن" معقولة شيئًا ما). أما إن عنى هذا الاتهامُ أن مشكلة التوحيد تقع وراء القدرة البشرية

فربما يكون ذلك صحيحا، لكنْ ليس لهذا علاقة بالمكانة العلمية "للنظرية عن الذهن". فلا يلزمنا أن ننظر في بعض التخصصات عن العلم "الصحيح"، وهو الذي ربما يقع وراء ما يمكن أن يصل إليه الفكر البشري. لكن ما الأشياء الأخرى التي تتطلبها المقاربةُ الطبيعية "الغيبية"؟ والجواب: إن هذا ليس واضحا.

فهل ينبغي أن نفهم المقاربة الطبيعية الغيبية على أنها المطلبُ الذي يوجب وحدةَ الطبيعة؟ وإذا كان الأمر كذلك، فيمكن أن يُنظر إليها على أنها فكرة موجِّهة، لا مذهَبا؛ ذاك أنَّ علماء الفيزياء يقولون لنا إن "تسعين بالمائة من المادة في الكون تنتمي إلى ما يسمى الآن بالمادة السوداء — وهي سوداء لأننا لا نراها؛ وهي سوداء لأننا لا نعرف ماهيتها"، بل "إننا لا نعرف شيئا عن المادة التي يتكوّن منها تسعون بالمائة من الكون" (Weisskopf 1989). افرض أننا وجدنا في نهاية الأمر أن المادة السوداء تختلف اختلافا جوهريًا عن العشرة بالمائة من الكون التي نعرف عنها شيئا. ولا يمكن التقليل من شأن هذا الاحتمال من حيث المبدأ؛ ذلك أن العلم المعاصر يقبل ببعض الأشياء الغريبة. كما لا يمكن نفي هذا الاحتمال في حالة النظرية عن الذهن. ومع أنه ليس هناك دليل يُلزم بقبول الفرضية الديكارتية، إلا أن بعضَ وجوهها (مع تصورٍ للجسد أكثر غنى) ربما تكون صحيحة من حيث المبدأ في نهاية الأمر، ومتماشية مع الموقف العلمي الطبيعي.

المقاربة المادية ونقّادها:

ستكون المقاربة الطبيعية الغيبية موقفا متماسكا إن بيّن لنا المدافعون عنها ما الذي يمكن عدُّه "فيزيائيًا" أو "ماديًا". أما قبل ذلك فلا يمكن لنا فهْم هذا المذهب، دعك من بعض الأفكار المشتقة منه كـ "المادية الإقصائية" eliminative materialism وأشباهها. أما من حيث الممارسة فيبدو أن بعض أوجه الفكرة الأخيرة لا تزيد عن كونها شعاراتٍ تشير إلى

الاتجاه الذي يمكن أن نجد فيه إجابات، لهذا ليس لها أهمية خاصة.

ويبدو أن نقّاد هذه المذاهب يواجهون المشكلةَ نفسها، أي: ما الذي ينتقدونه؟ ومن أبرز هؤلاء توماس ناجل، الذي يُقدّم عرضًا مفصّلًا واضحًا لوجهات النظر المهيمنة ونقده إيّاها، وهو النقد الذي يوجهه على وجه التحديد للمسائل التي أهتمُّ بها هنا (Nagel 1993). وأظن أن عرضه لهذه القضايا كان خاطئًا، وإنْ بطريقة لافتة للنظر، ونتائجه مشكوك فيها لهذا السبب وأسباب أخرى، ويشمل ذلك النتائجَ التي انتهى إليها عن "جهاز اكتساب اللغة" والنظرية عن الذهن، التي يختم بها حديثه.

يقول ناجل إن "مشكلة الذهن – الجسد" لم تُثَر بشكلها الحديث إلا في القرن السابع عشر، بتزامنٍ مع نشوء التصور العلمي للعالَم الفيزيائي الذي نشأنا عليه جميعًا الآن" (١٩٩٣: ٩٧) (أي التصور النيوتني). لكن هذا يعكس القصة. ذلك أنه كان لمشكلة الذهن – الجسد معنى في ضوء الفلسفة الآلية التي هدّها نيوتن، ولم تُثَر بشكل متماسك منذئذ. وإذا كان الأمر كذلك فلا يمكن للنقاش أن يسير في ضوء ما يراه ناجل إلا إن وُجد تفسير جديد لطبيعة الجسد (الماديّة، أو الفيزيائيّة، إلخ) والذهن.

ويقود هذا المنظور للقضايا وأصولها إلى تفسير خاطئ للإسهامات المعاصرة كذلك. لذلك يلخص ناجل "دعوى سيرل الجذرية" التي تقول إن "الشعور خصيصة فيزيائية للدماغ" وهي خصيصة "لا يمكن اختزالها إلى أية خصيصة فيزيائية "أخرى""، وهو موقف، إن بُيّن بطريقة ملائمة (وهذا قد لا يكون ممكنًا كما يرى ناجل)، "ربما يكون إضافةً رئيسة للإجابات الممكنة عن مشكلة الذهن – الجسد" (١٩٩٣: ١٠٣). وتمثّل هذه الدعوى "القلبَ الغيبي" لاقتراح سيرل، وبكلماته هو: فـ "الشعور خصيصة للدماغ من مستوى أعلى أو هي خصيصة ناشئة عنه"؛ و"تنتمي إلى التراتب الأحيائي الطبيعي. . . كانتماء التمثيلِ الضوئي والهضم والانقسام الفتيلي إليه".

وهذه الدعوى غير جذرية بغض النظر عن إن كانت صحيحة أوَ لا؛ بل هي – أو كانت – ردُ الفعل الطبيعي على تقويض نيوتن للفلسفة الآلية، وتقويضه من ثمّ لمشكلة الذهن ـــ الجسد، بشكلها الديكارتي في الأقل. وكما لاحظنا، فالقول بأن الفكر والفعل (ويشمل ذلك الشعور) خصائصُ للمادة المنظَّمة، ولا يمكن اختزالها إلى خصائص أخرى إلا بقدر إمكان اختزال الخصائص الكهربائية المغناطيسية إلى خصيصة الآلية، فكرةٌ اقترحها العلماءُ في القرن الثامن عشر – لكن لم يقصد بها أن تكون إجابة ممكنة لمشكلة الذهن – الجسد، التي لم تُصغ بشكل متماسك (آنذاك أو الآن). أما الأهمية الغيبية لهذه الدعوى فتماثل أهميةَ العلاقة بين الآلية الكلاسيكية والنظرية الكهربائية المغناطيسية [المعاصرة].

ويَفترض ناجل فهمًا مسبقًا للذهن والجسد، وللذهني والفيزيائي، ويورد بعضَ الإشارات عما يَعنيه بذلك. ففي تعبيره عن أحد المواقف النموذجية، ينظر إلى "جوهر الذهن" على أنه الشعور، أي أن "الظواهر الذهنية كلها شعوريةٌ إما حقيقةً أو إمكانا" (١٩٩٣: ٩٧). وسواء قَصد بهذه الصياغة أن تكون اقتراحًا اصطلاحيًا أم جوهريًا، فهي تتطلب تفسيرًا لمفهوم "شعوري إمكانا"؛ ويتبنى ناجل اقتراحَ سيرل (Searl 1992) عن هذا الأمر، لكن هذا الاقتراح يواجه صعوبات حقيقية، كما يبدو.

هب أننا أخذنا الشعور على أنه علامةُ ما يكون ذهنيًا. فماذا عن الجسد؟ وهو الذي يماهي ناجل بينه وبين ما "يمكن أنْ تَصفه العلومُ الفيزيائية" (باستثناء الشعور، أمّا إن كان هذا الاستثناء افتراضًا أم اكتشافًا، فليس واضحا). ومن هنا يَفهم النزعةَ المادية (التي يقول إن أكثر الفلاسفة المعاصرين يقبلون بها) على أنها الاعتقادُ "بأنه يجب أن يَكون كلُ ما في الكون وأي شيء يَحدث فيه قابلاً للوصف بالعلم الفيزيائي" – وهي وجهة نظر يرى أنها متماسكة، مع أنها زائفة. ويَعني تبنيها محاولةَ القيام بـ "نوع من الاختزال لما هو ذهني إلى ما هو فيزيائي – حيث يكون الفيزيائي،

تعريفًا، ما يمكن أن يوصف بمصطلحات غير ذهنيــة" (أي بمــصطلحات لا تتضمن "الشعور الممكن"). "أما ما نحتاجُه لإكمال الصورة الماديــة للعــالم فخطاطةٌ تشبه الشكل التالى: إن "الظواهر الذهنية – كالأفكــار والمــشاعر والأحاسيس، والرغبات، والإدراكات، إلخ – ليست إلا . . ."، حيث يمكن أن يُملأ مكانُ النقاط بوصفٍ إما فيزيائى صراحة أو يَــستعمل مــصطلحات لا يمكن أن تنطبق إلا على ما يكون فيزيائيًا محضا"، أو ربما يُعطى "شــروطًا للتأكيد" بناء على "أسباب خارجية يمكن ملاحظتها". ويمضى ناجل قائلاً: "إن تاريخ فلسفة الذهن فى الخمسين سنة الماضية يتمثل فى المحاولات المختلفة لتنفيذ هذه المهمة التى تبدو مستحيلة، والحجج التى تُبيِّن إخفاقها". أما المشكلة التى لم تُحلَ، وربما يستحيل حلُها، فمشكلةُ الذهن – الجسد، وهى مشكلةُ "أنْ نجد مكانًا فى العالَم لأدمغتنا نفسها، بتجاربها الإدراكية وأفكارها ورغباتهـــا، وطريقتها فى صياغة النظرية العلمية، وكثيرٍ غير ذلك مما لا يمكن للفيزياء أن تصفه".

وهناك ما يكاد يكون إجماعًا على اعتقاد أن هذه الأســئلة متماســكة ومهمة. لهذا يناقش تايلر بيرج، فى مراجعة مفصّلة موحية لقَرنٍ من فلــسفة الذهن، ظهورَ "النزعة الطبيعية" ("المادية"، "الفيزيائية") فى ستينيات القــرن العشرين بوصفها "إحدى المواقف المحافظة القليلة فى الفلــسفة الأمريكيــة" (Burge 1992: 32). وهى وجهة النظر التى ترى أنه ليس هنــاك حــالات ذهنية (أو خصائص [ذهنية]، إلخ) "تَعلو وتتجاوز الوحدات الفيزيائية العادية، أى تلك الوحدات التى يمكن أنْ تعيِّنها العلومُ الفيزيائية أو للوحدات التى يمكن أن تَعُدّها البديهةُ فيزيائية". ويصف "النزعةَ الإقصائية"، وهى إحدى التيارات الرئيسة فى الجهود نحو "جعْل الفلسفة علميةً"، بأنها "وجهة النظر التى ترى أن الكلام الذهنى والوحدات الذهنية ربما تَفقد مكانها فى نهاية الأمر داخــل المحاولات التى نقوم بها لوصف العالم وتفسيره" (Burge 1992: 33)، وربما يكون هذا خطأ، لكنها دعوى مهمة بكل تأكيد. ومع ذلك فهذا ليس واضحًا بما يكفى.

انظر إلى فكرتى ناجل: "قابل لأن تصفه الفيزياء" و"وصفته الفيزياء". فما الذى تعنيانه؟ وهو يقدم مثال "السيولة"، بعلاقتها "الشفافة" بسلوك الجزيئات. ولا يمكن لهذه العلاقة أن تكون شفافة تماما؛ فقد كان أبرز علماء الفيزياء قبل قرن ينظرون إلى الجزيئات على أنها خرافات مريحة، وأنها حالاتٌ للمادة، كما عُرف فيما بعد، لا "يمكن وصفها" بالفيزياء آنذاك. وربما صح لأحد فروع العلم لم يكن قد وُحِّد مع الفيزياء حينذاك أن يلقى قدرًا كبيرًا من الضوء تأسيسًا على صياغاته النظرية، إلى جانب أشياء كثيرة؛ لكن هذا الشىء نفسه صحيح الآن عن بعض جوانب مجال ما يُعدُّ ذهنيًا (بالمعنى الذى أقصده). فلماذا تكون هذه التعليلات أقلَّ "فيزيائية" مما كانت الكيمياءُ عليه قبل قرن؟ أو أقل فيزيائيةً من القوى السرِّية عند نيوتن، وهكذا حتى نصل إلى المفترضات النظرية الغامضة المضادة للحدس فى الوقت الحاضر؟ وربما أمكن توحيدُ التعليلات العلمية الطبيعية للظواهر الذهنية فى المستقبل مع الفيزياء، وهى التى ربما يجب، مرة أخرى، أن تعدّل، وعندها ستكون العلاقات "شفافة" كذلك.

أما دعوى النزعة الإقصائية فى صياغة بيرج لها (وهى صياغة نمطية، مرة أخرى)، فيمكن أن نسأل لماذا تكون مهمة أصلا. دعنا نستبدل بمصطلح "ذهنى" مصطلحَ "فيزيائى" فى هذه الدعوى. ولا خلاف على أن "الكلام الفيزيائى والوحدات الفيزيائية" فقدت مكانها منذ أمد بعيد فى محاولاتنا وصف العالم وتفسيره"، إن عنينا بـ "بفيزيائى" و"فيزيائية" الأفكارَ التى تدخل فى خطابنا وتفكيرنا العاديين. فلماذا ينبغى أن نتوقع شيئًا مختلفًا عن "الكلام الذهنى والوحدات الذهنية"؟ افرض أننى قلت:

The rock dropped from the skies, rolled down the hill, and hit the ground.

"سقط الحجر من السماء، وتدحرج على سفح الجبل، ثم وصل إلى الأرض".

ولا يمكن ترجمة هذا القول إلى النظريات التي طوّرت لوصف العالمَ وتفسيره، وليس هناك علاقة مهمة أضعف [بين هذا القول وتلك النظريات]؛ ذلك أن هذه المصطلحات تنتمي إلى عوالمِ فكرية مختلفة. لكنّ لا أحد يأخذ هذا على أنه يرسّس لمشكلة "جسد – جسد"[٤]. ولا تطمح العلومُ الطبيعية كذلك إلى تمييز هذا الوصف عن القول بأن الحجر سقط في وَهْدَة، وهو ما يمكن أن يكون الحدثَ نفسَه منظورًا إليه من زاوية مختلفة (حين لا يميّز الجبلَ عن التضاريس الطبيعية المحيطة به). ولا يتوقع المهتمون بالمنهجية الطبيعية أن يَجدوا نظائرَ لهذه الأحكام العامة في النظريات التفسيرية التي يصوغونها بوَعي؛ كما لا يجدون مثل هذه النظائر لأقوال مثل:

John took his umbrella because he thought it was going to rain.

"أخذ جون مظلته لأنه ظن أن السماء كانت ستمطر".

أو:

John is in pain.

"جون يتألم".

أو:

John speaks English.

"يتكلم جون الإنجليزية".

– مع أنهم يأملون، في الحالات كلها، في احتمال أن يؤدي البحثُ العلمي الطبيعي إلى فهم أعمق في المجالات التي فتحها للبحث خطابٌ يَعكس المنظورات البديهية.

ويَبرز بعضُ الأسئلة المماثلة بشكل أكثر توسعا. انظر إلى وجهة نظر دونالد ديفيدسون عن "شذوذية الذهني"، وهي أنه على الرغم من وجود علاقات سببية بين الأحداث الذهنية والفيزيائية، إلا أنه ليس هناك قوانين نفسية – فيزيائية تَربط بينها في خطاطة تفسيرية ملائمة. وكما يصوغ ديفيدسون الأمرَ، ينبغي ألا نقارن بعضَ البدهيات عما سيَفعله الناس عمومًا

تحت بعض الظروف المحددة "بقانونٍ يبين ما السرعة التى سيهوى بها جسد فى فراغ"، لأن "من الممكن التنبؤ فى الحالة الأخيرة، لا فى الحالة الأولـــى، هل يتحقق الظرفُ أم لا، وإذا لم يتحقق فإننا نعرف السبب الـــذى جعلـــه لا يتحقَّق" (Davidson 1980: 233)، وهذا موقف من مشكلة الـــذهن ـــ الجـــسد يصفه بيرج بأنه "عميق لكنه خلافى" وإن لم يوضّحه بشكل كاف. (للاطلاع على نقاش متعاطف، انظر Evnine 1991)، ولا تبدو هذه الحجة مقنعةً تماما. ذلك أنه ينبغى، وللسبب نفسه، ألا نقارن بعضَ البدهيات عن تَدحرُج الكُرات على سفوح الجبال أو عن عاصفةٍ تتولَّد فى الغرب بقانونِ سقوط الأشياء إلى أسفل. لكننا لسنا معنيِّين بعدم وجود "قوانين فيزيائية ـــ فيزيائيـــة" physico-physical laws تَربط بين الخطاب العادى عن الأحداث فى العالم والنظرياتِ التفسيرية للطبيعة. وهناك من يُحاج بأن "علم النفس الشعبى" يَختلف عن "علم الآلية الشعبى"، مثلاً، أو "علم الكيمياء الشعبى" بسبب طبيعتـــه الاســـتنتاجية [القَبلية] a priori وعلاقته الحميمية بأفكار العقلانية والتعلـــيلات والمقاصـــد ومنظور المتكلِّم، إلخ. وهذه مجالات مختلفة بالتأكيد، لكنْ ليس واضحًا أنهـــا تختلف فى مظهر "الشذوذية" بالمعنى المقصود فى هذه المناقشة. وبقدر مـــا يمكن للبحث العلمى أن يزعزع قناعةَ شخصٍ ما بأن الشمس تَغـــرب أو أن بعض الأشياء تتصف بخاصية "التنافى" impenetrability (مع بقاء مثل هـــذه القناعات فى أجزاء أخرى من الحياة)، يمكن أن تنشأ عنـــه بعـــضُ النتـــائج المشابهة على قناعات الشخص عن طبيعة الاعتقادات (عن الدور الذى تؤديه العقلانية، مثلا). وأكثر ما يَعتقده الناسُ عن الاعتقـــادات أمـــورٌ اســـتدلالية [بَعْدية] a posteriori (ومن أمثلتها الجدلُ حول مفهـــومَى "شـــبكية المعنـــى" و"الفطرية") كما لدينا بعضُ الاعتقادات الاستنتاجية عن الكُرات التى تتدحرج على سفوح الجبال وعن تولُّد العواصف، ويبدو أن "علم الآلية الشعبى" (إلخ) ليس أكثر قبولاً من "علم الـــنفس الـــشعبى" لأن تـــصاغ قوانينـــه بقـــوانين "جِسْرِيَّة" bridge laws[*]، وكما يحاج ديفيدسون، فأمثِلة الحدث الذهنية، ليست

أمثلة من أنماط الحدث الفيزيائى (فى الوصف العام). والشيء نفسه صحيح عن أمثلة الحدث الفيزيائى والأشياء الفيزيائية، كما نفهمها البديهية؛ ولن تحوى اللغةُ البشرية مصطلحاتٍ للنوع الطبيعى، إلا نتيجة لصُدفة رائعة، إن كانت الأنواع الطبيعية أنواعًا من الطبيعة[1].

وإذا بدّلنا المصطلحات قليلاً دعنا نتحدث عن "الأحداث التى توصف ذهنيًا" ("أحداث – ع") و"الأحداث التى توصف فيزيائيًا" ("أحداث – ف")، محيلين إلى تعليلات مصوغة باللغة العادية، محتفظين بمصطلحاتٍ "ذهنى" و"كيميائى" و"مناظيرى"، إلخ، للأحداث التى يفترضها البحثُ العلمى الطبيعى فى المجالات الذهنية والكيميائية والمناظيرية، إلخ – وكلها "أحداث فيزيائية"، وهو مصطلح يتصف بالزيادة حين نتكلم عن الأحداث؛ والشيء نفسه فيما يخص الأشياء، وهكذا. ونتوقع من ثمّ أن نجد علاقات سببية بين "أحداث – ع" والأحداث الفيزيائية، لكن من غير قوانين تربط بينها فى إطار العلم التفسيرى؛ والشيء نفسه صحيح عن "أحداث – ف". وليست الاعتقادات والرغبات والإدراكات وتدحرجُ الصخور نحو الأرض وتولُّدُ العواصف، إلخ، موضوعاتٍ للقوانين العلمية، كما لا توجد قوانين جسرية تربطها بالعلوم. ومن المسلَّم به أن العلم لا يحاول الإحاطة بمضمونِ الخطاب العادى، ناهيك عن عمليات التخيُّل الأكثر إبداعا. وإذا صغنا عبارة ناجل بشكل آخر، فلا يمكن أن "نجد مكانًا فى عالَم" الفيزياء للظواهر الفيزيائية، بالصورة التى نصفها بها فى الكلام الفيزيائى ("ظواهر – ف")، لهذا لا غرابة أن يكون الشيء نفسه صحيحًا عن ("ظواهر – ع") كما توصف فى الكلام الذهنى.

وربما ينبغى التأكيد مرة أخرى أنّه ربما يكون المدى الذى يصل إليه البحث العلمى الطبيعى محدودًا إلى حد بعيد، حتى إنه ليَقصُر عن تناول بعض المسائل التى تمثل موضوعًا للانشغالات البشرية المهمة، مهما كان المدى الذى يمكن أن يصل إليه اهتمامُه الفكرى، وهذا هو الوضع الآن بكل

تأكيد، وربما سيظل كذلك. وتقضي النزعةُ الاقصائية بازدراء، كما يعلق ناجل ساخرًا، على "النظرية البدائية" التي كانت "مجالاً لاهتمام بعض البسطاء كفلوبير وبروست وهنري جيمس". ولا تبدو لي النزعة الإقصائية موقفًا متماسكا، إلا أنَّ من المستبعد أن تسعى المقاربة العلمية إلى استلحاق هذا المجال [النظرية البدائية]، إلا بقدر ما تسعى إلى استلحاق بعض الأمور التافهة كتدحرج الصخور على سفوح الجبال وتولُّد العواصف؛ أما الأمر فبعكس ذلك، بل إنها تحرر الباحث من بعض المتطلبات غير الضرورية (انظر الهامش رقم ١).

لاحظ أن صدقَ الكلام الفيزيائي العادي ومكانةَ الوحدات التي يَفترضها ليسا موضعًا للشك هنا. فهذه قضايا مختلفة. كما لا يثار أي سؤال عن دراسة التصورات البديهية بوصفها فرعًا للبحث العلمي الطبيعي (أي: العلم الإثني). فربما يكون من المهمّ أن نَعرف كيف تبدو بعضُ الأفكار عن اللغة في ثقافة [القبيلة الهندية الأمريكية] النفاهو (للاطلاع على وصف وافٍ لهذا، انظر Witherspoon 1977) أو في شوارع نيويورك، بل في الثقافة الفلسفية الأكاديمية المصطنَعة بوعي كذلك. ويصح الشيء نفسه عن بعض الأفكار الخاصة بالموضوعات الفيزيائية، والتفاعل، والفضاء، والحياة وبداياتها، إلخ. لكن لا بد من أخذ مثل هذا المقاربات بجدّ؛ إذ إنها ليست مقاربات عَرَضية، ويجب عدم الخلط بينها وبين البحث العلمي الطبيعي في طبيعة ما يتناوله العلمُ الشعبي بطريقته الخاصة، مستعملاً، ربما، ملكاتٍ أخرى مختلفة للذهن. والعلم الإثني فرعٌ للعلم يَدرس البشر، ويسعى لفهم الطرق التي يؤوِّلون بها العالَم، وتنوعاتِ هذه الأنظمة وأصولها. وتَدرس فروعٌ أخرى للعلم طبيعةَ ما يكتشفه البشر ويؤولونه بطرقهم الفريدة الخاصة، سواء أكانت تلك الظواهر مناظيرية أم كهربائية أم آلية أم ذهنية. ونحن نستمر، في الوقت نفسه، في استخدام تصوراتنا، ونختار بوعي، أحيانًا، أن نصقلها ونغيِّرها، في محاولتنا للتعامل مع مشكلات الحياة اليومية. وهذه مقاربات متمايزة.

ويَسأل العلمُ الإثنى عن كيفية تأويل الناس لما يَجدونه في محيطهم وكيف يقوِّمونه. ويُعنى بتفسيرات الأشياء التي تحاول الوصول إلى أماكنها الطبيعية وبحركةِ الأجرام السماوية قياسًا إلى بعض النجوم الثابتة؛ وبالعناصرِ الجوهريةِ الأساسية كالأرض والماء والهواء والنار والطرقِ التي تتحد بها لتنتج ظواهرَ الطبيعة؛ وظواهر القوى المهمةِ التي توجِّه التطورَ الأحيائي والتمييز؛ وظواهر الاعتقاداتِ والرغبات والخسوف والعناصر الأخرى التي تدخل في تعليل الأحداث الغائية؛ إلخ. وليس ادعاءً اختباريًّا تافهًا أن نقول إن الناس في بعض الثقافات التقليدية يؤولون الحركةَ في ضوء مفهوم التَّماس؛ أو يَعزون، متوافقين مع آراء ديفيدسون، بعضَ الاعتقادات والرغبات في ضوء معايير العقلانية والمعيارية normativitiy منطلقين من منظور شيكي، في جهودهم لتقويم الأفعال. وهذه ادعاءات قوية، وتتطلب أدلة. وربما تبيَّن في نهاية الأمر أن الاعتقادات والرغبات تُعزى إلى بعض المخلوقات (كالبشر، رُبما) انطلاقًا من اعتبارات مختلفة كليًا، إذ ربما تكون انعكاسًا لطرقٍ غريزية للتأويل يحدِّدها الإعداد الأحيائي الفطري (أي: البديهة)، وأنه يقام بمثل هذا العزو باطراد حتى حين يُمكن النظر إلى الكائنات المعزوِّ إليها على أنها تتصرف بطرق لا تتوافق مع العقلانية تماما، أو موجَّهةً بالغريزة في بعض السياقات التي لا تَبرز فيها مسألةُ العقلانية.

وبغض النظر عما يمكن أن يكتشفه المهتمُّ بالعلم الإثنى عن طبيعة "الموقف القصدي" intentional stance ، بمعناه عند دانيال دينيت، فهناك طريقان آخران يُشْرِعان أمام البحث العلمي. فالأولُ عن الناس، أي: ما الأصول التي جاءت منها طُرقُ الفهمِ عندهم؛ وتحديدًا، ما الدور الذي يؤديه الإعدادُ الفطري في تطويرِ علمٍ للكوْن cosmology، أو الحكمِ بأن شخصًا آخر يحاول تناوُلَ كتابٍ أو يَقرأ كتابًا، أو يُسرع ليلحق بالحافلة. ويَنظر التوجهُ الثاني في الأشياء التي يحاول الناس فهمَها بطُرق العلم الشعبي التي تقوم على الغريزة وتُحدِّدها الثقافة. [مثل] ما مدى الصدق في علم الكون،

وتكوّن القارات، وتمايز الحشرات، وتخطيط المرء لما يفعله، إلخ. وستؤطِّر الإجابات، بقدر ما يكون نفاذ الذكاء البشرى إليها ممكنًا، فى ضوء بعض الحدود الملائمة للمشكلات المعنية، مع اهتمام ضئيل بالوسائل الفكرية للعلوم الشعبية، ومن غير أن نتوقع أنه سوف يُمكن التعبير بصورة مباشرة عما يوصل إليه من الصياغات والمبادئ فى ضوء فروع العلم الأكثر "أساسية"، حتى إن حُلتْ مشكلة التوحيد. وربما تكون النتيجة النهائية أننا نستطيع تفسير السبب الذى يَجعل تأويلات العلم الشعبى تَعمل بقدرٍ ما، سواء أكانت تهتم بالأجرام السماوية والزهور، أم بلاعب متمرّس للشطرنج، أم بطفلٍ يستخدم قوالب لبناء قلعة (انظر Burge 1992، للاطلاع على بعض التعليقات الخاصة بعزو الحالات الذهنية، فى هذا السياق، انظر Chomsky 1969).

وإذا رجعنا إلى نقد النزعة المادية – بحسب ما يراه ناجل، مثلاً – فيبدو أنها تواجه عددًا من المشكلات. فليس هناك معنى واضح للتصوُّرين المفترَضين "فيزيائى" و"مادى"؛ وكذلك التصور "ذهنى"، إلا إن أضفْنا معنى معينًا على فكرة الشعور "الممكن" وحتى بعد ذلك، ليس من الواضح ما الأهمية التى ربما تكون لهذه المقولة تحديدًا، بتمايزها عن مقولات أخرى كثيرة. وليس من شأن العلوم أن تعبِّر عن مضمون الخطاب العادى عن أى شىء، فيزيائيًا كان أم ذهنيًا. فليس هناك مذهبٌ متماسك للنزعة المادية أو النزعة الطبيعية الغيبية، فيما يبدو، وليس هناك قضية إقصائية، ولا مشكلةٌ للذهن – الجسد.

وتتزايد المشكلات حين ننظر فى الكيفية التى تُتناول بها بعضُ المسائل الاختبارية المحدَّدة. ويَنظر ناجل فى إحدى هذه المشكلات وهى: الاقتراحُ بأن هناك "جهازًا لاكتساب اللغة" LAD ، يَسمح للطفل بأن يتعلم نحوَ لغةٍ ما بناء على عيِّنات من الكلام الذى يَتعرَّض له" (Nagel 1993: 109). ويَنظر إلى هذا على أنه جزء محترَم من العلم، صحيحًا كان أم خطأً. إلا أنه يجادل بأنه ليس صحيحًا أن يوصف "جهاز اكتساب اللغة" بأنه "آلية نفسية"، كما هو

رأيي: بل ينبغي أن يُنظر إليه على أنه "آلية فيزيائية وكفى – ذلك أنه لا يمكنه أن يؤدي إلى نشوء فكر شعوري ذاتي يتكوّن مضمونه من تلك القواعد نفسها" (ص ١٠٩). وإذا وضعنا جانبًا هذا التصوُّرَ لـ"جوهرِ الذهن" وصحةَ وصفِ ناجل لـ"جهاز اكتساب اللغة" (وهو وصف ربما لن أصوغه بهذه الطريقة تماما)، ينبغي أن نلاحظ أن تأكيدَ ناجل يبدو تأكيدًا اختباريًّا عن "قدْرة" نظامٍ فيزيائي ما. وهنا نواجه، مرة أخرى، الأمرَ الأهمّ المتمثلَ في "الشعور الممكن"، الذي يُقدَّم الآن بوصفه فرضيةً اختبارية. وسنعود إلى هذا.

وماذا سيكون ردُّ فعل منْ يتبنّى صراحةً "المادية الإقصائية" على نظريةٍ لـ "جهاز اكتساب اللغة" (أو للنحو الكلي)، ولنَقل كْوين، الذي يصفه بيرج بأنه مؤسِّس هذا المذهب؟ فيقدّم كوين "دعوى المقاربة الطبيعية" التي تقول إن "العالَم هو ما يَقول العلمُ الطبيعي إنه هو، بقدر ما يكون العلمُ الطبيعي صحيحا" (Quine 1992: 9)؛ لكن هذا غير مفيد حتى يبيِّن لنا ما "العلم الطبيعي". وكنت قد اقترحتُ عددًا من الإجابات الممكنة، لكنْ يبدو أنَّ كوين يفكِّر بأشياء أخرى. فالعلمُ الطبيعي عنده هو "نظرياتُ الكواركات وما يماثلها". لكن ما الشيء "المُماثِل تقريبًا" ليكون جزءًا من العلم؟ ومن الواضح أن هذا يَسمح بإدخال العصبونات، ومعها بعض العمليات النفسية المعينة: لهذا يؤكِّد كوين أنَّ اللغة "موصولة إلى دخْلنا العصبي بالآليات العصبية للترابط أو التقييد". لكن الأدلة الاختبارية كثيرة جدًّا على أنه لا شأن للترابط والتقييد باكتساب اللغة أو استخدامها، إلا أن ذلك لا يبدو مهمًّا عنده، والسبب وراء موقفه هذا غير واضح. ومهما كانت الإجابة، فهناك أمثلة مما يحبِّذه كوين (كالكواركات والدخول العصبية والتقييد) وأخرى مما لا يحبذه (كأدوات "جهاز اكتساب اللغة"، أي الآلية العاملة، على حد ما نعرفه عنها). لكنه لم يقدِّم أسبابًا لقراراته هذه، أو شيئًا يتجاوز أمثلةً قليلة توحي بمدى [هذه القرارات].

وتكشف "دعوى المقاربة الطبيعية" التي اقترحها عن الاعتباطية نفسها

في مجالات أخرى. لهذا يكرِّر كوين وجهة نظره التي يقدِّمها في أغلب الأحيان ومؤداها أن "تشييء الأجساد [إدراك الأشياء المجردة بصورة مادية] يأتي على مراحل في أثناء اكتساب اللغة"، حيث تكون "المرحلة الأخيرة" من [هذا التشييء] إدراك ماهية [الشيء] من غير اعتبار للزمن. وإذا كانت هذه فرضية اختبارية، فنود أن نعرف كيف يمكن تقديمها بمثل هذه الثقة. والمؤكد أنها ليست فرضية واضحة، بل ليست معقولة. ويجب ألا نكتفي بالأدلة النادرة؛ ذلك أن دراسات الأطفال في السنوات الماضية توفر لنا أسبابًا وجيهة جدًا للاعتقاد بأن مثل هذا "التشييء" يحدث في الأشهر المبكرة من حياة الطفل، قبل وقت طويل من أي تحقق للغة. (للاطلاع على مراجعة عامة، انظر، Spelke 1990؛ وللاطلاع على مراجعة للأبحاث الأحدث، انظر Baillargeon 1993؛ وانظر كذلك الهامش رقم ٧ على هذا الفصل).

وبما أن نظريات "جهاز اكتساب اللغة" التي يشير إليها ناجل لا تقر مذهبيات الترابط والتقييد، وتفترض بعض الآليات التي لا يمكن صياغتها على صورة كواركات أو عصبونات (الآن، في الأقل، وربما إلى الأبد)، فربما لا تنتمي إلى العلم، بمعناه عند كوين. ويشبه هذا حال الكيمياء قبل قرن، أو الآليات السماوية في زمن نيوتن، ولأسباب مماثلة. وربما لا يتوافق التقصي الاختباري "للتشييء" مع المعايير التي يفترضها كوين كذلك، وللسبب نفسه[٧]. ويبدو أننا نواجه مثالاً متطرفًا من الثنائية المنهجية، يتجاوز خصيصة غموض مفهومي "المادية" و"الإقصائية".

النفاذ إلى الشعور

دعنا نوجِّه النظر الآن إلى تحديد الذهني في ضوء النفاذ إلى الشعور، الذي يؤدي إلى التمييز بين الذهن والجسد، كما يرى كثيرون. فيخلص ناجل، متبنيًا هذا الوصف، إلى أن "جهاز اكتساب اللغة" (والحالة المحصَّلة كذلك، أي "اللغة – د"، وهو ما سنطلق عليه مصطلح "اللغة"، منذ الآن) آليةٌ فيزيائية

وحسب، لا آلية نفسية، "ذلك أنه لا يستطيع أن يؤدى إلى فكرٍ شعورى ذاتى يتألف مضمونه من تلك القواعد نفسها" (Nagel 1993: 109). افرض أن أحد خيارات التنوُّع بين اللغات يتصل باتجاه ترتيب [مكوِّنات الجملة]: شمال – يمين، حيث يكون الاتجاه التركيبى فى الإنجليزية: "الرأسُ أولاً"، كما فى:

See – the book.

In – the room.

إلخ، أما فى اليابانية فيكون: "الرأسُ آخراً" (وهذا تناظر فى التركيبات كلها فى اللغتين). لكن "جونى" [وهو متكلم للإنجليزية] ليس واعيًا أنه كان يُثبِّت "وسيطَ الرأس" فى ضوء الترتيب: "شمال ــ يمين" اعتمادًا على دليل استقاه من عبارة:

See the book

إلخ، ولا يستطيع أن يقول لنا ذلك، مع أن هذا ما يَحدث احتمالاً على وجه الدقة، ومثل ذلك أنَّ مارى لا تملك وعيًا شعوريًّا بأنها تَستعمل المبدأ (C) فى نظرية الربط العاملى حين تؤول المثال (١) بشكل مختلف عن المثال (٢)، مطَّرِحةً خيارَ اعتمادِ الضمير he إحاليًّا على Bill فى المثال (١) مع سماحها بذلك الاعتماد فى المثال (٢). لذا لا تؤولُ المثالَ (١) على أنه (١) لكنها ربما تؤول المثالَ (٢) على أنه (٢) (حيث يشير الضمير he إلى Bill فى الحالتين كلتيهما):

١ــ He thinks Bill is a nice guy.

"يظن (هو) أن بيل شخص لطيف".

٢ــ The woman he married thinks Bill is a nice guy.

"المرأة التى تزوجها تظن أن بيل شخص لطيف".

Bill thinks he is a nice guy. (١٠)

"يظن بيل أنه شخص لطيف".

The woman Bill married thinks he is a nice guy. (٢٠)

"المرأة التي تزوجها بيل تظن أنه شخص لطيف".

ويقارب عدمُ الوعي هذا، زيادة على ذلك، فكرةَ "الشعور الممكن"، وهي فكرة لم توضَّح بعد. وربما تعني أنه لا يمكن لمخلوق بملكة لغوية تماثل ملكةَ ماري اللغوية، بهذه "الآليات الفيزيائية"، أن يمتلك الشعورَ الذي لا تمتلكه ماري، وهذه حقيقة اختبارية مهمة. ويترتب على هذا أنَّ نظريات "جهاز اكتساب اللغة" ونظرياتِ اللغة لا تخترق الحدَّ بين الجسد والذهن؛ إذ هي ليست عن الذهن، بل عن الآليات النفسية.

خذ مثالاً من مجال آخر: فلا تعي ماري شعوريًا بأنها تستعمل "مبدأ صلابة" يؤوِّل الصُّورَ البصرية التي تُقدَّم لها على أنها شيء صلْب يتحرك حين ترى ما تعدُّه مكعبًا يتقلَّب في الفضاء، ولا يستطيع جوني ذو الثلاث سنوات أن يُخبرنا عن الاعتقادات الخاصة بثبات الشيء ("التشيؤ") والمسار الذي يجعله يتوقَّع ظهورَ شيء ما بشكل معين، وفترة معينة، ومكانٍ محدد بعد مرور هذا الشيء من وراء حاجز، وربما لا يكون واعيًا بذلك (Spelke 1990; Baillargeon 1993). ويترتب على هذا أنا لا نستطيع أن نصف هذه الحالات والخصائص التي نعزوها لماري وجوني كأنها آليات نفسية للإبصار – إن كان الشعور الممكن غائبًا أيضًا في هذه الحالات، في الأقل.

وقد قدَّم دانيل دوميت فكرةً مماثلة، وإنْ كانت بمصطلحات مختلفة. فهو يَعدُّ نظريات "جهاز اكتساب اللغة" واللغةَ المحصَّلة "فرضيات نفسية"، وإن لم يوفِّر أي منها "تفسيرا فلسفيًا" لأنها لا تتحدث عن "الشكلِ الذي يؤدي

به [جسدُ المعرفةُ]"؛ أما الوعى الشعورى فربمـا يَعبُـر بنـا تلـك الحـد (Dummett 1991: 97). ويحتمل أنَ ينطبق الأمرُ نفسه علـى فكـرة ثبـات الشيء وما يماثلها. ولا يقع الفارق هنا بين الذهن والجسد، بل بـين العلـم والفلسفة. ذلك أن النظريات في العلوم (بغض النظر عن دقة هذه الـدعوى)، تبيِّن لنا كلَّ ما يتصل بالشكل الذى يؤدى به جسد المعرفة؛ أمـا فـى حالـة النظرية عن المعنى (واللغة والفكر عموما، على وجـه الاحتمـال، وربمـا الإبصار والتشيؤ، إلخ)، فيُشترط نوع إضافى مـن التفـسير، أى "تفـسير فلسفى"، وهو الذى يذهب وراء العلم.

فلدينا، فى الحالتين كلتيهما، فارقٌ جوهرى - وربما يكون فارقًا غيبيًا - مؤسَّسٌ على النفاذ إلى الشعور.

ويتابع تفسيرُ ناجل تفسيرَ سيرل فى كتاب [سيرل] الذى كان [ناجـل] يراجعه (انظر Burge 1992). ويمكن أن نرجع أصولَ الشكل المعاصر لهذه الحجة إلى تمييز كوين المؤثر بين "الموافقـة" fitting و"التوجيـه" guiding. فيَعترض كوين على مذهب تقليدى (وهو الذى أُعيد تأويلُه فـى اللـسانيات المعاصرة) يقول بأن المتكلمين "يوجَّهون" بـ"فكرة للبنية" ربمـا لا تكـون شعورية حين يصوغون "التعبيرات الحرة" الجديدة ويؤوِّلونهـا (Jespersen 1924: 19). وهو مذهب ينظر إليه كوين على أنه "مذهب غامض"، أو ربما "حماقة" خالصة (Quine 1972: 447). وربما لا يمكننا الحديث عن "التوجيه" إلا حين تنطبق القواعد بصورة شعورية لكى "تتسبَّب" فى حدوث السلوك؛ أما فى غير هذه الحال، فربما لا يمكننا أن نقول إلا أن السلوك "يتوافق" مع نظام ما للقواعد أو "يَخضع" له، كما يَخضع كوكبٌ ما لقوانين سقوط الأجساد، كما يجب ألا نعزو "واقعيةً نفسية" لتصوُّرٍ معيَّن عند كـائن عـضوى "يَخـضع" للقواعد.

فيتبنى كوين، مرة أخرى، شكلاً متطرفًا من الثنائية. إذ يُسمح لنا - بل يلزمنا - فى حالة الأجساد الساقطة، أن نعزو "واقعيةً فيزيائية" لتصوُّرٍ معيَّن

لطبيعتها وللمبادئ المفترضة. إلا أنَّ الواضح أننا لا نستطيع أن نعلل الحالةَ التي حصّلتها الملكةُ اللغوية والطرقَ التي تدخل بها في السلوك؛ اعتمادًا على الافتراض بأن للدماغ كتلة، وأنه يخضع لقوانين سقوط الأجساد. فنحن بحاجة إلى مزيد من البنية. أما المقاربة العلمية الطبيعية فستتناول هذا الأمر بالطريقة نفسها التي تُدرس بها الكواكبُ والنمل؛ أي أنها تسعى في هذه الحالة للوصول إلى نظرية للحالة الأولى والحالة المحصّلة، والعلاقة بينهما، وإلى علاقة الحالة المحصّلة بالأداء والأحكام، عازيةً "الواقعيةَ" لأي شيء نفترضه في أفضل نظرية يمكن أن نصوغها. ومستوى فهمنا أقلُ من ذلك بكثير فيما يخص العضويات الأكثر تعقيدا، لكن لا صلة لهذا بما نحن فيه هنا.

فهناك فارق مذهبي للتمييز بين الحالتين: فما يُشترط في حالة (الأجساد الساقطة) ممنوعٌ في الحالة الأخرى (حالة البشر في "ما فوق الرقبة"). أما ما يجعل الأمرين مختلفين، مرة أخرى، فهو الشعور، إضافة إلى "تسبيب السلوك"، وهي فكرة لها مشكلاتها غير التافهة. ولا يكاد يكون هناك سبب للاعتقاد بأن السلوك العادي "يتسبّب فيه"، بأي معنى معروف لذلك المصطلح في الأقل، وليس هناك سبب يجعل عالمًا يتبنى المنهجية الطبيعية يفترض بصورة مذهبية غيرَ ذلك.

ويبدو كأن تعليل كوين ينطبق بالطريقة نفسها على مثال الإبصار. فجوني وماري ليسا "موجَّهيْن" بمبدأ الصلابة، ولا بمبدأ ثبات الشيء، إلخ. فسلوكُهما "يتوافق" وحسب، مع هذه المبادئ، كما يخضع المريخ لقانون سقوط الأجساد. وستكون أيةُ نظرية عن حالات الدماغ تتضمن مثل هذه المبادئ لتعليل سلوك ماري وجوني قاصرةً منهجيًا، مهما كان تلاؤمها مع معايير البحث العلمي الطبيعي؛ وستكون غامضة، في أفضل الأحوال، وحمقاء، في أسوئها. (وكما تقدّم، يصعب أن نعرف بشكل محدّد وجهةَ نظر كوين عن هذا الأمر. انظر الهامش رقم ٧).

وتظهر هذه الأفكار بصيغ أخرى كثيرة. وليس من السهل تقويمها. لهذا، لم يقدّم سبب وجيه لهذه القيود، ولا ينبئ شيء بأنها ليست أكثر من اشتراطات اصطلاحية فارغة. وأكثر أوجهها تطورًا الوجهة الذي يتبناه ناجل من سيرل. فدعنا ننظر فيه باختصار.

ولا يبدو أن الثنائية التي لم تُفسَّر في تمييز كوين أثارت كثيرًا من الاهتمام، لكن كثيرًا من الباحثين يرون أن المقتضيات التي تترتب على صياغتها المحدّدة مناقضة للحدس. انظر إلى ظاهرة "الإبصار الأعمى" blindsight، مثلا: فتستطيع "ألس"، التي أُصيبت بعطب في القشرة المخية، أن تميّز تقريبًا تمييزًا واثقًا بين ما يقدّم لها من أوضاع بصرية (كرسم لبيت يحترق وآخر لبيت لا يحترق)، لكنها تُصرّ على أن هذه الأوضاع متماثلة، وهو ما يعني أنها ليست واعية بما يدخل في سلوكها المميّز. ولا يمكن – بحسب رأى كوين – أن نتحدث عن "توجيه" هنا؛ إذ يمكن أن نتحدث عن "موافقة" فقط (كما يبدو، انظر Quine 1992: 9؛ الهامش رقم ٧). ولا يمكن أن نعزو إلى "ألس"، في وجوه أخرى [لفكرة كوين]، "تمثيلات ذهنية"، وإن أمكننا ذلك في حالة جون، الذي يعي الفرق [بين الحالتين] ويستطيع أن يخبرنا عنهما، كما كانت ألس تفعل قبل الإصابة بالجرح. فلدينا في حالة ألس "آليات فيزيائية" فقط، أما في حالة جون فلدينا "آليات نفسية"؛ أو بتعبير آخر، لدينا في حالة ألس "فرضية نفسية" فقط، لا "تفسيرًا فلسفيًا"، كما في حالة جون. وليس شيء من هذه المقتضيات جذابًا.

ويأمل سيرل أن يتجنّب هذه المقتضيات بتقديمه فكرة النفاذ إلى الشعور "من حيث المبدأ" – وهو ما يسميه ناجل، في مراجعته، "إمكان الشعور"[٨]. ويتطلب "المبدأ الرابط"[٩] الذي يقترحه سيرل "النفاذ إلى الشعور" من حيث المبدأ لعزو الحالات والعمليات الذهنية. ويرى سيرل، في حالة "الإبصار الأعمى"، أن "ألس" تمتلك النفاذ من حيث المبدأ إلى التمثيل، أو القاعدة، أو غير ذلك. فليس "الإبصار الأعمى" إلا حالة من "الاعتراض"، blockage لا

حالةً من "عدم النفاذ من حيث المبدأ"، وهو ما يمكّننا مـــن أن نـــتكلم عـــن عمليات ذهنية في حالة ألس، كما في حالة جون. لكن لن يكون لهذه النتيجة معنى إلا بعد تفسير عبارة "من حيث المبدأ".

افرض أن جين تماثل ألس (من حيث الاعتبارات ذات الصلة، وهـــذا احتراز لن أكرِّره)، إلا في تاريخ حياتها: كأن لا تكون حالتُهـــا العـــصبونية نتيجةً لجرح أصيبت به بعد الولادة بل لجرح تعرضت له في بداية الحمْـــل، وهو ما أدى إلى هذه الحالة. ومن المحتمل أنها تمتلك أيضًا "النفاذ من حيث المبدأ"؛ وما يزال المبدأ الرابط ينطبق (أما إن كان الأمر بخلاف ذلك فلـــيس للنقاش كلِّه من هدف؛ ذلك أن وقت الإصابة بالجرح لا يكاد يكون مهمًّـــا). افرض أن هذا الجرح الذي حدث في بداية الحمل أثَّر على المورِّثات بطريقة تجعلها تؤدي إلى الإصابة بـــ "الإبصار الأعمى"، وربما ينطبق المبدأ الرابط في هذه الحالة كذلك، وإلا لن تكون النتائج أقلَّ مناقضةً للحدس. افرض الآن أن سوزان تماثل جين إلا أن هذا التغير الوراثي [الإبصار الأعمـــى] حـــدث نتيجة لطفرة، لذلك فهي تماثل جين في التكوين الوراثي، وإنْ لم تُصب بـــــ "الإبصار الأعمى" نتيجةً لجرح، كما حدث لألس وجين. ومرة أخرى، يجب أن ينطبق المبدأ الرابط، أما إن لم ينطبق فلن يكون لهذا النقاش من هـــدف. ويعني هذا أن سوزان تعاني من "الاعتراض" فقط. افرض أن هذه الخصيصة الوراثية عند سوزان انتقلت [إلى ذريَّتها] بالوراثة، وهو ما يؤدي في نهايـــة الأمر إلى ظهور نوع [بشرى] فرعي، فلدينا الآن "نوع – جون" [النوع الذي يتكوَّن أفراده من أمثال جون] و"نوع – سوزان"، وهما يتشابهان تشابهًا تامًّا من حيث آلياتهم الإدراكية. ولا يعي الذين ينتمون إلـــى "نـــوع – ســـوزان" التمثيلات الذهنية ولا القواعد التي توجِّههم ولا يستطيعون الإخبار عنها. أما فيما عدا ذلك فلا يمكن التمييز بين النوعين الفرعيين، بل إن هناك شيئًا مـــن التماهي عبْر النوع في الآليات البصرية، كما هي حال ألـــس وجـــين بعـــد الإصابة بالجرح. وبما أن المبدأ الرابط ينطبق على سوزان، فهـــو ينطبـــق

احتمالاً على "نوع – سوزان"؛ أما إن لم يكن الأمر كذلك فلا يعدو ما بين أيدينا، مرة أخرى، أن يكون افتراضات اصطلاحية لا قيمة لها.

دعنا نأخذ الآن حالة اللغة. افرض أننا اكتشفنا أن تاريخنا التطوري يُشبه تاريخ "نوع – سوزان". أى أن أجدادنا كانوا فى الواقع من "نوع – جون"، واعين وعيًا تامًا بالكيفية التى يثبّتون بها وسيط الرأس، ويُحدِثون الاعتماد الإحالى، إلخ، ويستطيعون وصف ذلك كله وصفًا بيّنًا لعلماء من المريخ كانوا يلاحظونهم. لكنّ طفرة حدثتْ (أو حدث جرح نشأ عنه تغيُّر وراثى، كما فى حالة جين) ثم انتشرت، مما أدى فى نهاية الأمر إلى وجودنا، أى لنكون من "نوع – سوزان"، أى محرومين من هذه القدرة. افرض أننا اكتشفنا أننا لم نتمكن حتى من اختبار الرواة اللغويين الملائمين بعد. وأن النوعين الفرعيين يختلط بعضهم ببعض، ويتصرف أفرادهما بشكل متماثل تماما؛ وينتج عن هذا أنه لن يكون بإمكان أحد منا، ولا بإمكان أى عالم، اكتشاف أى فارق بين أعضاء المجموعتين، إن لم تُبحث مسألة الوعى. وينطبق المبدأ الرابط على "نوع – جون" المبكر، وعلى بقاياه بيننا؛ ومن هنا فهو ينطبق علينا كذلك، إلا إن اخترنا اتخاذ بعض القرارات المصطلحيَّة التى تبيّن، كما فى السابق، أنه لا فائدة لهذا الجهد كله.

لكن هذه النتيجة خاطئة تماما؛ ذلك أن الغرض الوحيد من هذا النقاش أن يبرهن على أن البحث العلمى الطبيعى فى اللغة والذهن لا يؤدى إلى "واقعية نفسية"، أو "آليات نفسية"، أو "تفسيرات فلسفية"، أو "تمثيلات ذهنية"، أو "توجيه" بالقواعد. وبصورة أكثر جوهرية، يجب أن يُحدِّد المبدأُ الرابط أننا لا نستطيع النفاذ إلى الآليات ولا العمليات التى تقوم بها "من حيث المبدأ". ونحن لا نعانى من مجرد "الاعتراض"؛ بل نعانى من أن آليات أدمغتنا التى "لا تستطيع أن تؤدى إلى فكر شعورى ذاتى يتكون مضمونه من هذه القواعد أنفسها" (Nagel 1993: 109)، ذلك أن هذا بأجمعه يقع خارج الشعور "الممكن".

ولإنقاذ القصة، يجب علينا، فيما يبدو، أن نصرَّ على أنه لا يمكن أن يوجد "نوعٌ — جون" في حال اللغة (مع أنه يمكن أن يوجد، وهو كذلك، كما في حالة الإبصار الأعمى، أي البشر): أي أن من المستحيل أن يوجد نوع عضوي يشبهنا تمامًا إلا أنه يشعر شعورًا تامًّا بمضمون القواعد التي يتبعها حين يتعلَّم اللغة (ويستخدمها). ويشبه ذلك أن يكون فرضيةً اختبارية لا مصادرة اصطلاحية، في الأقل. لكنْ ما الأساس الذي يجعلنا نؤكده؟ أو، إن لم يكن هذا الزعم اختباريًّا، بل تصوريًّا، ما الأسس التي يقوم عليها؟ وبغض النظر عن إن كنا نقبله أو لا نقبله — وسواء أكان فرضية اختبارية أم تصورية — فما أهميته المحتملة؟ وكيف يختلف عن ادعاءٍ ما عن "جوهر الكيميائي" (أو الكهربائي أو المناظيري، إلخ)؟

وتَبرز أسئلةٌ مشابهة عن إدراك الشيء الذي ناقشناه آنفا، ويمكن أن نفصِّل تلك الصعوبات، وهو ما يؤدي إلى مزيد من أنواع التناقض. ولا يبرز أي من هذه الأسئلة في البحث العلمي الطبيعي الذي لا مكان فيه لأفكار مثل "الشعور من حيث المبدأ" أو "الشعور الممكن" أو "المبدأ الرابط"، ولا فكرة "للتفسير الفلسفي" وراء التفسير، ولا أصناف مفضلة من الأدلة (كـ "الوعي"، أو "الدليل النفسي" مقابل "الدليل اللغوي")، ولا لثنائية "الذهن — الجسد"، ولا لـ"الثنائية المنهجية" (أو غيرها من الثنائيات).

ولا تعدو الجهود التي تسعى للإبقاء على مثل هذه الثنائيات أن تكون بقايا للمحاولات التي كانت تسعى لإنقاذ الفكرة التي مفادها أنَّ المعرفة نوعٌ من القدرة، على الرغم من حقيقة أن القدرة يمكن أن تَصقل أو تَضعف — بل ربما تختفي تماما — في حين تبقى المعرفة ثابتة، كما بيّنا ذلك بمثال فقد القدرة على الكلام (أو السباحة، إلخ)، مثلاً، بعد الإصابة بجرح والشفاء منه من غير أن يكون هناك دخْل ذو صلة بعد بُرء الجرح. والنتيجة الطبيعية أنَّ المعرفة (التي يمكن تأطيرها في عبارات مثل: "كيف. . ."، و"أن. . ."، إلخ) تتضمن عنصرًا إدراكيًّا مهمًّا، ويجب ألا يُخلط بين القدرة على استخدام

المعرفة والمعرفة نفسها. ولتجنُّب هذه النتيجة، يصاغ تصورٌ تقني يتصف بخصائص المعرفة ــ يسمى "قدرة" ــ لكنه مختلف عن التصور العادي، وهي محاولة غريبة بشكل خاص حين يُلجأ إليها بزعم الدفاع عن وجهة نظر فتجينشتاين، (انظر الهامش رقم ٤ للاطلاع على بعض المراجع ذات الصلة وبعض النقاش).

أنواع أخرى من الثنائية:

يأخذ أغلبُ النقاش عن "اتّباع القاعدة" قواعدَ الرياضيات أو قواعد المرور نموذجًا، أو تلك القواعد التي نجدها في كتب النحو التقليدي، أو أنواع أخرى مما يتصف بالمعيارية. وإحدى الملامح الرئيسة في اتُباع القاعدة، إذن، أنه يجب أن يكون الوقوع في الخطأ ممكنًا بمعنى الخروج على المعيار، وبغض النظر عن هدف هذا النقاش، فهو غير دقيق هنا. وقواعد اللغة ــ كمبادئ النحو الكلّي، أو تلك المبادئ التي تُوجِّه أحكامَ ماري عن المثالين (١) و(٢) أعلاه (انظر ص ٢٣٩)، مثلاً ــ ليست معيارية بهذا المعنى؛ إذ يمكن أن تكون أحكامُ ماري ومظاهرُ سلوكها الأخرى "خاطئة"، لعدد كبير من الأسباب؛ نحو: عدم الانتباه أو صعوبة التحليل (كما في الجمل التي تسمى بـ"جمل ممشى الحديقة"، أو التعبيرات التي تُرهِق قدرات الإدراك). كما تستطيع ماري أن تقرِّر مخالفةَ قواعدها، ربما لأسباب وجيهة، كإحداث أثرٍ أدبي، مثلا. ويمكن للأحكام والسلوك كذلك ألا تتوافق مع المعيار بطرق عدَّة: كالمعايير التي تَفرضها البنى السُّلطيةُ المختلفة، والممارسات المشتركة عند جماعات لا حد لتنوعها ويمكن أن يرتبط الأفراد بها، إما اختيارًا أو بضغط خارجي، إلخ. وتَبرز أسئلةٌ عدة تتصل بالحقائق والسياسات المتَّبعة، إلخ، لكنْ لا يبدو شيء منها مبدئيًا، باستثناء الأسئلة التي يمكن أن تُختزل إلى حجج متشكّكة لا أهمية خاصة لها بهذا الخصوص (لمناقشة أوسع، انظر Chomsky 1986).

فهل ينبغى أن نتحدث عن "اتِّباع القواعد" فى حالة أحكام مارى اللغوية وسلوكها؟ وهذا سؤال غير مهمٍّ كثيرا. وذلك لأسباب ذكرناها آنفا؛ إذ لا يتوقع أحدٌ أن يبقى الخطابُ العادى أمام التحوُّل إلى نظرية تفسيرية. ومع ذلك – وهذا للتوثيق – فربما يكون الكلامُ عن مارى كأنها تتبع القواعد فى هذه الحالة أقربَ إلى الاستخدام اللغوى العام منه إلى المواضعة الفلسفية النموذجية التى توجب وجود رابط بالشعور. بل هو أكثر قربًا إلى الاستخدام العادى إلا بمعيار واحد. ذلك أنَّا نستخدم مصطلحَ "اتِّباع القاعدة" عادةً عند "الخروج" عن معايير الجماعة، لا عند احترامنا لها، كما هو الاستخدام التقنى فى الخطاب الفلسفى. فإذا كان جونى يقول:

I brang my lunch home.

"أحضرت غدائى إلى منزلى"

[بصياغة ماضى الفعل bring "يحضر" على صيغة brang ، التى لا تتبع قاعدة تصريف هذا الفعل]

فربما يَصف الاستخدامُ المألوف هذا الاستخدامَ بأنه يَتبع القاعدةَ التى تنطبق على فعل sing "يغنِّى" [التى ماضيها sang] ــ وهو استخدام خاطئ؛ لأن أصحاب السلطة أو بعض المعايير الأخرى تتطلب أن تكون صيغة ماضى هذا الفعل brought. ومثل ذلك إن كان يَستعمل الكلمة puppy "جَرْو" فى الإشارة إلى صغار القطط، متبعًا القاعدةَ التى مؤداها أن صغار الحيوانات المنزلية الأليفة تسمى puppies "جِراء". وربما يستطيع ملاحظٌ مدقِّقٌ إصدارَ أحكام مماثلة عن قواعد النطق التى يتبعها [جونى]. ولو حدث أن مات البالغون جميعًا وبقى جونى وأترابُه فسيَستمرون فى اتباع قواعدهم الفردية الخاصة، إلا أن هذه القواعد ستكون الآن قواعدَ للغة بشرية عادية إلى حدٍّ بعيد تَختلف عن الإنجليزية النموذجية فى هذه المظاهر (ومظاهر أخرى). وربما لا يكون مألوفًا أن نقول فى هذه الحالة إن جونى يتبع قاعدة؛ إذ قلَّما يُستخدم هذا المصطلح حين تَحترم المعايير والنماذج. لهذا يمكن

للسانيين وحدهم أن يقولوا إن مارى تتبع المبدأ C فى نظرية الربط العـاملى فى المثالين (١) و(٢)، أو أنها تتبع القواعد المعقـدة المتـشابكة الخاصـة بالإحالة إلى الأشياء حين تتكلم عن بيتها.

ولا نقصد، حين نعزو اتباع القاعدة بالطريقة المألوفة - لجونى كما فى الحالة التى ذكرناها أعلاه، مثلاً - أن نوحى بأن متبعى القواعد واعـون (أو يمكن أن يكونوا واعين) باتباعهم القواعد أو أنهم يختارون القيام بذلك. أمـا أولئك الذين يتكلمون عن "حقيقة أن المعنى اللغوى يتضمن اتباع القاعدة عن قصد" فإنما يستخدمون مصطلح "اتباع القاعدة" بمعنى تقنـى مـستخدم فـى الخطاب الفلسفى، لا بالطريقة المتواضع عليها (انظر Baldwin 1993: 187؛ مستشهدًا بـ P. Pettit). والشيء نفسه صحيح، كما أظن، عن مـصطلحات أخرى فى الخطاب الفلسفى، ويشمل ذلك مصطلحات "المعرفة" و"المضمون" و"الإحالة"، من بين مصطلحات أخرى. (للاطلاع على مزيد مـن النقـاش، انظر المراجع التى أحلنا إليها فيما سبق، والفصل الثانى فى هذا الكتاب).

ويمكن، فى إطار النظرية العلمية الطبيعية "للغة (- د)" - وهى داخلية وفردية - أن نستخلص بعض النتائج عما ينبغى للمرء أن يقوم به، لكن فـى ضوء شروط فرضية غير مهمة فقط (مثل: إن كنت تريد كلمة تـسجع مـع كلمة tower "برج" أو تحيل إلى أزهار من نوع "دافوديل"، اسـتخدم كلمـة flower ، لا book "كتاب"). وهذه المعيارية، وهـى إحـدى المقتـضيات المألوفة للمعرفة، متوفرة بكثرة فى سياق البحث العلمى الطبيعى، لكنها ليست من النوع الذى يبرز حين نسأل إن كان ينبغى لجونز تغيير استخدامه لكلمـة arthritis "التهاب المفاصل" ليتفق مع استخدام الطبيب، وهو سؤال من نـوع مختلف جدًا، وليس له إجابة محددة إلا من حيث تحديد مكان معين أو آخـر فى الفضاء المعقد جدًا للاهتمامات والمشاغل البشرية.

والأمر الآخر ذو الصلة هو فكرة اللغة بوصفها "ملكًا للجماعـة" مـن نوع معين، كما فى قولنا إن هانز وماريا يتكلمان الألمانية حتى إن كانـا لا

يستطيعان التفاهم، وإن هانز لا يتكلم الهولندية مع أنــه يَفهــم جيــدًا اللغــة الهولندية التى تُتكلَّم قريبًا من الحدود الهولندية الألمانية، أو حــين نقــول إن بيير وولده جين، اللذين لا يتكلمان إلا الفرنسية انتقلا للعيش في نيويــورك، يتعلمان اللغة الإنجليزية، التى سينجح جين فى تعلُّمها لكنَّ بييــر ســيتعلَّمها جزئيًا. أو أن جوني، بـــ "أخطائه" فى brang و puppy ، وبطريقــة نطقــه لاسمه، لا يتكلم لغةً على الإطلاق (وهى فجوة غريبة فى الاستخدام العادى)، مع أنه سيتكلم الإنجليزية يومًا ما وهو يمتلك "معرفة جزئية" بهــا الآن، وأن "لغته ـــ د" الحالية ربما تكون لغةً عادية إن بقيت على الصورة التى وُصفت بها. ولا يمثِّل عددٌ كبير من هذه الاستخدامات مشكلةً فى الحياة العادية، لكنْ ليس لها إلا أهمية ضئيلة فى إطار الجهد الذى يسعى لفهم ماهية اللغة وكيف تُستخدم. وليس هذا من أمور الأمثلة؛ ذلك أنه ليس هناك أمثلات معقولة، إلا بمقدار ما نستطيعه من تشبيهِ "المناطق" حين نحاول إيضــاح ما يَعنيه الحكــمُ بأنَّ جون يَسكن قريبًا من مارى لكن بعيدًا من بيل. ويمكن لهذه الاستخدامات أحيانًا أن تُشفَّر فيما يسمى بـــ"اللغات الوطنية"، وهى تُفرض بالقوة أحيانــــا. وتجعل محاولاتُ ربطِ فكرة "اللغة المشتركة" بالثقافات الأمورَ أكثر سوءا. إذ يمكن فى العادة أن ينتمى شخصٌ إلى عدد من الجماعــات والثقافــات، مــع بعض الارتباطات الضعيفة غالبًا بين أشكال الترابط. فيمكن أن يُشارك جون فى ثقافة عامة ما ـــ بقيَم مشتركة واعتقادات وأفهام، إلخ ـــ مع متكلم أُحادى اللغة للغة لا يَعرف [جون] منها كلمة واحدة، وربما يكون هذا الاشتراك بقدر يفوق ما يتشارك فيه مع توءمه المماثِل، الذى نشأ معه ولا يكاد يميِّــز بــين لغتيهما. وليس لشيء من هذا صلة بالتواصل الناجح. ولسنا بحاجة لافتراض طرائقَ نطق مشتركة، أو معان مشتركة لكى نفسِّر هذا، أكثرَ مما نفترضـــه من أشكالٍ مشتركة من أجل تفسير الناس المتشابهين.

ومرة أخرى، يمكن أن نصف أوضاعًا جديدة لا حصر لها مما يَجِــدُّ، ودراستَها مشروعةً ومفيدة. وحين تكون هذه الدراسة جادة تفترض ما نتعلَّمه

عن طريق البحث العلمي الطبيعي في الملكة اللغوية. ومع ذلك، لا يمكن أن تقود محاولات تأسيس نظريات خاصة بطريقة النطق أو المعنى (بطرق نطق مشتركة ومعان مشتركة) انطلاقًا مما يدّعى أنه ملك للجماعة إلا إلى اللّبس. وتبيّن مثل هذه المحاولات، مرة أخرى، نوع الثنائية الذى لا يمكن حَمله على الجِد وراء ما يُعدُّ ذهنيًا.

ويتضح شكلٌ آخر من الثنائية بَرز في ثنايا النقاش عن اكتساب اللغة من حوار غريب عن "الفطْرية" أو "الفرضية الفطرية". وهو حوار من طرف واحد؛ إذ لا أحد يدافع عن هذه الفرضية، وهو ما يشمل أولئك الذين عُزِيتْ إليهم (ومنهم أنا خاصة). ذلك أنه ليس هناك فرضية كهذه. فهناك بعضُ المقترحات المحدَّدة عن الحالة الأولى للملكة اللغوية (أي: "جهاز اكتساب اللغة" و"النحو الكلى"). ولم يُسائل أحدٌ من المنتقِدين هذه الاقتراحات. إلا أنهم يَنظرون إلى هذا المشروع على أنه مخطئ بطريقةٍ ما، وربما يقوم ذلك على مسلَّمة ثنائية ما. ولا تثار أسئلةٌ مماثلة حين تقدَّم بعضُ الاقتراحات عن المظاهر الأُخرى للنمو، ولم يُقدَّم سببٌ يسوِّغ القبولَ بملاءمة [هذه الاقتراحات] في مثل هذه المظاهر. وقد قدِّمت دعاوى بديلة من طبيعة عامة جدًا، ومنها مثلا: أن "آليات التعلُّم المعمَّم" كافية، وليس هناك حاجة لافتراض خصائصَ محدَّدة للملكة اللغوية. ولا يمكن أن تناقش مثل هذه الفرضيات إلا بعد أن يبيَّن لنا ما هذه الآليات. أما الاقتراحات المحدَّدة التى قُدِّمت إلى الآن فلا تكاد تستحق الالتفات، إذا نظرنا إليها من خلال الاعتبارات العلمية الطبيعية، لهذا يجب أن يُبحث عن مسوغات لها من خلال بعض المتطلبات الأخرى، وهى متطلبات ذات طبيعة ثنائية.

والنزعةُ السلوكية عند كوين نوع من هذا الشكل للثنائية[١٠]، فهو يُجادل بأن "المقاربة السلوكية لازمة" (Quine 1990: 37) لدراسة اللغة؛ لأننا في اكتساب اللغة، "تعتمد اعتمادًا حاسمًا على السلوك الظاهرى في السياقات الملاحَظة" (ص ٣٨). وانطلاقًا من حجة مماثلة، فالمقاربة الغذائية

nutritionist لازمة في علم النمو الجنيني، ذلك أن الكائن العضوي يعتمد بصورة حاسمة، في انتقاله من الحالة الجنينية إلى حالة النضج، على التغذية التي تأتي من الخارج؛ فكما يجب أن يكون اللسانيون سلوكيين، يجب أن يكون علماءُ الأحياء غذائيين، يقصرون أنفسهم على ملاحظة الدخول الغذائية. والزيف في الحجة الأخيرة واضح؛ ويُهدِّد الزيفُ نفسُه الحجةَ الأولى كذلك. ولا يَسمح بمناقشة هذا الأمر إلا المسلماتُ الثنائية المتطرفةَ وحدها. وربما تكون الدراسةُ الفعلية للغة خاطئة تصوُّريًا، لكنْ لا يكفي، في البرهنة على هذا، أن نطالب اللساني بأن يَهجُر البحثَ العلمي الطبيعي ـ كما يفعل كوين وأتباعه - ليتبنى بعضَ المصادرات العشوائية بغضِّ النظر عن سوابقها التاريخية، غير المهمة كما هو واضح.

ويتصل بهذا اتصالاً قويًّا نموذجُ الترجمة المتطرفة عند كوين. فنحن نحاول في الدراسة العلمية الطبيعية للتفاعل بين الكائنات العضوية (كالخلايا والحشرات والطيور والدلافين، وغيرها)، أن نكتشف الحالات الداخلية التي تجعل هذا التفاعل ممكنا، وهي الحالات التي تنتج عنها التأويلاتُ التي تعطى للإشارات. لكنْ هذا الطريق مسدود، في دراسة اللغة البشرية. إذ يجب أن تقتصر دراسةُ التفاعل [في دراسة اللغة البشرية] على ما يكون داخل الحدود المقرَّرة: أي أنْ يُسمح للعالم الباحث بأن يسجِّل الضوضاء بطريقة محدَّدة، ويختار بعضَ الملامح من السياق، ويَختبر ما يتفق مع البحث وما يَختلف معه: مثل: "هل هذا "س"؟، ثم يقوم ببعض الاستقراء الأولي، وكفى. وتقدِّم إشارات متعددة لما يُسمح به من سمات، مثل نوع "س"، إلخ. ويَزعم كوين زيادة على ذلك أن هذا أيضًا هو السياقُ المعرفي للطفل الذي يكتسب اللغة والشخص الذي ينخرط في اتصال متبادل. لكن الحالات الثلاث مختلفة اختلافًا جذريًا من حيث طبيعتها: ذلك أن الطفل يأتي مزودًا بالحالة الأولى للملكة اللغوية ("جهاز اكتساب اللغة"، و"النحو الكلي")؛ ويمتلك الشخصُ الذي ينخرط في تبادل اتصالي خصائصَ الحالة المحصَّلة؛ أما اللساني فمزود

بملكة صياغة العلم وبنتائج الأبحاث السابقة عن اللغة. وليس مهمًا أن نبيّن هذه الفروق، ذلك أن هناك مشكلة أكثر عمقا: وهي الثنائية المتطرفة التي تتسم بها هذه المقاربة بأكملها. ولا يمكن أن يُقبل مثل هذا، أو ما هو قريبٌ منه، في دراسة الكائنات العضوية الأخرى، أو المظاهر البشرية التي لا تقع داخل الصنّف الوصفي التقليدي لمفهوم "ذهني".

وقد استُنتِج من هذا النموذج، الذي يُتبنى ويُناقش بشكل واسع، نتائجُ بعيدةُ المدى عن اللغة والفكر. ومع هذا يبدو أنه ممارسةٌ فكرية لا هدف لها إن قُصِد به أن يُلقي ضوءًا على طبيعة التواصل أو الاكتساب أو دراسة اللغة والفكر. ذلك أنه لم يقدّم أي تسويغ مرْضٍ له، في الأقل، على حد علمي، ولم يقدِّم تفسيرٌ للسبب الذي يُلزِم بتبني هذه المقاربة في هذه الحالة الفريدة (ناهيك عن أن يُنظر فيها). وإذا كان الهدفُ منها الإسهام في صقلِ الفهمِ لتصورات الاعتقاد والقصد والمعنى، وما يشبهها، فمعايير تقويمها أكثر غموضا، لكن يصعب أن نرى سببًا يوجب إضفاء مكانةٍ خاصة على الشروط المحدّدة المفترَضة في هذا البحث التصوري.

وتقوم على هذا النموذج بعضُ التوجهات الثنائية الأخرى. فيحاجُّ ديفيدسون، مكيّفًا هذا النموذج لاهتماماته الخاصة، أنَّ هدف الدراسة الوصفية للمعنى أن نصوغ نظريةً تكون "نموذجًا للقدرة اللغوية عند مُحلِّل ما"، لكنّ "لا يُضيف شيئًا لهذه الدعوى أن نقول إنه إذا وَصَفت النظريةُ القدرةَ اللغوية لمؤوِّل ما وصفًا صحيحًا، فيجب أن تتماثل بعضُ الآليات عند المحلل مع هذه النظرية" (Davidson 1986b: 438). ويبين ديفيدسون، مثل كوين، ما يُنظر إليه على أنه دليل ذو صلة، وهو: "أنَّ ما يمكن ملاحظته ليس إلا استخدامَ جُمل في سياق"، وكفى. ويمكن أن تُقدِّم النظرياتُ "فكرةَ الإحالة والأفكار الدلالية الأخرى ذات الصلة بها"، لكن "لا يمكن السؤالُ عن صحة هذه التصورات النظرية فيما يتجاوز السؤال عن قدرتها على تقديم تفسيرٍ مُرضٍ لاستخدام الجمل" (Davidson 1990: 300). وقد طوَّر دوميت وآخرون

مواقفَ مماثلة (انظر، Davidson 1986b; 1990a؛ وانظر عن الوجــه الــذى يقترحه دوميت لهذا الموقف: Chomsky 1986).

ومرة أخرى، لن تُحمَل أفكارٌ مثل هذه على محمل الجد فـــى دراســة أنظمة أخرى. ولا يمكن أن يُقصَر الدليلُ على استخدام المتكلم للجمل، إلا إن تمسّكنا بنموذج الترجمة المتطرفة أو قيْدٍ عشوائى آخر (أو جماعة مختـــارة ما). أما حين نقارب هذا الموضوع بالمقاربة المألوفة فى العلوم فسنبحث عن أنواع كثيرة من الأدلة، ومنها الدليلُ الذى سنأخذه من اللغة اليابانيـــة (وهـــو يُستعمل بشكل مطرد) فى دراستنا للغة الإنجليزية؛ وهذا قرار معقـــول جـــدًا يقوم على الافتراض الاختبارى القوى جدًا الذى مفـــاده أن اللغـــاتِ أشـــكالٌ متنوعة للحالة الأولى نفسها. ويمكن، بالمثل، أن نجد دلـــيلاً مـــن دراســـات اكتساب اللغة والإدراك والحُبسة ولغة الإشارة والنشاط الكهربـــائى للـــدماغ، وغير ذلك كثير. فمن المفيد جدًا، زيادة على ذلك، أن نفترض بعضَ الآليات عند المؤوِّل مما "يتماثل مع النظرية"، ذلك أن هذا التوجه تحديـــدًا هـــو مـــا يُخضع النظريةَ لعدد كبير من الأدلة وراء افتراضات الترجمة المتطرفة. ولا يؤدى الاشتراط الذى يقترحه ديفيدسون إلا إلى منع البحث العلمى الطبيعـــى فى طبيعة المؤوِّل. أما الجهود التى تسعى إلى البرهنة على التفسير المقترح وصقله فقد أُعلن أنها غير مقبولة، أو لا أهمية لها لسبب ما. ويصح الـــشىء نفسه فى أنواع أخرى كثيرة [لهذا الاقتراح].

ويلاحظ ستيفن ستِك، فى ترسيمـــه التـــاريخى لأصـــول "نظريـــة ــ النظرية"[11] أنه بـــ "أفول الثنائية الديكارتية، بدأ الفلاسفة يبحثون عن طريق لوضع الذهنى "داخل" الفيزيائى، مُماثلين الأحداثَ الذهنية بـــبعض مقـــولات الأحداث فى العالم الفيزيائى" (Stick 1983: 13). ويلاحظ أنه كان يمكن لمثل هذا التوجه أن يَسلك مسارين اثنين: أولُهما محاولةُ "تعريفِ المفردات الذهنية بمصطلحات "أعصابية" (ص ١٤)، وثانيهما تحليـــلُ التـــصورات الذهنيـــة بمصطلحات السلوك، مما يؤدى إلى ظهور السلوكية الفلسفية. ويحـــاجُّ بـــأن

المسار الثاني هو الذي غلب. والنوع الذي راجعته هنا نوع مؤثر جدًا [من السلوكية الفلسفية]، ويتسم بملامح لا يمكن إصلاحها، على حد ما أرى. أما المسار الأول فكان موضوعًا للنشاط البحثي كذلك، لكنه متلبّس أيضًا بثنائية لا يمكن تسويغها.

وقبل أن نلتفت إلى تلك القضية، أقدّم بعضَ التعليقات على هذه الطريقة في تأطير القضايا. فأولاً، لقد أُخطئ في فهم الأسباب التي أدت إلى انهيار الثنائية الديكارتية: ذلك أن ما دُحض هو مشكلة الذهن ــ الجسد وحسب، كما سبقت الإشارة، وهو ما أدى إلى غموض مشكلة الذهن ــ الجسد، واختفاء فكرة "الفيزيائي"، إلخ. ولم يبق لدينا في هذا المجال إلا المقاربة العلمية الطبيعية وحسب، أي: أن نصوغ نظريةً تفسيرية في ضوء أية مصطلحات ملائمة، وأن نواجه مشكلة التوحيد. ثانيًا، أنه لا يَعدو أن يكون أمَلاً، الآن، أن تكون "المصطلحاتُ الأعصابية" ذاتَ صلة بمشكلة التوحيد. وأخيرًا، ليس هناك سبب يُلزمنا بمحاولة تعريف "المفرداتِ الذهنية" للخطاب اليومي في إطار بحث طبيعي ما، مثلما أنه لم يجرؤ أحد على مثل ذلك فيما يخص "المصطلحات الفيزيائية"، في العصر الحاضر في الأقل. ويصل سيتك إلى نتيجة مماثلة، لكن ليس هناك سبب واضح، فيما يبدو، يجعلها تتطلب حتى الاحتجاج لها، إذا غضضنا النظر عن التحيز الثنائي.

ويُنتج البحثُ العلمي الطبيعي في الذهن نظرياتٍ عن الدماغ، أي عن حالاته وخصائصه: ومنها نظرية النحو الكلي، مثلا. ولا يَعرف أحدٌ الكيفية التي يمكن بها أن نَبدأ بربْط هذه النظريات بخصائص الذرات أو العصبونات أو البنى الأخرى التي لا نعرفها [الآن] للدماغ. ويَخلص عالِمُ الأحياء جيرالد إديلمان إلى أن التنافر بين النظريات عن الذهن وبين ما تعلمناه عن علم وظائف الأعصاب "يَخلق أزمةً لأولئك الذين يعتقدون أن النظام العصبي دقيق 'ومثبَّت بصورة مادية'، شبيهة بالحاسوب" (Gerald Edelman 1992: 27f)، وللقائلين بالنظريات الترابطية والقائلين بنظريات الشبكة العصبونية كذلك.

وتطلق التواريخ الفردية المختلفة للنظام العصبي و"التنوع البنيوي الفردي الهائل" للأدمغة "رصاصة الرحمة" (بل رصاصات عدة!) على المحاولات التي تصوغ نظريات حوسبية أو نظريات شبكية عصبونية للذهن (Edelman 1992، في الملحوظات الإلحاقية في نهاية كتابه). ويأخذ إيدلمان، فيما يبدو، هذه النتيجة على أنها صحيحة بغض النظر عن مدى نجاح مثل هذه الدراسات، الآن، أو إلى الأبد، في ضوء معايير العلم (كالتفسير وعمق الفهم، إلخ).

وكان يمكن الاحتجاج قبل سنين عدة، وبمنطق مماثل، بأن هناك مشكلة خطيرة في دراسة المادة والكائنات العضوية في ضوء الألوان والتكافؤ وحالة الصلابة، وعدد وافر من الخصائص الأخرى، والشيء نفسه قبل ذلك في دراسة الكهرباء والمغناطيس وحركة الكواكب والأجرام السماوية، إلخ. والواقع أن العلم بأجمعه تقريبًا كان يعاني ما يشبه الأزمة بسبب الفجوة الواسعة بين ما تُعلّم عن هذه الموضوعات ومبادئ الفلسفة الآلية (بل أكثر علوم الفيزيائية إلى وقت قريب). والأزمة التي يراها إيدلمان حقيقية، لكنه أساء تعيين الموقع الذي تحتله.

أما "التنوع الهائل" في بنية الأدمغة والتجربة فلا يُبين لنا إلا شيئًا قليلاً. فقد كان يبدو، قبل سنوات قليلة، أن اللغات تختلف الواحدة منها عن الأخرى بصورة تشبه في تطرُّفها الاختلاف بين البنى العصبونية كما يراها كثير من المتخصصين اليوم، وكان يُنظر إليها على أنها ليست إلا انعكاسات للتجربة التي تتنوع بصورة غير نهائية. وسوف يبدو أي نظام معقد خليطًا ملتبسًا قبل أن يُفهم، وتُكتشف مبادئ انتظامه ووظيفته. ويحاج إيدلمان بأن إدخال الاعتبارات الخاصة بالمعنى ستُعين بشكل ما على التغلب على المشكلات المزعومة في المقاربات "الصُّورية". وهو مخطئ في فهم هذه الطرق خطأً كبيرًا — كما تدل تعليقاته القليلة — لكن الأهم هو وجهة نظره الخاطئة عن علم الدلالة. فتخلق بعضُ الخصائص الدلالية البسيطة المشكلاتِ كلها التي

يراها إيدلمان فى النظريات التركيبية والتعبيرات. فهى محكومة بالقاعدة ومحدّدة تحديدًا صارمًا ومثبّتة بشكل مستقل عن التجربة والمظاهر المعروفة للبنية العصبونية؛ ومن هنا فهى تَخلق "الأزمة" التى تنشأ عنها الفجوةُ بين ما يبدو أنه صفةٌ خوارزمية رقمية للغة والتنوع الملاحَظ والتشتت المستمر للتجربة الفردية والبنية العصبونية. ونحن نواجه هنا مشكلةً معهودة من مشكلات التوحيد فى العلوم، وهى التى ربما توجب، كما حدث فى الماضى كثيرا، أن تعاد صياغة العلوم "الأكثر أساسية" بصورة جذرية لكى تتوافق مع النظرية التفسيرية الناجحة فى المستويات الأخرى.

وقد اقتُرِح عدد من العلاجات للتعامل مع هذه "الأزمة"، ومنها الاقتراحُ بأن "'الذهنىّ' هو 'العضوى العصبى' فى مستوى أعلى"، وقد يكون هذا صحيحًا، فى نهاية المطاف، أما الآن فلا يعدو أن يكون فرضيةً عن 'العضوى العصبىّ'، لا وصفًا 'للذهنىّ'؛ وهو ما يعنى أن الحذاء فى القَدَم الخطأ، على حد فهْمنا. ومنها وجهُ "النزعة المادية الإقصائية" الذى يرى أنه يجب علينا أن نركّز اهتمامنا على علم وظائف الأعضاء العصبى، وهو اقتراح ليس له من المعنى إلا ما كان لاقتراحٍ قدّم منذ زمن يوجب التخلى عن الكيمياء لصالح دراسة الجسيمات الصلبة من خلال حركتها، أو وجوب أنْ يتّبع المتخصصون فى علم الأجنة المسارَ نفسه، وهناك أبحاث غزيرة تَسأل عما سيحُدث إن أمكن لنماذج نظرية الشبكة العصبونية (الترابطية) تفسيرَ الظواهر التى سبق أنْ فسِّرت فى ضوء أنظمة تمثيلية حوسبية. وربما يبدو هذا النقاش كأنه علمى طبيعى من حيث الكيف، لكن ذلك ليس واضحًا تماما؛ فقلةٌ هم علماء الأحياء الذين يمكن أن يَلفت أنظارَهم اقتراحُ أنَّ الأنظمة التى تفتقر إلى البنية ولا تتصف بخصائص معروفة يمكن أن تُعطى فى المستقبل تفسيرًا لتطور بعض الكائنات العضوية من غير اللجوء إلى التركيبات المعقدة فى ضوء تركيز العناصر الكيميائية والبرنامج الداخلى للخلية وإنتاج البروتين، إلخ.

وتنتمي النظريات الناجحة في بعض المجالات عادةً – ومنهـا اللغـة على وجه خاص – إلى النوع الحوسبي التمثيلي، وهي حقيقةٌ تُحـدث قـدرًا كبيرًا من عدم الارتياح. وللتغلب على عدم الارتياح هذا يُلجأ في كثير مـن الأحيان إلى الاستعانة بالنمذجة الحاسوبية؛ لتبيين أن لدينا حالات كثيرة واعية من هذا النوع، ثم يؤدي هذا إلى القول بأن علم الـنفس يَـدرس المـشكلات البرمجية. وهذا توجُّه مشكوك فيه. ذلك أن الأشياء المصنوعة تثير أسئلةً لا تبرز في حالة الأشياء الطبيعية. فيَعتمد كونُ شيء ما مفتاحًـا أو طاولـة أو حاسوبًا على مقصد الصانع منه، والاستعمالِ المعهود، وطريقةِ تأويله، إلخ. وتبرز الاعتباراتُ نفسُها حين نَسأل عن إن كانت آلةٌ مـا تُخفـق فـي أداء وظيفتها، أو في اتباع القاعدة، إلخ. فليس هناك نوع طبيعي أو حالة معيارية. فلا تبرز هذه الأسئلة في دراسة الجزيئات العضوية، ودراسةِ أجنحة الدجاج، أو دراسةِ الملكة اللغوية، أو الأشياءِ الطبيعية الأخرى، وينعكس الاعتقادُ بأن هناك مشكلةً تتطلب حلاً، وراءَ الحالات المعهودة، ثنائيةً غير مسوَّغة، كمـا أن العلاج المقترح أسوأ من المرض.

ولا تَمسُّ هذه الملحوظات إلا ظاهرَ العناصـر الثنائيـة فـي أغلـب التوجهات الفكرية المؤثِّرة عن اللغة والفكر وأكثرها تعقيدا، فالواجب إما أن تسوَّغ هذه التوجهات أو تُترك، كما يبدو لي أيضًا أن نقْد المقاربات الطبيعية يعاني من خلل. وهناك، فيما أظن، سببٌ وجيه لأن نـتفحص عـن قـرب المذهبيات التي كانت تُفترض بشكل غير منضبط، وإذا لم تَصمد أمام هـذا التحليل، فيجب أن نسأل عن السبب الذي يجعلها تبدو قوية.

هوامش الفصل الرابع

(١) للاطلاع على مناقشة لهذا الموضوع، انظر (Bilgrami 1993). وانظر (Chomsky (1980: 25f)) عن الافتراض (الضمني غالبا) لمقاربة داخلية فردية في مجالات بحثية أوسع (كاللسانيات الاجتماعية، واكتساب اللغة، ومفهوم هيلارى بتنام "تقاسم العمل الاجتماعى"، إلخ).

(٢) النزعة الأسسية anti-foundatioalism هى وجهة النظر التى تقول إن المعرفة غير ممكنة إلا إن اتُخذت بعضُ الوحدات أساسًا محدِّدًا للوحدات الأخرى. ويوجَّه اهتمام خاص إلى الثقة المدَّعاة بالأسس المقترَحة وإلى العلاقة بين هذه الأسس وسائر المعرفة. (المترجم)

(٣) انظر مفهوم "العلم العادى" عند توماس كون فى كتابه The structure of scientific Revolutions، ١٩٦٢. وقد ترجمه إلى العربية شوقى جلال بعنوان: "بنية الثورات العلمية". الكويت: عالم المعرفة (العدد ١٦٨)، جمادى الآخر ١٤١٣هـ/ ديسمبر ١٩٩٢م. (المترجم)

(٤) وهى التى تتعلق بالطرق التى تبحث فى الكيفية التى ترتبط بها التمثيلات بالعالم أو بالأفراد الذين يمتلكون هذه التمثيلات والكيفية التى تترابط بها لتكوّن أنظمة للاعتقادات والأحاسيس والتوجهات. (المترجم)

(٥) يرى بعض فلاسفة العلم أنه يبدو أن من الطبيعى التسليم بأنه سيكون للنظرية الجديدة دائمًا نوع من علاقة التماهى مع النظرية السابقة لها. ويسمى إرنست ناجل هذه العلاقة بـ "قوانين الجسرية" Bridghe laws. (المترجم)

(٦) ولا تتماشى تصورات "العلوم الخاصة" (كعلوم الأرض، وعلم الأحياء، وغير ذلك) مع شروط ديفيدسون؛ انظر (Fodor 1987).

(٧) ليس من الواضح إن كان كوين سيخلص إلى هذه النتيجة أم لا، وذلك لتمييزه بين الدليل "النفسى" والدليل "اللغوى". فهو يقبل، لتحديد حدود

العبارة، الدليلَ الأول دليلاً حقيقيًا لكنه لا يقبل الدليل الثاني؛ ويتضمن الدليلُ الأول بعضَ التجارب على الإزاحة الإدراكية للطقطقات؛ أما الدليل الثاني فيتضمن الاعتمادَ الإحالي، كما في المثالين (١) و(٢) فيما يلي. وهذا تمييزٌ غامض، خاصةً أن "الدليل اللغوي"، بناء على أسباب علمية طبيعية، أكثرُ وجاهة، هذا إن لم نتكلم عن حقيقة أنّ المادة الأولية لا تأتي مصنّفة بمثل هذه الطرق. وربما يَسمح هذا التمييز، بغض النظر عما يعنيه، بمراجعة فكرة "التشيؤ" عنده، إلا أنه لا يَسمح بمراجعة للغة فيما يبدو. انظر الفصل الثالث في هذا الكتاب عن هذا الأمر والمراجع ذات الصلة هناك.

(٨) للاطلاع على مناقشة أوسع، انظر التعليقات على عَرْض سيرل لوجهات النظر هذه في Chomsky 1990؛ كذلك وجهات نظر نيد بلوك وآخرين. ولم يُجب [سيرل] عن هذه الاعتراضات في إجابته هذه أو في كتابه الذي نشره بعد ذلك Searle 1992.

(٩) يعني "مبدأ الربط" connection principle أن هناك نوعًا من العلاقة الداخلية بين حالة ذات مضمونٍ قصدي وكونها شعورية (إمكانًا، في الأقل). (المترجم)

(١٠) للاطلاع على نقاش أحدث انظر Quine 1990؛ وللاطلاع على نقاش أكثر توسعًا لوجه مبكر منها (ومماثل تقريبًا) انظر Chomsky 1987، والفصل الثالث هنا.

(١١) يرى كثير من الفلاسفة وعلماء "علم المعرفة" أن الفهم اليومي أو الفهم "الشعبي" للحالات الذهنية يكوّن نظريةً عن الذهن. وتسمى هذه النظرية عمومًا بـ"علم النفس الشعبي" أو "علم النفس البديهي". (المترجم)

الفصل الخامس
اللغة موضوعًا طبيعيًا

أريد أن أناقش هنا مقاربةً للذهن تأخذ اللغةَ والظواهرَ المماثلة لها على أنها عناصرُ للعالم الطبيعي، وينبغي أن تُدرس بمناهج البحث الاختباري المعهودة، وسأستخدم في هذه المناقشة المصطلحَين "ذهن" و"ذهني" مجردَين من أي مُميِّز غيبي، فأنا أفهم المصطلحَ "ذهني" بالطريقة التي يُفهَم بها مصطلح "كيميائي"، أو "بصرياتي"، أو "كهربائي". فنسمي بعضَ الظواهر والأحداث والعمليات والحالات المعيَّنة في الحديث العام "كيميائيةً" (إلخ)، من غير أن يوحي هذا بأي مميز غيبي. فنُستخدم هذه المصطلحات لانتقاء بعض مظاهر العالَم المعيَّنة محورًا للبحث. فنحن لا نسعى [بهذا] لتحديد "المعيار الصحيح للكيميائي"، أو "علامة الكهربائي"، أو "حدودِ البصرياتي"، وسأستخدم مصطلح "ذهني" بالطريقة نفسها، وبما يشبه معناه في الاستخدام العادي، من غير أن يكون لهذا مقتضيات أعمق. ولا أعني بـ "ذهن" إلا المظاهرَ الذهنية للعالَم، من غير اهتمام خاص بتعيين الحدود تعيينًا صارمًا أو بمحاولة العثور على معيارٍ معين يختلف عما في الحالات الأخرى.

وسأستخدم مصطلحي "لساني" و"لغة" بالطريقة نفسها تقريبًا. فنحن نوجِّه اهتمامنا نحو بعض مظاهر العالم التي تَدخل تحت هذا العنوان العريض غير التقني، ثم نحاول فهمَها بشكل أفضل، وربما أمكن لنا أن نطوِّر – ونحن نطوِّر بالفعل – في أثناء قيامنا بذلك تصورًا يتماثل تقريبًا مع المفهوم غير التقني "اللغة"، ثم نَفترض أن مثل هذه الموضوعات تنتمي إلى أشياء موجودة في العالم، إلى جانب الجزيئات المعقَّدة والمجالات الكهربائية ونظام الإبصار البشري، وغير ذلك.

وتسعى المقاربة العلمية الطبيعية لمظاهر العالَم اللسانيةِ والذهنية إلى صياغة نظريات تفسيرية معقولة، آخذةً ما نُقادُ إلى افتراضه في هذا المسعى

على أنه "حقيقى"، مع الأمل فى التوحيد مع العلوم، الطبيعية "الصِّرْف"، فى نهاية الأمر: ونؤكد أنه التوحيد لا الاختزال بالضرورة. فالاختزال الكاسح نادرٌ فى تاريخ العلوم. بل الشائع أنَّ العلم الأكثرَ "أساسية" هو الذى كان يَلزمه الخضوع لمراجعة جذرية ليَحصُلَ التوحيد. وحالة الكيمياء والفيزياء مثال أخير لهذا: فقد وحّد تعليل بولنج Pauling للرابط الكيميائى هذين العِلْمين، لكن ذلك لم يَحدث إلا بعد أن جَعلت الثورةُ الكَمّية فى الفيزياء هذه الخطوات ممكنة. ويمكن عدُّ توحيد أكثر علم الأحياء مع الكيمياء بعد ذلك بسنوات قليلة اختزالاً حقيقيًا، لكن ذلك ليس الغالبَ [فى العلوم]، وليس له أية أهمية معرفية خاصة أو أية أهمية أخرى؛ إذ لم يكن "توسُّعُ" الفيزياء لتشمل ما كان يُعرف عن التكافؤ والجدول الدورى والأوزان الكيميائية،. . . إلخ أقلَّ صلاحًا ليكون شكلاً من أشكال التوحيد، وتَعزو نظرياتُ اللغة والذهن، فى الحالة التى بين أيدينا، التى يبدو أنها مؤسَّسة أفضلَ من غيرها على أسس علمية طبيعية، إلى الذهن/الدماغ خصائصَ حوسبية من نوع مفهوم جدًا، وإن كنا لا نعرف ما يكفى لنفسِّر الكيفية التى يمكن بها أن يكون لبِنْية مُركَّبة من خلايا خصائصُ كهذه. ويثير هذا مشكلةً من مشكلات التوحيد، لكنها من نوع مألوف.

ونحن لا نعرف الكيفيةَ التى ربما يَسير بها التوحيدُ فى نهاية الأمر فى هذه الحالة، أو إن كنّا اكتشفنا المقولات الملائمة التى ينبغى توحيدها، أو حتى إن كانت هذه المسألةُ تقع فى مدى إدراكنا. وليس هناك ما يبيح لنا أن نفترض ببساطة وجوب أن تُختَزل الخصائصُ الذهنية إلى "خصائص للشبكة العصبية"، كما تقول إحدى المزاعم النمطية (انظر Patricia Churchland 1994). وكثيرًا ما بُرهن على أن ادعاءات مماثلة فى مجالات أخرى زائفة، وليس لها أهمية علمية خاصة فى هذه الحالة. وإذا فُهمت دعوى الشبكات العصبية على أنها خطة بحثية وحسب، فذلك حسن؛ وسوف ننتظر ما سينتج عنها. أما إن قُصد بها أكثر من هذا فستَجِدُ أسئلةً أكثر خطرًا.

أما فيما يخص المدى الذى يصل إليه الإدراك، فإذا كان البشر جـزءًا من العالم الطبيعى، لا كائنات فوق طبيعية، فللـذكاء البـشرى، إذن، مـدى وحدود يحددها التصميم الأولى [للبشر]. فيمكن، لهذا، أن نتوقـع أن بعـض المسائل لن تقع في نطاق قدراتهم الإدراكية، مثلما أن الفئـران لا تـستطيع الجرى عبر شبكات ذات خصائص عدديـة، لافتقارهـا إلـى التـصورات الملائمة. ويمكن أن نسمى مثل هذه المسائل "أحاجى عند البشر"، مثلما تثيـر بعضُ المسائل "أحاجى عند الفئران". ومن هذه الأحـاجى أسـئلةٌ يمكـن أن نثيرها، وأسئلةٌ أخرى لا نعرف كيف نصوغها بشكل ملائم أبدا. ولا تعنـى هذه الحقائقُ البديهية وَصْمَ البشر بـ"ضعف الذكاء". ذلك أننا لا نحكم علـى الجنين البشرى بـ"الضعف" لأن تعليماته الوراثية غنيـةٌ إلـى حـدٍّ يكفـى لمساعدته كى ينمو بشرا، وهو ما يمنع مسارات أخرى للتطـور. وسنـسعد جميعا إنْ تحولتْ هذه المسائل من أحاجٍ لا نملك إلا أن نتأملها مبهـورين، إلى مشكلات صعبة بدأنا للتوّ فـى فـكِّ أسـرارها"(Patricia Churchland 1994)([1]). وليس بيانُ التحولِ في أمور كانت مجالاً للاهتمام التقليدى أمـرًا تافها، ويمكن أن نسأل إن كانت الآفاق ما تزال بعيدة كما كانت دائمًا، وربما لأسباب مغروسة بعمق فى الإعداد الأحيائى البشرى.

ويحاجُّ دانيل دينيت بأن فكرة "المحدودية المعرفية"، مع أنها "ملائمـة مذهبيًا" إلا أنها "ليست قارة خطابيًا"، ذلك أن "تشومـسكى وجيـرى فـودر يمتدحان قدرةَ الدماغ البشرى على تحليل اللانهائية الرسمية للجمل الصحيحة نحويًا فى لغة طبيعية ما، وربما فهمها من ثَمّ"، ويشمل ذلك "تلك الجمل التى تعبّر أفضل تعبير عن الحلول لقضايا الإرادة الحرة أو الشعور"، التى زعـم [دينيت] خطأ أنى حكمتُ بأنها "خارج حدود البحـث" (Dennet 1991: 10). وهذه حجة زائفة حتى إن أمكن صياغة تلك الحلول باللغة البشرية ــ وهو ما ننتظر البرهنة عليه، لا ادعاءه. ذلك، أولاً، أن التعبيرات اللغوية الطبيعية لا يمكن تحليلها غالبًا، كما هو معروف، (لا لطولها فحسب، أو لتعقيدها بمعنىً

ما مستقلٌ عن طبيعة الملكة اللغوية). ثانيًا، إنه ربما لا يمكن فهم هذه التعبيرات أبدًا حتى إن حُللتْ وأوّلتْ؛ ومن السهل جدًا إيراد أمثلة على ذلك.

ويُلقى تاريخُ العلوم المتقدّمة أضواءً كاشفة على السعي نحو التوحيد. خُذ كبداية "الفلسفةَ الآلية" التى بلغت أوجَها فى القرن السابع عشر: وهى الفكرةُ التى مفادها أنّ العالمَ آلةٌ من نوع يستطيع صانعٌ ماهر أن يصنعه. وتعود جذورُ هذا التصور إلى الفهم البديهى، الذى يستنتج منه المسلمةَ الجذرية التى تقول إنه لا يمكن للأشياء أن تتفاعل إلا عبْر التّماس المباشر. وقد حاجّ رينيه ديكارت، كما هو معروف، بأن بعضَ مظاهرِ العالم المعينة – ومنها، أساسًا، الاستخدامُ العادى للغة – تقع وراء حدود الآلية. وقد افترض لتعليل هذه المظاهر مبدأً جديدًا؛ أى جوهرًا ثانيًا أساسُه التفكير، فى الإطار النظرى عنده. وبَرزت "مشكلةُ التوحيد" بصفتها سؤالاً عن التفاعل بين الجسد والذهن. وكانت هذه الثنائية الغيبية بحثًا علميًّا طبيعيًّا من حيث الجوهر، وتَستعمل الأدلةَ الاختبارية فى مقاربة الدعاوى الواقعية عن العالم – وكانت [هذه الثنائية] خاطئة، لكن هذا هو ما يَحدُث دائما.

وقد انهارت النظريةُ الديكارتية بعد ذلك بقليل، حين بيّن إسحاق نيوتن أن حركة الأرض والكواكب السيارة تقع وراء حدود الفلسفة الآلية – أى وراء ما كان يُفهم بأنه جسد، أو مادة. أما ما بقى [بعد ذلك] فكان صورةً للعالم تتصف بأنها "مضادة للمادية"، و"تعتمد اعتمادًا كبيرًا على القوى الروحية"، كما تقول مارجريت جاكوب (M. Jacob 1988: 97).

وقد شَجب أبرزُ العلماء آنذاك بقوة لجوءَ نيوتن إلى فكرة الجاذبية، ويشير ديكسترهويز إلى أن "رواد الفلسفة الآلية الحقيقية نظروا إلى نظرية الجاذبية كأنها (بعبارات بويل Boyle وهويجينز Huygens) انتكاسةٌ إلى تصورات القرون الوسطى التى كان يُظن أنها انقرضت، وتشبه أن تكون نوعًا من الخيانة لمشروعية العلم الطبيعى" (E. J. Dijksterhuis 1986: 479). كما رأوا أنّ فكرة نيوتن "القوة الغامضة" كانت ردّةً إلى عصور الظلام التى

"استنقذ العلماءُ أنفسهم منها"، وإلى "علم الفيزياء المدرسى الذى كان يتصف بالنوعيات والقوى"، وإلى "المبادئ التفسيرية الروحية"، وما أشبه ذلك من المبادئ، التى كانت تُجيز التفاعلَ من غير "تماس مباشر". وكان ذلك يشبه أن "نيوتن قال إن الشمس تولِّد فى الكواكب نوعيةً تجعلها قادرةً على وصف الدوران"، وقد أدان لايبنيز وهويجينز، فى الرسائل المتبادلة بينهما، نيوتن لتخليه عن "المبادئ الآلية" الراسخة ورِدَّته إلى بعض الأفكار الغامضة كـ "التعاطف والتنابذ"، و"النوعيات الأخرى غير المادية التى لا يمكن تفسيرها".
ويبدو كأن نيوتن كان يتفق مع هؤلاء. وكان سياق تعليقه المشهور: "إنى لا أُوطِّر الفرضيات" تعبيرًا عن انزعاجه من عجْزه عن "تحديد سبب هذه القوة" للجاذبية، التى تبعُد كثيرًا عن "المسبِّبات الآلية"، وقد وجد أنه لا مفر من أن يوطِّن نفسَه على النتيجة التى مفادها "أن الجاذبية موجودة فعلا"؛ فقوانينها تُفسِّر "حركاتِ الأجرام السماوية كلها، وحركاتِ بِحارنا" ـــ وإنْ عـدَّ مبدأ [الجاذبية] الذى كان قد افترَضَه "سخيفا". واستمر نيوتن حتى أيامه الأخيرة، يسعى إلى البحث عن "الروح العميقة التى تتخلل الأجساد المادية كلها وتكمُن فيها"، وهى التى ربما تفسِّر التفاعل، والتجاذب والتنابذ الكهربائيين، وأثَرَ الضوء، والإحساسَ والطريقةَ التى "تتحرك بها أجساد الحيوانات تحت توجيه الإرادة"، وقد استمرت بعض الجهود المماثلة قرونًا بعد ذلك.

وتوحى هذه الانشغالات، فى فجر العلم الحديث، بطعْم النقاش المعاصر لـ "مشكلة الذهن ـــ الجسد". كما تُثير أسئلةً عن ماهية القضايا ذات الصلة هنا. فيلاحظ توماس ناجل أنَّ "المحاولات المتعددة لإنجاز هذه المهمة التى تبدو مستحيلة [أى اختزال الذهن إلى المادة] والحججَ التى يُقصد بها تبيين إخفاق هذه المحاولات، تشكِّل تاريخَ فلسفة الذهن فى الخمسين سنة الماضية". وتتمثل المهمة المستحيلة فى "إكمال الصورة المادية للعالَم" بترجمة تحليلات "الظواهر الذهنية" فى ضوء "وصفٍ إما أن يكون فيزيائيًّا بصورة صريحة أو يستخدم مصطلحات لا يمكن أن تنطبق إلا على ما يكون "فيزيائيًّا خالصا"، أو

ما يمكن أن يوفر "شروطًا للتقرير" انطلاقًا من "أسس يمكن ملاحظتها خارجيًا" (Nagel 1993: 99). ويناقش تايلر بيرج، في مراجعة شاملة لقرن من فلسفة الذهن، نشأة "المقاربة الطبيعية" ("المادية"، "الفيزيائية")، في الستينيات بوصفها "إحدى النزعات المحافظة القليلة في الفلسفة الأمريكية" (Burge 1992: 32، وانظر الفصل الرابع في هذا الكتاب). وهي الفكرة التي مفادها أنه ليس هناك حالات ذهنية "وراء الوحدات الفيزيائية العادية، التي يمكن تعيينها في العلوم الفيزيائية أو الوحدات التي يمكن أن تعدها البديهة "فيزيائية"" (Burge 1992: 31؛ وانظر الفصل الرابع في هذا الكتاب).

وتفترض مثل هذه المناقشات، خلافًا لنيوتن ومعاصريه، أن نيوتن ظل في إطار "الصورة المادية للعالم"؛ وربما لا يكون ذلك صحيحًا إلا إن فهمنا "الصورة المادية للعالم" بأنها أي شيء يمكن أن يصوغه العلم، مهما كانت درجة مفارقته "للمسببات الآلية". وتفترض هذه المناقشات، بتعبير آخر، فهمًا مسبقًا لما يكون فيزيائيًا أو ماديًا، ولماهية الوحدات الفيزيائية. وكان لهذه المصطلحات شيء من المعنى في إطار الفلسفة الآلية، لكنْ ما الذي تعنيه في عالم مؤسَّس على فكرة "القوى الغامضة" عند نيوتن، أو على بعض الأفكار الأكثر غموضًا لمجالات الطاقة، والفضاء المنحني، والأوتار اللانهائية ذات البعد الواحد في فضاء ذي عشرة أبعاد، أو أي شيء يمكن أن يبتدعه العلم غدًا؟ وفي غياب أي تصوُّر لـ"المادة" أو "الجسد" أو "ما يكون فيزيائيًا"، لن يكون لدينا طريقةٌ متماسكة لصياغة القضايا الخاصة بـ "مشكلة الذهن — الجسد". وكانت هذه مشكلات حقيقية في العلم إبان ازدهار الفلسفة الآلية. لكنّ العلم يفترض، منذ أُفول الفلسفة الآلية، أي شيء يجد له مكانًا في نظرية تفسيرية معقولة، بغض النظر عن درجة مخالفته للبديهة. ولا يمكن أن تثار مثل هذا الإشكالات عن مجال المظاهر الذهنية للعالم خاصة، دون سواها من مظاهر العالم، إلا انطلاقًا من بعض المسلمات الثنائية غير المسوَّغة.

ثم رَسختَ النزعةُ المضادة للمادية بصورتها عند نيوتن وأتباعه

سريعا؛ لذلك كانت انتماءات ديديرو Diderot للنزعة المادية، فى منتصف القرن الثامن عشر، السبب، فيما يبدو، لرفض الجمعية الملكية القاطع قبوله عضوًا فيها. كما كتب هيوم أنه "يبدو كأن نيوتن كشف عن بعض غوامض الطبيعة"، لكنه "بيّن فى الوقت نفسه عدم نضج الفلسفة الآلية؛ وبهذا أعاد أسرار [الطبيعة] الجوهرية إلى الغموض الذى كانت تقبع فيه منذ الأزل وستظل فيه إلى الأبد" (Hume 1841 vol. 6: 341؛ نقلاً عن Gay 1977: 130).

ويتعرض القولُ بإمكان بقاء هذه الأسرار غامضة للإنكار أحيانا. فقد كان إسحاق بيكمان، الذى تصفه جاكوب بأنه "أولُ فيلسوف آلسى للثورة العلمية" (M. Jacob 1988: 52)، واثقًا بأن "الرب خلق الطبيعة كلها بالشكل الذى هى عليه لكى نستطيع فهمَنا. . . النفاذَ المفصَّل لأسرار كل ما فى الأرض" (M. Jacob 1988: 52-53). وتُقترح بعضُ الدعاوى الشبيهة فى الوقت الحاضر، وبقدر مماثل من الثقة، ويقترحها على الأخص مَن يصفون أنفسهم بأنهم علماء طبيعة راسخون، وهم الذين يُعيدون صياغةَ معادلة بيكمان عادةً مستبدلين "الانتقاءَ الطبيعى" بـ"الرب" ـ وبقدرٍ أقلَّ من التسويغ، ذلك أن لعبارة "الروح فى الآلة" تعريفًا أفضل فى هذه الحالة، ومن هنا فمن السهل أن نرى سبب إخفاق هذه الحجج.

ومع أن النزعة المضادة للمادية عند نيوتن صارت بديهةً علمية، إلا أن الإشكالات التى أثارها لم تُهجَر حقًا، وكان أحدَ أوجه التعبير عن هذه النزعة الاعتقادُ بأن الطبيعة لا يمكن فهمها، ويرى نوع آخر منها أنه يجب أن تؤوَّل الافتراضاتُ النظرية تأويلاً إجرائيًا فقط. وكان لافوازييه يعتقد أن "عدد العناصر وطبيعتها مشكلةٌ لا يمكن حلها، فهى تَقبل عددًا غير نهائى من الحلول التى ربما لا يتوافق أى منها مع الطبيعة"؛ و"يبدو أنه من المحتمل جدًا أننا لا نعرفُ أى شىء. . . عن الذرات غير القابلة للانقسام التى تتكون منها المادة" (Lavoisier؛ نقلاً عن Brock 1992: 129)، ولن يكون بإمكاننا

ذلك، كما يعتقد. ووصف لودفيج بولتزمان نظريته الجزيئية للغازات بأنها لا تزيد عن كونها تشبيهًا مُريحا، ورأى يوليس بوينكاريه أنه ليس لدينا سبب للاختيار بين النظريات الآلية الأثيرية والنظرياتِ الكهربائية المغناطيسية للضوء وأننا نقبل بالنظرية الجزيئية للغازات بسبب معرفتنا بلعبة البليارد (Brock 1992: 165)، ويلاحظ وليم بروك أنه كان يُنظر إلى الذرات التى يتحدث عنها الكيميائى على أنها "وحدات نظرية غيبية"؛ وإذا أُوِّلت إجرائيًا، فإنها تقدِّم "أساسًا تصوريًّا لإعطاء أوزانٍ أولية تقريبية ولتحديد المعادلات الجزيئية" (ص ١٧١)، كما تميِّز هذه الوسائل الأداتية عن "النزعة الذرِّية الفيزيائية الخلافية جدًّا، وهى التى تقدِّم بعضَ المزاعم عن الطبيعة الآلية الحقيقية للعناصر الجوهرية كلها"، ولم يتحقق التوحيد إلا نتيجة لبعض التغييرات الجوهرية فى "النزعة الذرية الفيزيائية"، أى: نموذج بور، والنظرية الكمية، واكتشافات بولنج (انظر Chomsky 1986: 251-252، نقلاً عن Heilbron). وقد تغلَّب التوحيدُ فى نهاية الأمر على ما كان يبدو أنه فجوة لا يمكن ردمها قبْل بلانك: "فقد كانت المادة التى يتعامل معها الكيميائى متمايزة وغير متواصلة، أما الطاقة عند عالم الفيزياء فكانت متواصلة، وكانت تتمثل فى عالَم رياضى غائم من الطاقة والموجات الكهربائية المغناطيسية. . ." (Brock 1992: 489).

وكان يُنظر، فى منتصف القرن التاسع عشر، إلى المعادلات التى تحلِّل الجزيئات المعقدة على أنها "مجرد رموز تصنيفية تلخِّص المسار الملاحظ لردِّ فعلٍ ما"؛ وكان الرأى السائدُ أنه "لا يمكن إيجاد حلٍّ للطبيعة الخالصة للتجميعات الجزيئية"، و"أن التنظيمات الفعلية للذرات داخل الجزىء"، إن كانت تعنى شيئًا ألبتَّة، "يجب ألا تُقرأ" فى المعادلات (Brock 1992: 254). وقد عبَّر كيكولي Kekulé، الذي مهَّد ببنيويته الكيميائية الطريقَ لعملية التوحيد فى نهاية الأمر، عن شكه فى "إمكان اكتشاف المكوِّنات الصرِّفة للجزيئات العضوية أبدا" (ص ٢٥٢)؛ وأنه ليس للنماذج التى اقترحها للتكافؤ

وتحليله له إلا تأويل أداتي وحسب. ورفض كيكولي، حتى سبعينيات القرن التاسع عشر، فكرة كون "المعادلات المنهجية. . . تمثل حقًا التنظيمات الحقيقية لذرات جزيء ما". ولم يكن يُسمح للمدارس الفرنسية – حتى سنة ١٨٨٦م – بتدريس النظرية الذرية، لأنها كانت "مجردَ فرضية"، بحسب قرار وزير التعليم، الكيميائي المشهور بيرتيلو (ص ٣٦٤).

ويلاحظ بروك أن أبرز العلماء كانوا يَسخرون، بعد ذلك بأربعين سنة، من اقتراح جي. ن. لويس الذي مفاده أن "النويّات الذرية يمكن أن تتداخل، حيث "يمكن لألكترون واحد أن ينتمي إلى نواتي ذرتين مختلفتين" وعدُّوا هذا اقتراحًا تصوريًّا ساذجا ــ مع أنه الاقتراح الذي صار في فترة لاحقة "مبدأ رئيسًا في النظرية الآلية الكمِّية الجديدة" (Brock 1992: 476)، وكان أحد الاعتراضات أن هذا "يماثل القولَ بأن زوجين يمتلك كلٌ منهما ثمانية دولارات، لكونهما يمتلكان دولارين في حساب مشترك، ويمتلك كلٌ واحد منهما ستةَ دولارات في حساب ثان خاص به" (Brock 1992: 477، نقلاً عن Kasimir Fajans)؛ وكان ذلك كأن الألكترونات "تقتعد صناديقَ بضائع عند كل ركْن، وهي في حال تأهُّب لتُصافح . . . الألكترونات الأخرى في ذرات أخرى"، كما علَّق ساخرًا أحدُ أعضاء هيئة التدريس البارزين في معهد فارادي (Brock1992: 477، نقلاً عن R. A. Mullikan). وقد سفَّه ثيودور ريتشاردز، وهو أول كيميائي أمريكي يفوز بجائزة نوبل، الحديث عن الطبيعة الحقيقية للروابط الكيميائية ووصفَه بأنه "ثرثرة" غيبية. إذ لا يعدو هذا أن يكون "طريقة فجّة لتمثيل بعض الحقائق المعروفة عن التفاعلات الكيميائية. إذ هي طريقةٌ للتمثيل وحسب" (Brock 1992: 466، نقلاً عن ثيودور ريتشاردز). إلا أن رفضَ لويس وآخرين لهذا التشكك مهَّد الطريق إلى التوحيد في نهاية الأمر.

وليس صعبًا العثورُ على نظائر معاصرة في نقاش مشكلة الجسد — الذهن، بغض النظر عما يُفترض أنها تَعنيه. وهناك، كما أظن، أشياءُ كثيرة

يمكن أن نتعلّمها من تاريخ العلوم منذ أن تخلّت عن الأسس البديهية، وهو التخلي الذى يَصحب دائمًا بقدر من عدم الارتياح لانتهاجها هذا النهج. ويجب أن يكون بإمكاننا الآن القبول بأننا لا نستطيع أن نفعل أكثرَ من السعى نحو "أفضل النظريات" من غير أن يكون لدينا معيار مستقل للتقويم إلا الإسهامُ فى الفهم، والأملُ بأن يكون باستطاعتنا إنجازَ التوحيد لكن من غير مذهبية مسبقة عن الكيفية التى يمكن بها أن يوصل إلى هذه النظريات أو إن كان من الممكن إنجازها. وكما صاغ مايكل فريدمان هذا الموقف؛ فلا يمكن فهم "فلاسفة التقاليد [العلمية] الحديثة"، منذ ديكارت، "بشكل أفضل كأنهم كانوا يحاولون الوقوفَ خارج العلم الجديد ليُبيِّنوا، من زاوية غامضة خارج العلم نفسه، أن معرفتنا العلمية "تَعكس" بشكلٍ ما واقعيةً خارجية مستقلة. فهُم يبدأون، بدلاً من ذلك، من "حقيقة" المعرفة العلمية الحديثة بوصفها نقطة محدَّدة، فليست مشكلتُهم أن يسوّغوا هذه المعرفة من زاوية "أعلى" معينة بقدرِ ما تتمثّل فى قدرتهم على التعبير عن التصورات "الفلسفية" الجديدة التى يَفرِضها العلمُ الجديد علينا" (Freidman 1993: 48). وكما يعبِّر كانط عن ذلك، فليست الرياضيات وعلم الطبيعة بحاجة إلى البحث الفلسفى لذاتيهما، "بل من أجل علم آخر، هو: المقاربة الغيبية" (Kant 1783: section 40).

فالعلوم الطبيعية، من وجهة النظر هذه، "فلسفةٌ أولى" ــ سواء أكان الموضوع حركةَ الكواكب، أو نمو كائن عضوى، أو اللغة والذهن، وهذه الفكرة مألوفة فى الفيزياء الآن؛ ويندر أن تجد فيلسوفًا [الآن] يَعترض على مبادئها الغريبة وعلى مناقضتها للحدس ومعارضتها للتفكير السليم فيراها من ثمَّ غير ممكنة. ومع هذا يُنظر إلى وجهة النظر هذه عمومًا على أنها لا تنطبق على علم الإدراك، واللسانياتِ على الأخص، فهناك حد فاصلٌ ما فى مكان متوسط [بين تلك العلوم وعلم الإدراك واللسانيات]، فيُسوِّغ العلمُ نفسَه، داخل هذا الحدود؛ ومن هنا يسعى الناقدُ المحلِّل ليَتعلّم شيئًا عن معايير المعقولية والتسويغ من خلال دراسته للنجاح الذى يحقّقه العلم، أما وراء هذا

الحد، فكل شيء قابل للتغيُّر؛ فيطبِّق الناقدُ بعضَ المعايير المستقلة ليُصدر حكمَه على النظريات المقترحة والوحدات التي تفترضها، وليس هذا، فيما يبدو، إلا نوعًا من "الثنائية المنهجية"، وهي أكثر غرابة من الثنائية الغيبية التقليدية التي كانت فرضية علمية، ومقاربة علمية طبيعية روحًا. وإذا ما تخلينا عن هذا الموقف الثنائي فإننا نشتغل بالبحث إلى حيث يقودنا.

كما ينبغي أن يكون بإمكاننا الآن أن نتبنى موقفًا نحو مشكلة الذهن — الجسد صاغه جوزيف بريستلي، مثلاً، بعد أنْ قوّض نيوتن النزعةَ المادية و"الفلسفة الآلية"، إذ استنتج "أنه ليس الأمرُ أنَّ كلَّ شيء يُختزل إلى المادة، بل الأمر أنَّ نوع المادة الذي قامت عليه وجهةُ النظر التي تقول بالجوهرين غير موجود"، وأنه "بالتصوُّر المعدَّل للمادة، ليس هناك مكانٌ للطرق الأكثر تقليدية لإثارة السؤال عن طبيعة التفكير وعلاقاته بالدماغ، فيجب أن نفكِّر في نظام أحيائي معقَّد منظَّم بخصائص ربما يُصنِّفها المذهبُ التقليدي ذهنيةً "و" فيزيائية" (كما يصوغ جون يولتن قولَ بريستلي John Yolton 1983: 114).

وتمتلك المادة، بتعبير بريستلي نفسه، "قوتي الجذب والنبذ" اللتين تَعملان على "مسافة حقيقية وبُعد يمكن تعيينه عمومًا عما نسميه الجسدَ نفسه"، وهما خصيصتان "أساسيتان خالصتان للطبيعة الحقَّة" للمادة (Yolton 1983: 111). وبهذا نتغلَّب على الاعتقاد الساذج بأن للأجساد (إن نحينا الذرات جانبا) صلابةً وتماسكًا ذاتيين، ونتخلص من الحجج التي تقوم على "اللفظية الساذجة" و"الفهم الساذج"، كما في السعي إلى البحث في "ياء النسبة" المحال إليها في عبارة "جسدي". ومع الاكتشافات النيوتنية "ينبغي أن يرتفع مقام [المادة] لدينا، ليقترب من طبيعة الكائنات الروحية غير المادية"، بعد أن نتخلص من خزي الصلابة أو جمودها أو كسلها" (ص ١١٣). ولم تعد "الملاءمة بين المادة والإحساس والفكر" بأقل من الملاءمة بينها وبين الجذب والنبذ. كما أن "قوى الإحساس أو الإدراك والتفكير" خصائصُ لـ "تنسق منظَّم محدَّد للمادة"؛ والخصائصُ التي "تسمى ذهنية" "نتائجُ (سواء أكانت

ضرورية أم لا) لبنية عضوية مخصوصة كبنية الدماغ". ولا يقلُّ الاعتقاد "بأن قوى الإحساس والفكر نتيجةٌ لازمة لتنظيمٍ ما، في معقوليته، عن الاعتقاد بأن الصوت نتيجة لازمة لحركة الهواء"، فالتفكير عند البشر "خصيصة للنظام العصبي، أو للدماغ، على الأدق"، وقد وصل لو ميتري إلى نتائج مشابهة قبل ذلك بجيل، وإنْ على أسس مختلفة.

ويمكن القولُ، بقدر أكبر من الحذَر، إن "الناس" هم الذين يفكِّرون في الظروف الملائمة، لا أدمغتهم، التي لا تفكِّر، وإنْ كانت أدمغتهم توفِّر آليات للتفكير، فيمكن أن أقوم بعملية قسْمة رياضية طويلة باستخدام إجراء تعلمتُه في المدرسة، لكن دماغي لا يقوم بعملية قسمة طويلة حتى إن كان يُنفِّذ هذا الإجراء، وبالمثل، فأنا لا أنفِّذ عمليةَ قسمة طويلة إن كنت أنفذ بطريقة آلية تعليماتٍ تؤوِّل بأنها هي الخوارزم نفسُه الذي أستعمله، مستجيبًا لبعض الدخول في شفرةٍ ما في ما يشبه "الغرفة الحسابية" عند سيرل، ولا يترتب على هذا شيء عن تنفيذ دماغي خوارزما، في هذه الحالة أو في حالة الترجمة والفهم، فيفهم "الناسُ" في بعض الأوضاع لغةً ما؛ لكن دماغي لا يقوم بفهم الإنجليزية أكثر من كون قدمي تقومان بالمشي، وهي قفزةٌ عظيمة بعيدًا عن أنواع العزو القصدي البديهي للناس، باتجاه مثل هذا العزو لأجزاء محدَّدة في الناس أو الأشياء الأخرى. ويقفز الباحثون هذه القفزة بسهولة بالغة، وهو ما أدى إلى نقاش واسع يبدو أنه غير مفيد عن أسئلة مزعومة تتصل بما إن كان من الممكن للآلات أن تفكِّر، ومنها مثلاً: "كيف يمكن أن ندافع "اختباريًّا" عن الزعم بأن شيئًا (غريبًا) يلعب الشطرنج" (Haugeland 1979)، أو نحدِّد إن كان يمكن لأداة أو خوارزم ترجمةَ اللغة الصينية، أو تناولَ شيء، أو تنفيذَ عمليةِ قتل، أو اعتقاد أن السماء ستمطر. وتعود جذور كثير من هذه النقاشات إلى بحث [العالم البريطاني المعاصر] آلين تيرنج الكلاسيكي الذي اقترح فيه اختبارَ تيرنج لذكاء الآلة، لكن هذه النقاشات تخفق في التنبُّه إلى ملاحظته التي مفادها أن "السؤال الأساس، وهو "هل يمكن

للآلات أن تفكر؟" ليس له – كما أعتقد – أى نصيب من المعنى يَجعله يستحق النقاش" (Turing 1950: 442): فهو ليس سؤالاً عن حقيقة، بل أمراً متروكاً لتقرير إن كان من الممكن أن نتبنى استعمالاً مجازيًا معيّنا، كما فى قولنا (بالإنجليزية) إن الطائرات تطير أما المذنبات فلا ـ أما فى المركبات الفضائية، فتختلف الاختيارات. وبالمثل، فالغواصات تُبحر لكنها لا تَسبح، ولا يمكن أن يكون هناك نقاش ذو معنى عن مثل هذه المواضيع، أو عن ذكاء الآلة، بتنوعاتها الكثيرة المألوفة.

وربما كان مفيدًا أن نقارن النقاشَ المعاصر بالنقاش فى القرنين السابع عشر والثامن عشر عن بعض الموضوعات المشابهة؛ فقد كان كثير من الناس – حينذاك – مأخوذين كذلك بقدرات الأدوات المصنوعة، وكانوا يتناقشون عن إن كان البشر ليسوا إلا أدوات تتسم بتعقيد أكبر وتركيب مختلف. لكن ذلك النقاش كان بحثًا علميًا طبيعيًا من حيث طبيعته، ويتصل بخصائص لم تُدخل فى إطار الفلسفة الآلية، كما يبدو. فقد بيّن ديكارت وأتباعه، خاصة جيرود دى كورديموى، مركِّزين اهتمامهم على استخدام اللغة، الخطوطَ العامة للاستقصاءات الاختبارية عن "العقول الأخرى" مبيِّنين أنه إن استطاع شىء ما المرورَ بأكثر التجارب صعوبةً مما أستطيع صوغه لاختبارِ إنْ كان [هذا الشىء] يعبِّر عن أفكار جديدة أو يؤوِّلها مثلى، فسيكون "من غير المعقول" أن أشك فى أن له ذهنًا كذهنى، ولا يعدو هذا أن يكون طريقةً علمية مألوفة تماثل اختبارَ عبّاد الشمس لقياس الحموضة. وقد نشطوا فى العمل فى مشروع التشابه مع الآلة، لكنهم فهموه على أنه طريق للكشف عن طبيعة العالم. ولم يكن جاك دى فوكانسون، وكان أشهر الأدواتيين، يقصد خداعَ مشاهديه ليحملهم على الاعتقاد بأن البطة الآلية التى صنعها كانت تَهضم الطعام، بل كان يسعى لأن يتعلّم شيئًا عن الأشياء الحية بصياغة نماذج لها، كما هو المعهود فى العلوم، ويتضاد النقاش المعاصر مع التقاليد [العلمية القديمة] بصورة ليست فى صالحه إلى حد كبير، كما يبدو

(Jonathan Marshall 1989؛ وانظر Chomsky 1993a؛ وللمزيد من التعليقات ومناقشة أوسع، انظر Chomsky 1966).

وتصحُّ اعتباراتٌ مماثلة عن المصطلحات القصدية التي تُستخدم عادة في وصف ما يحدث في العالم. فنحن نقول إن المذنّب يتوجه نحو الأرض، ويرتفع الصاروخ نحو القمر، وتتجه الزهرة نحو الضوء، وتطير النحلة نحو الزهرة، ويتناول الشمبانزي ثمرةَ جوز الهند، ويمشي جون إلى مكتبه، وربما تستطيع نظريةٌ علمية طبيعية في المستقبل قولَ شيء عن الاستخدام [اللغوي] المألوف والحالات التي تسعى إلى تناولها، معًا، وهذان موضوعان مختلفان كثيرا. ولن تكون أي من المقاربتين محدودةً بـ "اللفظية الساذجة والفهوم الساذجة"، مثلما أننا لا نتوقع أنّ تتناول نظريةٌ عن الإبصار رؤى كلينتون عن الأسواق العالمية، أو تتناول نظريةٌ عن اللغة حقيقةَ أنّ الصينية لغةٌ لمدينة بكين وهونج كونج، أما اللغة الرومانثية فليست لغةً لبوخارست وريو دي جانيرو — نتيجة لبعض العوامل كاستقرار الإمبراطوريات وما أشبه ذلك.

وربما يكون مضلِّلاً القولُ بأننا نتخلّى عن "نظريات" أنّ المذنّب يتوجه نحو الأرض، وأن الشمس تغرب وأن السماء تظلم، وأن الموجة تضرب الشاطئ ثم تتراجع، وأن الريح تموت والموجات تختفي، وأن ناسًا يتكلمون الصينية لا الرومانثية، إلخ، وأننا نستبدل بها نظريات أفضل. ويسير البحث عن الفهم النظري، بدلاً من ذلك، متّبعًا طرقه الخاصة، ويقود إلى صورة للعالم تختلف اختلافًا كليًا، وهي صورة لا تؤكد صحةَ طرقنا العادية في الكلام والتفكير أو تقضي عليها. ويمكن أن نقدّر هذه الطرق، ونعدّلها ونُغنيها من نواحٍ عدة، مع أن العلم قلما يكون هاديًا في المجالات المهمة للبشر، والبحث العلمي الطبيعي مشروع بشري مخصوص يسعى للوصول إلى نوعٍ خاص من الفهم، يمكن أن يحصّله البشرُ في مجالات محدودة إنْ أمكن تبسيطُ المشكلات بشكل كافٍ، ونحن نعيش حيواتنا، في خلال ذلك، ونواجه بأفضل

طريقة نستطيعها مشكلات يختلف بعضها عن بعض اختلافًا جوهريًا، وتتصف بأنها غنية جدًا فى طابعها حتى إنها لتحدُّ من أملنا فى القدرة على اكتشاف مبادئ تفسيرية لها على أى عمق، إن كانت مثل هذه المبادئ موجودة ابتداء (للاطلاع على نتائج مماثلة تقريبًا انطلاقًا من أسس مختلفة، انظر Baker 1988 وتعليقات Charles Chastain).

ولا تبدو قناعة بريستلى الأساسية وغيره من العلماء البارزين فى القرن الثامن عشر موضعًا لخلاف؛ فالتفكير واللغة خصيصتان لمادة منظَّمة — وهى فى هذه الحالة، غالبًا، الدماغ، لا الكُلْية أو القدم. وليس من الواضح السببُ الذى يوجب بعث هذه النتيجة بعد قرون كأنها اقتراح جرىء جديد — فهى "الادعاء الجرىء بأن الظواهر الذهنية طبيعيةٌ بصورة خالصة وتسبِّبها النشاطاتُ العصبية العضلية للدماغ" (Patricia Churchland 1994)، أو فرضيةُ "أنّ قدرات الذهن البشرى قدراتٌ للدماغ البشرى حقيقةً" (Paul Churchland 1994)؛ أو أن "الشعور خصيصةٌ عليا للدماغ أو خصيصة ناشئة عنه"، "وتنتمى إلى النظام الأحيائى الطبيعى . . . كانتماء التركيب الضوئى أو الهضم أو الانقسام الفتيلى له"، كما فى صياغة جون سيرل الأخيرة (John Searle 1992: 90)، وهى التى وصفها ناجل (Nagel 1993) بأنها "القلب الغيبى" لـ"فرضية جذرية" ربما "تمثِّل إضافةً كبرى للإجابات المحتملة عن مشكلة الذهن — الجسد" إن بُيِّنتْ بشكل ملائم (وهو ما يراه غير محتمل)، ويَخرج علينا كلَّ عامٍ أو عامَين كتابٌ يؤلِّفه عالمٌ بارز يتضمن "نتيجةً محيِّرة" أو "فرضيةً باهرة" تقول إن التفكير عند البشر "خصيصة للنظام العصبى، أو للدماغ بشكل أصح"، وأنه "النتيجةُ الضرورية لتنظيم معيَّن" للمادة، كما صاغ ذلك بريستلى منذ أمد بعيد، بطرق تبدو قريبة من البديهة — وهى غير مفيدة بشكل يماثل عدم فائدة البداهة عادة، ذلك أن علوم الدماغ، على الرغم من أوجه التقدم المهمة، ما تزال بعيدةً جدًا عن ردم الهوة إلى المشكلات التى يثيرها التفكيرُ واللغة، بل حتى إلى ما نفهمه فهمًا تقريبيًا عن هذه الموضوعات.

ونواجه هنا مشكلات مألوفة من مشكلات التوحيد. فـــ "اخــتلاف الخرائط العصبية ليس متمايزًا أو ثنائي القيمة بل مستمر، ومفصَّل تفــصيلاً دقيقًا جدًّا، وواسع"، كما يقول جيرالد إيدلمان (Edelman 1992: 28)، مستنتجًا من ذلك أنه يجب أن تكون النظريات الحوسبية أو الترابطية للذهن خاطئـــة بسبب طبيعتها التمايزية، لكن هذا ليس أكثر معقوليةً من النتيجة التي كانـــت تقضي، قبل قرن، بأنه يجب أن تكون الكيمياء خاطئةً لأنه لا يمكن توحيدها مع ما نعرف الآن أنه كان علمَ فيزياء فقيرًا جدًّا؛ خاصة "أن المـــادة التـــي يتعامل معها الكيميائي متمايزة وغير مستمرة، أما الطاقة عند عالِم الفيزيـــاء فمستمرة" (Edelman 1992: 27)[٢]. وهذا الفارق حقيقي إلى حد بعيد، لكنـــه ليس "أزمةً" لعلم الإدراك، كما يرى إيدلمان، بل مشكلة من مشكلات التوحيد، التي لا يمكن أن نقول عنها شيئًا مؤكدًا.

وليس هناك مشكلة من حيث المبدأ في أن نصوغ أنظمةً تحوِّل الدُّخول المستمرة إلى خروج متمايزة محدَّدة جدًّا، ومن هذه طابَعُ التفاعل العـــصبي الذي يتَّصف إما "بالوجود أو العدم"، والشاهد الآخر ما بيَّنته دراسةٌ حديثـــة تَستخدم "نموذجَ حاسوبٍ ديناميكي حراري لتبيِّن أنه يمكن أن ينـــشأ اطـــرادٌ عظيم في موضع سمة دقيقة جدًّا، كالتغيُّر من ست طبقات إلى أربع، من عدم استمرار ضئيل في دخول [جمْع "دخْل"] التَّجنيب الجيني في أثناء النمو"، وهو "خلخلة ضئيلة" "تؤثِّر تأثيرًا بيِّنًا على التنظيم العام لـــ. . . بنية كبيرة"، وهذا واحد من أمثلة كثيرة، كما يلحظ المؤلـــف (Stryker 1994: 1244). وبغـــض النظر عن الوضع الاختباري لبعض الاقتراحات المعينة، فلم يبيِّن أحدٌ إلـــى الآن أن مشكلات التوحيد في النظريات المتمايزة (الحوسبية أو الترابطيـــة) والنظريات الخَلوية مختلفةٌ نوعًا عن النظريات الأخرى التي ظهـــرت فـــي مسار العلم.

ويتمثل الوضع الحالي في أن لدينا الآن نظريات جيدة ومتطوِّرة عـــن بعض مظاهر اللغة والذهن، لكن ليس لدينا إلا أمشاج من الأفكار عن العلاقة

بين أى منها والدماغ. لنأخذ مثالاً محدَّدًا. فنحن نفهم الآن فهمًا جيـدًا إلـى درجة بعيدة، فى إطار النظريات الحوسبية عن الملكة اللغوية للدماغ، الفروق بين أنواعٍ من "الشذوذ" ــ أى الخروج عن مبدأ عام أو آخر من مبادئ الملكة اللغوية. فقد اكتشفت الأبحاث فى مجال النشاط الكهربائى للدماغ التى أُنجزت مؤخرًا بعضَ أنواع الترابط بين عدد من فصائل الشذوذ هذه، ووجدت نوعًا مختلفًا من الاستجابة العضلية الكهربائية للمخالفات التركيبيـة فـى مقابـل المخالفات الدلاليـة (Neville et al. 1991; Hagoort et al. 1993; Hagoort and Brown 1994). ومع ذلك، فتظل هذه النتائج شيئًا لافتًا للنظر وحـسب؛ لأنه لا توجد نظرية ملائمة عن النشاط الكهربائى للدماغ ــ أى ليس هنـاك سببٌ معروف يُلزم بوجود هذه النتائج، بدلاً من نتائج أخرى، أما النظريـات الحوسبية، بالمقابل، فمؤسَّسةٌ بشكل أكثر صلابة من وجهة نظـر المقاربـة العلمية الطبيعية؛ لذلك يقع تحليلُ الشذوذ، على الأخص، فى إطارِ مـصفوفةٍ تفسيرية ذات مدى أوسع.

وتسعى أية مقاربة طبيعية للغة والذهن إلى تحسين كلِّ مقاربـة، مـع الأمل فى الوصول إلى توحيدٍ أكثرَ دلالة. ومن الشائع الافتراضُ بأن هنـاك أمرًا مشكلاً على درجة عميقة فى النظرية المؤسَّسة تأسيسًا أقوى على أسس علمية طبيعية، وهى "النظريةُ الذهنية"، وفى الانشغال الزائد بمشكلتى "النزعة الإقصائية" أو "النزعة الفيزيائية" اللتين لم تصاغا إلى الآن صياغة متماسكة. ولا يُهيمن هذا التوجه الثنائى على النقاش والحوار فحسب، بل يكـاد يُعـد مسلمةً، وهى ظاهرة غريبة فى تاريخ الفكر تستحق استقصاء أكثر دقة.

ويمكن لنا، حين نضع مثل هذه التوجهات جانبًا، أن نسأل كيف يـسير البحث العلمى الطبيعى. ونحن نبدأ بما نأخذه موضوعًا طبيعيًا، كجونز مثلاً، ونهتم فى البداية ببعض المظاهر الخاصة بجونز، أى مظاهره اللغوية. ونجد أن عناصر معينة فى دماغ جونز مخصصةٌ للغة ــ ولنسمِّها "الملكةَ اللغوية"، وربما يكون لبعض أجزاء الجسد الأخرى تصميم محدَّد ذو علاقـة محـددة

باللغة كذلك، ويمكن أن تدخل عناصرُ الملكة اللغوية في بعض مظاهر الحياة الأخرى، وهو ما يمكن أن نتوقعه في أي عضو أحيائي. ونترك هذه الأمور جانبًا في البداية، موجِّهين اهتمامنا إلى الملكة اللغوية في الدماغ، وهذا أمر أساسي بوضوح. وهناك أدلة قوية على أن للملكة اللغوية مكوِّنين مختلفين، في الأقل، هما: "نظامٌ إدراكي" يختزن المعلومات بصورة ما، و"أنظمةٌ للأداء" تستخدم هذه المعلومات للنطق والإدراك، والكلام عن العالم، وصياغة الأسئلة، وإطلاق النكات، إلخ. وللملكة اللغوية نظامٌ لإدراك الدَّخل ونظام لإنتاج الخرْج، وهناك ما هو أكثر من هذا؛ فليس هناك أحد يتكلم اليابانية فقط، ولا يفهم إلا السواحلية، وتتعامل أنظمةُ الأداء هذه مع رصيد مشترك من المعلومات يَربط بعضَها ببعض ويزودها بتعليماتٍ من نوع معين. ويمكن أن تتعطّل أنظمةُ الأداء وحدَها، وربما بشكل حاد، في حين يبقى النظام الإدراكي كما هو، وقد اكتُشفت بعضُ حالات انفكاك الترابط الأخرى [بين مثل هذه الأنظمة]، وهو ما يَكشف عن نوع البنية القالبية المتوقَّعة في أي نظام أحيائي معقد.

لاحظ أننا لا نفهم "القالبية" هنا بمعناها في أبحاث جيري فودر اللافتة للنظر، تلك التي تقتصر على أنظمة الدخْل والخرج؛ وتنفُذ هذه الأنظمة إلى النظام الإدراكي للملكة اللغوية، لكنها متمايزة عنه. وربما يكون صحيحًا أنّ "الآليات النفسية تتألف من ملكات مستقلة مكتفية بذاتها كإدراك الوجوه وإدراك اللغة" (Mehler and Dupoux 1994)، لكنْ لا يبدو أن لهذه "الأعضاء الذهنية" مكانًا في إطار القالبية، كما تُفهم بدقة – كما يبدو – بالمثل، أن أفكار ديفيد مار المؤثِّرة عن مستويات التحليل لا تَنطبق هنا أبدًا، خلافًا للنقاش الواسع عنها، ذلك أنه هو كذلك كان يهتم بأنظمة الدخل – الخرج وحدها، أي بتحويل المثيراتِ الشبكية، في هذه الحالة، إلى نوع من الصورة الداخلية.

وللملكة اللغوية عند جونز "حالة أولى" تُثبِّتها الإعدادُ الأحيائي، كما

يفترض عمومًا أن الحالة الأولى تُحدِّد أنظمة الأداء بصورة كاملة – مما يعني أن أى تغيُّرٍ لحالة معينة موجَّهة داخليًا أو أنه نتيجة لعوامل خارجية كالجروح، لا نتيجة للتعرض للغة معينة أو أخرى، وهذا هو الافتراض الأبسط، ولا يقول أحد بأنه زائف، مع أنه ربما يكون كذلك، وحين نتبناه نعزو الاختلافات اللغوية في الإدراك (كعدم قدرتنا على إدراك فوارق النَّفْث كما يدركه متكلمُ اللغة الهندية، مثلا) إلى اختلافات المظاهر الصوتية للنظام الإدراكى، من غير أن نثق كثيرًا بهذا الافتراض، مع أن هناك أدلة عليه؛ فيستطيع متكلمو اللغة الإنجليزية، فى الظروف الاختبارية، اكتشافَ التقابل [بين الأصوات المنفوثة وغير المنفوثة] في اللغة الهندية، وهو الذى لا "يسمعونه" حين يكون فى سياق لغوى. وربما كانت أنظمة الأداء مخصَّصة للغة حقًا، فيبدو أنه حتى الأطفال الصغار جدًا يمتلكون نظامًا قارًّا شبيهًا بالنظام الصوتي عند الكبار، وهو الذى ربما يكون صقلاً خاصًا لخصيصة أشمل لدى الفقّريات، ويقترح ميلر ودوبو فرضيةً مؤقتة تقول إن "الأطفال حديثى الولادة حساسون للتقابلات "كلها" التي يمكن أن توجد فى اللغات الطبيعية "كلها"، وبالطريقة نفسها التى توجد بها عند الكبار" (Mehler and Dupoux 1994: 167)، وهم "يتعلّمون عن طريق النِّسيان" (ص ١٦٨) نتيجة للتعرُّض المبكر، فلا يَصل الطفل إلى نهاية السنة الأولى من عمره إلا وقد انتقى نظامُه الإدراكى رصيدًا معيَّنًا من بين الاحتمالات المتاحة.

ونكتفى – بناء على هذه الفرضيات المبسَّطة عن النمو – بملاحظة النظامِ الإدراكى للملكة اللغوية، وحالتها الأولى، وحالاتها التالية. ومن الواضح أن هناك تغيراتٍ للحالة تَعكس التجربة؛ فليست الإنجليزيةُ اللغةَ السواحلية، أو أنها ليستْ هى بدقة. وربما يَجد عالمٌ مريخى منهجى أن هذا التنوع سطحى إلى حد بعيد، وهو ما يَجعله يَستنتج أن هناك لغة بشرية واحدة وحسب، بتنوعات هامشية. لكن النظام الإدراكى للملكة اللغوية عند جونز "يتغير" استجابةً للتجربة اللغوية، وهو ما يؤدى إلى تغيُّر الحالة حتى تصل

إلى وضع مستقر تقريبا، وربما يكون ذلك فى وقت مبكر بين السادسة والثامنة من العمر، وربما يعنى ذلك، إن كان صحيحًا، أن التغيرات التالية (غير المعجمية)، التى اكتُشفت، حتى سن البلوغ، موجَّهةٌ داخليا.

دعنا نُسمِّ مؤقتًا حالةً معينة للنظام الإدراكى للملكة اللغوية عند جونز بـ "لغة" ــ أو، بالمصطلح التقنى: "لغة ــ د"، حيث تعنى "د" "داخلى"، و"فردى"؛ لأن هذه المقاربة للغة داخليَّة تحديدًا، وفردية بصورة حاسمة، وتشبه بهذا المعيار دراساتِ نظام الإبصار[٣]. فإذا كان النظام الإدراكى للملكة اللغوية عند جونز فى حالة "ل"، فسنقول إن جونز يمتلك اللغةَ "لغة ــ د". وتُشبه "اللغة ــ د" قولَنا: "طريقة فى الكلام"، وهى إحدى الأفكار التقليدية عن اللغة.

وعلى الرغم من بعض التشابه بين المصطلحات هنا والتعبيراتِ المعيارية المألوفة إلا أنها مختلفة، وهو ما نتوقعه حتى فى الأطوار المبكرة من البحث العلمى الطبيعى. وتَصِف اللغاتُ المختلفة فى العالَم مثلَ هذه الأمور بطرق مختلفة. فنقول، فى الإنجليزية، إن جونز "يعرف" لغتَه؛ ويقول آخرون إنه يتكلمها، أو يتكلم بها، إلخ. كما تتنوع المصطلحات التى تُطلق على شىء كاللغة، إلا أنى لا أعرف دراسةً جادة تناولت هذه الأمور عبر الثقافات، وهذه الموضوعات مهمة للبحث فى علم دلالة اللغة الطبيعية، والفروعِ الأخرى للبحث العلمى الطبيعى التى تسعى لتبيين كيف تُنتج الأنظمةُ الإدراكية، ومنها اللغة، ما يسمى أحيانًا بـ "العلم الشعبى". فنحن نتكلم عن أن الأزهار تتوجه نحو الشمس، وأن السماء تظلِم، والتفاح يسقط نحو الأرض، والناس يعتقدون بعضَ الاعتقادات ويتكلمون اللغات، إلخ؛ وربما يمكن لطرقنا فى التفكير والفهم ــ ولأفكارنا الحدسية عن الكيفية التى يتكوَّن بها العالم ــ أن تتصل بصورة مباشرة بمثل هذه الأنواع من التعبيرات، أو لا يمكن. فتتبع عناصرُ العلم الشعبى من إعدادنا الأحيائى المسبق، متخذةً أشكالاً معينة تحت ظروف ثقافية متنوعة. وهناك أدلة على أن الأطفال الصغار

يعزون بعض الاعتقادات والخطط للآخرين قبل أن يكتسبوا الكلمـــات التـــي تصف هذه الأشياء بوقت طويل، وربما صحّ الشيء نفـــسه عنـــد البـــالغين عموما، مع أن أغلب اللغات، كما تروي بعضُ الدراسات، ليس فيها كلمـــات تشبه الكلمة belief "اعتقاد" في الإنجليزية، وهذه دراسات جادة، ويجـــب ألا تُتناول بخفّة؛ وتوفّر حدُوسنا عنها بعض الأدلة، لكن ليس أكثر مـــن ذلـــك. يضاف إلى ذلك أنه لن يكون هناك صلة بين ما يمكن أن نتعلمه عن العلـــم الشعبي وبين النشاط البحثي العلمي الاختباري عن الموضوعات التي يتناولها العلم الشعبي بطريقته الخاصة، بغض النظر عن مقدار ما نتعلمـــه، وهـــذه نتيجة تُعدُّ بديهية في دراسة ما يسمى بـــ "العالَم الفيزيائي" لكنْ ينظر إليهـــا على أنها خلافية أو زائفة في دراسة المظاهر الذهنية للعالَم (بناء على أسباب مشكوك فيها، كما أظن).

ولم أتحدث إلى الآن إلا عن جونز ودماغه وملكـــة دماغـــه اللغويـــة وبعض مكوّناتها، وهذه كلها موضوعات طبيعية. وحين نلتفت إلـــى ســـميث نكتشف أن الحالة الأولى لملكته اللغوية تتماثل فعلاً [مع ملكة جونز]؛ وإذا مرَّ بتجربة جونز فسيمتلك لغةَ جونز، ويبدو هذا صحيحًا عبْر النوع، وهو مـــا يعني أن الحالة الأولى خصيصةٌ مقصورة على النوع، إلى حد بعيد جدًا. وإذا كان الأمر كذلك فـــ"الملكة اللغوية البشرية" و"اللغات (ـــ د)" التي هي تحققات لها تَصلح أنْ تكون موضوعات طبيعية.

وإذا كان جونز يمتلك اللغة "ل" فهو يعرف أشياء كثيرة، مثل: أنَّ كلمة house تسجع مع mouse وأن عبارة brown house تتألف من كلمتين بينهما علاقة صورية صوتية من التجانس الصوتي [في الحركة الوسطى فيهمـــا]، وأنها تُستخدم في الإحالة إلى بنية صمّمت لأغراض محددة وتـــستخدم لهـــذه الأغراض التي لها سطح خارجي بني، ونودُّ أن نكتشف كيف يعرف جـــونز مثل هذه الأشياء، وهذه هي الطريقةُ التي يبدو أنَّ معرفة جونز تعمل بها.

وتتألف "اللغة ـــ د" من إجراء حوسبي ومعجم، أما المعجم فمجموعـــة

من الوحدات، كلٌ منها مجموعٌ معقد من الخصائص (تسمى "سمات")، كخصيصتي "صوت شفتاني وقفي" أو "شيء مصنوع". ويختار الإجراءُ الحوسبي وحداتٍ من المعجم ويصوغ منها تعبيرا، وهو مجموع من هذه السمات أكثر تعقيدا، وهناك ما يدعو إلى الاعتقاد بأن النظام الحوسبي غيرُ متنوِّع، إلى حد بعيد، ويوجد بعض التنوع في الأجزاء التي تتصل اتصالاً وثيقا بالإدراك والنطق؛ وليس هذا غريبا؛ لأن هذا هو المكان الذي تتوفر فيه المادة الأولية للطفل في أثناء اكتسابه اللغة — وهي عملية يمكن وصفها بصورة أفضل بـ"النمو" بدلاً من "التعلُّم"، في رأيي. وإذا نحينا هذا جانبا، يبدو أن التنوع اللغوي مكانُه المعجم. وأحد مظاهره "الاعتباطيةُ السوسورية"، أي الربط الاعتباطي بين التصورات والأصوات: أي أن البرنامج الوراثي لا يحدِّد إن كانت "شجرة" tree، أي التصوُّر، ترتبط بالأصوات المكوِّنة لكلمة "شجرة" [في العربية] أو tree (في الإنجليزية) أو baum (في الألمانية). ويمكن أن يُكتسب الربطُ بين التصور والصوت بناء على أقل قدر من الدليل، فالتنوع هنا غير مفاجئ، لذلك. إلا أن الأصوات الممكن وجودها مقيَّدةٌ تقييدًا دقيقا، وربما تكون التصورات مثبَّتةً إلى حد بعيد، ويصعب أن نتخيل الأمر بشكل مختلف، نظرًا لسرعة الاكتساب المعجمي، الذي يصل إلى كلمة واحدة في الساعة بين السنة الثانية والثامنة من عمر الطفل، مع اكتساب الوحدات المعجمية عادة بناء على تعرُّضٍ واحد لها، في ظروف غامضة جدًا، لكنها تُفهم في سياق تعقيدٍ دقيق هائل يذهب بعيدًا جدًّا وراء ما يمكن أن يسجَّل في أي معجم مفصَّل مستقصٍ، وهو الذي لا يعطي، شأنه شأن أكثر الأنحاء التقليدية المفصَّلة، إلا إشارات تكفي إلى حدٍّ ما أولئك الذين يَعرفون الإجابات مسبقا، وهي معرفة فطرية إلى حد بعيد.

وربما يكون التنوع، وراء هذه العوامل، مقصورًا على المظاهر الصورية للغة — كإعراب الأسماء، وتصريف الأفعال، إلخ، بل ربما يكون التنوعُ محدودًا حتى هنا. فيبدو أن الإنجليزية تختلف، ظاهريًّا، اختلافًا حادًّا

عن الألمانية أو اللاتينية أو اليونانية أو السنسكريتية من حيث غنى التصريف، كما أن الصينية أكثر اختلافا. إلا أن هناك أدلة على أن في اللغات الأنظمةَ التصريفية نفسَها أساسًا، ولا تختلف إلا في الطرق التي يتعامل بها الإجراء الحوسبي مع العناصر الصورية فيها الذى يوفر تعليمات لأعضاء النطق والإدراك. ويبدو أن الحوسبة الذهنية متماثلة فيما عدا ذلك، مما يَنشأ عنه الآثارُ غير المباشرة للبنية التصريفية الملاحَظة، حتى إن لم تكن التصريفاتُ نفسُها تُسمع في الكلام، وربما يكون ذلك أساسَ التنوع اللغوى، إلى حد بعيد، ذلك أنه يمكن لتغيرات بسيطة في الطريقة التي يؤدى بها النظامُ وظيفتَه أن تؤدى، بالطبع، إلى ما يبدو كأنه تنوع هائل.

وللإجراء الحوسبي خصائصُ ربما تكون مقصورة عليه إلى حد كبير. وهو "متقشف" كذلك، فهو لا يستطيع النفاذ إلى كثير من خصائص الأنظمة الإدراكية الأخرى؛ إذ يبدو أنه لا "نظائر" له، مثلا. وهو يعيِّن [خصيصة] "التجاور" adjacency ؛ لهذا يمكن أن يكون لكل مقطع بين مقطعين خصيصةٌ ما (كـ "النَّبر"، مثلا). لكنْ لا يمكنه استخدامَ فكرة الـ"ثلاثة". فليس هناك نظام صواتى يَحدث فيه شيء ما في كل ثالث مقطع، مثلا؛ كما يبدو أن التركيب يَخضع لخصيصة "اعتماد البنية"، ولا يمكن أن يستغل الخصائص الخطِّية أو الحسابية الأبسط في التنفيذ خارج الملكة اللغوية.

ومما له صلة بهذا الأمر البحثُ الاختبارى الذى أنجزه نيل سميث وزملاؤه مؤخرًا (Neil Smith et al. 1993: 279-347). فقد كانوا يَدرسون شخصًا ــ أسموه "كريستوفر" ــ لديه ملكة لغوية طبيعية فيما يبدو لكنه يعانى من مشكلات إدراكية شديدة، وهذا مثال لنوعٍ من قالبية البنية الذهنية مما يكتشفه الباحثون دائما، فيجيد كريستوفر ست عشرة لغة، ويستطيع الترجمةَ منها إلى الإنجليزية. وشملت هذه التجارب كريستوفر ومجموعةً أخرى اتُّخذتْ مقياسا؛ فقد درَسوا جميعًا اللغةَ البربرية ونظامًا آخر مصطنعًا صيغ لكى يخالف مبادئ اللغة، وقد تعلَّم كريستوفر البربرية بسهولة، كما هو

متوقَّع، لكنه لم يستطع أن يتعلم إلا قدرًا ضئيلاً من النظام المصطنع، بسبب افتقاره إلى قدرات إدراكية أخرى. أما أفراد المجموعة القياسية فقد حققوا قدرًا من النجاح في تعلُّم النظام المصطنع؛ إذ يبدو أنهم عاملوه على أنه مجرد لغز. لكنهم لم يستطيعوا اكتشافَ بعض القواعد البسيطة جدًا، كالقاعدة التي تضع علامةً توكيدية على الكلمة الثالثة في جملة ما، ويبدو أنَّ "تقشُّف" الملكة اللغوية كان كافيًا ليَمنع اكتشافَ قاعدة بسيطة لا تعتمد على البنية، في سياق لغوي.

وتَدخل الأعدادُ في استخدامنا للغة بالطبع؛ فنحن نستطيع أن نكتشف المقطوعات الشعرية [المكونة من عدد من الأبيات] ونفهمهما، مثلا، كما يَشتمل على الاستدلال، إلا أنه يبدو أن الإجراء الحوسبي على درجة من التقشف يجعل قدرتَه على استخدام هذه الموارد محدودة أيضا، والملكة اللغوية غنية جدًّا وهي في الوقت نفسه فقيرة جدًا، وهو ما نتوقَّعه في نظام أحيائي؛ فهي تستطيع تحقيق مستوى عالٍ من الإنجاز في مجالات محددة، لكنها لا تستطيع بالمقابل أن تتعامل مع بعض المشكلات التي تقع خارج هذه المجالات. وكما ذكرنا سابقا، ينبغي أن نتوقع أن يكون ذلك صحيحا في الملكات الأخرى كلها، ومنها تلك التي يمكن أن نسميها بـ "ملكة صياغة العلم"، وهي المجموع الخاص من النوعيات والقدرات التي نستخدمها في أثناء اشتغالنا بالبحث العلمي الطبيعي.

ومع أن الملكة اللغوية متخصصة جدًّا فإنها لا ترتبط بوسائل إحساسية محددة، خلافًا لما كان يُفترض منذ زمن غير بعيد. لهذا تُشبه لغةُ الإشارة عند الصم اللغةَ المنطوقة شبهًا كبيرا، وطريقةُ اكتسابها تماثل طريقةَ اكتساب تلك إلى حد بعيد. ولا يبدو للقصور الحسي الكبير إلا أثر محدود على اكتساب اللغة؛ فيكتسب الأطفالُ المكفوفون اللغةَ بالكيفية التي يكتسبها بها الأطفالُ المبصرون، بل يشمل ذلك كلمات اللون والكلمات التي تتصل بالتجربة البصرية كـ "يرى" و"ينظر"، وهناك أناس يحققون معرفةً لغوية

تقرب من المستوى العادى فى غياب أى دخل إحساسى يتجاوز ما يمكن أن يُحصّلوه بوضع أيديهم على وجه شخص آخر أو حنجرته، ويبدو كأن الآليات التحليلية لملكة اللغة تقدَح بالطرق نفسها إلى حدٍّ بعيد بغض النظر عـن إن كان الدخل سمعيًا أو بصريًا، أو حتى لمسيًا[٤]، ويبدو أنها تحلُّ فى المنـاطق نفسها من الدماغ، وهو ما يبدو مفاجئًا شيئًا ما.

وتُنبئ أمثلةُ فقرِ الدَّخل هذه بغنى الإعداد الفطرى ــ مع أن اكتـساب اللغة العادى مثيرٌ للدهشة بقدرٍ كافٍ، كما يوضحه النفاذ المعجمى كـذلك، لا بسبب سرعته وتعقيد ما ينتج عنه وحسب؛ لهذا يمكـن أن يحـدّد الأطفـالُ الصغارُ جدًّا معنى كلمة مصطنَعة من المعلومات التركيبية فى جملة يفـوق تعقيدُها أيّةَ جملة يمكن لهم أن ينتجوها (Gleitman 1990).

ومن الفرضيات المعقولة اليوم أنّ مبادئ اللغة مثبّتـة وفطريـة، وأن التنوع محدودٌ بالطريقة التى بيّناها. فكلُّ لغة، إذن، محدَّدةٌ (إلى حد بعيد) عن طريق اختيار بعض قيَم الوسائط المعجمية؛ فباستطاعتنا، بوساطة طيف من الاختيارات، أن نَشتق اللغةَ المجرية؛ وأن نحـصل علـى لغـةِ اليوروبـا باختيارات أخرى، ويُوفر منهجُ المبادئ والوسائط هذا طريقًا لحلِّ التجـاذب الأساسى الذى ظهر فى بدايات النحو التوليدى. فقد اكتشف الباحثون مباشرة بعد محاولاتهم المبكرة لتوفير أوصاف حقيقية للُغات قبل أربعـين سـنة أنّ تعقيد بنية اللغة يتجاوز بكثير ما كانوا يتخيّلونه، وأن الأوصـاف التقليديـة للشكل والمعنى لم تكن إلا مسًّا رفيقًا لظاهر اللغة، أما الأوصاف التى أنجزها البنيويون فلا قيمة لها تقريبا. ويتزايد تنوعُ اللغاتِ الظاهرى الخادع تزايـدًا هائلاً، إضافة إلى ذلك، بمجرد توجيه الباحث نظرَه إلى تناول الحقائق التـى تُعزى بصورة ضمنية لـ "ذكاء القارئ" الذى لم يحلَّل. وبدا أن تحقيق "كفاية الوصف" يقتضى الإتيان بتفسير معقّد جدًّا، مقصور على اللغات المعينة، بل خاصٍ ببعض التركيبات المعينة فى لغات معينة، كالقواعد المعقـدة لجمـل الصلة فى الإنجليزية، مثلا. وكان من الواضح، مع ذلك، أنه لا يمكن لشيء

من هذا أن يكون صحيحا، ذلك لن ظروف اكتساب اللغة تُبين بوضوح أنه لا بد أن تكون هذه العملية موجَّهةً بصورة داخلية، كالحال في مظاهر النمو الأخرى، وهو ما يعني أنه لابد أن تكون اللغات جميعًا متماثلةً تقريبا، ومحدَّدةً بالحالة الأولى بصورة كُلِّيَّة إلى حد بعيد، وظل هذا التجاذبُ، منذ ذلك الحين، يوجِّه التيارَ الرئيس في الجهود البحثية لانتهاج المقاربة العلمية الطبيعية، أي: أنْ تُجرَّد من مرجل التعقيد الوصفي المعقد بعضُ المبادئ العامة التي تحكم الحوسبةَ وتَسمح بصياغة القواعد في لغةٍ ما بأشكال بسيطة جدا، مع تنوع محدود.

وأدت الجهود لحل هذا التجاذب بهذه الطريقة في نهاية الأمر إلى المقاربة المسماة بالمبادئ والوسائط التي بيناها آنفا باختصار. وهي فرضية جريئة أكثر من كونها نظرية محدَّدة، مع أن إكمال الصورة ما يزال مستمرا، وما تزال الأفكار النظرية الجديدة تقود إلى توسُّع أبعد في المواد الاختبارية ذات الصلة في لغات مختلفة جدًّا من حيث الأصول النَّسَبية.

وتمثِّل هذه الأفكار مفارقةً جذريَّة لتقليد غني استمر ألفين وخمسمائة سنة. فلا تُبيِّن هذه الأفكار، إنْ كانت صحيحةً، أن اللغات متماثلةٌ، بإجراء حوسبي يكاد يكون واحدًا وتنوعٍ ضئيل مقصور على المعجم وحسب، بل تبين كذلك عدمَ وجود قواعد أو تراكيب شبيهة بالقواعد والتراكيب بالمعنى التقليدي، التي نقلت إلى النحو التوليدي المبكر؛ فليس هناك قواعد لتكوين جُملِ الصلة في اللغة الإنجليزية مثلا. فليست التراكيبُ التقليدية ــ كالمركَّب الفعلي، وجملة الصلة، والمبني للمجهول، إلخ ــ إلا وسائلَ تصنيفية مصطنعة، أما خصائصُها فتَنتُج من تفاعل مبادئ أكثرَ عمومية.

وتُميِّز مقاربةُ المبادئِ والوسائط بين فكرتين تقعان معًا تحت تصور "اللغة ــ د"، هما: أن هناك تمييزًا تصوريًّا واضحًا بين حالة الملكة اللغوية، من جانب، وحالةٍ مشخَّصةٍ ما للحالة الأولى بعد تثبيت الوسائط، من جانب آخر. وفي غيابِ أية معجزة سيختلف هذان الموضوعان اختباريًّا دائما،

فحالة الملكة اللغوية الفعلية عند فرد معين نتيجةً لتفاعل عــدد كبيــر مــن العوامل، ولبعضها فقط صلةٌ بالبحث في طبيعة اللغة. فنحن نأخذ "اللغــة ــ د"، إذن، بناءً على أسس داخلية أخرى تتبع من النظرية، بأنهــا تــشخيص للحالة الأولى، إذا "أمثلْنا" من الحالات الفعلية للملكــة اللغويــة، ومــصطلحُ "الأمثلة" مضلِّلٌ شيئًا ما، كما هي الحال في أنواع البحث العلمــي الطبيعــي الأخرى، فهي إجراء نتبعه حين نحاول اكتشاف الواقع، أي المبادئ الحقيقية للطبيعة، ومع هذا لا يُعدّ هذا الإجراء غير شرعي إلا في دراسة المظــاهر الذهنية للعالَم خاصة، وهذا مثال للثنائية الغريبة التي يجب أن نتغلب عليها.

وقد فتح التقدُّمُ في هذا المسار مسائلَ جديدة، ومنها تحديدًا، ما المــدى الذي يمكن أن يَصل إليه اختزالُ المبادئ نفسها إلى الخــصائص الطبيعيــة الأكثر عمقًا للحوسبة. وإلى أي مدى تكون اللغة "مُحكَمة" perfect، بناءً على شروط المثلوية الطبيعية optimality وبعضِ العلاقات البسيطة جدًا؟ فتــرى إحدى النظريات أننا، إذا نحّينا جانبًا السماتِ الصوتية التي تنفُــذ الأنظمــةُ النطقية الإدراكية إليها، فإن خصائص تعبيرٍ معين، مما يَدخلُ في اســتخدام اللغة، تأتي بشكل مطلق من المعجم: أي أن الحوسبة تنظِّم هذه الخــصائصَ بطرقٍ مقيَّدة جدًا، لكنها لا تُضيف سماتٍ أخرى؛ وهذا تبسيطٌ كبير للمسلّمات المبكرة، وهي التي ربما تتطلب، إن كانت صحيحة، إعادةَ تفكير واسعة في "المستويات الوجيهية" بين الملكة اللغوية والأنظمة الأخرى للــذهن، وتــرى نظريةٌ أخرى، اقترحها أساسًا ريتشارد كاين (١٩٩٤) أنه ليس هناك تنــوعٌ وسائطي للترتيب زمنيًا. فالترتيب، بدلاً من ذلك، صورةٌ لخصائصَ تحدَّد في أثناء الحوسبة: ويعني هذا أن الترتيب الأساس في اللغات جميعًا، انطلاقًا من هذه المسلمات، هو: "فاعل ــ فعل ــ مفعول". وتسعى بعضُ الأبحاث التــي أُنجزت في مؤخرًا لبيان أنَّ بعض التعبيرات الممكنة التي ربما تؤوَّل عنــد المستوى الوجيهي، إن كوِّنت، تُمنع لأنَّ حوسباتٍ أخرى بالموارد المعجميــة نفسها أكثرُ اقتصادًا. (للاطلاع علــى نقــاش هــذه الموضــوعات، انظــر Chomsky 1993b، وChomsky 1996b، والمراجع المذكورة هناك).

ونتوقع، بناء علي مثل هذه المسلمات، أن اللغات "يمكن تعلُّمها"؛ لأنــه لا يوجد إلا قدْرٌ قليل ليُتعلم، لكنها "لا يمكن استخدامُها" جزئيًّا، لسبب واحـد، هو أنه ربما يَنتج عن شروط الاقتصاد العام مستوياتٌ عليــا مــن التعقيـد الحوسبي، أما أنَّ اللغات "يمكن تعلُّمها" فاكتشاف اختباري مفاجئ؛ إذ لــيس هناك سببٌ أحيائي عامٌ أو غير أحيائي يمكن أن يفسِّر أنه ينبغي أن تكــونَ اللغاتِ التي توفرها الملكةُ اللغوية مما يَسهُل النفاذ إليه بشكل كامل، وهو ما ستكونه إنْ كانت ثُبِّتت عن طريق تثبيت الوسائط البسيطة. لكن النتيجة التي مفادها أن اللغات "لا يمكن استخدامها" جزئيًا ليست مفاجئــة بحــال. فمــن المعروف منذ أمد طويل أن أنظمة الأداء "تُخفق" غالبًا، وهو ما يعني أنهــا توفِّر تحليلاً يختلف عن التحليل الذي يحدِّده النظامُ الإدراكي ("اللغــة ــ د"). وقد دُرست أصنافٌ كثيرة من التعبيرات التي تَخلق مشكلاتٍ بنيوية للتأويل، كــ "الدّمج المتعدِّد"، وما يسمى بــ"جمل ممشى الحديقة"، إلخ، بل إن أبــسط التصورات ربما تثير مشكلاتٍ صعبة للتأويل، ومنها: الكلمات التي تتــضمن تعدُّدًا في المسوِّرات أو النفي، مثلاً. فيُسبِّب تعبيرٌ مثل:

I missed (not) seeing you last summer.

"فاتني أن (لا) أراك الصيف الماضي".

(الذي يعني: " توقعتُ أن أراك لكنني لم أرك")

لبسًا لا نهاية له. بل إن اللبس في بعض الأحيان يُشفَّر، كما في التعبير المثلي: near miss الذي يعني nearly a hit "كادت تكون إصابة" لا nearly a miss "كادت تكون عدم إصابة" (وهي مماثلة لــ near accident "كادت تكون حادثة").

والاعتقاد بأن التحليل "سهل وسريع"، كما تقــول إحــدى الــصياغات المألوفة ــ وأن تصميم النظرية اللغوية يجب أن يتعامل مع هذه الحقيقــة ــ خطأ؛ فليست هذه حقيقة. أما القضية فأن نبين أنَّ تلك الأجزاء من اللغة التي

يمكن استخدامها محدّدةً تحديدًا دقيقًا بنظريات الحوسبة والأداء، وليس هـذا أمرًا تافهًا.

وتُقرّبنا أسئلةٌ أخرى من هذا النوع إلى مشارف البحث الجارى، وهى أسئلة على مستوى جديد من العمق، لذا فهى مهمة، فى دراسة اللغة والذهن.

وتتصل أسئلةٌ أخرى بخصائص المستويات الوجيهيـة، مثـل: كيـف تستعمل أنظمةُ الأداء التعبيرات التى تولّدها "اللغــةُ ــ د"؟ وتـوفّر بعـضُ السمات فى هذه التعبيرات تعليماتٍ للأنظمة النطقية والإدراكية فقـط؛ لهـذا فأحد العناصر فى تعبير لغوى ما هو "صورته الصوتية" "ص ص"، ويُفترض عمومًا أن هذه التعليمات مشتركةٌ بين النطق والإدراك، وليس هذا واضـحًا تمامًا، وهو لافت للنظر إن كان صحيحا. وتوفّر بعضُ الخصائص الأخـرى فى التعبير تعليماتٍ للأنظمة التصورية ــ القصدية فقط؛ ويسمى هذا العنصرُ فى التعبير بــ"الصورة المنطقية" غالبًا، لكنه يختلف بمعنى تقنـى مـا عـن الاستعمالات الأخرى؛ ولنسمه بــ "ص م" كى نتجنب سوء الفهم، ويُفترض، مرة أخرى، أنه لا يوجد إلا مجموعة واحدة من التعليمات، وأنها معزولة عن الصورة الصوتية. وتبلغ هذه المسلماتُ حدًّا أبعد من عدم المعقوليـة، ومـن هنا، فهى اكتشافات لافتة للنظر، إن كانت صحيحة.

ويحوّل الإجراءُ الحوسبى، بناءً على هذه المسلّمات، مجموعـةً مـن الاختيارات المعجمية إلى موضوعين رمزيين، همـا: "ص ص"، و"ص م"، وهو يقوم بذلك بطريقة "مُثلى" optimal، من زاوية معينة. ويمكن أن تـسمى عناصرُ هذين الموضوعين الرمزيين سـمات "صـوتية" و"دلاليـة"، علـى الترتيب، لكن يجب أن نتذكر أن هذا كله ليس إلا تركيبًا محضًا وهو داخلى بشكل خالص، وهذه دراسة للتمثيلات والحوسبات الذهنية، وتُشبه إلـى حـد كبير البحثَ فى الكيفية التى يُحدَّد بها خيالُ مكعب يتأرجح فى الفضاء عـن طريق إثارة الشبكية، أو عن طريق التخيّل، ويمكن أن نأخذ السمات الدلالية لتعبيرٍ ما لتعنى "معناه" والسماتِ الصوتية لتعنى "صوتَه"؛ فيعنـى التعبيـرُ

السمات الدلالية بما يشبه معنى الكلمة الإنجليزية المعينة، وأن التعبير "يصوّت" بمعنى مماثل، وتوفر الدلالة والصوت المعلومات ذات الصلة لأنظمة الأداء.

فتنفذ أنظمة الأداء إلى تعبير مثل:

I painted my house brown.

"صبغت بيتى بنيًا"

وهى تؤوله، على جانب التلقى، وتنطقه فيما تستعمله عادة من أجل فعل كلامى معين أو آخر، على جانب التلفظ. فكيف يحدث ذلك؟ وقد دُرست المظاهرُ النطقية ـــ الإدراكية وما تزال بشكل مكثف، لكن هذه القضايا لم تفهم بشكل جيد إلى الآن، أما فى المستوى الوجيهى التصورى ـــ القصدى فالمشكلات أكثر غموضا، ويمكن الظن بأنها تقع بعيدًا عن متناول البحث العلمى الطبيعى البشرى من حيث بعض الاعتبارات المهمة.

وربما تكون الفرضية المعقولة الأضعف فيما يخص المستوى الوجيهى "ص م" أنَّ خصائص التعبير الدلالية تركز الانتباه على بعض المظاهر المنتقاة للعالم بالصورة التى ترى الأنظمةُ الإدراكية الأخرى أنها عليها، ثم توفر منظورات على درجة عالية من التعقيد والتخصص لكي تنظر إليها من خلالها، وهى التى يدخل فيها بصورة جوهرية الاهتمامات والانشغالات البشرية حتى فى أبسط الحالات. ففى حالة مثل:

I painted my house brown.

تفرض السماتُ الدلالية تحليلاً فى ضوء خصائص محددة للتصميم والاستخدام المقصودين، ولسطحٍ خارجي معيَّن، بل لتعقيدات أخرى أكثر تشابكا، فإذا صبغت بيتى بنيًا، كما ذكرنا فى الفصل الثانى، فسيكون سطحه الخارج بنيًا؛ لكنى أستطيع، مع ذلك، أن أصبغ بيتى بنيًا "من الداخل". وللبعد خارجى ـــ داخلى خيار موسوم وآخر غير موسوم؛ فإذا لم يحدَّد أي منهما

فسيكون المفهومُ من ذلك هو الخارج. وهذه خصيصة نمطية للمعجم؛ فإذا قلت إن "جونز صعد الجبل" Johns climbed the mountain، فأعني أنه كان (عمومًا) يصعد إلى الأعلى، لكن يمكن أن أقول إنه: climbed down the mountain "صعد نازلاً الجبل"، مستعملاً الخيارَ الموسوم. وإذا كنت داخل بيتي فأستطيع تنظيفه، حيث أؤثّر في الداخل فقط، لكني لا أستطيع أن أراه، إلا إن كان من الممكن رؤية أحد أسطحه الخارجية (عبر نافذة، مثلا). ومن المؤكد أني لن أكون قريبًا من بيتي إن كنت في داخله، على الرغم من كونه سطحًا، في الحالة غير الموسومة. وبالمثل فليس المكعب الهندسي إلا سطحا، لكن إنْ كنا نستعمل اللغة الطبيعية، فلا يمكن أن يكون حيّزٌ في داخل المكعب قريبًا منه. وتصحُ هذه الخصائص بشكل عام جدًا، كما في حالة الصناديق والكهوف والطائرات والجبال، وغيرها. فإذا نظرتُ عبر نفق في جبل ورأيت كهفًا مضاءً في داخله، فإني لا أرى الجبل؛ إلا إن كنت أنظر إلى سطحه الخارجي (من داخل الكهف، ناظرًا عبر النفق في مرآة في الخارج تعكس السطح، مثلا). ويصح الشيء نفسه في الأشياء غير الممكنة. فإذا قلت لك إني صبغت مكعبًا دائريًا بنيًّا فستفهم أن سطحه بني في الحالة غير الموسومة، وإذا كنتُ في داخله فإنك تعرف أني لست قريبًا منه، وهكذا، إلى حدود التعقيد الذي لم يُقدَّر إلا تقديرًا ضئيلاً جدًا، وهو الذي يثير مشكلات "فقر المنبّه" بشكل متطرف مما يَجعل من المستحيل ألا نفترض أن المعرفة اللغوية من هذه الزوايا محدَّدة فطريًّا إلى حد بعيد جدًا، ومن هنا فهي تكاد تكون واحدة عبر اللغات، وهو ما يشبه ما نفترضه عن المظاهر الأخرى للنمو والتطور من غير مناقشة أو فهْم.

وتقدّم الكلماتُ منظوراتٍ متعارضة، دائمًا تقريبا. فتتصف مدينةٌ ما بأنها محسوسة ومجردة في آنٍ، وأنها حية وغير حية معا؛ فربما تترقب لوس أنجليس مصيرَها بكآبة، في تخوّفها من التعرض للدمار إما بزلزال أو بقرار إداري. وليست لندن مكانا. بل هي، بدلاً من ذلك، "في" مكان، مع أنها ليست

تلك الأشياء التي تكون في ذلك المكان، وهي التي يمكن أن تغيَّر جـذريًا أو تنقل من مكانها، تاركةً لندن كما هي. ويمكن أن تدمَّر لندن ويعاد بناؤها، بعد آلاف السنين ربما، لكنها ستظل هي لندن؛ ويمكن أن يعاد بناء مدينة قرطاج اليوم، مثلما يمكن أن يُستنسخ توم جونز، مع أنه شـيء محـسوس بـشكل خالص، على هيئة حشرة، لو أنْ تغيِّره ساحرةٌ إلى ضـفدع، ينتظـر قبلـةَ الأميرة، لكنه سيظل توم جونز على أية حال — وهذه تـصورات متـوفرة للأطفال الصغار من غير تعليم أو تجربة ذات صلة.

والطبيعة المجرَّدة لمدينة لندن جوهريةٌ لفرديَّتها. فإذا دُمِّـرت لنـدن وحولّت إلى كوم من التراب، فـ"إنها" — أي لندن — يمكن أن "يعاد" بناؤهـا في مكان آخر وستكون المدينةَ "نفسَها"، أي لندن. وإذا حولّ بيتي إلى كـوم من التراب، فسيُمكن بناؤه (أي: بيتي) في مكان آخر، لكنه لن يكون البيـتَ نفسه، وإذا حولّ محركُ سيارتي إلى كوم من التراب، فلن يمكن إعادة بنائه، إلا إن كان خرابُه جزئيًا، حيث يمْكن إعادة بنائه. ويَدخل في الضمائر اعتمادُ الإحالة، لكن ليس ضروريًّا أن تُحيل إلى الشيء نفسه؛ ولاعتمـاد الإحالـة والفكرة الأضيق للتماثل كليهما أدوار في فضاء معقد جدًّا مـن الانـشغالات والاهتمامات البشرية. ويمكن أن تكون الأحكام [في مثل هذه الأمور] أكثـر دقة، ويدخل فيها عواملُ لم تُبحث إلا بشكل سطحي جدًا.

وهناك أمثلة واقعية كثيرة لإيضاح مثل هذه الخصائص لكلمات اللغـة الطبيعية، فليس صعبًا أن نَفهم تقريرًا في الصحافة اليوميـة عـن المـصير البائس لمدينة تشيلسي، التي "تتأهب للانتقال" (منظورًا إليها على أنها حية)، مع معارضة بعضِ سكانها لذلك لأن "نقل مدينتهم، سينزع روحَها"، في حين يعترض فريق آخر من السكان بالقول إنه "إن لم تنتقل تشيلسي، فسوف تقتلها السيولُ في نهاية الأمر". وهناك مدينة تسمى "أورشليم" و"القدس" معا (بالكيفية نفسها التي تسمى بها لندن: London و Londers [في الفرنسية] معا)، فمـا هذه المدينة؟ وموقعُها موضوعٌ لخصام محتدم، بل إنها محلُّ اهتمام لقرارات

مجلس الأمن الدولي. وتخطِّط الدولةُ التي تزعم أنها عاصمتَها لنقل "القدس"، في حين تترك "أورشليم" مكانها. ويفسّر رئيسُ إدارةِ تطويرها "أننا بحاجة إلى إيجاد عاصمة للفلسطينيين، ويجب أن نجد مكانًا للقدس" — في مكانٍ ما إلى الشمال الشرقي من "أورشليم". والمقترح معقول تماما، وهو الذي يَجعله مصدرَ إزعاجٍ كبير لمن يُهمهم أمرُ "القدس". ويمكن لهذا النقاش أن يثير ألغازًا من النوعِ المألوف في الأدبيات الفلسفية، وسيصل إلى حد أعلى من ذلك إن نفِّذ هذا القرار — أي إن كنا سنفترض أن كلمات مثل "لندن" أو "أورشليم" تحيل إلى أشياء في العالم في لغة عامةٍ ما، وكنا نحاول أن نصقل المعاني والأفكار من أجل شروط لا تتحقق فيها مسلّمات الاستخدام العادي، حيث نخفق في الالتزام ببعض نصائح فتجنشتاين الجيدة.

بل إن منزلة الشيء (الذي يمكن تَسميته) نفسَها، وهو الذي ربما يكون أبسط تصوُّرٍ لدينا، تَعتمد بصورة جوهرية على أمور متشابكة كأفعالِ الإرادة البشرية، وهو، مرة أخرى، شيء يُفهم من غير تجربة ذات صلة، وتحدِّده الخصائصُ الذاتية للملكة اللغوية وبعضُ الملكات الأخرى. فيمكن لمجموع من الأعواد ملقاة على الأرض أن يكون شيئًا (مفردًا) — كأن يكون أوتادًا لسياجٍ، أو سُورًا، أو عملاً فنيًا. لكن الأعواد الملقاة على الأرض نفسها ليست شيئًا إن تُركت هناك نتيجة لحريق في غابة. (انظر عن مثل هذه الأمور، وعن أهميتها لنظرية كوين والنظريات المماثلة عن التعلم، Chomsky 1975: 43ff., 203).

وليس لمتواصِل "الفضاء — الزمن" صلةٌ خاصة بهذه القضايا، بعكس ما يُفترَض أحيانا (انظر Putnam 1993)، فعدم اتصال الأشياء ليس موضعًا لخلاف إطلاقا؛ فليست الولايات المتحدة متواصلة من حيث المكان، مع أنها أصبحت شيئًا يمكن تَسميته (فتَحوّل اسمُها عبر الزمن من استعماله جمعًا ليُستعمل مفردا)، ويمكن لقولٍ أو مسرحية أن يكونا غير متّصلين من حيث الزمن. وتُفهم الأشياء غير المتصلة اتصالاً مباشرًا، كما ذكرنا آنفا، على أنها

أشياء تقبل التسمية، في إطار مصفوفة ملائمة للاهتمام البشري. أما فهم مدينة ما في إطار "العلم الشعبي" بأنها شيء غيرُ متواصل (احتمالا) ذو أبعاد أربعة فمسألةٌ من مسائل الحقيقة. فيتطلب الافتراضُ بأنها كذلك، أو أنه ينبغي على النظرية الدلالية أن تقول إنها كذلك، تأويلاتٍ غير طبيعية إلى حدٍّ بعيد لتعبيرات مثل "انقل (تشيلسي)" و"(تشيلسي) السابقة"، إلخ، وهي قضايا يسهل عدمُ الانتباه إليها عند التركيز الضيق على موضوع العلاقة بين الشيء والإحالة، أما الخصائص والمنظورات التي تدخل في إفراد المدن والمنازل وما أشبه ذلك، فما نزال بانتظار أن تُكتشف وتفسَّر، باستقلال عن قضية الاتصال.

وتكشف الأشياءُ الجوهرية عن الأنواع نفسها من التصميم الذهني الخاص. خذ كلمة "ماء" بالمعنى الذي اقترحه هيلاري بتنام: أي بصفته يعني ما يَعنيه "[الرمز الكيميائي للماء] H2O مع احتمال وجود شيء من الشوائب" (Putnam 1992، مستشهدًا ببحثه الذي نشره سنة ١٩٧٥ وصار الآن بحثًا كلاسيكيًا). فنجد، حتى في مثل هذا الاستخدام، مع توسُّله المشكوك فيه بالعلم الطبيعي، أنّ كَون شيء "ماءً" يَعتمد على الاهتمامات والانشغالات البشرية الخاصة، ومرة أخرى، بطرق تُفهم من غير تجربة ذات صلة؛ ويشمل مصطلحُ "الشوائب"، مرة أخرى، بعضَ المناطق الصعبة. افرض أن الكأس١ مليء من الصنبور. فهو إذن كأسُ ماء، لكنْ إن غُمس فيه كيس شاي، فلن تكون حالته كذلك؛ فهو الآن كأسُ شاي، وهو شيء مختلف. افرض أنّ الكأس٢ مليء من صنبور موصول بخزان ماء أُلقي فيه شاي (كأن يكون نوعًا من المطهِّرات، مثلا). وهنا سيكون ما في الكأس٢ ماء، لا شايًا، حتى إن لم يكن باستطاعة كيميائي تَمييزه من المحتوى الحالي للكأس١. فيحوي الكأسان الشيء نفسه من وجهة نظر معينة، ويحويان شيئين مختلفين من وجهة نظر أخرى؛ لكن في الحالتين كلتيهما لا تحوي الكأس٢ إلا ماء ولا تحوي الكأس١ إلا شايا. والشاي في الكأس٢ هو "الشوائب" بالمعنى عند بتنام، أما في

الكأس ١ فليس كذلك، وليس لدينا ماء أبدا [في هذه الحالة] (إلا بمعنى كـون الحليب ماءً في أغلبه، أو كونِ شخصٍ ماه من أجل ذلك). وإذا كانت الكأس٣ تحوى H2O خالصًا وقد غُمس فيه كيسُ شاى فهو شاى، لا ماء، مع إمكـان أن يكون تركيزُ جزيئات الـ H2O فيه أعلى من تركيزها في المـاء الـذى يأتي من الصنبور أو يُجلب من النهر. لاحظ أن هذه الحالـة سـهلة بـشكل خاص، ليس كنظائرها الكلاسيكية، نحو "الأرض" و"الهواء" و"النار"، من بين أشياء أخرى كثيرة.

وتتزايد التعقيدات حين نتجاوز الحالات الأكثر سهولة. فيمكن أن أصبغ البابَ المؤدى إلى المطبخ بنيًّا، لذلك فهو شيء مادى محسوس بشكل واضح؛ لكن يمكن أن أعبُر الباب إلى المطبخ، وهو ما يعنى التبـادل بـين الـشكل والأرض. ويمكن أن ينهى الطفلُ محتوى القارورةِ ثم يكسرها، مما يؤدى إلى التبادل بين المحتوى والإناء مع إحالة مقصودة ثابتة. وهناك بحـث لافـت للنظر أنجزه جيمس بوستيجوفسكى يَدرس الاطرادات في مثل هذه الأنظمة، اعتمادًا على أفكار جيوليوس مورافيك، وهى أفكار أرسطية فـى الأصـل. (انظر بحثه والأبحاث الأخرى المنـشورة فـى 1992 ;Pustejovsky 1993؛ وانظر كذلك Moravcsik 1990؛ و Chomsky 1975). وحين نوجه اهتمامنـا إلى كلمات ذات خصائص علائقية أكثر تعقيدا، وإلى البنى التى تظهر فيهـا، نجد أن التأويل موجَّهٌ بتفاصيله الدقيقة جدًا بالنظام الإدراكى الذى نتوقـع ألا يكون متنوعًا إلا بقدر ضئيل لبُعده الشاسع عن التجربة الممكنة.

وقد صاغ عالم الأعصاب رودولفو لليناس الأمرَ بأفضل وجـه حـين وصف الإدراك بأنه "حلم يُقوليه الدخلُ الحسى"، حيث الذهن "حالةٌ حوسـبية للدماغ يولّدها التفاعلُ بين العالَم الخارجى ومنظومة داخلية من أُطُر الإحالة" (Llinás 1987: 351)، والأطر الداخلية التى تُشكّل الأحلامَ أكثر تعقيدًا وأكثر إدهاشًا مما يُفترض دائما، حتى فى مستوى المعجم، وتَبلغ حدًّا أعلى من ذلك حين نوجّه أنظارَنا إلى تعبيرات كوّنتها الإجراءاتُ الحوسبية.

وحين نبيِّن تفصيلاتِ خصائص التعبيرات، نتعلَّم قدرًا أكبر عن التعليمات في المستوى الوجيهي "ص م" (أي: "الدلالة")، وهي التي تزوِّد بعض الطرق من أجل التفكير عن العالَم والكلام عنه، إلى جانب أشياء أخرى، وما تزال بعضُ الأسئلة المهمة الغامضة تقع وراء ذلك، ومنها، مثلاً: ما المعايير التي تنتمي بها هذه الخصائص إلى الملكة اللغوية بوصفها متمايزةً عن ملكات الذهن الأخرى الموصولةِ بها؟ وكيف تتصل الموارد المعجمية بأنظمة الاعتقاد، مثلاً؟ وتظل مثلُ هذه الأسئلة في مجال ما يَعرفه الناس، لا ما يَفعلونه. وستظل الإجابات عن هذه الأسئلة تتركنا قاصرين عن فهم الكيفية التي تُستَعمل بها مواردُ الأنظمة الإدراكية، ومن الصعوبة بمكان أن نرى من هذه القضايا المتشابكة كيف يمكِن أن نَستخلص شيئًا مهمًا يمكن أن يخضع للبحث العلمي الطبيعي، وللاطلاع على بعض التعليقات على هذا الموضوع، انظر الفصل الثاني في هذا الكتاب.

لاحِظ أن خصائص كَلمات مثل: "بيت" و"باب" و"لندن" و"ماء" وغيرها لا تشير إلى أنَّ لدى الناس اعتقادات متعارضة أو محيِّرة. ولن يكون هناك ما يدعو لاستخلاص نتيجة كهذه، إن تخلينا عن الافتراض الاختباري الذي مفاده أن الكلمات تعيِّن الأشياء، إذا استثنينا بعضَ الاستخدامات المعينة، وهي التي تقيِّدها بطرق متداخلة إلى حد عالٍ جدًا.

فهل ينبغي أن نفترض أن التعبيرات تُعيِّن الأشياء، بصورة ذاتية؟ وبشكل أعم، هل ينبغي أن يزاد شيء على "أضعف الافتراضات" عن العلاقات الوجيهية والطرقِ التي تَدخل بها في التفكير والفعل لتَشمل العلاقات التي توجد بين بعض التعبيرات المعينة والأشياء الخارجية؟ وهذا ما يُفترض غالبا، مع أنه يجب بذل مزيد من العناية لنُميِّز بين نوعين، هما: (١) الأشياء في العالم، أو (٢) الأشياء في نوع من النماذج الذهنية، وتمثيلِ الخطاب، وما أشبه ذلك(٥)؛ فإذا كان النوعُ الثاني فالدراسة، مرة أخرى، داخلية، أي شكلاً من التركيب، أما إذا افتَرضتَ النوعَ الأول فستستمر في افتراض وجود

مستويين وجيهيين، أي: "ص ص" و"ص م".

هب أننا افترضنا أن هناك عنصرًا a في الصورة الصوتية يقابل شيئًا خارجيًا a* تختاره a على أنه "قيمتها الصوتية"؛ لذلك يختار العنصرُ [ba] في "اللغة ـ د" عند جونز وحدةً ما نحو [ba]*، تكون "مشتركةً" بينه وبين سميث إن كان لها نظير في "اللغة ـ د" عند [سميث]. ويمكن وصف التواصل عندئذ في ضوء هذه الوحدات المشتركة (جزئيًا)، وهي التي يمكن صياغتها بسهولة: خذ a* على أنها المجموعة المفردة {a} أو {3, a}، أو إن أراد أحد شيئًا أكثر واقعية، صياغةً أخرى مؤسسةً على حركات الجزيئات. ويمكن أن ندافع، بقدرٍ أكبر من الشجاعة، عن وجهة نظر كهذه، مع أنه لا أحد يفعل ذلك لأن الواضح أن هذا جهد لا طائل من ورائه.

ويمكن فعلُ الشيء نفسه في المستوى الوجيهي "ص م"، هب أن النظام الحوسبي صاغ a من اختيارٍ معجمي واحد أو أكثر، حيث تكون a تمثيلاً لـ "ص م" أو شيئًا تركيبيًا آخر مشتقًا منه (أي: تعبيرًا ما في لغة صُورية ما، أو نوعًا لنموذج ذهني، إلخ). ويمكننا عند ذاك أن نفترض شيئًا a* على أنه "قيمةً دلاليةً" لها، وهو شيء خارجي عن "اللغة ـ د"، وربما كان مشتركًا بين جونز وسميث. وربما تكون a*، مرة أخرى، تركيبًا اعتباطيًا نضفي عليه الخصائصَ المرغوبة، أو نُسبغ عليه مسحة من الواقعية بطرق مختلفة. ويمكننا عندئذ أن نصوغ نظريات الصدْق، ونطوِّر تفسيرًا للتواصل بحسب الوحدات المشتركة ـ ومن المؤكد أن هذه غالبًا ما تكون من نوع غريب جدًا. أما ما يجب تبيينه، كما هي الحال في أي اقتراح نظري يُدخِل وحداتٍ ومبادئ جديدة، فهو إمكان تسويغ هذا بالطرق الاختبارية المعهودة (مثل: قوة التفسير، إلخ).

ويهتم تيار عريض من الفلسفة المعاصرة للغة بتحليل العلاقات المزعومة بين التعبيرات اللغوية والأشياء، ويتناول بالبحث غالبًا الحدوسَ عن بعض الأفكار التقنية مثل: "يعيِّن" denote، و"يحيل" refer، و"صادق عن"

true of، إلخ، التي يُدّعى وجودها بين التعبيرات اللغوية وأشياء أخرى. لكن لا يمكن أن توجد حدوس عن هذه الأفكار، مثلما أنه لا يمكن أن يوجد حدس عن مصطلحات مثل "السرعة الزاوية" angular velocity، أو "بروتين"؛ ذلك أن هذه مصطلحاتٌ تقنية تنتمي إلى الخطاب الفلسفي ولها معـــان معطـــاة لا نظير لها في اللغة العادية؛ وهذا هو السبب الذي جعل فريجه يلجأ إلى اقتراح معنى تقني جديد للمعنى Bedeutung "المعنى"، مثلا، وإذا كررنـــا التجربـــةَ الذهنية باستخدام كلمات يومية، فإن الأحكام تتهاوى، فيما يبدو، أو بدلاً مـــن ذلك، تصير مرتبطة ارتباطاً وثيقاً باهتمام [الباحث] مما يمنعها من أن تؤدي إلى نتائج مهمة.

ومن غير أن نستمر في مناقشة هذا الأمر هنـــا، لـــيس واضـــحا أنّ علاقاتٍ مثل "تعيين المعنى" denotation، أو "صادق عـــن" true of ، إلـــخ، تدخُل في نظرية اللغة الطبيعية واستخدامها بأي معنى يشبه المعنى الذي لها في النظرية التقنية للمعنى.

ويُزعم أحياناً أن مثل هذه الأفكار التقنية ضروريةٌ لتفسير التواصل أو لدراسة الصدق والكذب. ولا يقوم الاعتقاد الأول على أساس (انظر، من بين آخرين، Chomsky 1993a، والفصل الثاني في هذا الكتاب). كما لا يبدو أن الزعم الثاني صحيح، انظر ببساطة الكلمتين اللتين بدأ بهما هذا النقاش فـــي اللغة اليومية، أي: "اللغة" و"الذهن". انظر إلى الحُكمين التاليين عـــن اللغـــة والذهن:

١- Chinese is the language of Beijing and Hong Kong, but not Melbourne

"اللغة الصينية لغةُ بكين وهونج كونج، لكنها ليست لغة مدينة ملبورن".

٢- The mind is its own place, and in itself can make a Heaven of Hell, a Hell of Heaven.

"الذهن هو المكان الذي هو فيه، ويمكن له بنفسه أن يجعل الجنة نـــاراً والنار جنة".

والجملة الأولى صحيحة، لكن المؤكد أنه ليس لعبارة "اللغة الصينية" أي "مرجع" في العالم الواقعي، بالمعنى التقني، ولا يلزم أحدٌ أن يَعتقد أنها كذلك من أجل أن يُعيِّن قيمةَ الصدق، أما إنْ أُقنعنا بحجة ميلتون (في قصيدة "الفردوس المفقود" Paradise Lost)، فسنوافق على أن الجملة الثانية صحيحة، لكن من غير أن نلزِم أنفسنا باعتقاد أن الفاعل [في هذا البيت]، أو الضمير، أو الضمير الانعكاسي (أو العبارات الاسمية الأخرى) تُحيل، إما إلى شيء ما في العالم أو في عالم ذهني غامضٍ ما. إذ ليس هناك، في الأقل، ما يَلزم بالانسياق وراء هذه الإغراءات، وذلك لأسباب اقتُرِحت في النقد الذي وجّه في القرن الثامن عشر لنظرية الأفكار، وهي التي أُغنيت كثيرًا في الفلسفة الحديثة للغة العادية، ومثل هذه الخصائص نمطية في كلمات اللغة الطبيعية، وبقدر يفوق ما يُعتقد، كما يتراءى لي، لأسباب بينّاها آنفا. ولا يعني هذا أننا ننفي إمكان صدورِ مثل هذه الأحكام بقصدٍ إحالي، لكنها تنتمي إلى طبيعة أكثر تعقيدا.

ويبدو، على أية حال، أنْ ليس هناك ارتباط خاص بين عزو الصدق أو الكذب وبعضِ الأفكار عن الإحالة أو "تعيين المعنى" denotation بأي معنى يشبه المعنى في الخطاب التقني.

انظر بالمقابل إلى مصطلح آخر استعملتُه، أي: "اللغة ـــ د"، وهو الذي يظهر في جمل مثل الجملة التالية:

٣ــ I-language has a head parameter.

"هناك وسيطٌ للرأس في "اللغة ـــ د""

وهذه الجملة كاذبة إن كانت النظرية التي اقترحها كاين Kayne (١٩٩٤) صحيحة، وربما تكون صادقة إن لم تكن تلك النظرية صحيحة، فمن المعقول في هذه الحالة، أن نقول إن للمصطلح "اللغة ـــ د" "مَرجِعًا" حقيقيًا في العالَم، أو قُصد أن يكون له، في الأقل. وينتمي هذا الحكم إلى نوع الخطاب الذي تنتمي إليه الجمل عن H_2O، والأحماض والأملاح، وتحديد

الجينات للبروتينات، إلخ. ولا تنتمي هذه الجمل إلى اللغة الطبيعية، حقيقة؛ ذلك أنها تتضمن مصطلحات تقنية، كـ "اللغة ـ د"، التي دخلت [في اللغة] بطريقة مختلفة جدا. ومع تطور التخصصات، تأخذ [هذه المصطلحات التقنية] بالابتعاد أكثر فأكثر عن الأصول البديهية واللغوية العادية التي يبدأ منها البحث العلمي.

ومن المعقول أن نفترض أننا نحاول، في اشتغالنا بمثل هذا البحث، صياغةَ أنظمةٍ بقصد أن تُعيِّن بعضُ الموضوعات الرمزيةِ المركَّبة تركيبًا جيدًا أشياءَ معينة في العالم، كالجزيئات، و"اللغات ـ د"، إلخ. وربما تسمى هذه الأنظمة الرمزية "لغات"، إلا أن هذا مجاز وحسب. ذلك أنها لا تتضمن خصائصَ اللغة الطبيعية عادة، وتكتسب وتُستخدم بطرق مختلفة تماما، وليست تشخُّصات للحالة الأولى للملكة اللغوية، ويمكن أن نَنطق الموضوعات الرمزية في هذه الأنظمة بأصوات لغتنا وأن نستعير لها تركيبات لغتنا حين نستخدمها، حتى حين تتضمن مصطلحات مخترَعة أو مأخوذة من لغات لا نعرفها (مثل: eigenvector، و homo sapiens "الإنسان العاقل")، لكن ليس لشيء من هذا صلة هنا. إذ يمكن أن تفارق هذه الأنظمةُ اللغةَ الطبيعية بطرق اعتباطية، باستخدامها حسابَ التفاضل والتكامل، أو الرموز أو الرسوم البيانية الكيميائية، إلخ.

وربما تسير هذه الأنظمة الرمزية باتجاه المثال الفريجي، وبحسب هذه المقاربة، فهناك "لغة، عامة، مشتركة" بمعادلات أو إشارات تُعبِّر عن أفكار مشتركة، ولهذه "اللغة" تركيب، أي لها فصيلةٌ من الصياغات المركَّبة تركيبًا صحيحا؛ وليس هناك "إجابة صحيحة" للسؤال عن كيف وُلِّدت هذه المجموعة، ولها دلالة كذلك، وتقوم هذه الدلالة على الفكرة التقنية لـ"المعنى" Bedeutung، أي علاقة بين الرموز والأشياء. ومن المحتمل أنْ إحدى خصائص ملكة صياغة العلم في الذهن البشري تهدف إلى صياغة أنظمة فريجية. وإذا كان الأمر كذلك، فلن يبين لنا هذا شيئًا عن اللغة الطبيعية. إذ

ليس فيها نظائر لفكرة اللغة "المشتركة" أو "العامة". وتركيبها مختلف اختلافا جذريًا. وهناك إجابة حقيقية عن السؤال: "ما الإجراء التوليدى الصحيح"؟ و"اللغات ــ د" وظائف يُنظر إليها من خلال المفهوم intension . كما يبدو أنْ ليس هناك فكرة "للصياغات المركبة تركيبًا صحيحًا" بالمعنى عند كوين، مثلا، فى نقاشه للتماثل الماصدقى وعدم التحديد فى الترجمة، أو عند كثير من اللسانيين، وعلماء النفس، والفلاسفة، وآخرين يهتمون بالقدرة التوليدية، والقدرة على تقرير الصحة التركيبية، والاختزال إلى الأنحاء الحسرة من السياق، والقوة المفرطة لبعض النظريات، ومشكلات أخرى لا يمكن حتى صياغتها عن اللغة الطبيعية – على حد ما نعلم – للاطلاع على بعض أوجه سوء الفهم لهذه القضايا والأصول التى جاءت منها (انظر Chomsky 1980; 1986).

أما فيما يخص الدلالة، وعلى حد فهمنا لاستخدام اللغة، فيبدو أن الحجة التى تدافع عن الدلالة التى تعتمد على الإحالة ضعيفة (إذا استثنينا الوجه التركيبى الداخلى)، فيحتمل ألا تتضمن اللغة إلا التركيب والذريعية؛ ولا تتضمن "دلالة" إلا بمعنى أنها "دراسة كيف تُستخدم هذه الوسيلة، التى تخضع بنيتُها الصورية واحتمالات التعبير فيها للبحث التركيبى، فعلاً عند مجموعة لغوية ما"، إن استشهدنا بالصياغة المبكرة فى النحو التوليدى قبل أربعين سنة، وهى التى كانت متأثرة بفتجينشتاين وأوستن وآخرين (Chomsky 1955/1975; 1957: 102-103). فتتألف اللغةُ، من وجهة النظر هذه، من حوسبات داخلية وأنظمة للأداء تنفذ إليها إلى جانب عدد كبير من المعلومات والاعتقادات، وتنفذ تعليماتها بطرق محدّدة لكى تساعدنا فى الكلام والتواصل، من بين أشياء أخرى. ولن يكون هناك استثناء خاص لما يسميه ستكوت سومس "الحقيقةَ الدلالية المركزية عن اللغة،. . . التى تعنى أنها تستخدم لتمثيل العالم"؛ إذ لا أحدَ يفترض أن اللغة تُستخدم لتمثيل العالم، بالمعنى المقصود (Soames (1989) ، نقلاً عن B. Smith (1992) ، بصفتها القضية المركزية عند الفلاسفة أو فى اللغة).

ولم أمسَّ فيما مضى إلا الظاهر، آملاً في الإيحاء بصورة عامة للكيفية التي يمكننا بها دراسة اللغة بصفتها موضوعًا طبيعيًا، وبالاتجاه الذي قاد إليه مثل هذا البحث، وبأنواع المشكلات التي ما تزال على الأفق. وربما أختم هذا النقاش بكلمة واحدة وحسب عن حدودها، حتى إن وُسِّعت إلى مدى أبعد؛ فقد أوضحتُ أن هناك ما يوحي بوجود بعض الحدود المحتملة لها، وأن القضايا العامة للقصدية، وتشمل تلك القضايا الخاصة باستخدام اللغة، ربما لا يمكن افتراض دخولها في حدود البحث العلمي الطبيعي، كما أظن. ويمكن أن يوضَّح هذا الأمر بشكل أكثر جلاء بالعودة إلى الثنائية الديكارتية، وهي الفرضية العلمية التي سعت، على وجه الخصوص، لتفسير حقيقة أن استخدام اللغة يقع وراء حدود أية آلة ممكنة، وقد زُعزِع الإطار الديكارتي باكتشاف أن سلوك المادة غير العضوية نفسه يقع وراء هذه الحدود. ويمكن، مع ذلك، ترسيس هذه الحجج، لكنها الآن بتجريد من أية مقتضيات غيبية، ذلك أنَّ تصور المادة قد اختفى. وإذا أعيدت صياغتها على هذا الشكل، فستظل تثير لغزًا خالصا، كما يبدو. ذلك أنها لم تتأثر، مثلاً، بالتحول من الآلات المصنوعة التي أثارت خيال الديكارتيين إلى الحواسب في الوقت الحاضر، ولا تلقي العلومُ التي تَدرس الدماغ إلا قليلاً من الضوء عليها.

وربما لا تكون هذه المشكلات حقيقية، كما يعتقد بعض الباحثين، وربما تكون حقيقيةً لكننا لم نكتشف بعدُ طريقةً لتناولها، وربما يقع "تلك الطريق"، بغض النظر عما يكون، وراء قدراتنا الإدراكية، أي وراء متناول ملكة صياغة العلم. ويجب ألا يكون ذلك مفاجئًا لنا، إن كان صحيحًا، إن كنا على استعداد، في الأقل، لقبول الاعتقاد بأن البشر جزء من العالم الطبيعي، يتّصفون بمدى غني وحدود تماثل هذا المدى في غناه، ويواجهون مشكلات ربما يأملون في حلها وأحاجي تقع خارج متناولهم، أي تلك "الأسرار القصوى للطبيعة" التي "ستظل إلى الأبد" مغلّفة بـ "الغموض" كما اقترح هيوم، مرددًا بعض افتراضات ديكارت.

هوامش الفصل الخامس

(١) وكانت هذه التعليقات الساخرة موجهةً ضد كتاب كولن ماجن: The problem of consciousness (1991): Colin McGin "مشكلة الشعور". ويشير ماجن إلى زيف هذه الحجة. انظر أيضا (McGinn 1993; Chomsky 1975).

(٢) للاطلاع على بعض التعليقات عن خطئه في تأويل النظرياتِ الحوسبية التي يُلمح إليها، وطبيعةِ الدلالة، التي يتوقع أن يَجد فيها حلاً "للأزمة"، انظر (Chomsky 1993a).

(٣) لاحظ أن هذا التأويل لمثل هذه الدراسات يختلف عن تأويلات أخرى نجدها في الأدبيات الفلسفية. فقد اقترح مصطلح "اللغة ــ د" للتغلب على سوء الفهم الذي يَنجم عن الغموض التركيبي لمصطلح "نحو"، الذي يُستخدم في الإحالة إلى "لغة ــ د" وإلى النظرية التي يصوغها اللساني عن تلك اللغة معا. لهذا لا تُشبه معرفة جونز بـ"اللغة ــ د" عنده (أي "النحو"، في أحد معانيه) المعرفةَ (الجزئية) عند لساني ما.

(٤) وفي بعض حالات نمو اللغة التي درستْ دراسةً دقيقة كان هناك تعرُّض من النوع المعهود للغة حتى سن ١٩ إلى ٢٠ شهرا، وهو يسبق بفترة طويلة بدءَ التمرين (وكان ذلك أربع سنوات تقريبا، في أكثر الحالات نجاحا). وعلى الرغم من غياب الأدلة المؤيِّدة فإن من المعقول الظن بأنّ التعرض المبكر ربما يكون حاسما، خاصة في ضوء الاكتشافات الأخيرة عن الاكتساب اللغوي المبكر جدًا (انظر C. Chomsky 1986; Mehler and Dupouz 1994).

(٥) ولن أناقش، هنا أو فيما يأتي، الفرضيةَ الأخرى التي تقول إن هذه العلاقات تصح عن الأشياء في لغة عامة. وهذه الفكرة معروفة في البحث العلمي، وهي تثير ما يبدو كأنه مشكلات لا حل لها، وهي مشكلات لم تناقش بعدُ (للاطلاع على مناقشة هذه الأمور، انظر Chomsky 1993a، والفصل الثاني في هذا الكتاب).

الفصل السادس
اللغة من منظور المقاربة الداخلية

أودُّ [هنا] التوسّعَ في تفصيل بعض الملحوظات الخاصة بدراسة اللغة والذهن التي قدمتُها في الفصول السابقة، وفي الفصل الخامس خاصة، وأريد بدايةً أن أميّز بين المقاربة "الداخلية" و"المقاربة العلمية الطبيعية"، ولا تعني الأخيرةُ إلا محاولةَ أن ندرس البشرَ بالطريقة نفسها التي ندرس بها أي شيء آخر في العالم الطبيعي. أما المقاربة العلمية الطبيعية الداخلية فتسعى إلى فهم الحالات الداخلية لكائن عضوي ما، وليست الدراسة العلمية الطبيعية محدودة بهذه الحدود بالطبع؛ ولا يلغي البحثُ الداخلي الذي يَدرس كوكبًا أو نملة دراسةَ النظام الشمسي أو جماعةً للنمل أو يَمنعها. ويمكن أن تَتخذ الدراساتُ غيرُ الداخلية للبشر أشكالاً كثيرةً: فيمكن [أن ندرسهم] كأطوار في دورة التحوّل من الأوكسجين إلى ثاني أكسيد الكربون، أو أطوارٍ لانتقال المورثات، أو فلاحين أو طباخين، أو أعضاء في جمعيات وجماعات، بما لهذه من بنى للقوة، وأنظمة مذهبية، وممارسات ثقافية، إلخ. وتؤخذ الدراسات الداخلية غالبًا أمرًا مسلَّمًا في أنواع أخرى من الدراسات الأبعد مدى، لكن ينبغي أن يكون واضحًا أن مشروعية هذا النوع من البحث أو ذاك ليست من القضايا التي تثار.

ولمزيد من الإيضاح فأنا أقصر اهتمامي هنا على السعي نحو الفهم النظري، وهو ذلك النوع المحدَّد من البحث الذي يسعى إلى تفسير بعض مظاهر العالَم انطلاقًا من بعض البنى والمبادئ التفسيرية المتوارية خلف ظواهر الأشياء غالبا، ويمكن لمن يَعتقد أن البحث العلمي الطبيعي هو المنهج الوحيد الصحيح أن يَعتقد من غير أن يكون متناقضًا أنه يمكن أن نتعلّم من دراستنا للتاريخ أو قراءة الروايات عن الاهتمامات البشرية الخاصة عن الكيفية التي بها يفكّر الناس ويشعرون ويتصرفون أكثر مما نتعلمه عنها عن

طريق البحث العلمي الطبيعي كله. وقد بَرهن البحث العلمي، خارج بعض المجالات الضيقة، أنه سطحي أو لا أمل منه، وربما سيظل كذلك دائما، وربما لأسباب تنبع من طبيعتنا الإدراكية.

وسأسمي مظهرَي العالَم اللذين أهتم بهما هنا بمظهريه الذهني واللغوي، مستخدمًا هذين المصطلحين بشكل غير ضار ــ بالطريقة التي نَستخدم بها مصطلحات "كيميائي" أو "كهربائي" أو "بصرياتي" optical ــ من أجل انتقاء بعضِ الظواهر والأحداث والعمليات المعقدة وغيرها التي يبدو أنها تتصف بقدر معين من الوحدة والتماسك، وأقصد بـ"ذهن" المظاهرَ الذهنية للعالَم. وليس هناك حاجة في أيةٍ حالة من هذه الحالات أن يكون لها سوابِق واضحة، وليس هناك ما يُلزِم باعتقاد أنَّ هذه المقولات ستبقى حين يحقق البحثُ العلمي الطبيعي قدرًا من التقدم.

وأعني بـ"المقاربة العلمية الطبيعية" "المقاربةَ العلمية الطبيعية المنهجية" في مقابل "المقاربة الثنائية المنهجية": وهي المذهب الذي يرى أنه ينبغي، في سعينا نحو الفهم النظري، أن تُدرَس اللغةُ والذهن من حيث المبدأ، بكيفية مختلفة عن الطرقِ التي تَدرس بها الموضوعات الطبيعية. وربما لا يَعتنق هذا المذهب إلا قلةٌ، ومع هذا فهو يهيمن على تيار عريض من الممارسات البحثية، كما أعتقد. (للاطلاع على بعض النقاش الذي جرى مؤخرًا عن هذا الأمر، انظر Chomsky 1986، والفصلين الثاني والثالث في هذا الكتاب).

ويَدرس أحدُ فروع البحث العلمي الطبيعي الفهمَ البديهي. ونحن نهتم هنا بالكيفية التي يؤوِّل بها الناسُ ثباتَ الموضوع، وطبيعةَ الحركة ومسبباتها، والفكرَ والفعل، إلخ (أي: "العلم الشعبي"، بأحد معاني هذا المصطلح)، وربما يَكون الطريقُ الصحيح لوصف هذه [القضايا] أن ندرَسها في ضوء الاعتقادات عن مكوِّنات العالَم (ولنسمِّها بـ "الوحدات") وتنظيمها وتفاعلها وأصولها. دعنا نفترض أن الأمر كذلك. وليس من الواضح إن كان لموارد

العلم الشعبي التصورية صلةً بالتصورات التي تَدخل في الموارد التـصورية للبحث التأملي الواعي الذي نَجده في كل ثقافة نعرفها (أي: "العلم المبكِّـر")، أو بالنشاط المعيَّن الذي نسميه "العلم الطبيعي"، وإذا كان الأمر كذلك، كيـف تكون تلك الصلة، وسنسمي دراسة هذه الأمور كلها بـ "العلم الإثني"، مـن أجل التبسيط.

وليس واضحًا كذلك كيف تتصل الموارد التصورية التي تَدخل في هذه الأنظمة الإدراكية بالموارد الدلالية (ومنها المعجمية) للملكة اللغويـة. فهـل يعزو الناسُ بعض الاعتقادات beliefs إن كانوا يتكلمون لغةً ليس فيها مثـل هذا المصطلح، وهي الحال في أكثر اللغات، كما يبدو؟ وهل يمكن لمـن لا يعرف كلمـات savoir faire, Schadenfreude, machismo أن يـدركها، أو يدرك ما يعبِّر عنه بتعبيرات لا حصر لها مما يمثِّل تحدِّيًا للمتـرجمين؟ وإذا قلتُ إن أحد الأشياء التي تُهمُّني هو "الرجل المتوسـط ونقـاط ضـعفه"، أو "أولويات جُو المدمن"، أو "المسار الداخلي الذي ضمَّنته شركةُ ريثون آخـرَ اتفاقية للصواريخ"، فهل يترتب على هذا أنني أعتقد أن العـالم الـواقعي، أو نموذجًا ذهنيًا له عندي، يتكوَّن من وحدات كـ "الرجل المتوسط" و"نقـاط الضعف"، و"جو المدمن"، و"الأولويات" و"المسارات الداخلية"؟ وحين تقـول الأخبار إن مذنَّبًا يتوجَّه نحو المشتري أو أن صـيادي اللوبـستر يـصيدون السمك في مياه ولاية إنجلترا الجديدة [الأمريكية] بشكل جائر فهل يعني ذلك أن الكتَّاب والقراء يَظنون أن للمذنبات رغبات أو أن اللوبستر سمك؟ وهـذه أسئلة عن حقائق تتعلق بمعمار الذهن، وهي مصوغة، لا شك، بشكل غيـر ملائم؛ لأننا لا نفهم إلا القليل عن هذه الأمور.

وإذا صحَّ الحدسُ دليلاً فهناك، فيما يبدو، فجوة واسعة بـين المـوارد الدلالية للغة حين تؤوَّل تأويلاً حرفيًا والأفكارِ التي يعبَّر عنها باستخدام هـذه الموارد. فأنا سعيد بأن أتحدث عن أن الشمس تَغرب وراء الأفق، والمذنبات تتوجه نحو المشتري، وعن ضربِ الأمواجِ للشاطئ، ثم تراجُعِها، واختفائها

حين تموت الريح. لكني لست واعيًا بأنّ لدى اعتقادات تتماثل حرفيًا مع هذه المصطلحات التى تدل على الحياة والقصدية وأنا أستخدمها بحريّة، أو تلك التي تتعارض مع أي شيء أفهمه عن النسبية وحركات الجزيئات. ولا يبدو لي، كذلك، أن العالَم، أو كوني الذهني، مَسكونان بأي شيء أصفه بأنه أشياء تعنيني، ويجد بعضُ علماء النفس وعلماء الأناسة الذين يدرسون علاقة اللغة بالفكر (كفرضية سابير وورف، مثلا) هذه المشكلات صعبة ومتحدّية؛ وتقدمّ [عنها] بعضُ الإجابات الجاهزة في كثير من الأدبيات الفلسفية المعاصرة، لكنها إجابات تقوم على أسس أقل إقناعا، كما يبدو لي.

بل لقد قُدّمت إجاباتٌ تختلف بعضُها عن بعض اختلافًا جذريًا. خذ اللغة مثالا. فقد كتب دونالد ديفيدسون: "إننا جميعًا نتحدث بقدر كبير من الحرية عن اللغة، أو اللغات، حتى إننا نَميل إلى أن ننسى أنه ليس هناك شيء كهذا في العالم؛ فليس هناك إلا الناسُ وما يَصدر عنهم من أحداث كتابية وصوتية مختلفة. ومع أن هذه النقطة واضحة جدًا إلا أن من السهل أن ننساها" (Davidson 1990b). كما يرى أغلب فلاسفة اللغة – وبالقدر نفسه من الوضوح – أن "هناك" أشياء في العالم كاللغات، بل هناك "لغات عامة، مشتركة" – كالصينية والألمانية، وغيرهما – ونحن نفهمها، كما يرى بعض الفلاسفة، "فهمًا جزئيًا، بل فهمًا جزئيًا خاطئًا" (Dummet 1986: 468). ويرى هيلاري بتنام، من بين آخرين كُثُر، أن هذا الزعم حقيقةٌ تماثل في وضوحها وضوحَ نفي ديفيدسون لها، إضافة إلى بعض الحقائق الواضحة بالقدر نفسه عن الأشياء في العالم مما تشير إليه العبارات الاسمية بشكل حر إلى حد بعيد، كما يبدو، لهذا يحوي العالمُ أي شيء يمكن أن نُحيل إليه على أنه شيء يَعنينا أو يُزعجنا، ويَشمل ذلك المراجع التي لا نعرفها ويُزعم أن الكلمات تشير إليها (Davidson 1990b; Putnam 1992, 1998a)[1].

وهناك موقف ثالث يرى أنه قلّما تَكون النتائجُ عن مثل هذه الأمور واضحة، فيجب أن تُكتشف الإجاباتُ عن كل حالة على حدة، كما تتطلب

الأسئلةُ صياغةً أكثر عناية في المقام الأول. ويسعى العالِمُ الإثنى إلى اكتشاف ما ينظر إليه الناسُ على أنه مكوّنات للعالَم، مهمَا كانت الطريقة التى ربمـا يتكلمون بها عنه. ويسعى نوعٌ مختلف من البحث نحو أفضل نظريـة عـن اللغة واستخدامها، والحالات والعمليات والبنى التى تدخل فيها.

وتَبرز هذه الأسئلة في أكثر الحالات بساطة، كالأشـياء التـى يمكـن تسميتها، والأشياء الطبيعية، والمواد المصنوعة، والأفعال، إلخ. فأنـا آخـذ الشيء الذى أمامى على أنه مكتب، لكن يمكن أن أُقنَع بأنه سرير صلْب لقزَم أخطأتُ فى استخدامه مكتبا؛ وذلك أمرٌ مردُّه إلى مقصد المصمِّم والاستخدام المألوف. فأنا آخذه، من زاوية، على أنه الشيء نفسُه مهما كانـت الإجابـة؛ ومن زاوية أخرى، آخذه على أنه شيء مختلف. والعوامل التى تـدخل فـى مثل هذه الاختيارات متنوعة ومعقدة. فأنا آخذ محتوى كأسٍ موضوع أمامى على المكتب على أنه شاى، لكن إن أُخبرتُ بأنه جاء من صُنبور بَعد أن مرَّ عبر مصفاة شاى موضوعةً عند مصدر الماء، فإنى أستنتج أنه ماء حقيقة، لا شايا (انظر الفصل الخامس من هذا الكتاب). ومرة أخرى، فهو الشيء نفسه عندى فى أى الحالين، من زاوية، لكنه شيء مختلف، من زاويـة أخـرى. وليست بعضُ الأعواد التى أمرُّ بها فى الطريق شيئًا إطلاقا، إلا إن قيل لـى إنها وُضعت عن قصد لتكون نوعًا لشيء ما، بغض النظر عن إن كان الناس هم الذين وضعوها أم وضعتْها حيوانات البيفرز: فتعتمد ماهيةُ الشيء ونوعُه على التكوينات المحدَّدة للاهتمامات البشرية، والمقاصد والأهداف والأفعال؛ وهى، فى أحد أشكالها، ملحوظة قديمة قدَم أرسطو. وربما كانت الحال أنـى فى مثل هذه الحالات لا أغيِّر من معتقداتى عن مكوِّنات العالم تبعًـا للتغيُّـر الذى يَعرض لتعيينات الأشياء - ويعنى هذا، فى نوع "العلم الشعبى" عندى، أن الوحدات التى تحمل حاسوبى، ويمتلئ بها الكأس، وأمرُ بها فى الطريق، تظل كما هى باستقلال عن التفسيرات، وهى التى تضعها فى علاقات غيـر متوقَّعة مع التصميمات، والمقاصد، والاستخدامات، والأهداف.

وربما نتمكن، مع التقدُّم في دراسة الملكة اللغوية والأنظمة الإدراكية الأخرى، من فهم المعايير التي ربما أطَّرتْ صورةَ العالَم عندي في ضوء الأشياء التي عيَّنتُها وأفردتُها خصائصُ المعجَم لدي، أو ربما تدخل في [هذه الصورة] وحدات وعلاقات يمكن وصفها بموارد الملكة اللغوية. وتبدو بعضُ الخصائص الدلالية كأنها تتصل فعلاً اتصالاً محدَّدًا باللغة، وتتطور بوصفها جزءًا منها، وتندمج اندماجًا وثيقًا بمظاهرها الأخرى، بل تمثَّل بطرق طبيعية في بناها الصرفية والتركيبية. وربما تعيِّن كلماتُ اللغة بعضَ المواضع في أنظمة الاعتقاد، وهي التي تزيد من غنى المنظورات المعقَّدة التي تستخدمها في النظر إلى العالَم. وربما لا تقدِّم بعضُ الكلمات، خاصة تلك التي تفتقر إلى بنى علائقية داخلية، أكثرَ من ذلك، ومنها على الأخص "الكلمات التي تسمي الأنواعَ الطبيعية"، وإن كانت هذه العبارة مضلِّلة، إذ ليس لهذه الكلمات علاقة بالأنواع الموجودة في الطبيعة. ويلاحظ أكيل [عقيل؟] بيلجرامي، في رفضه للأفكار المشكوك فيها عن الاعتماد الإحالي، أنَّ تحليلَ الموارد المعجمية في ضوء "منظور المنفذ اللغوي عن الأشياء" a linguistic agent's perspective on things، يقود بطريقة طبيعية إلى الربط بين دراسة المعنى و"أمورٍ مثل الاعتقادات بوصفها تتوسط بين الأشياء في العالم الذي نقف معه في علاقات سببية" وبين فكرة "المحلية الجذرية أو السياقية" للمضمون الذي طوَّره في رفضه لـ"مجمل التفكير الحالي الذي يُصنِّف المضمونَ إلى واسع وضيق". وتبدو هذه التوجهات مثمرة وتستحق أن تُبحث (انظر Bilgrami 1993: 62؛ وانظر عن كلمات الأنواع الطبيعية Bromberger 1992a).

وليست دراسةُ الموارد الدلالية للملكة اللغوية علمًا إثنيًّا، كما ينبغي أن يميَّز المشروعان كلاهما – بالطبع – عن البحث العلمي الطبيعي من حيث مدى الموضوعات التي تتناولها اللغةُ الطبيعية ويتناولها العلمُ الشعبي بطرقهما الخاصة. وهذه الملاحظة بديهية في حالة سقوط التفاح، وتوجُّه النباتات نحو الضوء، وتصويبِ الصواريخ نحو السماء؛ فلا يتوقع أحدٌ هنا أن

تدخل اللغة العادية أو العلم الشعبي في المحاولات التي تتغيا الوصول إلى فهم نظري للعالم، وراء النقاط الحدسية التي ينطلقان منها. وفي مقابل ذلك، يُعدّ مشكلة خطيرة أن تحدّد إنْ كان "الكلام الذهني والوحدات الذهنية ستفقد، في نهاية الأمر، مكانتها في محاولاتنا وصف العالم وتفسيره" (Burge 1992: 33). والاعتقادُ بأن الكلام الذهني والوحدات الذهنية ستفقد مكانتهما "نزعة إقصائية" أو "نزعة مادية إقصائية"، يصفها بيرج بأنها تيار عريض ضمن الجهود التي تسعى "لجعل الفلسفة علمية"؛ وربما تكون هذه الدعوى خاطئة، لكنها مهمة.

أما لماذا هي مهمة فغير واضح. فإذا استبدلنا "فيزيائي" بـ "ذهني" في هذه الدعوى ستفقد أهميتها؛ ذلك أن "النقاش الفيزيائي والوحدات الفيزيائية فقدت، منذ زمن بعيد، مكانتها في محاولاتنا وصف العالم وتفسيره"، إن عنينا بـ "النقاش الفيزيائي" و"فيزيائي" مفاهيمَ الخطاب العام أو العلم الشعبي، وعنينا بـ "محاولات وصف العالم وتفسيره" البحثَ العلمي الطبيعي. فلماذا يجب أن نتوقع شيئًا مختلفًا عن "النقاش الذهني والوحدات الذهنية"؟ ولماذا يجب، مثلاً، افتراضُ أنّ علم النفس "يسعى لصقل بعض الأحكام البديهية العامة عن النشاطات الذهنية للناس، وتعميقها وتعميمها وتنميطها" (Burge 1986a: 8)[٢]. مع خلوّ الكيمياء وعلوم الأرض والأحياء من أي اهتمام مماثل. فلا يتوقع أحدٌ أن يكون للكلام العادي عن الأشياء التي تحدث في "العالم الفيزيائي" صلةٌ خاصة بالنظريات العلمية الطبيعية؛ ذلك أن هذه المصطلحات تنتمي إلى عوالم فكرية مختلفة. ولم يُنظر إلى هذه الحقائق على أنها تثير مشكلةَ الجسد ـــ الجسد، ولم يقترح أحدٌ دعوى لـ "النزعة الشذوذية لما يكون فيزيائيًا" من أجل التعامل مع هذه الحقائق. لذلك يجب أن يكون الشيء نفسه صادقًا عن أحكام مثل:

John speaks Chinese.

"يتكلم جون الصينية".

أو: John took his umbrella because he expected rain.

"أخذ جون مظلّته لأنه توقع المطر".

ـ مع أننا ربما نأمل، في الحالات كلها، أن يكون باستطاعة العلم أن يقود إلى شيء من الفهم والتبصُّر في المجالات التي فتحت أبوابَها منظوراتُ البحث البديهية.

ولا يبدو أن هناك أساسًا لأية مشكلة للذهن ــ الجسد هنا ولا سببًا للشك في دعوى ديفيدسون التي مفادها أنه لا توجد قوانين نفسية فيزيائية تربط الأحداثَ الذهنية بالأحداث الفيزيائية في منظومة تفسيرية ملائمة؛ ولأسباب مماثلة، ليس هناك قوانين "فيزيائية ــ فيزيائية" لربط الكلام العادي عن الأشياء بالعلوم الطبيعية، حتى إن وقعت الأحداثُ المعينة الموصوفةُ في مدى ما يمكن أن تصفه [العلوم الطبيعية]. ولا يبدو التمييز بين المظاهر الذهنية للعالم ومظاهره الأخرى مسوّغًا، بهذه المعايير، إلا من زاوية واحدة هي: أنّ فهمنا النظري للغة والذهن والناس عمومًا على درجة كبيرة من الضحالة، إلا في بعض المجالات المحدودة، وهو ما يجعلنا مقصورين على استخدام مواردنا الحدسية في التفكير عن هذه الأمور والكلام عنها.

وليس ذلك أنّ الخطاب العادي يُخفق في الكلام عن العالم، أو أن الأشياء المحدَّدة التي يَصِفها غير موجودة، أو أن تعليلاته ليست دقيقة جدًا. أما السبب، بدلاً من ذلك، فهو أنه ليس من حاجة لأن يكون للمقولات المستخدَمة والمبادئ المفروضة نظائرُ تقريبية في البحث العلمي الطبيعي. ويَصِح هذا حتى في أجزاء الخطاب العادي التي لها طابع شبيه بالطابع العلمي الطبيعي. فلا تهتم الكيمياء بالكيفية التي يقرِّر بها الناس إن كان شيء ماءً أو شايا. وليس هدفًا ضروريًّا للكيمياء الحيوية أن تقرِّر النقطةَ التي تبدأ عندها "حقيقةُ الحياة" في مسار الانتقال من الغازات البسيطة إلى البكتيريا، إن

فرضنا مثلَ هذا التصنيف، ولن يكون تماثل ذلك مع الأفكار البديهية أكثرَ من تماثله في حالة أفكار كـ"السماء" و"الطاقة" و"صلْب". أما إن كان الاستخدام العادى [للغة] يُصنِّف الفيروسات بأنها "حية" أم لا فليس من الأمور التى تلفت نظرَ علماء الأحياء، الذين سيصنفونها بالطريقة التى يَرغبونها فى ضوء المورِّثات والظروف التى تَتحكم فى قيامها بوظائفها. ولا يمكن أن نحتكم إلى الاستخدام العادى فى تقرير إن كان فرانسوا جاكوب مصيبًا فى قوله إن "الحياة لا تبدأ، عند علماء الأحياء، إلا بما يكون قادرًا على تأسيس برنامج وراثى" (Jacob 1974: 304)، مع أنَّ "من الاعتباطى فى علم الكيمياء، بالمقابل، رسمُ حدٍّ حيث لا يوجد إلا استمرار وحسب". وبالمثل، لا يَدخل التصوُّر "بشر"، بما يتصف به من خصائص غريبة للاستمرار النفسي، فى العلوم الطبيعية. وتحاول النظريةُ التطورية والفروعُ الأخرى لعلم الأحياء أن تَفهم "جون سميث" ومكانَه فى الطبيعة؛ وإن لم يكن ذلك تحت وصف "بشر" أو "شخص" كما نفهمهما فى اللغة والفكر العاديين. وهذه الأفكار مهمة لعلم دلالة اللغة الطبيعية والعلم الإثنى، لكنها ليست كذلك لفروع علم الأحياء البشرى التى تسعى لفهم طبيعة جون سميث وأفرادِ النوع الذى ينتمى إليه أو لما يَفرُقهم عن القرود والنباتات (من أجل وجهة نظر معاكسة عن هذه الأمثلة، انظر Putnam 1992).

وتَسير العلومُ الخاصة بطُرقها الخاصة بها كذلك. وإذا استعرنا المثالَ الذى ناقشه جيرى فودر عن نهر متعرِّج يَجرُف شاطئيه، فلا تَنشغل علومُ الأرض بالظروف التى يأخذ الناسُ فى ضوئها النهرَ على أنه النهرُ نفسُه إن عُكس اتجاهُه أو وُجِّه وجهة أخرى، أو حين يَأخذون شيئًا يبرز من البحر على أنه جزيرة أو جبل ذو قاعدة مائية. وينبغى أن نتوقع الشىء نفسه عن أفكار مثل "لغة" و"اعتقاد" والكلمات التى تنتمى إلى المجالات الدلالية نفسها فى اللغات المختلفة والثقافات المتنوعة.

ويُنظر إلى العلوم الطبيعية المعيَّنة عمومًا على أنها غالبًا أدوات

مصطنَعة وأشياء متواضعٌ عليها رغبة في السهولة، ولا يتوقَّع أحدٌ أن نفصّل الطبيعةَ على مقاييس قوالبها، وتعليق فرانسوا جاكوب [عن هـذا] نمطـي. وملاحظته ليست خلافية عن "العلوم الصحيحة"، لكنها قوبلت باعتراضـات قوية في حال اللغة. فقد كان هناك نقاش محتدِم عن الموضوع الذي تـشتغل به اللسانياتُ "حقيقةً"، وعن أصناف المادة الأولية التي يُسمح لهـا أن تُعنـى بها. ورُسم فارقٌ بين "الدليل اللغوي" الذي يُعدُّ ملائمًا "للـسانيات"، والـدليل "النفسي" وأنواع أخرى من الأدلة غير الملائمة لها. وهذه النقاشات التي يمكن أن نجدها في الحقول البحثية ذات الصلة كلها غريبةٌ عـن البحـث العلمـي الطبيعي. فلا تأتي أيّةُ ملحوظة اختبارية معلَّمةً بشعار مكتوب علـى كمّهـا يقول ("إني أصلح لـ"س")، حيث تكون "س" إما الكيمياء أو اللسانيات أو أي علم آخر. ولا يَسأل أحدٌ إن كانت دراسة جزيء معقّد ما تنتمي إلى الكيمياء أو إلى علم الأحياء، كما يجب ألا يَسأل أحدٌ إن كانـت دراسـة التعبيـرات اللغوية وخصائصها تنتمي إلى اللسانيات أو علم النفس أو علوم الدماغ.

وليس بإمكاننا أن نَعرف مسبقًا أنواعَ الأدلة التي يمكن أن تكون مهمةً لهذه المسائل. لهذا تقترح بعضُ الأبحاث الحالية أنه ربمـا تقـدّم دراسـاتُ النشاط الكهربائي للدماغ دليلاً مهمًّا لها، وهي استحالة تصورية كمـا يـرى قسمٌ كبير جدًّا من الأبحاث المتخصصة، كما تقترح [هذه الأبحـاث] بعـضَ المتطلبات الخلافية الغريبة، نحو: احتمال أنه ربما توفّر دراساتُ الإزاحـة الإدراكية للطقطقات دليلاً عن حدود المكوِّنات التركيبية، في حـين لا تُعـد الملحوظاتُ عن الضمائر العائدة في اليابانية التي تقدّم دليلاً أقوى، اعتمـادًا على أسس علمية طبيعية، دليلاً على الدعاوى الواقعية بسبب شكلٍ خطير من أشكال عدم التحديد (انظر مثلاً، Quine 1987). أو أنه ينبغي أن نكتفي — بل ربما أن نهتمّ — بـ "وجهة نظر الجِدّات" [الكلام العام غير المتخصص] عن المجال الذي تهتم به اللسانيات، مع أنه ربما لا يكون هذا الموقف مقبولاً في حال الكيمياء (Devitt and Sterelny 1989). أو أنه لا يمكن من حيث المبـدأ

استخدامُ دراساتِ عمليات التحليل والاكتساب والأمراض والجروح والتنــوع الوراثي وغيرها دليلاً على وجــود عناصــر التمثيــل اللغــوى ومكانتهــا (Soames 1989)، على الضد مما يراه اللسانيون الممارسون منذ زمن بعيد؛ كإدوارد سابير ورومان ياكوبسون في الأبحاث الكلاسيكية، أو في الدراسات التي أُنجزت مؤخرًا عن آثــار التــداعي priming[٣] فــي تحليــل الكــلام ومقتضياته بشأن العناصر التي لا تُنطق. وتَعكس هذه التوجهات كلُّها شــكلاً من الثنائية، أي الإصرار على أنه يجب ألا نعامل مجالَ "الذهني"، أو المجال اللغوي في الأقل، بالصورة التي نعامل بها المظاهرَ الأخرى للعالم.

وتُتَبنى الثنائيةُ المنهجيةُ أحيانًا صراحة، أو هكذا يبــدو. انظــر إلــى دعوى مايكل دوميت عن أن التفسيرات العلمية تَقصُر عن التفسيرات الفلسفية لأسباب تصوُّرية. لنأخذ المثال الذى أورده، ونفتــرض أن مقاربــةً علميّــة طبيعية للغة نجحتْ إلى حد يفوق ما نحلم به. افرض أن هذه المقاربة وفّرتْ لنا تفسيرًا دقيقًا لما يَحدث حين تباشر موجاتٌ صوتية الأذنَ ثم تحلّــل، ثــم دُمجت هذه المقاربة بشكل تام فى نظرية علمية عن الحدَث، وحلّت مــشكلةَ التوحيد، وأدى ذلك إلى إلحاقها بالنظرياتِ عن الخلية والعمليات الحوســبية. فسيكون لدينا، حينئذ، نظريةٌ ناجحة عما يَعرفه جونز حين اكتسب لغةً مــا، أي: ما يَعرفه عن السجع، والاقتضاء، والاســتخدامات اللغويــة الملائمــة للسياقات، إلخ. لكن بغض النظر عن مدى النجاح الذى حققته هذه الاكتشافات فربما، كما يقول دوميت، "لا تُضيف شيئًا إلى الفلسفة"، التى تتطلب جوابًــا عن سؤال مختلف، وهو سؤال لا يتعلق بالكيفية التى تُخزن بهــا المعرفــة وتستخدَم، بل بـــ"كيف أُدّيتْ". لذلك فسيكون التفسيرُ العلمى الطبيعى "فرضيةً نفسية"، لا "تفسيرًا فلسفيًا"، ذاك أنه لا يبيِّن لنا "الشكلَ الذى أُدى بــه [جــسدَ المعرفة]" (Dummett 1991; 1993: xi). أما فى العلوم فيقول لنا هذا التفسير كلَّ شيء يمكن أن يُسأل عنه فيما يخص الشكل الذى أُديت به المعرفة، أمــا الفلسفة فتتطلب نوعًا من التفسير لا يَعرفه البحث العلمى الطبيعى.

ويبدو كأن الفلسفة، حين تُفهم بالطريقة السابقة، تستبعد جزءًا كبيرًا من جوهر الفلسفة التقليدية. ومن ذلك فلسفة هيوم، مثلاً، الذى كان يهتم بـ "علم الطبيعة البشرية"، وسعى إلى اكتشاف "المنابع الخفية والمبادئ التى تحفز الذهن البشرى فى أثناء تنفيذه للعمليات التى يقوم بها" (١٩٧٥/١٧٤٨: ١٤، القسم ٩)، ومنها تلك "الأجزاء من معرفتنا" التى أتت "من اليد الأصلية للطبيعة" (١٩٧٥/١٧٤٨: ١٠٨، القسم ٨٥)، وهو مشروع كان يقارنه بمشروع نيوتن. ولو حقق هيوم هذه الأهداف لكان قد أسس "فرضيات نفسية"، فى ضوء مصطلحات دوميت، لكنه لن يكون قد أضاف شيئًا إلى الفلسفة. ذلك أن "التفسير الفلسفى" يتطلب شيئًا أبعد من اكتشاف "المنابع الخفية ومبادئ" الذهن وكيفية أدائها لوظائفها.

ويَدخل فى التفسير الفلسفى بصورة حاسمة، إن كنتُ فهمتُ ما يقوله دوميت، النفاذُ إلى الشعور. تخيَّل إذن مخلوقًا مريخيًّا يُشبهنا تمامًا إلا أنه ربما يكون واعيًا بالكيفية التى "يُحفز بها ذهنه فى أثناء قيامه بالعمليات التى يُنفذها". وحين نَسأل المخلوقَ المريخى عن إن كان يتَّبع قواعدَ الصواتة فى صياغته للسجع، أو الشرط B فى نظرية الربط العاملى لتحديد الربط الإحالى، فسيتأمل ثم يقول (حقًا): "نعم، هذا ما أقوم به فعلاً" – وهو ما يماثل، افتراضًا، ما نقوم به أنا وأنت تماما. وسيكون لدينا، فى حالة المخلوق المريخى، "تفسير فلسفى"؛ وسنَفهم الشكلَ الذى أديت به المعرفة، ويمكن أن نعزو له معرفةً بطريقة مسوَّغة. لكن هذا لن يعنى أننا نجحنا فى الوصول إلى "تفسير فلسفى" وإلى عزو المعرفة للبشر الذين يَعملون بالطريقة التى يَعمل بها المخلوق المريخى تماما، وإن بغير وعى. وربما يُسمح لنا، كما يصوغ كوين وجون سيرل وآخرون الأمرَ، أن نقول إن المخلوق المريخى يتبع قواعدَ وهى توجِّهه، أما البشر فلا يمكن وصفهم بمثل هذه المصطلحات. ولتفادى المقتضيات المضادة للحدس وجهًا لوجه يُصرّ سيرل أيضًا على مفهوم "النفاذ من حيث المبدأ" الذى ظل غامضًا تماما (انظر الفصل الرابع فى هذا الكتاب).

فهل هذه الاقتراحات جوهرية أم أنهـا لا تعـدو أن تكـون قـضيةَ مصطلحات؟ أرى أنها من النوع الأخير؛ ذاك أني لا أرى القضيةَ الجوهرية التى تَبرز هنا. وربما يضاف أن هذه الاقتراحات تفارق بـشكل جـوهرى الاستخدامَ العادى، بغض النظر عما لذلك من قيمة؛ فنحن نقول في الاستخدام غير التقنى إن حفيدتى تتبع قواعدَ صياغة الفعل الماضى القياسـى وبعـض الأفعال غير القياسية حين تقول:

I rided my bike and brang it home.

"ركبتُ دراجتى وأحضرتُها إلى المنزل"

[بصياغة الفعل ride فى الماضى بصورة قياسيّة، بدلاً مـن تـصريفه المألوف فعلاً شاذا، وصياغة الفعل bring فى الماضى بشكل يختلـف عـن صيغة ماضيه المعهودة brought].

مع أنه لا يمكن للشعور النفاذ إلى هذه القواعد عند الأطفال أو البالغين، مثلما أنه لا ينفذ إلى تلك القواعد التى يرى كوين وسيرل وآخرون أنه لا يَنفذ إليها. ويكاد التصور "الفتجينشتاينى" لاتباع القاعدة في ضوء معايير الجماعة اللغوية عند سول كريبك يكون متممًا للاستخدام العادى، الذى يعزو فى العادة سلوكًا موجَّهًا بالقاعدة فى حالات الشذوذ اعتمادًا على معايير كهذه، كما فـى المثال الذى أوردتُه آنفا. لكنّ اللسانى وحدَه، بالمقابل، هو الذى ربما يقول إن حفيدتى تتّبع قواعدَ نظرية الربط العاملى، متماشية مع الجماعة اللغوية التى تنتمى إليها (بل مع الجماعة اللغوية البشرية، على أكثر الاحتمال).

ونحن نَقنع، فى دراستنا للمظاهر الأخرى للعـالم، بحجـج "أفـضل النظريات"، كما أنه ليس هناك صنف مميَّز من الأدلة يوفر معاييرَ للصياغات النظرية. إلا أن النظرية العلمية الطبيعية لا تكفى فى دراسة اللغـة والـذهن [كما يقول هؤلاء]، فيجب أن نبحث عن "تفسيرات فلسفية" تَرسم حدودَ البحث

في ضوء معيار مفروض ما، وتوجب تأسيسَ الافتراضاتِ النظريـــة علـــى أصناف من الأدلة يَختارها الفيلسوف، وتعتمد على أفكار كــ "النفاذ من حيث المبدأ" الذي لا مكان له في البحث العلمي الطبيعي، ومهْما عَناه هذا كلُّه فلدينا هنا مطلب يتجاوز المقاربةَ العلمية الطبيعية، وهو شكل من الثنائية ما يـــزال بحاجة إلى تفسير وتسويغ.

وتُسوِّغ المتطلباتُ الفلسفية أحيانًا بمشكلات الخطأ وبمعرفـــة المـــتكلِّم الواثقة. فيستنتج باري سميث، في دفاعه عن موقف لا يختلف كثيـــرًا عـــن الموقف الذي بيَّنته هنا، أن هذا الموقف ما يزال قاصرًا عن "أن يكون تفسيرًا فلسفيًا مقْنعًا" لهذه الأسباب؛ فهو يُخفق في أن "يبيِّن لنا ما الذي يُعد استخدامًا . . . صحيحًا للكلمات، أي استخدامها في ضوء بعض الأنمـــاط المعياريـــة المعينة للاستخدام اللغوي"، ويخفق في تفسير معرفتنا الواثقة بتركيب لغتنـــا ومعناها. لهذا فـــ "البحث الفلسفي. . . ضروري لإكمال المـــشروع بـــشكله العام"، وهو عمل يتجاوز "علم النفس العلمي" (ويشمل ذلك اللسانيات الداخلية) (B. Smith 1992: 134-135).

وليس هناك مسوغ لهذه النتائج، في رأيي. دعنا نفحص أحد الأمثلـــة النمطية. افرض أن بيتر، وهو متكلم عادي للغة الإنجليزية، يقول:

John expects to like him.

"يتوقع جون أن يحبَّه"

فأنا أستنتج من هذا أنه يَقصد أن يحيل إلى شخصين مختلفين: أحدهما جون، والآخر شخص ثان يشار إليه بالضمير him "ضمير الغائب المفعول". أما إذا دمج بيتر التعبيرَ نفسَه في سياق مثل:

Guess who------

"تخيَّل مَنْ ـــــــــــ"

مما ينتج عنه قولُه:

Guess who John expects to like him.

"تخيل مَن يَعتقد جون أنه يحبُّه".

فلا أعرف إن كان يَقصد أنْ يحيل إلى جون وحـــده أم لا. ولا تعتمـد him إحاليًا على John في الجملة:

John expects to like him.

"يتوقع جون أن يحبَّه".

أما في:

Guess who John expects to like him.

فالاحتمالات مفتوحة. وهناك تفسير جيد لمثل هذه الحقائق في ضـــوء نظرية لسانية داخلية، ولنسمها بـــ T "ن" [نظرية].

افرض أن "ن" صادقة عن المخلوق المريخي وعنّـــا نحـــن. فـــيمكن للمخلوق المريخي أن يُخبرنا أنه يخلُص إلى هذه النتائج انطلاقًا من "ن"، التي يمكن أن يُدركها بل يَتكلم عنها كذلك؛ أما أنا فلا أستطيع ذلـــك، مـــع أنني أتصرف مثله تماما. ولما كان المخلوق المريخي ينفُذ شعوريًّا إلى القواعـــد التي يتبعها، فهناك من يميل إلى الظن بأن لدينا الآن تعليلاً لكون المخلـــوق المريخي "واثقًا من غير مشقة" بالحقائق التي وصفناها هنا بطريقة غير تقنية؛ أما التعليل العلمي الطبيعي الداخلي فـــ "يَجعل [ثقةَ المتكلم هذه] أمرًا محيِّرًا" أو "أُحجية محضًا" في حالة بيتر، ويتشكك كريسبين رايت في أنـــه إن كـــان بيتر لا يتمتع بالنفاذ الشعوري الذي يتمتع به المخلوق المريخي فكيف يمكـــن له "أن يَفهم. . . تعبيرات معينة"، كالتعبيرات التي أوردناها، مثلاً، التي يَكون بشأنها "واثقًا من غير مـــشقة"؟ (Wright 1989: 236). ويَقتـــرح رايـــت أنّ مشروعَه ملحق ضروري [لما يراه تشومسكي].

هب أنّا وضعنا الأمرَ بشكل مختلف. أى أن نوع التعليل الذى يمكن أن يقدّم اليوم، ومنه "ن"، "لن يجعل [ثقة المتكلم] أحجية"، وإنّ "تَـرك"، فعـلاً، أحجية، عن المخلوق المريخى وبيتر كليهما. ذلـك أن لـدينا الآن تعلـيلاً، لكليهما، يتماشى مع شروط العلم (إن تركنا أسئلة الدقة والوضـوح جانبـا)، لكننا نفتقر إلى أى قدر من الفهم العميق لطبيعة الشعور، وهو أمر لا صلة له بقضية اتباع القاعدة وثقة المتكلم، وإن كان مهمًّا بنفسه.

فيتبع بيتر قواعد "ن" لأن هذه هى الطريقة التى كوّن بها، وهـو مـا يشبه تمامًا كونه يرى الشمس تغرب والأمواج تتسارع لتضرب الـصخور؛ وتستغرق هذه الحقيقة ثقة المتكلم لديه استغراقا كاملا. أما مـا نـسميه بــ "الخطأ" فهناك أنواع كثيرة محتملة منه؛ إذ ربما يخالف بيتر معيارًا خارجيًّـا ما ــ فيستعمل disinterested ليعنـى uninterested ، أو يـستعمل لهجتـه المحلية فى محاضرة رسمية. ويمكن أن يخالف القواعد مختارا، كأن يستخدم كلمة "كرسى" ليعنى "طاولة" فى نوع كلامى معين ــ مع معرفته بـأن هـذه الكلمة فى لغته تعنى "كرسى". وهو يستغل فى عملـه ذاك ملكـات ذهنيـة تتجاوز الملكةَ اللغوية. وربما يسيء تأويلَ تعبيرٍ ما، فيعطى نظامُه الأدائـى تأويلاً مختلفًا عن التأويل الذى تفرضه لغتُه الداخلية؛ وهناك أصناف مشهورة من هذه الحالات، وقد دُرست بشكل مثمر. ويبدو، حين نستعرض احتمالات أخرى، أن ليس هناك حدود مماثلة فى علم النفس الداخلى.

ويستعمل باحثون آخرون مصطلحات مختلفة لما يبدو كأنه الأمر نفسه؛ لهذا يحاجُّ توماس ناجل، مثلاً، أن ما تصفه نظريةٌ علمية طبيعية كاملة عـن اللغة واستخدامها واكتسابها ليس "آليةً نفسية" بل "آليةً فيزيائيـة" وحـسب ــ ذلك أنه لا يمكن أن ينشأ عن هذه الآلية فكرٌ ذاتى واعٍ يتكوّن مضمونُه مـن تلك القواعد نفسها" (Nagel 1993: 109). ويكمن الفارقُ الحاسم، مرة أخرى، فى النفاذ إلى الشعور من حيث المبدأ. وتبدو هذه الحجة شبيهة بحجة دوميت، وإن استخدمت مصطلحًا مختلفا؛ حيث يَحل مـصطلحُ "نفـسى" بـدلاً مـن

"فلسفي". وتزيد مشكلةُ فهمِ "النفاذ من حيث المبدأ" و"مضمون الفكر"، هنا، من غموض فكرة "الآلية الفيزيائية"، التي كان لها شيء من المعنى في الفيزياء قبل نيوتن، لكن لم يعد لها معنى منذ ذلك الحين.

وإذا لم تُقدَّم لنا فكرة جديدة لـ "الجسد" أو "المادى" أو "الفيزيائى"، فلن يكون لدينا أي تصور للمقاربة الطبيعية يختلف عن المقاربة الطبيعية المنهجية. ويُحيل الاستخدامُ الأكثر مواضعةً إلى مذهب مختلف، أي إلى "المقاربة الطبيعية الغيبية" التي يصفها بيرج بأنها "إحدى النزعات المحافظة القليلة في الفلسفة الأمريكية" في السنوات القليلة الماضية (Burge 1992: 32)؛ وتتمثل في أنواع أخرى: كالمقاربة المادية، والمقاربة الفيزيائية، والمقاربة الإقصائية، و"تطبيع الفلسفة [إدخالها ضمن البحث العلمي الطبيعي]"، إلخ. لكنه لا يمكن فهم هذه المذاهب إلا حين يُحدَّد مجالُ الفيزيائي بصورة ما.

ويصوغ دانيل دينيت هذا المذهب، وهو أحد أبرز المدافعين عنه، كما يلي: يرى "إدخال الفلسفة ضمن العلوم الطبيعية"، الذي يصفه بأنه "أحد أسعد التوجهات في الفلسفة منذ الستينيات"، أنَّه "يجب أن تكون التعليلات الفلسفية لعقولنا ومعارفنا ولغتنا في نهاية الأمر متماشية مع العلوم الطبيعية أو متلائمة معها". ويورد بالدوين، في نقاشه للمقاربة الطبيعية المعاصرة، هذه المقولة لتبيين دعوى "المقاربة الطبيعية الغيبية" (T. R. Baldwin 1993، مستشهدًا بالمقدمة التي كتبها دينيت لكتاب روث ميليكان Ruth Millikan عن هذا الموضوع). وتثير هذه الصياغةُ، كالصياغات الأخرى، بعض المشكلات. فما "التعليلات الفلسفية" بشكلها المختلف عن التعليلات الأخرى، بهذا المعنى للفلسفة "المُدخلة في العلوم الطبيعية"، خاصة؟ ثم ما العلوم الطبيعية؟ ومن المؤكد أنها ليست ما نفهمه اليوم [على أنه علوم طبيعية]، التي ربما لا تكون "متماشية ومتلائمة" مع الفيزياء في المستقبل. أهي صورة مثاليةٌ نموذجيَّة بيرسيَّة [نسبة إلى بيرس]؟ ربما، ولا يبدو هذا الاقتراح واعدا. وما الذي يمكن أن يُحصِّله الذهن البشري في الحد الأقصى؟ وهذا

موضوع محتمل للبحث في الأقل، لكنه يتركنا في وضع أكثـر سـوءًا فـي السياق الحالي. أما إن فُهمت "المقاربة الغيبية" على أنها أمل فـي التوحيـد المستقبلي لدراسة الذهني مع الأجزاء الأخرى للعلم، فـلا يمكـن لأحـد أن يعترض، لكنها دعوى لا تلفت النظر إلا قليلا، بدلاً من كونها "أحد التوجُّهات السعيدة في الفلسفة".

انظر إلى شكل هذا المذهب بالصيغة التي عبّر عنهـا كـوين (الـذي يَصفه بيرج بأنه يُنبوع المحافظة المعاصرة). فـ"دعوى إدخال الفلسفة ضمن العلوم الطبيعية" في آخر صياغاته لها، هي "العالَم كما يقول العلمُ الطبيعي إنه كذلك، على حدّ ما يكون العلمُ الطبيعي صحيحًا". لكن: ما "العلم الطبيعـي"؟ وكانت إجابة كوين الكاملة أنّه "نظريات الكواركات وما يشبهها" [والكواركات أصغر مكوّنات المادة]. لكنْ ما الشّبه الكافي؟ وهناك إشارات إلـى بعـض الإجابات الممكنة لكنها تبدو اعتباطية تماما، في ضـوء المعـايير العلميـة الطبيعية المألوفة في الأقل (Quine 1992؛ للاطلاع على نقاش أوسع، انظـر الفصل الرابع في هذا الكتاب).

هب أننا عرّفنا مشكلةَ الذهن ــ الجسد (أو ربما جوهرها) بأنها مشكلةُ تفسير الكيفية التي يتصل بها الشعور بالبنى الأعصابية. فإذا كانـت كـذلك، فيبدو أنها مماثلةٌ تقريبًا للمشكلات الأخرى التي برزت طوال تاريخ العلـم، وهي التي تبقى من غير حل أحيانًا، ومنها: مشكلة تفسير حركـة الأشـياء الأرضية وحركة الكواكب في ضوء "الفلسفة الآلية" وآليات التّمـاس فيهـا، وهي المشكلة التي بيّن نيوتن أنه لا يمكن حلها، وأمكن التغلبُ عليها باقتراح ما كان يُفهم على أنه قوى "غير مادية"؛ ومنها مـشكلة اختـزال الكهربـاء والمغناطيس إلى الآليات، التي لا حل لها، ولم يُتغلب عليها إلا بافتراضٍ أكثر غرابة يتمثل في أن المجالات [الكهربائية والمغناطيـسية] أشـياءُ فيزيائيـة واقعية؛ ومشكلة اختزال الكيمياء إلى عالَم الجسيمات الصلّدة في حالة حركة، والطاقة، والموجات الكهرومغناطيسية، التي لم يُتغلـب عليهـا إلا بـاقتراح

فرضيات أكثر غرابة عن طبيعة العالَم الفيزيائى. وقد أمكن تحقيق التوحيد، فى كل حالة من هذه الحالات، وحُلت المشكلة لا بـالاختزال، بـل بأشـكال مختلفة جدًا من التكييف. بل يكاد اختزالُ علم الأحياء إلى الكيمياء الحيويـة يكون شكلاً من الوَهم، لأنه لم يَحدث إلا بعد سنين من توحيد الكيمياء وعلـم الفيزياء الجديد المختلف اختلافًا جذريًا [عن علم الفيزياء القديم].

وتختلف هذه الأمثلة حقًا عن مشكلة العلاقة بين الشعور والذهن مـن وجه واحد مهم: فقد كان بالإمكان صياغةُ نظريات معقولة بعيدة جـدًا عـن السطحية عن تلك الظواهر العصبيّة على الاختزال، أما فى حالـة الـشعور فيبدو أن التقدم الذى حققناه لا يتجاوز وصفَ الظواهر والتمثيل لها (وربما لا يتفق أتْباع فرويد ويونج وآخرون مع هذا الرأى). وأوضح ما يكـون هـذا الأمر فى حال اللغة. فيتضمن الاستخدامُ العادى للغة "مظهرًا إبداعيًا" وفـر، فى نظر أتباع ديكارت، أفضلَ دليل على وجود العقول الأخرى. ولا يمكـن ربط الخصائص الحوسبية للملكة اللغوية ولا المظاهرِ الإبداعية اللافتة للنظر فى استخدامها بأى شيء معروف عن الخلايا، لكن الموضوعين يختلفان فى أنّ هناك نظريات تفسيرية معقولة للخـصائص الحوسـبية، أمـا المظـاهر الإبداعية لاستخدام اللغة فليس لدينا إلا وصفُها والتمثيل لها، وإذا كان الأمر كذلك فلا تتمثل القضيةُ الجوهرية فى عدم القابليـة للاختـزال الحقيقـى أو الوهمى، وهى ظاهرة مألوفة فى تاريخ العلم، بل تتمثل فى أنّه ليس بمقدورنا إلا الوقوف حائرين أمام بعض مظاهر الذهن كالشعور والتعبير عن الفكـر الذى يتسم بالتماسك والملاءمة لكنه ليس مدفوعًا بسبب، وهذه سمة معهـودة من سمات المشكلات الجوهرية فى الفلسفة، كما يحاجُّ كولن مـاجن (Colin McGinn 1993).

يضاف إلى هذا، أنه إلى جانب أن الاختزال بمعناه الحرفـى لا يكـاد يُعرَف فى مسار العلم نحو التوحيد، فليس مؤكدًا إن كان له معنـى أصـلاً بوصفه مشروعًا بحثيًا. فقد كتب سيلفان شوبير أن الأبحـاث الأخيـرة فـى

فيزياء المادة المكثفة، التي خلقت ظواهر كالقوة التوصيلية الفائقة superconductivity تتصف بأنها "بدع حقيقية في الكون" (Schweber 35 :1993) بعثت أيضًا الشكوكَ المبكرة عن إمكان اختزالها إلى "ما يكاد يكون ادعاءً بُرهن عليه بشكل دقيق"، وهو ما يؤدى إلى تصور "القوانين الناشئة" بمعنى جديد (ص ٣٦). وبغض النظر عن إن كانت هذه النتيجة صحيحة أم لا، فالواضح أنه ليس لدى المذاهب الفلسفية ما تقوله عنها في الأقل؛ وهى تقول أقل من ذلك عما يخص مجالَي الذهن والدماغ، اللذين يقل فهمنا لهما عن ذلك بكثير.

وتتبع المقاربةُ العلمية الطبيعية ببساطة مسارَ ما بعد نيوتن، مُدركةً أنه ليس بإمكاننا أكثر من السعي نحو أفضل تحليل نظري لظواهر التجربة والتجريب، بغض النظر عن الاتجاه الذي يقود إليه هذا المسعى.

ونتوقع، كالحال في فروع العلم الأخرى، أن نترك تصورات الفهم البديهي وراءنا، ولنأخذ مثالاً فعليًا، وهو حالةُ امرأة تدعى "لورا" دَرسَها جيني يامادا. فتبدو قدراتها اللغوية كأنها سليمة، لكنَّ قُدرتَها الإدراكية والذريعية محدودة. وهى تعرف عددًا كبيرًا من المفردات التي تَستخدمها بطرق ملائمة، وإنْ لم تفهمها إلا بقدر قليل، كما يبدو. ويَقترح ياماادا أنها تشبه الأطفالَ الصغار الذين يَستخدمون الكلمات التي تدل على اللّون في المواضع الصحيحة "لتغليف الخطاب" [تزيينه]، لكنْ من غير أن يفهموا خصائصها الإحالية. فتعرف لورا متى ينبغي عليها وصف نفسها والآخرين بالسعادة أو الحزن، إلا أنه يبدو أنها لا تستطيع الشعور بالحزن أو السعادة؛ فهي تُشبه القائلين بالمذهب السلوكي. والسؤال هنا هو: هل "تَعرف" [لورا] اللغة الإنجليزيةَ أو "تَفهمها" أو "تتكلمها"؟ وهذا سؤال لا معنى له؛ ذلك أن المسلّمات المعهودة عن الناس لا تنطبق على حالتها؛ ولا تتوافق حالتُها مع الافتراضات المألوفة عن الاستخدام العادي للغة، وربما أمكن للنظريات العلمية الطبيعية عن اللغة والذهن أن تُمدَّنا ببعض التصورات التي تنطبق

على لورا، لكنها تصورات تختلف عن الاستخدام العادي للغة. وهي، بالمناسبة، جزء من نظرية داخلية عن اللغة والذهن، كما أنها النوع الوحيد الذي نمتلكه. ولا يمكن أن نسأل، مثلاً، عن "المضمون الواسع" لكلام لورا إلا إن وسّعنا هذا المفهوم التقني ليشمل هذه الحالة (Yamada 1990).

لنأخذْ مثالاً مختلفًا شيئًا ما، هو حفيدتي ذات الأربعة أعوام. فهل تتكلم الإنجليزيةَ [في هذه السن]؟ ونحن نقول في كلامنا العادي إنّ لديها معرفةً جزئية باللغة، وسوف تحذقها إن استمرت الأمور في مسارها المعهود، مع أن ما تتكلمه الآن ليس لغة إطلاقا. لكن لو هلك البالغون جميعًا، وقُدّر أن ينجو الأطفالُ الذين في سنّها من هذا المصير، فسيكون ما سيتكلمونه لغات إنسانية مألوفة تماما، وهي لغات لا توجد الآن. وهذا المظهر الغائي للفكرة البديهية للغة واحد من سمات كثيرة غريبة تجعل هذا المفهوم غير ملائم لمحاولة فهم اللغة واستخدامها، مثلما أنّ علم الأحياء لا يهتم بالثبات النفسي للأشخاص، وأن علوم الأرض لا تنشغل بما يُسميه الناسُ النهرَ نفسه أو جبلاً أو جزيرة. وهذه المسلمات تحصيل حاصل عن "الفيزيائي"؛ و"الذهني" كذلك، إن تركنا المسلّمات الثنائية جانبا.

ويصبح الشيء نفسُه عن عزو الاعتقاد، فمن المشاريع المعقولة للعلم الطبيعي أن يحدّد إنْ كان الناس (والأطفال الصغار خاصة) يؤوِّلون ما يَحدث في العالَم في ضوء أفكارٍ كالاعتقاد والرغبة، والسقوط من السماء نحو الأرض، والتوجه نحو الضوء، إلخ؛ وما الشروطُ التي يَستعملون في ضوئها هذا الخطاب القصدي والموضوعي في اللغات المختلفة (وربما يكون هذا أمرًا مختلفا، كما لاحظنا من قبل). ويمكن أن نسأل، بشكل مستقل إلى حد بعيد، إن كان ينبغي أن تدخل أفكارٌ كهذه في نظرية عن الناس والشهب والأزهار. والإجابةُ المقترَحة في الوقت الراهن "لا، بكل تأكيد" في حالة الأزهار والشهب، ومجهولة في حالة الناس، فنحن لا نعرف إلا قدرًا قليلا، لكن دعنا ننظر في نوع ثالث من المشكلات، وهي التي لا تدخل في أي من

الإطارين: وهي مشكلة تحديد متى "ينبغي" أن نعزو اعتقادًا أو نعزو الارتفاع والتوجُّه و"القصد نحو" ــ أي متى نكون "محقين" في القيام بذلك العزو؟ وإذا استشهدنا بإحدى الصيغ التي اقتُرحت مؤخرًا، ما "الشروط الضرورية فلسفيًّا للمُعتقد الحقيقي"؛ ويَحتج بعض الفلاسفة دائمًا بالنفاذ إلى الشعور عند هذه النقطة، ويرون غالبًا أن عدم التحديد الكويني [نسبة إلى كوين] ينشأ هنا بشأن الاعتقاد، وإن كان لا يصح في الحالات الأخرى، التي لا يُوجَب بشأنها أي "شرط فلسفي" على الإطلاق (Clark and Karmiloff-Smith 1993). فلا يسعى أحدٌ لبيان الشروط الضرورية فلسفيًّا عن مذنَّب يتوجه نحو الأرض حقيقة ــ ثم يُخفق في إصابتها، إن كنا محظوظين، وهو عزو قصدي آخر.

ويَدعونا هؤلاء، كذلك، إلى البحث عن المعايير التي تُحدِّد أين نرسم الحدَّ الفاصل بين مذنَّبات تتوجه نحو الأرض وجونز الذي يَسير نحو مكتبه؛ وفي أي جانب يَجب علينا أن نصنِّف دُوَيبَّات "البرنقيل" التي تلتصق بالقواقع والحشرات التي تطير نحو الضوء، ولا تنتمي هذه الأسئلة إلى العلم الإثني أو إلى دراسة المعجم، ولا تنتمي إلى البحث العلمي الطبيعي في فروع العلوم الأخرى، ومرة أخرى، يبدو أن هذا المسعى يبتغيًا "تفسيرات فلسفية"، بغض النظر عن ماهيتها.

وتبرز أسئلةٌ مماثلة بشأن النقاش عن تحقُّقات "الذكاء" و"استخدام اللغة". ويمكن أن نَبحث، في حالات نظام الإبصار ونظام الحركة والأنظمة الأخرى، عن بعض الارتباطات الشَّبَهية homologies أو التطورية. لكن الخصائص الذهنية لا تُتناول بمثل هذه الطرق. فهناك شيء مختلف في النقاش عن إن كانت الآلات تفكِّر، أو تُترجم اللغةَ الصينية، أو تلعب الشطرنج. فنحن نَسأل إن كان رجل مريخي متخيَّل أو حاسوب مبرمَج يستطيعان فهْمَ الصينية، لكننا لا نَسأل إن كان من الممكن لمخلوق فضائي أو آلة تصوير أن يَرَيا، كالبشر. وهناك أبحاث كثيرة جدًّا عن إمكانية القول بطريقة ملائمة عن شخص ينفذ خوارزميًّا ذا دخول وخروج مشفَّرة إنه

يترجم اللغةَ الإنجليزية إلى اللغة الصينية، لكن ليس هناك أبحاث عن الأسئلة المماثلة التي يمكن إثارتها عن تقليد الحوسبات والخوارزميات التي تحـوِّل حثَّ الشبكية إلى صورة بصرية أو إلى تناولِ شيء ما. وهناك من يرى أن من المهمات الأساسية لـ"نظرية المعنى" أن تصوغ بعضَ الأفكار التي ربما تنطبق على أي مخلوق بغضِّ النظر عن الطريقة التي كوِّن بها، سواء أكان حقيقيًا أم متخيَّلا؛ لكن هذه ليست هدفًا للنظرية عـن الإبـصار أو الحركـة إطلاقا. ومن الغريب أنه لا يُنظر إلى هذا على أنه هـدف للنظريـة عـن الصواتة كذلك، مع أن لهذه الأسئلة الأهميةَ نفسَها تقريبا هنا ـ وهي، كمـا أظن، صفر. وبالمثل، فلا يَسأل أحدٌ عن ما الذي يمكن عدُّه نظامًـا للـدورة الدموية، أو ما يمكن أن يُعد جزيئًا، في عالَمٍ ما مأهولٍ بأشـياء مختلفـة أو قوانين مختلفة للطبيعة.

وليست هذه المناقشات ثنائية من حيث الجوهر فحسب، بل لـيس لهـا هدف واضح كذلك ولا أهمية، ويبدو أنها تشبه النقاش عن إن كانت المركبة الفضائية تَطير أو إنْ كانت الغواصات تَبحر، لكنها لا تَسبح؛ وهذه من أسئلة التقرير، لا الحقيقة، في هذه الحالات، مع أنها تُعدُّ جوهريةً في حالة الـذهن، اعتمادًا على مسلمات ما تزال بحاجة إلى تفـسير ـ يـضاف إلـى ذلـك، بالمناسبة، أنها تتجاهل أحد تحذيرات ألين تيـرنج الـصريحة فـي بحثـه الكلاسيكي الذي أَلهم كثيرًا من النقاش الجاد في السنين الماضية.

وتَبرز قضايا المقاربةِ الداخلية ـ الخارجية حين نوجه أنظارنـا إلـى اللغة؛ لكنها تبرز – مرة أخرى – بخصوص نظريـة المعنـى وحـدها لا الصواتة، حيث يمكن أن تثار بطرق مماثلة. لهذا يُطلب منـا أن ننظـر إن كانت المعاني "في الرأس"، أم أنها محدَّدة بطرق خارجية. والإجابة المعهودة الآن أنها محددة بطرق خارجية بنوعين من العوامل: سمات العالَم الـواقعي، ومعايير الجماعات.

فما فكرة المعنى التي تُبحث هنا؟ ويُقترح الترسيمُ المنهجي للممارسة

الواقعية للترجمة هدفًا للبحث أحيانًا، لكنْ لم يُقوِّم أحدٌ الاقتراحاتِ التي تقدَّم بطريقة جادة في ضوء هذه المصطلحات، كما أن أهمية المشروع ليست واضحة. ومن الأهداف المعلنة الأخرى أن نحدِّد معنى كلمةٍ ما (لكن ليس صوتَ كلمة ما، كما يبدو) في "لغة مشتركة عامة"، وهي فكرة ما تزال بحاجة إلى أن تصاغ في ضوء معايير متماسكة[4]. ومن الواضح أن الهدف لا يتمثل في أنْ نكتشف السماتِ الدلالية لكلمة meaning "معنى" في الإنجليزية أو التعبيرات المماثلة في لغات أخرى، إن وُجدت. فهل ينتمي هذا البحث إلى العلم الإثني، وهو البحث في مصادرنا التصورية؟ لكن لا يبدو أن الأبحاث التي يقام بها مصممةٌ تصميمًا ملائمًا لهذا الغرض. ولا صلة لهذه الأسئلة بالبحث العلمي الطبيعي في طبيعة اللغة واستخدامها، وهو الذي سيتطور بطرقه الخاصة به. فما الاحتمالات الأخرى الممكنة؟ والإجابة عن هذا السؤال غير واضحة.

والواقع أن بعض المحاولات الغريبة تبدأ عند هذه النقطة. انظر إلى تجربة "توءم الأرض" الذهنية التي صمَّمها هيلاري بتنام، وهي التي وفَّرت كثيرًا من المسوغات للافتراضات الخارجية. فيُطلب منا، في إحدى صور هذه التجربة، أن نتفحص حدوسَنا عن "ما صدق" أو "مرجعِ" كلمةِ "ماء" في توءم الأرض، حيث يَستعمل أناسٌ يماثلوننا هذه الكلمة في الإحالة إلى "س ص ع"، الذي ليس H2O. لكننا لا يمكن أن نملك حدوسًا عن هذا السؤال، ذلك أن كلمات "ماصدق" extension، و"الإحالة" reference، و"صادق عن" true of، و"يعني" denote، وعبارات أخرى تتصل بها، مصطلحاتٌ تقنية، وتَعني بدقة ما يقول لنا مخترعوها إنها تَعنيه: وستكون فائدة هذا الفحص مماثلةً في عدم فائدتها لفحصِ حدوسنا عن مصطلح "العضلات الشاذَّة" [في التشريح] أو [مصطلح] "اللاأيقين"، بالمعنى التقني [في الفيزياء].

افرض أننا صممنا تجربةً ذهنية مستخدمين اللغة العادية، وافرض، مثلاً، أن توءم أوسكار هبط إلى الأرض وكان ظمآنا، ثم طلب "ذاك"، مشيرًا

إما إلى كوب يحوى مشروبًا غازيًا أو إلى كأس يحوى ما يأتى من الصنبور ـــ وهو مزيج غريب من الـــ H_2O والكلور، وأكرَه أن أفكر بشيء آخــر، وهو يَختلف بشكل لافت من مكان إلى مكان (لكنه يسمى "ماء"). فهل أخطــأ في الحالتين كلتيهما؟ أم في إحداهما؟ وإذا أخطأ في إحداهما، ففي أي منهما؟ افرض أنه يحيل إلى شيء أتى من الصنبور كان قد مرَّ عبر مـصفاة مــن الشاي عند مصدر الماء (لذلك فهو يعني أنه "ماء" عند أوسكار)، وإلى شيء مماثل من حيث الجوهر الكيميائي غمس فيه كيس شاي (لذلك فهو ليس "ماء" عند أوسكار، بل "شايا"). ففي أي من الحالتين كان توءم أوسكار مخطئا (إن كان مخطئا في أي منهما)؟ لنعد إلى "مضمون الاعتقاد". فإذا اسـتمر تـوءم أوسكار في طلب ما يأتي من الصنبور ليروي عطشه، مسمّيًا إياه "ماء"، فهل غيَّر من اعتقاداته عن الماء ـــ بصورة غير معقولة، ذلك أنه لا يملك دلــيلاً على حدوث تغير مثل هذا؟ أم هو يتصرف بصورة معقولة، محافظًا علـى اعتقاداته الأصلية عن الماء، التي تسمح بأن يكون الشيء الذي يوجد علـى الأرض ماء (في توءم الإنجليزية) في المقام الأول؟ فإذا كان الأمرُ الأخيـر هو الحال فاعتقاداته عن الماء مشتركةٌ على الأرض وعلى تـوءم الأرض، مثلما يحتمل أن تختلف اعتقاداته، على أي من الكوكبين، عن المادة نفـسها، حيث يأخذها على أنها إما "ماء" أو "شاي" تبعًا لاختلاف الظروف، حتى مـع معرفته الدقيقة التامة بأنَّ لموضوعات الاعتقادات المختلفة المكونات نفـسها تماما. وأنا لدي حدوسي الخاصة بي، وهي التي ربما تكون لها صلة بدراسة المعجم والعلم الإثني، لكنها تُقوِّض النتائجَ المقصودة للتجربة الذهنية.

وهناك مشكلات أخرى كثيرة جدًا، فقد أثيرت مشكلة توءم الأرض عن طريق تخليصها من مسلَّمات الخطاب التي يقوم عليها الاســتخدامُ اللغـوى العادي. وهي تشبه السؤالَ عن إن كانت لورا تفهم الإنجليزية. يضاف إلـى ذلك، أنه إن كانت هذه الحجة تنطبق على "الماء" فلمــاذا لا تنطبـق علـى "الأرض"، و"الهواء"، و"النار"، إذن، وهي التي كان لها منزلة شبيهة في أحد

التقاليد [الفلسفية] القديمة؟ ثم ما "الشيء نفسُه" في هذه الحالات؟ أو انظر مثلاً إلى "السماء". فأنا أستعمل هذا المصطلح بخصيصته الإشاريّة، لأحيل إلى ما أراه في ليلة صافية؛ وهو شيء مختلف في بوسطن عنه في تسمانيا [مدينة في استراليا]. وربما صح لي، حين أتخلص من المسلمات المعهودة كما هي الحال على توءم الأرض، أن أقرّر (في بعض الظروف) استخدامَ كلمة "ماء" بالطريقة نفسها. وأبعادُ الاختيار متنوعة جدًّا حتى إنه لا يعود مفاجئًا ألا تستطيع "أكثرُ الآذان التي لم تلوثْها النظريةُ الفلسفية من قبل" إصدارَ أحكام واضحة في الحالات النموذجية، كما لاحظ ستيفن ستك. وربما لا يمثّل هذا اعتراضًا حاسمًا في سياقٍ نظري غني، لكنه إشارةُ تنبيهٍ يجب عدمُ تجاهلها حين لا يكون لدينا إلا القليل وراء الأمثلة المزعومة (انظر Stich 1983؛ للاطلاع على بعض التعليقات، انظر الفصل الثاني في هذا الكتاب).

ولا يبدو لي أن إجابة بتنام عن هذه المشكلات مقنعة؛ فهو يوافق على أن الكلمات لا تُحيل، ويلزم عن هذا أنْ تصاغ الحدوس عن "مرجع الكلمات" بطريقة مختلفة. وهو يتبنى موقف بيرس الذي يرى أن "الإحالة [بمعنى "صادق عن"] علاقة ثلاثيةٌ (فيحيل الشخصُ "س" إلى الشيء "ص" عن طريق الإشارة "ش")"، حيث الأشياءُ "ص" "واقعيةٌ في العالم" (Putnam 1992: 382). يضاف إلى ذلك "حقيقةُ أن هناك علاقة بين كلماتنا والأشياء في العالم وهي أساسيةٌ لوجودنا؛ فالفكر الذي لا علاقة له بالأشياء في العالم فكرٌ فارغ" (Putnam 1992: 383)[6]. لهذا تُحيل كلمةٌ ما (أي أنها: "صادقةٌ عن") إلى شيء واقعي في العالَم حين يَستعمل الناسُ هذه الكلمةَ ليُحيلوا، ولمّا كان المتكلمون يَستعملون كلمة "الصينية" في الإحالة إلى اللغة التي تُتكلم في بكين وهونج كونج، فهي "شيء واقعي في العالم"، وينبغي أن يَنطبق الأمر نفسه على "الذهن"، و"الرجل المتوسط"، و"جو المدمن"، و"التجارة الحرة"، و"السماء"، وغيرها، وعلى الصفات والأفعال والتعبيرات العلائقية الأخرى كذلك، كما يبدو.

وإذا وضعنا جانبًا هذه النتائج التى تتجاوز النتائج التى قال بها وورف، فإن عددًا من المشكلات يبرز. وأولها أن قبولنا بهذه الصياغة يـؤدى إلـى سقوط الحجج الخارجية، ويشمل ذلك تجربة توءم الأرض، وحالـة "تقسيم العمل اللغوى"[٩]، وغيرهما. ذلك أنه حين يطلب توءم أوسكار، فى زيارتـه للأرض، كأسًا من الماء، مُحيلاً إلى ما فى الكأس علـى أنـه "مـاء"، فإننـا نخلُص، تبعًا لمراجعة بتنام، إلى أن كلمة "ماء" فى توءم الإنجليزية صـادقةٌ عن H2O، وهو ما يعنى عودة المعانى إلى الرأس. وتُخفق الحججُ الأخـرى لأسباب مماثلة.

وثانيها، أن هذه المراجعة غير مفيدة، ذلك أن فرضية بيرس تتـضمن مفهومًا تقنيًا جديدًا لـ"الإحالة"، وهو ما يُعيدنا مرة أخرى إلى حيث كنّا، مع حدوس لا يمكن أن نمتلكها. فليست "الإحالةُ"، فى الاستخدام العادى، علاقـةً ثلاثيةً من النوع الذى اقترحه بيرس. فهى، بدلاً عن ذلك: أن الـشخصَ "س" يحيل إلى "ص" عن طريق التعبير "ت" تحت الظروف "ظ"، ويعنى هـذا أن العلاقة رباعية، فى الأقل، ثم إنه ليس ضروريًا أن تكون "ص" شيئًا واقعيًـا فى العالَم أو ينظر إليه "س" كذلك. وعلى وجه أعمّ، يَستعمل الـشخصُ "س" التعبيرَ "ت" بخصائصه الدلالية الذاتية ليتكلم عن العالَم مـن زوايـا ذاتيـة متشابكة، مركزًا انتباهه على بعض مظاهره المحدَّدة، تحت الظـروف "ظ"، مع "محلية المحتوى" التى توجبها (بالمعنى عند بيلجرامى)، بل ربما لا تكون لمكوِّنات "ت" أيةُ علاقة دلالية ذاتية بما يحيل إليه جونز، كما فى حالة قولـه إن الحفلة الموسيقية فى قاعة جوردان رائعة، محيلاً إلـى مدينـة بوسـطن والمقطوعة الوترية التى يُحبها.

ويكتب بتنام أنه يظن أن "تشومسكى يَعرف جيدًا أن هناك علاقة بـين المتكلمين والكلمات والأشياء فى العالم". وهذا صحيح أحيانًا فهناك علاقـة، حين نجرِّد من ظروف الاستخدام، بالمعنى تقريبًا الذى توجد فيه علاقةٌ بـين الناس والأيدى والحجارة، وهو ما يَجعلنى أستطيع استخدام يـدى لالتقـاط

حجر. لكن ذلك يقصر بنا كثيرًا عن القول بأي شيء يُشبه النتائجَ التي يَــودُّ بتنام أن يَصل إليها.

وليس باستطاعتنا أن نستنتج "علاقةً مهمة بين كلماتنا والأشــياء فــي العالَم" بناء على تصورات "الإحالة" وأمثالها في اللغة الطبيعيــة والبديهــة. وحين نبدأ بملء الصورة لكي نقترب من الاستخدام الفعلي والفكر، لا يعــود من الممكن الاحتفاظ بالنتائج التي يراها القائلون بالمقاربة الخارجية عدا أنه سيكون لبعضها، في معمعة الاستخدامات، الخصائصُ المرغوبة؛ إذ يمكــن بالفعل، في بعض الظروف المحددة، أن نفهم "ماء" بمعنى "الــسائل نفــسه"، حيث كلمتا "سائل"، و"نفسه" نوعان من الأفكار التي يسعى العلم لاكتــشافها، وتتماشيان مع الفرضيات الخارجية الأخرى. ولا شك أن التفكير عن العــالم "أساسي لوجودنا"، لكن لا يبدو هذا طريقًا جيدًا لفهم هذا الأمر بشكل أفضل.

ويبدو البحثُ الفلسفي مؤطَّرًا تأطيرًا غريبًا بمعايير أخرى كذلك؛ لهذا فكلمة "ماء" مجموعٌ من الخصائص الصوتية والدلالية والصورية تَنفُذ إليهــا أنظمةُ الأداء المختلفةُ للنطق والإدراك والحديث عن العالم، إلخ، فإذا أنكرنــا كونَ معناها في الرأس، فلماذا لا ننكر كذلك كونَ مظاهرها الــصوتية فــي الرأس كذلك؟ ولماذا لا يَقترح أحدٌ أن "المضمون الصوتي" لكلمة "ماء" تحدِّده بعضُ أنواع حركات الجزيئات أو مواضعات "النطق الملائم"؟ ويُنظَــر إلــى هذه الأسئلة على أنها سخيفة أو غير مهمة. فلماذا لا يكون الأمر كذلك عــن المعنى، إذن؟

وتوحي الأبحاثُ ببعض الإجابات عن هذه المسألة. ومنهــا أن نتــائجَ بتنام عن "الماء" و H2O مدفوعةٌ جزئيًّا بمشكلة المعقوليــة فــي الخطــاب العلمي. وكما يُشير بتنام، فنحن لا نود القولَ إن بور Bohr كان يقول كلامًا سخيفًا حين استخدم مصطلحَ "ألكترون" في الفترة الــسابقة علــى اكتــشاف النظرية الكميَّة، وإلا كانت أحكامه كلها زائفة. ويَحتج بتنام، لكي يتجنب هذه النتائج السخيفة، بأن بور كان يحيل إلى ذرات وألكترونات "واقعيــة" وهــي

التى ربما يمكن لبعض الخبراء أن يُحدثونا عنها (وربما لا)، فى نهاية الأمر. فإذا كان المعنى يحدّد الإحالة فالمعانى ليست فى الـــرأس، إذن، وهـــو مـــا يُفترض أن تُبينه التجاربُ عن توءم الأرض.

وليست هذه الحجة مقنعة، وذلك لأسباب تتجاوز الأسباب التى أوردناها آنفا. فقد أشار جاى أطلس إلى أن المهندسين المتخصصين فى الذرة يميِّزون بين "الماء الخفيف" و"الماء الثقيل"، حيث الأولُ فقط H2O. فإذا أخذنا أولئــك على أنهم خبراء، فهل كنا مخطئين بشأن الكلمة "ماء" حين كنا نعنى المـــاء الخفيف حقًا؟ (ولنقاش أوسع، انظر Atlas 1989). وكان الكيميـــائيون قبــل أفوجادرو Avogadro يستخدمون مصطلحى "الذرة" و"الجزىء" الواحدَ مكان الآخر. فهل يجب علينا، لكى نجعل ما كانوا يقولونه معقولاً، أن نفترض أنهم كانوا يحيلون إلى ما يسمى الآن بـــ "الذرات" و"الجزيئات" (أو مـــا تكونـــه "حقيقةً"، وهو الذى ربما لا يعرفه أحد الآن)؟ وبعد أنْ توفَّر نموذجُ بور للذرة اقتُرح أن تُفهم الأحماضُ والقواعد على أنها مستقبِلات أو واهبات محتملـــة للألكترونات، وهو ما نتج عنه ضَمُّ أحماض البورون وأحماض كلوريـــدات الألمنيوم إلى حامض الكبريت، وفَتح "منطقة جديدة بأكملهـــا فـــى الكيميـــاء الفيزيائية غير العضوية"، كما يقول أحدُ كتب تاريخ العلم المشهورة (انظـــر Brock 1992: 482). فهل كان العلماء السابقون يحيلون "فعلاً" إلى البـــورون على أنه حامض؟ وهل يجب علينا أن نفترض ذلك لكـــى نجعـــل وجهـــات نظرهم معقولة؟ لنأخذ مثالاً أبسط وأكثر قربًا منا، وهو: هل يجب علينـــا أن نفترض أن الصُّواتيين البنيويين، قبل أربعين سنة، كانوا يحيلـــون إلـــى مـــا يسميه الصواتيون التوليديون وحداتٍ صواتية، مع أنهم يُنكرون ذلك بـــشكل حاسم ـــ وهم محقُّون فى ذلك؟ ومن المؤكد أن الصواتة البنيوية معقولة؛ وإذا أغفلنا افتراضَ وجودِ وحدات من النوع الذى كانت تفترضه، فيمكن أن يعاد تأويل جزء كبير من تلك النظرية في الوقت الحاضر، مع نقـــل كثيـــر مـــن نتائجها [إلى الصواتة التوليدية].

أما المطلوب في هذه الحالات كلها فدرجةٌ معينة من البنية المشتركة، وليس في أيٍ من هذه الحالات طريق مبدئي لتحديد القدْر المشترَك، أو القدر الواجب توفره من "التشابه في الاعتقاد" [بينها]، وربما يكون مفيدًا أن نلحَظ التشابهات وأن نعيد صياغة الأفكار في بعض الأحيان، وهذا غير ممكن في أحيان أخرى. ويصح الشيء نفسه عن آراء بور المبكرة والتالية. ولا يُشترط أكثرُ من هذا من أجل الحفاظ على كرامة المشروع العلمي، أو الفكرة المحترمة للتقدم نحو الفهم النظري.

ويعترض بتنام بأن التشابه البنيوي وحده "مختلف جدًا عن قولنا إن أيًا من النظريتين "تصف"، وإنْ كان وصفًا قاصرًا، سلوكَ الظواهر السرابية فوق الذهنية التي تحيل إليها بأنها 'ألكترونات'" ـــ أو 'ماء خفيف'، أو 'ذرات' أو 'جزيئات'، أو 'أحماض وقواعد'، أو 'صوتيات'، إلخ. وهذا صحيح، لكنه غير مهم هنا؛ إذ يجب علينا، في الحالات كلها، ومنها النظريات الحالية، أن نضيف أي شيء يميِّز النظريات عن العالَم عن قصص الخيال العلمي. فنحن نأخذ هذه النظريات على أنها تصف الظواهر فوق الذهنية، وإن كان وصفًا قاصرا، سواء أكانت تتصل بأبولو والشمس، أم بالنكات الأربع عند جالين والذرات عند ديموكريتس؛ أم بالأنابيب ذات الأرواح الحيوانية عند ديكارت،. . . ، وهكذا حتى نصل إلى المحاولات التي يقام بها في الوقت الحاضر. فليس هناك سبب مقنع، في أي من هذه الحالات، لأن نتبنّى نظريةً "للإحالة الحقيقية" من النوع الذي يؤسَّس على الحجج الخارجية من هذا النوع.

وإذا تركنا هذه الاعتبارات جانبًا فليس للنقاش عن "الإحالة" في العلوم صلةٌ خاصة باللغة البشرية والفهم البديهي، إلا إن أضفنا الفرضيةَ الأخرى التي تقول إن كلمات مثل "ألكترون" و"قاعدة" و eigenvector و"صوتية"، إلخ، تنتمي إلى اللغة الإنجليزية واللغات الطبيعية الأخرى، وربما يكون ذلك بصحبة التعبيرات التي تَظهر فيها، والصيغ والرسوم البيانية وغيرها.

ويفترض بتنام أن المعجم متجانس بهذا المعنى. لهذا يحاجُّ، في دفاعه عن شبكية المعنى، أن نظرية المعنى يجب أن تتعامل مع "أصعب الحالات"؛ ويعطي مثالاً لذلك [المصطلح الفيزيائي] momentum "زخم"، الذي كان يُعرّف في القديم بطريقة يُنظر إليها الآن على أنها تعبّر عن الزيف. وبغض النظر عن الطريقة التي تؤوّله بها فلا صلة له بالبحث في اللغة، إلا إن افترضنا أن momentum بمعناه عند عالم الفيزياء يدخل المعجمَ عن طريق آليات الملكة اللغوية نفسها التي تسمح لطفلٍ أن يلتقط كلمات مثل "بيت" و"يقوم"، وأن له خصائص المداخل المعجمية التي تحدّدها الملكةُ اللغوية. ويبدو هذا أمرًا مشكوكًا فيه، في الأقل.

وبتنام محقٌّ في قوله إنني "أوافق على أن هناك علاقة كـ "الإحالة"" بالمعنى التقني، أو أن ذلك محتمل في الأقل، لكنه لم يفهم ما عنيته: وهو أنَّ من المعقول الافتراضَ بأن البحث العلمي الطبيعي يهدف إلى صياغة أنظمة رمزية يُقصد ببعض التعبيرات اللغوية المحدّدة فيها أن تسمي بعضَ الأشياء في الكون[٢]. ومع هذا فليس هناك سبب للاعتقاد بأن مثل هذه المساعي يمكن أن تعلّمنا شيئًا مهمًّا عن اللغة العادية والفهم البديهي. ويبدو لي أمرًا مفاجئًا أن ينساق بتنام لاتخاذ هذا الموقف، مع نقده البليغ لـ"النزعة العِلْماوية" scientism.

وإذا نحّينا المعنى جانبًا، فهل يُحدَّد محتوى الفكرِ بعواملَ خارجية؟ وليس بإمكاننا أن نسأل بصورة معقولة مثلَ هذه الأسئلة عن "المضمون"، سواء أكان ضيقًا أم واسعًا؛ ذلك أنهما – مرة أخرى – فكرتان تقنيتان. لكن بإمكاننا أن نسأل عن إن كان من الممكن أن نعزو أفكارًا للناس بناء على أسس لا تتوافق مع حالاتهم الداخلية. أما أننا نقوم بذلك فواضحٌ من غير حاجة لأمثلة غريبة. فإذا أخبرني جونز أنه في حدادٍ على أولئك الذين قضوا نحبهم في الخنادق في فيردون Verdun قبل خمسينَ سنة فربما أستطيع القول إنه يتحدث فعلاً عن الحرب العالمية الأولى (أو يفكّر بها)، لا الثانية؛ أو إنه،

من وجه آخر، مخطئ بشأن الحرب العالمية الثانية، التي يتحدث عنهـا (أو يفكر بها). فأنا أعزو إليه، في الحالة الأولى، حالةً ليست داخلية؛ ويقوم هـذا العزو على اعتقاداتي أنا، لا اعتقاداته هو. وليس هناك سؤال حقيقي عن إن كان علم النفس يتعامل مع حالة جونز كما حُدّدت في هذه الحالة أم لا. فهـو سؤال، مرة أخرى، يتعلق بالقرار؛ فهو يتعلق، في هذه الحالة، بمصطلح "علم النفس" التقني المصطنع. وبالمثل، فإذا صوّر تولستوي أنا كارنينـا تـشبيهًا بامرأة حقيقية، فربما كان يفكّر بها، أو يتكلم عنها، أو يعتقد شيئًا بشأنها، إلخ، وكذلك بعض قرائه العارفين؛ أما في حالة سميث، الذي لا يَعرف شيئًا عـن هذا، فيمكن أن أُقرر أنا [ما يفكر به] بطريقة أو أخـرى، تبعًـا لاخـتلاف الظروف. وبغض النظر عن النتيجة فإننا لا نتعلّمنا شـيئًا عـن الموضـوع "الحقيقي" الذي يهتم به علم النفس، مع أنه يمكـن أن تكـون هـذه الأمـور موضوعاتٍ معقولة للبحث الداخلي عن الكيفية التي يتحدث الناس بها عـن الكون، وهو البحث الذي يسعى لكشف الحالات الداخلية التي تقود الناس إلى وصف الآخرين بطرق مختلفة، حين يؤولون الظروف بأشكال مختلفة.

وفي هذا السياق أيضًا، تبدو التجاربُ الذهنية التي تصمَّم لتأييد النتائج المضادة للمقاربة الداخلية مؤسَّسةً على افتراضات مشكوك فيها غالبا. خـذ مثلاً مثالَ "الجرادة ـــ الصرصار" الذي صاغته لين ردر بيكر، وسأبـسّطه قليلاً (Baker 1988). افرض أن جونز يتكلم اللغـة الإنجليزيـة العاديـة، وسميث كذلك، إلا أن الصراصير تسمى "جرادًا" في المجموعة اللغوية التـي ينتمي إليها سميث. ثم افرض أن "ج" تعلّم لغته من جونز وتعلم "س" لغته من سميث، وتعلّما كلمة "جراد" من الصُور نفسها، وهي صور ملتبسة بين الجراد والصراصير، بالإضافة إلى "معلومات تتعلق صدقةً بـالجراد والـصراصير معا". ولاختلاف مقاصد المعلّمِيْن اللذين علّما ["ج"، و"س"] فقد استنتج بيكـر أنه "يبدو من الواضح" أن "ج" "اكتسب اعتقـادًا أن الجـراد خطـر وأن "س" اكتسب اعتقاد أن الصراصير خطرة" (Baker 1987: 121)، مع أن "ج" و"س" في الحالة الداخلية نفسها.

وبناء على هذه المسلّمات سيعمّم "ج" و"س" بالطريقة نفسها، وهو ما ينتج عنه أنه إذا قدّمت لهما جرادة لا لبْس فيها فسيسميها كلاهما "جرادة"، مع أن "س" سيكون مخطئًا لأن اعتقاداته التي يعبّر عنها تتصل بـ"الصراصير"، لا بالجراد. افرض أن "س" هاجر إلى جزيرة يتكلم سكانُها لغة لا صلة لها بلغته، ثم تعلّمتْ ذريتُه لغتَه تحديدا، ثم اختفت سجلاتُ لغته والكلماتُ النظيرة فيها كلها، بصورة نهائية؛ والأمرُ نفسُه مع "ج". وينتج عن هذا أنه لا يمكن التمييز الآن بين ذرية "ج" وذرية "س" من حيث لغتهم واستخدامها، كما لا يمكن بعث التاريخ وهو ما يعني أنه لن يكون باستطاعتهم أن يتعلموا لغتهم بطريقة أخرى. ومع هذا، يجب أن يكون من الواضح أن لديهم اعتقادات مختلفة، وأن ذرية "س" يرتكبون أخطاء كثيرة في استعمالهم كلمة "جرادة"، إذ إنهم يتكلمون دائمًا عن الصراصير ويفكرون بها. ومن المحتمل أن نكون نحن، حقيقةً، من نوع منحدر من ذرية "س" حيث اكتَسب أجدادُنا في غَبشة ما قبل التاريخ الكلمةَ التي أصبحت "جرادة" تحت الشروط التي تنطبق على "س"، حيث كان معلمُ أولئك الأجداد يقصد أن يحيل إلى نوع مختلف "ص"، لذلك فالاعتقادات التي نعبّر عنها حين نستعمل "جرادة" هي في الحقيقة عن "ص"، وهي اعتقادات خاطئة غالبا.

ولا يبدو شيء من هذا واضحًا لي، حتى الخطوة الأولى منه. لكن ليس من الواضح كذلك السببُ الذي يجعل الأمرَ مهمًا. افرض أننا قبلنا حدوس بيكر. فما الذي يمكن أن يقوله هذا لنا عن اللغة والاعتقاد والفكر؟ إن أقصى ما يمكن أن يقوله لنا إننا ربما نعزو أحيانًا بعضَ الاعتقادات (وغيرها) إلى "ص" في ضوء اعتقادات أناس آخرين وحدوسهم؛ لكن ذلك واضح من الحالات العادية البسيطة. ومرة أخرى، فالبحث في الطرق التي نعزو بها الاعتقادات تبعًا لاختلاف الظروف موضوع مشروع لعلم الدلالة اللغوي والعلم الإثني، لكنّ دراسةَ الكيفية التي يحصّل بها الناسُ الحالاتِ الإدراكية والتفاعل وغير ذلك ستَسير بحسب مسارها المختلف.

ومن الحجج النموذجية للمقاربة الخارجية أنــه إنْ لــم يحــدّد العــالَمُ الخارجي مضمونَ الفكر عند شخصٍ ما، "فستكون الكيفيةُ التــي يمكــن أن تتوفر بها أفكارُ ذلك الشخص علانيةً لشخص آخر لغزًا محضا" (Bilgrami 1992: 4). ولا يحتاج علم النفس لهذه الفرضية؛ ذلك أننا لا نحتاج من أجــل تفسير الطريقة التي يَفهم بها سميث ما يقوله جونز أن نلجــأ إلــى بعــض الوحدات في العالم الخارجي التي تماثل التمثيلاتِ الصوتية في ذهني سميث وجونز (لنقل: بعض الأنواع من حركات الجزيئات التــي تــرتبط بالوحــدة التركيبية: "الصوت الشفتاني الوقفي")؛ ثم إنه لا حاجة للأشياء الخارجية فيما يخص المعاني والأفكار. ومن المؤكد أن هناك بعض الاحتمالات الأخــرى، وربما تكون صحيحة. لهذا ربما يَفترض سميث أن جونز يماثله تماما، مــع بعض الاختلافات، ثم يسعى إلى اكتشاف هذه الاختلافات، وربما تكون هــذه المهمة سهلة، أو صعبة، أو مستحيلة. ويَعزو سميث إلى جونز، بقــدر مــا يَنجح في ذلك، التعبيرَ الذي يصوغه دماغُه هو، ويشمل ذلك صوتَ التعبيــر ومعناه، أما التواصل فأمر تقريبي[٨]. ثم يسعى، باستخدام أنواع أخرى مــن المعلومات، إلى التأكد من أفكارِ جونز، وربما بطريقة مشابهة.

ومن المؤكد أنَّ هذا علمُ نفس، كما يُفترض ألا تَبرز هذه القــضايا إلا في علم النفس الشعبي، عند بيلجرامي على الأقل. لكن هذه النتائج لا تبــدو مؤسَّسةً بشكل أفضل هنا. فليس هناك سبب للاعتقاد بأن ماري تؤوِّل التفاعل بين سميث وجونز عن طريق افتراضها وحداتٍ "تتوفر بشكل علني" تعمــل على تثبيت الأفكار أو المعاني أو الأصوات. وليس واضحًا، إضافة إلى ذلك، احتمالُ أنه سيكون ببعض الغموض عن التواصل صلةٌ بعلم النفس الــشعبي، وهو الذي ليس بحاجة إلى أن يواجه مهمةَ حلِّ مثل هذه المشكلات، وهــو لا يقوم بذلك في الغالب.

وتمثِّل الأمثلةُ من نوع توءم الأرض أحد التوجُّهات فــي النظريــات الخارجية المتواضَع عليها عن اللغة والفكر. ويدخل في النوع الآخــر منهــا

الاحتكامُ إلى السُّلطة والخبراء ومعايير المجموعة اللغوية، إلخ. ويُحتج فـي هذه النظريات بأن المعاني ليست "في الرأس" لأنها تثبَّت بمثل هذه الطـرق. ويمكن أن تَسأل، مرة أخرى، أين يُصنَّف تصورُ المعنى الذى نناقشه. ومـن الجلى أنه ليس جزءًا من بحث علمى طبيعى ما عن اللغة واستخدامها، أو من البحث فى المدخل المعجمى لكلمتى "معنى" و"لغة" فى الإنجليزية. فهل هـو علم إثنى تأملى، أى دراسة لـ "تفسير نفسى بديهى للسلوك الإنسانى"، كمـا يَصف بيلجرامى (١٩٩٢: ٣) هذا المشروع مع رفضه لهذا النوع من الحجة (وهو رفض صحيح، كما أعتقد)؟ وربما يكون هذا هو المقصود، لكن النتائج تبدو متنوعة جدًا، إن كان الأمر كذلك، تبعًا لاختلاف الشروط، على الـرغم من أنه لم يتحقق قدر كبير من الوضوح.

ومهما كان موضوع البحث فهو يعتمد بصورة جوهريّة علـى فكـرة "اللغة العامة المشتركة" التى ظلت غامضة. فإذا كانت هذه الفكرة بـصورتها فى الخطاب العادى فهى غير مفيدة لأى شكل من أشكال التفسير التنظيرى. فمن المسلمات منذ زمن بعيد فى الدراسة الاختبارية للغة أنه ليس هناك شىء يمكن أن تعيِّنه كلمات كـ "الصينية"، أو "الألمانية"، أو ما هو أكثر تحديـدًا منها كذلك. ذلك أنَّ تحدُّثَ اللغة نفسها يُشبه "السَّكنَ قريبًا من" أو "التـشابه"؛ وهو ما يعنى أنه ليس هناك مقولات يجب تثبيتها. وعدمُ توفير اللغة العاديـة وسيلةً للإحالة إلى اللغة التى تتكلمها حفيدتى مقبولٌ فى الحياة العاديـة، أمـا البحث الاختبارى فيتطلب تصورًا مختلفا. فملكتُهـا اللغويـة، فـى البحـث الاختبارى، فى حالة ما وهى الحالة التى تُحدِّد "لغتَها" (أو ربما تكون "هـى" لغتها). وتؤسِّس الجماعاتُ والثقافات وأنماط الاحتكام فى حياة البشر بطـرق مختلفة كثيرة جدًا، مع عدم وجود علاقة خاصة لشىء من ذلك بمـا نـسميه "لغات" فى الخطاب غير المتخصص. وليس هناك إجابة مفيدة عن الـسؤال عن إن كان يجب على "بيرت" أن يحيل إلى الألم فى فخذه على أنه التهـاب مفاصل؛ أو إن كان يجب عليه استخدام كلمة disinterested "غير مبال" لتعنى

unbiased "غير متحيِّز"، كما يقول القاموس، أو uninterested "غير مهتمّ"، كما يعتقد متكلمو [الإنجليزية الأمريكية] جميعهم تقريبًا؛ أو إن كان يجب عليه أن ينطق الكلمات بالطريقة التي تُنطق بها في بوسطن أو لندن(٩).

وليس هناك طريقةٌ أبدا لإضفاء معنى على هذا التوجه في النظرية الخارجية للمعنى واللغة، كما يبدو لي، أو على أي بحث يُعالج نظريةَ المعنى وفلسفة اللغة اعتمادًا على مثل هذه الأفكار، وهو حكم قصدتُ به أن يُلخِّص شيئًا ربما يكون واسعا.

وباختصار، فمع أنه لا تترتب على المقاربة الطبيعية مقاربةً داخلية، فإنها لا تترك بديلاً واقعيًا [لها]، كما يبدو. وتُتبنى تلك المقاربة دائمًا، في البحث الاختباري الفعلي، حتى حين يُنكَر ذلك، وهو أمر سبق أن عالجتُه في مكان آخر؛ وكما هو معروف، فيلزم، كي نحدّد ما يفعله العلماء، أن ننظر إلى ممارساتهم، لا إلى ما يقولونه عنها.

وكما لحظتُ من قبل، لا تبرز قضيةُ مشروعيةِ الأبحاث التي تذهب وراء حدود المقاربة الداخلية. ويجب أن يكون هذا تحصيل حاصل. لهذا، فمن الأمور المفاجئة لي دائمًا أنْ أقرأ أني وآخرين ننكر هذا الأمر، ومن الأمثلة على ذلك أن أحد كتب المقدمات في اللسانيات الاجتماعية يَبتدئ بالزعم العجيب التالي: "من الأمور المسلَّمة في اللمانيات الحديثة عمومًا أنّه لا صلةَ بين الأنحاء والحياة الاجتماعية للمتكلمين" (Romaine 1994: vii)، وهذه فكرة تافهة، ولم يتبنَّها أحد، وهي التي أُرجعها المؤلفُ إلى إصراري على "أن قضايا القوة. . . ليست من القضايا التي يجب على اللسانيين تناولها" (ص ١) ـــ وهو ما يعني أنه ينبغي على ألا أشتغل بالنشاطات التي تستهلك جزءًا كبيرًا من وقتي وطاقتي، مثلا. وينتهي الكتاب بنتيجة تقول: "تُذكي الاختلافاتُ اللغوية أنواعَ عدم المساواة في القوة والمكانة وتُعمِّمها" (ص ٢٢٥) ـــ فهناك، مثلاً، لهجات ذاتُ مكانة أعلى ـــ وهو اكتشافٌ يُنظر إليه على أنه ينقض ما أنادي به من أن ما نفهمه في الوقت الحاضر عن

طبيعة اللغة لا يُسهم بشيء في توضيح دراسة مثل هذه الأمور.

وهناك مزاعم مماثلة كثيرة فيما يُنشر، وغالبًا ما تقدَّم مصحوبةً بكثير من الانفعال والسخط. ويبدو أنها تستند إلى اعتقاد كنتُ عبَّرت عنه بالفعل، وهو أنه ينبغي على الناس أن يقولوا الحقيقة. وينبغي عليهم، على الأخص، ألا يزعموا أنهم يمتلكون معرفةً دقيقة خاصة عن بعض نواحي الاهتمامات البشرية إلا إن كان ما يزعمونه صحيحا؛ وأنه يجب عليهم ألا يكتموا تلك المعرفة الخاصة، وهو أمر قلما يكون صعبا. أما الادعاءات المتفاخرة في مثل هذه الأمور فلا تعدو أن تكون وسيلة للتخويف والتهميش، وهي تُعزِّز "عدم المساواة في القوة والمكانة". يضاف إلى ذلك أنّ توضيح حدود الفهم بصورة جلية مسئوليةٌ جادة في ثقافة كثيرًا ما يعطي فيها للخبراء الأدعياء مكانةٌ لا يستحقونها. فإذا استطاع البحث في جوانب الاهتمامات البشرية الأساسية أن يستفيد من الاكتشافات الحقيقية عن اللغة والإبصار أو غير ذلك، فذاك أمر جيد وحسن، لكنه أمر يجب أن يبيَّن، لا أن يُـزعم. واللسانيات الاجتماعية بحثٌ مشروع تمامًا، لكنها بحث خارجي بالتعريف. وهي تستفيد من نتائج البحث الداخلي عن بني البشر، لكنها ليست بديلاً عنه كما يبدو، على حد ما أعلم. أما مدى كشف نتائجها لقضايا القوة والمكانة فسؤال آخر.

ولإيراد مثال آخر، فقد أوّل بتنام تعليقاتي (وهي بدائه، في الواقع) عن "اللغة العامة المشتركة" كأنها تعني أنه "إن لم نستطع تعريفَ الثقافات في ضوء فكرة "الجوهرانية" essentialistically"، فيَجب أن "ننفض أيدينا منها ونَعود إلى العمل الجاد الذي يتمثل في النمذجة الحاسوبية" (Putnam 1992: 385) ـــ ويبدو أنه يعني البحثَ العلمي الطبيعي في الملكة اللغوية التي ربما تُسهم النمذجةُ الحاسوبية فيها بشيء، وهو أمر لم أُوله يومًا اهتمامًا خاصًا. لكنْ لا يمكن التغلب على المشكلات التي يواجهها الاعتمادُ غير النقدي على هذه الفكرة باللجوء إلى "الثقافة" أو "المصطنعات الثقافية"؛ كما أن معرفةَ الحقائق البسيطة عن اللغة الصينية واللغة الإنجليزية، وغيرهما ـــ وعن عدم

صلة الثقافة بالأمور التى نناقشها هنا ــ لا توحى أبدًا بالنتيجة التى يستنتجها. ذلك أن الثقافات تخترق بطرق عدّة أى شىء يمكن أن يُطلق عليه "لغــات"، كما تترك "الدراساتُ الثقافية" هذه المشكلاتِ من غير حلّ.

ودعوى بتنام أن "اللغات والمعانى حقائقُ ثقافية" (ص ٣٨٥) صحيحة بمعنى واحد، وهذا ما يجعلنى (كالآخرين جميعا) أصف كيف يُفهَـم هـذان المصطلحان في الثقافات التى نتشارك فيها تقريبًا فـى ضـوء بنـى القـوة والسلطة، وأنماط المرجعية، والآثار الأدبية، والأعلام والتواريخ (الأسطورية غالبا)، إلخ. فتُستعمل مصطلحات كـ "لغة" بطرق مختلفة فى جماعات لغوية أخرى؛ كما لا توجد لبعض المصطلحات التي نستعملها مثل "اعتقـاد" belief و"معنى" meaning، إلخ، نظائر غالبًا [فى بعض الجماعات اللغوية الأخرى]. لكن هذه "الحقائق الثقافية" لا تُسهم في فهم كيفية اكتساب اللغــة، وفهمهـا، واستخدامها، وكيف تتكوّن وتتغير عبر الزمن، وكيـف تتـصل بالملكـات الأخرى للذهن والفعل البشرى عموما. ولا تستفيد الدراسة الاختبارية للغــة نفسها، ولا ما يسميه بتنام بــ "الدراسات الثقافية (كالتاريخ والأناسـة وعلـم الاجتماع وبعض فروع الفلسفة)" حين تتناول بصورة جادة، من مفهوم "اللغة المشتركة العامة" فى الاستخدام العادى، بغض النظر عن بعـض التعليقـات غير المتخصصة؛ وربما تكلّم المتخصصُ فى الأناسة، فى سياقات متنوعــة، عن الثقافة الصينية، أو الثقافة الصينية ــ اليابانية، أو الفضاء الثقافى لمنطقة شرق آسيا، أو عن ثقافة العلماء الذين يتكلمون لغات مختلفة تماما، أو ثقافــة سكان الأحياء الفقيرة فى نيويورك والقاهرة وريو، وغير ذلك بطرق عديـدة معقدة ليس لها علاقة مهمة باللغات المتكلمة، أو مـا يـسمى "لغــات" فــى الاستخدام العادى أو فى ثقافاتنا العالمة والثقافات الأخرى.

وهذه اللغات "مصطنعاتٌ ثقافية" غالبًا، بمعنى أكثر تحديدا: فهى "لغات نموذجية" مصطنعة جزئيًا وربما لا يتحدثها إلا عدد قليل مـن المتكلمـين، ويمكن أن تُخالف مبادئ اللغة كذلك. وتُحدَّد مـصطلحاتٌ كــ "المعـايير"

و"الاستخدام الصحيح" في ثقافات عديدة، في ضوء مثل هذه الظواهر، وهـي أمور ليس لها كثير من الأهمية في "الدراسات الثقافية"، وإن لم يكن لذلك من سبب إلا أنها واضحة جدًا. وهو ما يجعلها لا تهتم بدراسة جهـود المجمـع اللغوي الفرنسي إلا قليلاً، مثلا.

ونحن نقول، في الدراسات الثقافية، كما في الاستخدام العادي، وبشكل مفهوم جدًا، إن جون يتكلم اللغةَ نفسَها التي يتكلمها بيل، وهو يشبهه، ويَسكن قريبًا منه. لكنَّ هذا لا يَخدعنا فنعتقدَ أن العالم مقسّم إلى مناطق موضوعية أو أماكن، أو أن هناك شكلاً يَشترك فيه جون وبيل؛ أو لغة عامة يشتركان فيها. ولا تتمثل المشكلةُ في النسيج المفتوح أو غياب "الحدود الصارمة"، كما يَعتقد بتنام، بأكثر مما يكون في حالة "منطقـة" أو "فتـرة". والواقـع أن "اللغـات النموذجية" تُحدَّد تحديدًا صارمًا جدًا (كما يفعل المجمع اللغـوي الفرنـسي، مثلا). كما تُحدَّد حدود "اللغة"، في الاستخدامات الأخـرى كـذلك، تحديـدًا صارمًا إلى حد بعيد، بقدر ما تكون عليه هذه الأشياء، بوسائل كالألوان على الخرائط وما أشبه ذلك، لكنَّ الاستخدام العادي لا يقدّم أي مفهوم لـ "اللغـة العامة المشتركة" يمكن أن يقارب التوافق مع متطلبات البحث الاختبـاري أو التأمل الفلسفي الجاد عن اللغة واستخدامها، ولم يُقترح أي مفهوم أكثر كفاءة. كما لا توجد فجوة تفسيرية يمكن أن تُملأ باختراع مثل هذه الفكرة، على حد ما نعلم.

والنقطة الرئيسة في مقال [تشومسكي] الذي كان بتنام يعلّق عليـه أن "عددًا كبيرًا من الأسئلة، ومنها الأسئلة التي ربما يُنظر إليها على أنها مهمـة جدًّا للبشر، لا تقع ضمن البحث العلمي الطبيعي؛ لذلك نقاربها بطرق أخرى" (انظر الفصل الثاني في هذا الكتاب). وليس هناك مـا يُلـزِم [فـي مقـال تشومسكي المشار إليه]، أو في أي مكان آخر [مـن أبحـاث تشومـسكي]، بوجوب قصر اهتمامنا على "العمل الجاد في النمذجة الحاسوبية"، لكنه يجب علينا أن نقصُر أنفسنا على "العمل الجاد" فقط، مهما كان المجال.

والسؤال الآن: هل هناك مشكلة في المقاربات الداخلية (أو الفردية) للمجالات الأخرى التي يهتم بها علم النفس؟ وهذا ما يدّعيه كثير من الباحثين، لكنه ادعاء يقوم على أسباب مشكوك فيها، كما أظن. لنأخذ دراسة السمع، مثلاً. فأحدُ الأسئلة المزمنة السؤالُ عن الكيفية التي تحدّد بها القشرةُ السمعية المكانَ الذي ينطلق منه صوتٌ ما. فلا يبدو أن هناك "خارطة سمعية"، شبيهة بخارطة الإبصار وخارطة الإحساس الجسدي somatosensory. وتوحي دراسةٌ أُنجزتْ مؤخرًا أن القشرة السمعية تدرك مكانَ الصوت لا بالتنظيم المكاني للعصبونات، بل بنمط متزامن من إطلاق [الإشارات] بشكل يشبه "شفرةَ مورس" (Barinaga 1994). ويصاغ النقاش عن هذا الأمر بالمزيج المعهود من الخطاب التقني والعادي. ومن هنا ربما يَضِلُّ من يقرأ هذا النقاشَ فيَظن أن نظرية الإدراك الصوتي نظريةٌ خارجية، لأنها تشير بشكل جوهري إلى "حل مشكلات" يثيرها عالَمُ الأصوات الخارجي. لكن هذا لا يعدو أن يكون سرابا. ذلك أن النظام السمعي "لا يَحل مشكلات" بأي معنى تقني لهذا المصطلح، كما يمكن للباحثين، إن عَرفوا كيف يقومون بذلك، أن يختاروا حثَّ المستقبِلات receptors بشكل مباشر بدلاً من استخدام مكبرات الصوت – بصورة لا تبعد كثيرًا عما فعلوه في نموذج الحاسوب الذي وفَّر الدليلَ الرئيسَ، حقيقةً، لنظريتهم الخاصة بتحديد موضع الصوت، وهي التي ستَعمل بشكل جيد عن دماغٍ في إناء [أي عن دماغ في مختبَرٍ منزوعٍ من صاحبه]، كما تعمل عن بومةٍ تُدير رأسَها نحو فأر في أَجَمَة.

وتَنطبق الاعتباراتُ نفسُها على دراسة الإدراك الإبصاري في ضوء الطرق التي رادها ديفيد مار (David Marr 1982)، وهي التي تناقَش بكثافة في هذا المجال. فيَهتم هذا البحثُ بشكل يكاد يكون خالصًا بالعمليات التي تنفذها الشبكية أو، بشكل تقريبي، بتحويل خيالات الشبكية إلى القشرة الإبصارية. وتتصل المستويات الثلاثة المشهورة للتحليل التي اقترحها مار ــ أي المستوى الحوسبي والمستوى الخوارزمي والمستوى التنفيذي ــ بالطرق

التي تُفهم بها هذه التحويلات. ومرة أخرى، تنطبق النظريةُ على دماغ فـي إناء بالكيفية نفسها التي تنطبق بها على شخص يرى شيئًا في حالةِ حركـة. وقد دُرست الحالةُ الأخيرة بالفعل، في أبحـاث شـيمون أولمـان، الباحـث المشارك لمار (Shimon Ullman 1979). وتَستخدم دراساتُه لتحديد البنية من خلال الحركة الأمثلةَ التي تُقدَّم باستعمال التاكيستوسكوب tachistoscop التي تَجعل المجرِّبَ عليه يرى مكعبًا يتأرجح، مع أنه لا يوجد شيء كهذا في بيئة التجربة؛ ويُستعمل الفعل "يرى" هنا بمعناه المألوف، لا بكونه فعلاً إنجازيًـا. ولو كان بمقدور أولمان حثّ الشبكيةِ مباشرة لكان قد فعل، أو لَكان قد حـث العصب البصري، ويقول أولمان إن هذه الدراسة "تهتم بطبيعـة التمثـيلات الداخلية التي يَستعملها النظامُ الإبصاري وبالعمليات التي تُشتق بها". وهـذا تفسيرٌ داخلي خالص. فليس هناك سؤال ذو معنى عن "مضمون" التمثـيلات الداخلية عند شخص يرى مكعبًا تحت ظروف التجارب، أو عـن إن كانـت الشبكية تُحثُّ بمكعب متأرجح، أو بصورةٍ متحركة لمكعب يتأرجح؛ أو عـن مضمون "تمثيلٍ ضفدع لـ" ذبابة أو لنقطة تتحرك في الدراسات النموذجيـة لإبصار الضفادع، فليس هناك فكرة شبيهة بـ "مضمون" أو "تمثيل لـ" فـي النظرية، لذلك لا يُتوقّع أن توجد إجابات عن طبيعتهما. والشيء نفسه صحيح حين يقول مار إنه يدرس الإبصار بوصفه "عمليةَ تحويلٍ من تمثيل إلى تمثيل آخر، وأنه لا شك في وجود التمثيل الأول في حالة الإبصار البشري ـ فهو يتألف من حزمة من قيم كثافة الخيال كما تتتبَّعها المستقبلاتُ التصويرية في الشبكية" (Marr 1982: 31) ـ حيث ينبغي ألا يُفهم "التمثيل" بصورة علائقية، على أنه "تمثيلٌ لـ".

وتتحدثُ الأبحاثُ التقنية عن "إخفـاق" الخوارزميـات فـي بعـض الظروف، وعن إعطائها "الإجابةَ الصحيحة" في ظروف أخـرى ـ حيـث يُمكن أن تكون "الإجابةُ الصحيحة"، مثلاً، المدرك القوي ثلاثي الأبعاد الـذي تعطيه صورةٌ مجسَّمة لنقطة اعتباطية. وربما تتحـدث كـذلك عـن "خطـأ الإدراك" في حالة الشخص أو الضفدع في أثناء إجراء التجارب، مـع أنهـا

ربما لا تتحدث بهذه الكيفية حين يُفعّل مُدرِك مصوِّرٌ في إشارةِ مرور بكشّاف بدلاً من الشمس. كما تتحدث عن الدماغ بصفته "يحل مشكلات" وبصفته "متكيِّفًا مع الأوضاع العادية" حيث "يمثِّل" النظامُ الإبصاري فيها السمات الموضوعية للعالم الخارجي. وتتوافق هذه الاستخدامات [اللغوية] غير المتخصصة مع النقطة التي بدأ بها تايلور بيرج، وهي: "أن الافتراض القائل بأن تجربتنا الإدراكية تمثِّل الأشياء أو أنها عنها أو عن الخصائص، أو العلاقات التي تتصف بأنها 'موضوعية'" (Burge 1986c: 125) افتراضٌ عن تحديدٍ بطبيعة رائد "عصاة" يقول إن "مذنبًا" يصوب "بصورة" "مباشرة" نحو الأرض، موحيًا بأن المذنب يتصرف في ضوء فيزياء قصدية حية.

وتتحدث الدراسةُ الداخلية للغة كذلك عن "تمثيلات" من مختلف الأنواع، ومنها التمثيلات الصوتية والدلالية عند "المستويات الوجيهية" مع الأنظمة الأخرى. لكننا لا نحتاج هنا كذلك إلى الانشغال بالتفكير عن ما الذي يُمثَّل، ساعين إلى أن نكتشف تركيبات موضوعية من الأصوات أو الأشياء؛ فالتمثيلات وحدات ذهنية مفترَضة، وينبغي أن تُفهم بالطريقة التي تُفهم بها صورة ذهنية لمكعب يتأرجح، سواء أكان نتيجة لتمثيلات تاكيستوسكوبية أو كان تمثيلاً لمكعب متأرجح حقيقي، أو نتيجة لحثِّ الشبكية بطرق معينة أخرى؛ أو ربما تمثيلات متخيَّلة كذلك. وتدخل التمثيلات الداخلية للغة، حين تنفذ أنظمةُ الأداء إليها، في التأويل والفكر والفعل، لكن ليس هناك سبب يوجب السعي لاكتشاف أية علاقة أخرى لها بالعالم، كما يوحي بذلك أحدُ التقاليد الفلسفية المشهورة، وبعضُ القياسات غير الملائمة على الاستخدام اللغوي غير المتخصص. ولا يُثير خطأُ الإدراك صعوباتٍ لهذه المقاربة؛ فهو يتعلق بالكيفية التي يحدِّد الناسُ بها بعضَ التأويلات للتفاعلات التي يلاحظون — أي إلى ردود فعلِ ضفدع أو شخص في أثناء تجربة، أو مدرِك تصويري "مخدوع"، إلخ، وهذا موضوع مشروع للبحث الداخلي في نفسية الشخص

الذى يقرّر ماذا يمكن أن يسمى "خطأ الإدراك".

ولا يبدو أن لهذه النقاشات صلة كبيرة بعلم النفس والعلم الإثني. افرض أن جونز عضو في جماعة عادية ما، وأن "ج" لا يمكن تمييزه عنه إلا بأنّ تجربته كلها مشتقةٌ من تصميم تخييلي ما للحقيقة؛ أو افرض أن "ج" توءم لجونز فى عالَم توءم الأرض. وهما متماثلان من حيث التجربة التى مرا بها وسيتصرفان بطريقة واحدة (إن كان التنبؤ بالسلوك ممكنا ابتداء)؛ ويتماثلان فى الحالة الداخلية. ثم افرض أن "ج" حلّ مكانَ جونز فى الجماعة تلك، وهو أمر لا يَعرفه إلا العالِمُ الملاحِظ. ولأن أعضاء الجماعة ليسوا واعين بأى تغيير فسيتصرفون جميعًا بالطريقة التى كانوا يتصرفون بها فى السابق، فسيعاملون "ج" على أنه جونز؛ وسيستمر "ج" على الحال التى كان عليها. وسيصوغ العالِمُ الذى يسعى إلى اقتراح أفضلِ نظرية لكلّ هذا تفسيرًا فرديًا ضيقًا لجونز، و"ج"، وأفرادِ الجماعة الآخرين. ولا يستبعد هذا التفسير شيئا، ومن ذلك الطريقةُ التى يعزو بها أفرادُ الجماعة الحالاتِ الذهنية (أى: الاعتقادات والمعانى والمضامين الإدراكية، إلخ)، إن كانوا يفعلون ذلك.

هب أن أحد أفراد هذه الجماعة فيلسوفٌ يملك حدوسًا تماثل حدوس القائلين بالمقاربة الخارجية فى النقاش الذى أوردناه آنفا. وستعزو النظرية للفيلسوف [فى هذه الحالة] الحالةَ الداخلية التى تماثل هذه الحدوس. وستتنبأ الآن بصورة صحيحة أن الفيلسوف سيعزو إلى "ج"، حين يأخذ "ج" على أنه جونز، الحالاتِ الذهنية التى عزاها إلى جونز من قبل؛ وإذا كان واعيًا بالتبادل بين "ج" وجونز حين حدث، فسيَعزو حالاتٍ ذهنية مختلفة لـ"ج". ولأنى لا أشارك هذا الفيلسوف حدوسَه فلا أعرف الكيفيةَ التى ربما يعزو بها الحالاتِ الذهنية حين يعيش "ج" فى هذه الجماعة، أى فى عالَم من الأشياء "الموضوعية" (فهل صار "ج" يشارك جونز فى اعتقاداته؟). ومهما كانت الإجابة فستَصف النظريةُ حالاتِ الفيلسوف الداخلية بناء على ذلك، وإذا كنتَ من أفراد هذه الجماعة كذلك فستَعزو النظريةُ إلى حالةً داخلية مختلفة، لا

تتضمن إجابات نهائية عن عزو الاعتقادات والمعاني إلى "ج" (ولا تحوى شيئًا مهمًا عن المضامين، سواء كانت إدراكية أم لا؛ لأنني آخذ الابتكارات التقنية على أنها تعني ما يقول مبتكروها إنها تعنيه)، وتعطي أحكام مختلفة تبعًا لتنوع الظروف.

ويتعامل هذا التعليل مع جونز، و"ج"، وأفراد الجماعة الآخرين، وأناس آخرين يمتلكون حدوسًا متنوعة عن عزو الحالات الذهنية؛ وهو غير كامل لأن هذه الحدوس غير معروفة الآن، أما فيما عدا ذلك، فلا يبدو أن شيئًا مفقودًا منه، ويمكن توسيعُه ليشمل الاستخدامات [اللغوية] في اللغات والثقافات الأخرى، تبعًا لاختلافها. ويمكن تحويله ببساطة إلى نظرية غير فردية، وهي نظرية أكثر صعوبة ولا تُسهِم بفهم جديد. ولن تكون تلك الخطوة ملائمة للبحث العلمي الطبيعي، وليس من الواضح الهدف الآخر الذي يمكن أن يكون لها.

وينبغي أن يُفهم الكلام عن كون الأعضاء أو العضويات "تَحُلُّ مشكلات"، أو كونها متكيِّفة للوظائف التي تقوم بها، بالكيفية نفسها: أي أنه استعارة يُقصد بها الاختصار؛ فليس هناك سؤال عن إن كانت أجنحة الفراشة صممت لـ "حل مشكلة" الطيران أم لا؛ فقد تطورت على أنها منظِّمات للحرارة، وما تزال تخدم هذا الغرض. ولو حدث أن اكتشفنا أنها وصلت إلى حالتها الحاضرة قبل أن تُستخدم للطيران، فستظل لها الآن وظيفةُ الطيران وستُستخدم لذلك الغرض كذلك، وقد تكيَّف نظامُ الإبصار عند البشر بصورة ضعيفة للرؤية في الظلام، لكنه لا يمثِّل إخفاقًا، بسبب ذلك. والسلسلة الفقرية عند الفقريات الضخمة مصممة بشكلٍ هندسي سيئ، ويَعرف أكثر الناس هذا من تجاربهم الخاصة؛ لكن هذا لا يمثِّل نجاحًا أو إخفاقًا. ولا تصلح اللغات البشرية للاستخدام جزئيًا، لكن هذا لا يجعلها سيئةً جدًا؛ ذلك أن الناس يستعملون الأجزاء القابلة للاستخدام منها. وقد اكتُشف حديثًا جدًّا أنه في حين أن الحشرات تبدو متكيفة بشكل أخاذ مع أنواع محددة من النباتات المزهرة،

وقد أنجزت تنوّعَها الحاضر وبنيتها بشكل يكاد يكون كليًا قبل ملايين السنين من وجود النباتات المزهرة. ويلاحظ ريتشارد ليونتين أنــه حــين ظهــرت الحشرات "كان هناك عدد ضخم متنوّعٌ من الحلول تنتظر ظهورَ المــشكلات لتحلّها" وكان ذلك في سياق تأكيده أن هذه المقولات الحدسية لا معنى لها في علم الأحياء (Richard Lewontin 1990). فمن القراءة الخاطئة للنقاش غيــر المتخصص، إذن، أنْ يُستنتج أن نظريةَ مار عن الإبصار تَعــزو "حــالاتٍ قصدية تمثّل خصائصَ موضوعية فيزيائية" لأنه "ليس هناك طريــق آخــر للنظر إلى النظام الإبصاري كأنه يحل المشكلة التي ترى النظرية أنه يحلها" (Burge 1986a: 28-29). أما النظرية نفسها فلا تعيِّن مكانًا للتصورات التــي تدخل في التقديم غير المتخصص informal presentation، الذي يُقصد به أن يكون دافعًا عامًا. أما قول "إن الفكرة التي ترى أننا نصنّف ظواهريةَ الإدراك لدينا من غير أن نحدّد الخصائص الموضوعية التي توجبها بعيدةٌ جدًّا عــن النظريات الاختبارية الفعلية للإدراك وعن البديهة كذلك" (ص ٣٨) فصحيح عن البديهة في بعض الظروف، لكنه مضلِّل فيما يخص النظريات الاختبارية عن الإدراك، التي تهتم بالكيفية التي تَعمل بها الأشياءُ ولا تهــتم بالتقــارير الإدراكية والتصنيفات الحدسية إلا بوصفها دليلاً لــه صــلة بهــذا الأمــر وحسب[١٠]. (انظر أيضا Labandeira and Sepkoski 1993; Burge 1986a).

ويأخذ عالمُ الأحياء في الحسبان بشكل طبيعي، في دراسته لأي نظــام عضوي، التفاعلاتِ البيئية والقانونَ الفيزيائي الذي ربما أثّر في الطفــرات، ونجاحِ التكاثر، ومسارِ التطور. أما فيما يخص الدافعية والتوجيــه الحدســي فربما يتكلم عالمُ الأحياء عن الأنظمة بوصفها "تطورت لحل بعض المشكلات المعينة التي فرضتْها البيئةُ عليها"، حيث "تُحدِث الأنواعُ [الأحيائية] المختلفة مشكلاتٍ مختلفة وتَحلُّها بأشكال مختلفة" (Burge 1986a: 28). لكن هذا حديث عام غيرُ متخصص، ولو اكتُشف أن مسار العملية التطورية لم يكــن علــى الصورة التي يُظن أنه عليها، كما في حال الحشرات والأزهار، فلا يترتــب

على هذا تعديلٌ للنظرية الفعلية للتحليل الإحساسي والأنظمة الأخرى، بما يصحب ذلك من أنواع مختلفة من العزو والتفريد، وبعض الأوصاف المعنِّلة للمضمون القصدي، والأخطاء، والوظائف، والأهداف، والمشكلات التي حُلت، إلخ. افرض، بالمثل، أنه اكتُشف أن أسلافنا صُمموا في معمل خارج الأرض ثم أرسلوا إليها بمركبة فضائية قبل ثلاثين ألف سنة، وهو ما يعني أنه لم يكن لمبدأ الانتقاء الطبيعي دور في تكوين الكلْية، أو النظام الإبصاري، أو القدرة الحسابية، أو أي شيء آخر. ولن ينتج عن هذا تعديلٌ للأقسام التقنية الخاصة بالكلْية في كتب المقدمات العامة لعلم وظائف الأعضاء، ولن تعدل كذلك النظريةُ الفعلية للوظائف التي تَحوسبها الشبكيةُ أو المظاهرُ الأخرى للنظام الإبصاري عند البشر أو الأنظمة الأخرى.

ولا يَكتسب نقدُ المقاربة الداخلية (الفردية) مزيدًا من القوة من الملاحظة التي مفادها أنّ العمليات الداخلية، في البيئات العادية، ترتبط بصورة دقيقة بالخصائص الحدْثِيّة (كحدود الأشياء، إلخ). ذاك أن هذه العمليات ترتبط في بيئات أخرى بخصائص مختلفة، وربما تكون هذه خصائصَ حديثة أو حتًا مباشرًا للشبكية (أو حتًا داخليًا أكثر عمقًا لها). ويمكننا أن نقول، إن أحببنا، إنه "إذا لم تَرضَ القيودُ التي تُمكِّن في العادة عضويةً معينة من حوسبة وظيفة إدراكية ما، فستخفق [العضوية] في تمثيل بيئتها" (Egan ، د. ت)؛ لكن ذلك "الإخفاق" هو الوسيلة التي نستخدمها لوصف بعض الغايات البشرية التي نفرضها لأسباب لا علاقة لها بالبحث العلمي الطبيعي، وهو ما يشبه حالةَ إخفاق مذنّب في الاصطدام بكوكب المشتري، كما كنا نأمل. وليس مهمًا أن تسمح لنا اعتباراتُ "التمثيل" في البيئات العادية بالربط بين النظام الذي نعمل بتحليله ووظيفة الإبصار الإدراكية التي وُصفت بطريقة غير متخصصة. فليس من أهداف العلم أن يتوافق مع المقولات الحدسية، أو أن تقرِّر إن كان ما يزال "بَصَرًا" في بيئات غير عادية، أو إنْ كانت بعضُ أجزاء الدماغ التي تُستخدم عادةً لأغراض

أخرى تقوم بتحليل بعض الصور الإبصارية، كما تفعل ذلك أحيانـــا. وتبـــدأ دراسة الإدراك بصورة طبيعية ببعض "المهام الإدراكية" التي تقدَّم بـــصورة غير متخصصة، لكنها لا تُعنى إلا قليلاً بما إن كان شيء شبيه بهذه المهـــام يُكتشف في أثناء عملها.

ويستفيد نقاشُ العمليات التطورية غيرُ المتخصص من عبارات مثـــل "حل المشكلات"، لكن يجب ألا يؤخذ هذا، مرة أخرى، بشكل جاد جدًا. ذلـــك أن القانون الطبيعي يوفِّر قنواتٍ ضيقة يمكن فيهـــا أن تتنـــوع العـــضويات المعقدة، ولا شك أن مبدأ الانتقاء الطبيعي عامل من العوامـــل التـــي تحـــدِّد توزيعَ الصفات والخصائص داخل هذه القيود، لكنه "أحد" العوامل، لا العاملَ [الوحيد]، إن اتبعنا، في الأقل، القيودَ المعقولة التي اقترحها داروين. فينفـــي داروين بشكل حاسم، لخوفه من الخطأ في تأويل أفكاره، أنه عزا "التعديلات التي تَحدث للأنواع إلى مبدأ الانتقاء الطبيعي وحده"، حيث يؤكد فـــي آخـــر طبعات كتابه "أصل الأنواع": "أني وضعت في الطبعة الأولى لهذا الكتـــاب، وفي الطبعات اللاحقة، وفي أكثر المواضع وضوحًا — أي قريبًا من نهايـــة المقدمة — الكلمات التالية: 'إني على يقين أن الانتقاء الطبيعي كان وما يزال الوسيلةَ الرئيسة للتعديل، لكنه لم يكن الوسيلة الوحيدة'. لكنَّ أحدًا لـــم يأبـــه بهذا. فما أعظم قوة استمرار الخطأ في تمثيل [الأفكار]". (كمـــا أورد ذلـــك Gould 1982: 45). وأشار داروين بشكل لا لبس فيه إلى مدى واســـع مـــن الاحتمالات، ومنها تعديلات لم تكن نتيجة للتكيُّف ووظائف لـــم تُنتَـــق ولـــم تحدِّدها البنية.

ولا يمكننا أن نقدِّر بشكل معقول الوزنَ الذي سيعطى للانتقاء الطبيعي بوصفه آلية للتطور في الوقت الذي يتزايد فيه ما نتعلمه عن الأنظمة المعقدة، والطريقة التي يعمل بها القانون الفيزيائي، والعواملِ التي تعمل في التنظـــيم الذاتي في الأنظمة الحية والأنظمة الطبيعية الأخرى، إلخ (انظـــر Waldrop 1990; Bradley 1994)[١١]. ولا تؤثِّر مثل هذه الاعتبارات على المكانة التي

تتمتع بها المقاربات الداخلية، سواء كنّا نفكّر في النمل أو الكلّيـة أو اللغـة والذهن.

ويدخل في أي مظهر من مظاهر دراسة اللغة والذهن تقريبًا افتراضاتٌ غيرُ مسوّغة لا تنتمي إلى البحث العلمي الطبيعي، كما يبدو. (للاطلاع على نقاش مفصّل، انظر الفصل الرابع). وإذا كان هـذا النقـاش علـى جـادة الصواب، فربما نرغب في أن نسأل عن السبب الذي يجعل مثل تلك الأفكار تبدو مقنعة جدًا. وربما تكمن الإجابة عن ذلك في أن الصورة البديهية التـي لدينا عن العالم ثنائية بشكل عميق، لا يمكن نقضُه، وتُشبه تمامًا عدمَ قـدرتنا على ألا نرى غروب الشمس، أو مشاركةَ نيوتن في اعتقاده بــــ "الفلـسفة الآلية" التي زعزعها هو نفسُه، أو النظر إلى الموجة التي "تهرب من المكان الذي خُلقت فيه"، بعبارة ليوناردو، باستقلال عما يمكن أن نَعرفه في زاويـة أخرى من زوايا عقولنا. وإذا كان الأمر كذلك، وإذا كانت الثنائية الغيبية قـد زُعزعت، فلم يبق إلا نوع من الثنائية المنهجية، وهي بقيةٌ غير مشروعة من البديهة، يجب ألا يُسمح لها بتنغيص الجهود التي تَبغيا فهْم النوع الذي ننتمي إليه من المخلوقات.

هوامش الفصل السادس

(١) وليس واضحًا تمامًا إن كان بتنام وديفيدسون يختلفان؛ ذلك أن بتنام لا يبيّن ما يقصده بـــ "لغة" أما ديفيدسون فيفصّل فكرة مــصوغة علـى نموذج اللغة الصورية وهي تختلف بالتأكيد عن فكرة بتنام؛ ويبدو كأن النتيجة التي انتهى إليها ديفيدسون تنفي أي شيء مقصود. وربما تنفي اللسانيات الداخلية أيضًا إلا إنْ فهمنا مصطلحَ "الناس" على أنه يــشمل ملكاتهم، وحالاتهم، إلخ.

(٢) يصف بيرج هنا ما يأخذه على أنه "علم النفس كما هو"، لكن الـسياق يوحي أنه يعني أكثر من ذلك. انظر عن هذه الفرضية ما يأتي في هذا الفصل.

(٣) التداعي priming . يُفترض أن التصورات التي تكون علـى علاقـة بعضها ببعض تترابط في شبكة عقلية ما. لذلك، فإذا أثير تصورٌ مـا فإن التصورات المربوطة به تثار كذلك (المترجم).

(٤) وتكمن هذه البواعث وراء بحث بتنام المهم (١٩٧٥)، كما يكرر ذلـك في بحثه الآخر (١٩٩٢).

(٥) وقد حذفتُ من قوله هذا هامشا. ويبدو الحكمُ المتعلق بفراغ الفكر قويًا جدًا، لكنْ دعنا نتجاهل هذه المسألة.

(٦) وهذا مصطلح مشكوك فيه؛ إذ يبدو أن بتنام قد تخلى عــن المتطلّــب الضمني الذي مفاده أن "الخبراء" الذين نحتكم إلى آرائهم يتحدثون اللغة التي نتكلمها؛ لذلك يختفي المظهر الاجتماعي، وهو مـــا يعيــدنا إلـــى اعتبارات "الجوهر نفسه".

(٧) ومما ليس له صلة هنا، أن هذا ربما يوجب لزومَ إدخال الفكرة التقنيــة لـــ "الإحالة" في دراسة تركيب التمثيلات الذهنية، بـــصورة لا تبعــد كثيرًا عن إدخال العلاقات التي تقوم بين السمات الصوتية في الصواتة.

(٨) ولا يترتب على هذا أنّ "التشابه فى المعنى عندنا إنما يعنى، إن عَنَى شيئا، أننا نتواصل بنجاح" (كما يقول كوين، نقلاً عن دريبان Dreban 1992: 305). وبالمثل، فلا يعني التشابة فى الصوت أننا نتواصل بنجاح. ذلك أن هناك، فى الحالتين كلتيهما، الكثير مما يمكن أن يقال عن ماهية "التشابه" فى ضوء الخصائص المشتركة للغة والذهن، حين نتخلى عن قيود كوين السلوكية المضادة للمقاربة الداخلية.

(٩) وينبغى أن تميَّز هذه الملحوظات، المألوفة فى دراسة اللغة، عن النتيجة التى انتهى إليها ديفيدسون وهى أنه "ليس هناك شيء يمكن أن يؤخذ على أنه لغة" بالمعنى الذى يفترضه "الفلاسفة واللسانيون" عموما، و"ليس هناك شيء لنتعلمه، أو نجيده، أو نولَد به" (Davidson 1986b: 446). ومع هذا فلدى ديفيدسون فكرة مختلفة جدًا "للغة"؛ ومع أنه محقٌ، بالتأكيد، فى ظنه أنه "ليس هناك شيء مثل هذا"، إلا أن حجته التى يعزز بها تلك النتيجة أو يعزز بها أفكاره عن الدراسة الاختبارية للغة ليست قوية. فهو محق فى ملاحظته أن التأملات كلها تستعمل، فى أثناء التواصل الفعلى، فى "النظرية العابرة"، وهى خصيصة نفسية محددة. لكن لا يترتب على هذا أنه لا فائدة لـ "تصور لغة ما" لـ"آلة تأويلية محمولة مصممة لاعتصار المعنى الموجود فى قول اعتباطى"، إلخ (Davidson 1986b: 445). وربما كان هذا شبيهًا بالاحتجاج على عدم وجود تيار نفاث، نتيجة للعناصر الفوضوية فى أنماط الطقس. للاطلاع على بعض التعليقات، انظر الفصل الثانى فى هذا الكتاب.

(١٠) والنقاش الذى تتضمنه الأبحاث عن "ما عناه مار" غريب شيئًا ما؛ ذلك أن المهم هو ما يَعمله العالِم، لا ما يمكن أن يكون فى ذهنه. للاطلاع على ما يبدو لى أنه تفسير كافٍ للنظرية الفعلية لمار، انظر Egan (د. ت).

(١١) والاقتراحات التى أوردها برادلى (Bradley 1994) ما زالت مهدِّدة، لكن المشكلة ظلت فى تفسير عدم التناظر البيِّن بين "الوفرة الجزيئية" للأحماض الأمينية و "د.ن.أ" عبر موضع الأعضاء وصفاتها.

الفصل السابع
البحث الداخلى

تَدلهمُ السماءُ فى الوقت الذى أكتب فيه الآن، ويُحـذِّر المـذياعُ مـن اقتراب عاصفة نحو [مدينة] بوسطن، ويُتوقع أن تصحبها أمطـار غزيـرة ورياح قوية ستؤدى إلى فيضان الأنهار والمناطق الساحلية، وإلى أضـرار بالأشجار والبيوت، وانقطاع الكهرباء. ويتحقق الخبرُ السابق، ولنـسمه "خ" (ولْنتظاهر بأنه قيل)، في وسيط خارجي ويَفهمه المتحدثُ والـسامع بطـرق متعددة. ونحن نقول، بشكل عام، إن لهذا القول صوتًا ومعنى. ويتـصل "خ" كذلك بالحالات الداخلية للمتحدث والسامعين، وهى التى تَدخل فـى الطـرق التى يؤولونه بها. ويَعتمد التواصلُ على التشابه بين هذه الحالات. وهذه هى الطرق التى تتعامل بها اللغةُ مع العالَم.

وقد دُرست هذه الموضوعات لآلاف السنين من زوايا نظـر كثيـرة، وهى محطُّ الاهتمام فى الحياة العادية كذلك، وتتعلق بها ممارسـات ثقافيـة ولغوية متنوعة، وتسمى هذه الممارسات أحيانًا بـ"البديهة" أو "العلم الشعبى". ومن الجلى أن دراسة هذه الموضوعات نفسها ليست دراسةً لهذه الممارسات. فلا تتقيّد علومُ الأرض بالأفكار والتوجهات التى يعبِّر عنها في "خ"، والشىء نفسه صحيح فى "علم الطبيعة البشرية" عند هيوم، الذى يسعى إلى اكتـشاف "المنابع والمبادئ السّرية التى تحفز الذهنَ البشرى فى تنفيذه للعمليات التـى يقوم بها" (Hume 1748/1975: 14, Section 9).

ومع أن القضايا واضحة بما يكفى فيما يخص علـوم الأرض، فإنّهـا أكثر التواء حينَ نوجِّه النظرَ إلى علم الطبيعة البشرية الذى يَعُدُّ مـن بـين اهتماماته البحثَ فى البديهة (التى يمكن أن نسميها بـ "العلم الإثنى"). إلا أن علم الطبيعة البشرية يسير فى مساره الخاص به. وربما يبدأ البحثُ بالأفكار

العادية لـــ "اللغة"، و"الصوت" و"المعنى"، و"الريح"، و"النهر"، إلخ، لكن مـــن غير أن نتوقع أن تكون قائدًا موثوقًا به وراء المستوى السطحي.

وأنا أُؤوِّل "علمَ الطبيعة البشرية" عند هيوم بأنه علمٌ فردي وداخلـــي. وهو بعيد جدًا عن الإحاطة بدراسة كيف يؤدي البشرُ وظائفهم في المجـــالين الاجتماعي والمادي. وتفترض الأبحاثُ الأكثرُ توسُّعًا، وإنْ ضمنيًا في الأقل، بعضَ الأفكار عن الحالات الداخلية التي تدخُل في الفكر والفعل، وعادةً مـــا تستعين بقدْرٍ ما يمكنها من الدراسة الداخلية لأنظمة الذهن/الدماغ، ويَنطلـــق التبادل في اتجاهات أخرى كذلك، كما هي الحال فـــي دراســـة العـــضويات الأخرى. وربما نجد أقرب المشابهات، في حالة اللغة البشرية، عند الحشرات (انظر Griffin 1994; Austad 1994). فستهتم دراسةُ بعض الخصائص كـــــ "الإحالة المُزاحة" في تواصل النحل بالنظر في الطبيعة (الداخليـــة) للنحـــل، وتنظيماتها الاجتماعية، وبيئتها المادية، وهي أبحاث يعزز بعضها بعضا.

وينبغي أن تُحلَّ التعارضات الظاهرية عن طريـــق الوضـــوح بـــشأن المشروع المُشتَغل به. خذْ، نقاشَ المضمونِ الواسع والمضمون الضيق، مثلاً، أو نقاشَ تحديدِ التمثيلات الذهنية، أو تفريد الفكر والاعتقاد. فنحن نسأل، إن كان البحث يقع في إطار العلم الإثني، عن كيف يفكِّر الناس وكيف يتحدثون عن مثل هذه الأمور ــ مع إدراكنا أنه لا يمكن إثارة هذا السؤال مباشرةً عن "المضمون" و"التمثيل الذهني"، اللذين يُستخدمان هنا بمعنيين تقنيـــين؛ وعـــن كون كلمتي thought "فكر" و belief "اعتقاد" كلمتين إنجليزيتين لا نظـــائر قريبة لهما حتى في اللغات الشبيهة بالإنجليزية، بغض النظر عن أهمية هـــذا (لبعض التعليقات، انظر Rhum 1993)؛ وأنه يجب ألا تُفهَم التعليلاتُ البديهية لما يَفعله الناسُ على أنها شكل من التعليل النظري. ونجد أنفسَنا هنا في مجالٍ لمّا يكتشف تقريبا. أما في علم الطبيعة البشرية فتَبرز أسئلةٌ مختلفة. فـــنحن نتقصى الإطارَ النظري الذي تصاغ في داخله أفكارٌ مثل "مضمون"، و"فكر" ثم نختبر كفايتَه الوصفية وقوّته التفسيرية. وليس مفاجئًا ألا تكـــون الأفكـــار

البديهية مفيدةً جدًا لنا [هنا]، وأنْ تبقى نتائجها ضئيلة.

لذلك ينبغي الحَذَرُ من إعطاء وزن كبير للكيفية التى "يتوسل بها علمُ المعرفة بمعنى التمثيلات الذهنية" للتعبير عن تعميمات تتعلق بالعمليات المعرفية والفعل، و"الاستعانة بها فى تفسير هذه التعميمات". وربما لا يكون التحولُ من "علم الدلالة اللسانية" إلى "علم الدلالة النفسية" انطلاقًا من أن "الأنواع الطبيعية النفسية" ربما تكون أكثرَ ملاءمة "فى تحقيق أهداف التفسير النفسى" (Lormand 1996: 52, 53) مهمًّا إلا بقدر المدى الذى يَصل إليه التفسيرُ النفسى. وهو يصل إلى مدى بعيد جدًّا فى بعض المجالات (كما فى حال الإدراك الإبصارى، مثلا)، لكنه قلما يَذهب بعيدًا فى دراسة السلوك.

ويُطلق مصطلحُ "علم المعرفة" cognitive science أحيانًا على الدراسة الاختبارية للقدرات المعرفية (كالإبصار، واللغة، والتعليل، إلخ؛ وهى مكوِّنات لعلم الطبيعة البشرية ربما لا تكوِّن تخصصًا موحَّدا)؛ ويُطلق فى أحيان أخرى على التأمل فى طبيعة الذهن. وربما يكون معقولاً، بالمعنى الثانى، أن نقول إنّ "الابتكار المنهجى الرئيس لديكارت، أى منهج الحجة الغيبية، صار منهجًا غالبًا، بل ربما المنهجَ الأغلب، فى علم المعرفة" (Brook 1994: 12)؛ لكنْ ليس بالمعنى الأول. وفى الحالتين كلتيهما فـ "القانون الأول لعدم وجود علم للمعرفة" عند جيرى فودر (Jerry Fodor 1987: 107) ذو صلة، لكنْ لأسباب مختلفة.

كما تأتى التعميمات النفسية بأشكال متعددة. انظر، مثلاً، إلى الاكتشافات عن "ما الذى يَعرفه الرُّضَّع": فهُم يَعرفون ما يكفى ليميِّزوا اللغة الأم من لغة أخرى بعد أيام من ولادتهم؛ ويُفرِّدون الأشياءَ المادية فى ضوء مآلها المشترك وخصائصَ أخرى معقدة بعد شهور قليلة؛ وكثير غير ذلك (انظر Mehler and Dupoux 1994; Spelke 1990). ويُحاول علمُ الطبيعة البشرية تعليلَ هذه الإنجازات فى ضوء الحالات الداخلية، مميِّزًا بين العوامل الداخلية والعوامل البيئية، صائغًا نظريةً تفسيرية فى أى مستوى ملائم. وما

لدينا هنا برامجُ بحث جوهرية تعنى بكائن عضوى أحيائى محدَّد، ولْنسم هذه الفصيلة من التعميمات بـــ "التعميم النفسي ١".

انظر الآن إلى "التعميم النفسي٢": فإذا رغب بيتر فـــي "س"، وكـــان يفكر بأن الحصول على "س" يُوجب عملَ "ص"، وهو قادر ببساطة على أن يَقوم بـــ "ص"، فسيَقوم كالعادة بـــ "ص". ويختلف "التعميم النفـــسي٢" عـــن "التعميم النفسي١" بطرق عدَّة. فهو يَزعم بأنه يفسِّرَ السلوك؛ أمـــا تعميمـــات "التعميم النفسي١" فلا، ومن السهل اكتشافُ المضمون الاختبارى لـــ "التعميم النفسي١"، بخلاف "التعميم النفسي٢" الذى يصحُّ عن أى كائن عضوى نختار وصْفَه بمثل هذه الطرق. ويقوِّم "التعميمُ النفسي٢"، بخلاف "التعميم النفسي١"، بالتأمل، لا بالبحث الاختبارى، ولا يؤسِّس لبرامجَ بحثية ــ إلا، ربما، البحثَ في الاستخدام العادى للمصطلحات العقلانية وتصوراتها. ويَـــدخل "التعمـــيمُ النفسي١" تحت علم الطبيعة البشرية، أما "التعميم النفسي٢" فدخوله فيه أقلُّ وضوحا. كما أن فكرةَ أنَّ "علم المعرفة" يحـــاول أن يعبِّـــر عـــن "التعمـــيم النفسي٢" ويفسِّره فكرةٌ غامضةٌ بالمثل، وهو ما ينطبق على الجهـــود التـــى تحاول تأسيس هذه "القوانين القصْدية" على الآليات الحوسبية أو آليات أخرى وتقصِّى تحققاتِها بها.

وتَدخل دراسةُ "التعميم النفسي١" ضمن فروع العلـــم الأخـــرى. وكمـــا أوصى الكيميائى البريطانى جوزيف بلاك فى القرن الثامن عشر: "دعنا ننظر إلى الانتماء الكيميائى على أنه مبدأ أوَّل، وهو الذى لا يمكننا تحليله إلا بقـــدر ما يستطيع نيوتن تحليلَ الجاذبية، ثم دعنا نؤجِّل تفسيرَ قوانين الانتماء إلى أنْ نؤسِّس رصيدًا من المبادئ يماثل ما أسَّسه عن قوانين الجاذبية" (كما أورد ذلك Schofield 1970: 226). وقد أُجِّل توحيدُ الكيمياء مع علم الفيزياء الأساســـى إلى القرن العشرين، فى حين مضَت الكيمياء فى جهودها لتؤسِّـــس رصـــيدًا غنيًّا من المبادئ، "ولم تُبْنَ نجاحاتُها على أى أساسٍ اختزالى لكنها أُنجـــزت بدلا من ذلك، بمعزل عن علـــم الفيزيـــاء الوليـــد" (Thackray 1970: 279).

وربما يكون مسارٌ مماثل معقولاً فيما يخص "التعميم النفسي ١"[١]. أما "التعميم النفسي ٢" فلا يوحي إلا بعدد محدود من الطرق للسير نحو تكوين رصيد من المبادئ، ومن ثَمَّ إلى التوحيد في نهاية الأمر.

الواقعية الذهنية والواقعية الفيزيائية:

ولمّا حقّقت الكيمياء "رصيدًا [كافيًا] من المبادئ" صار من الممكن أن يوصف ما صاغته بـ "فيزيائي" physical (وإن لم يفعل ذلك بعضُ العلماء البارزين)؛ بل صار ذلك أكثر ملاءمة بعد أن تغيّرت الفيزياء بما يكفي لتسمح بالتوحيد، متباعدةً بصورة أكثر جذريةً عن الأفكار البديهية عما يكون "فيزيائيًا" لكي "تحرّر نفسها" من "الصور الحدسية" و"تتخلى تمامًا عن إمكان تمثيلها ماديًا visualizability"، بعبارة هايتزبيرج (كما أوردها Holton 1996). وتنطبق هذه الدروس على المظاهر الذهنية للعالَم، ويشمل ذلك التمثيلات الذهنية والعمليات التي ربما يفترضها علمُ الطبيعة البشرية.

وأثارت الثنائيةُ الديكارتية بعض القضايا الجوهرية؛ فقد اقتُرِحَ تصورٌ آلي "للفيزيائي" وقُدّمت بعضُ الحجج على أن هذا التصور غير كامل. وقد اختفت تلك القضايا مع انهيار النزعة الآلية ــ وإن لم تندثر المشكلات التي كانت سببًا في إثارتها ــ ثم "عوّدنا أنفسنا على الفكرة التجريدية عن القوى، أو بدلاً من ذلك على فكرة تتقلّب في غموضٍ مُلْغِز بين التجريد والفهم الحسي"، كما يلخّص فريدريك لانج، في دراسته العلمية الكلاسيكية، "نقطة التحوّل" هذه في تاريخ النزعة المادية، التي سلبتْ هذا المذهب قدرًا كبيرًا من الأهمية (Friedrich Lange 1925: 308). وكان هيوم، قبلَ ذلك بقَرْن، أكثرَ تشاؤمًا حين أبان أنّ إسحق نيوتن بتبيينه "عدمَ كمال الفلسفة الآلية أعاد الأسرارَ القصوى للطبيعة إلى ذلك الغموض الذي ظلت تقبع فيه منذ الأزل وسوف تبقى فيه إلى الأبد" (Hume 1841 vol. 6: 34). وقادت الجهودُ التي سَعت إلى مكابدة البحث في عنصر الغموض الذي يسمى "ذهنيًا" بعضَ

الباحثين إلى استنتاج أنّ "التنظيم الذى صيغ به النظامُ العصبى نفسُه هو الذى يُشغِل، بصورة حرة فى حال الصحّة، خصائصَ" الذهن كلهـا (La Mettrie، كما أورده Wellman 1992: 147). لكن المشكلات التى أرّقت الديكارتيين لم تُناقَش قط، ولم يُطوَّر أى "رصيد مهمّ من المبادئ". (للاطلاع على نقاش لهذه القضايا، انظر Chomsky (1966); (1968) والأبحاث التى نشرت بعد ذلـك، ومنها (Chomsky (1995a؛ وانظر عن جهود نيوتن فيمـا يخـص المـسألة الأساسية Dobbs and Jacob 1995).

وبغضّ النظر عن الإطار الدينى لاقتراح جون لوك القاضى بـأن الله ربما اختار أن "يُضيف إلى المادة قدرةً على التفكير" مثلمـا "ألحـق الآثـار بالحركة، وهى التى لا يمكن بحال أن نتصور الحركة قادرةً على إنتاجها"، لم يُقترح، منذ نيوتن، بديلٌ معقول لهذا الاقتراح (John Locke 1975: book IV, Chapter 3, Section 6, P. 541)، وكما فصّل جوزيف بريستلى ذلك فيما بعد، مستخلصًا "النتيجةَ الواضحة للنقاش عن المـادة المفكّـرة" (Yolton 1983: Chapter 1, VI, especially p. 113)، فإننا نأخذ تلك الخصائص "التى سمّيت ذهنية"-على أنها ناتجة عن "بنية عضوية كبنية الدماغ" أضيفت إلى خصائص أخرى، وربما لا يمكن لأىّ منها أن يكون مفهومًا بالمعنى الذى سعى إليـه العلم المبكر. ذلك فى حين أخذت النزعةُ المادية الأوروبية مـسارًا مختلفـا يحتل المركزَ فيه "الزعمُ، الذى أُسس على قراءة معينة لفيزياء نيوتن، بـأن الحركة كامنة فى المادة، وأن الطبيعة كلها حية، وأن الروح والجسد شـىء واحد، وكلُّ شىء مادى، وأن ذلك كله جميعًا ينتمى إلى هـذا العـالم" (M. Jacob 1991: 200; Chomsky 1995a).

وبالتخلى عن فكرة "الفيزيائى"، التى لم يُقترح بديل آخر عنها قـط، لا نستطيع أن نذهب إلى أبعد من السؤال عن إن كانت المظاهر الذهنية للعالَم، أو مظاهره الأخرى، "يمكن دمجها فى إطار التفسير_الفيزيائى، كما يُتـصور فى الوقت الحاضر"، لأننا:

واثقون إلى حد بعيد أنه سيوجَد تفسيرٌ فيزيائي لهذه الظواهر، إن كان من الممكن تفسيرُها بحال، وذلك لسبب اصطلاحي غير مهمّ، وهو أنّ تصوُّر "التفسير الفيزيائي" سيُوسَّع، يقينًا، ليشمل أي شيء مما يُكتشف في هذا المجال، بالطريقة نفسها تمامًا التي استطاع بها ضمّ. . . عدد كبير من الوحدات والعمليات التي ربما كانت مضادّة للبديهة في الأجيال المبكرة (Chomsky 1968: 98).

وتحاول دراسةُ اللغة تنميةَ رصيد من المبادئ منطلّعةً إلى التوحيد في نهاية الأمر. ويمكن لنظرياتها ومبادئها أن "تسمى ذهنية" بشكل ملائم، وأن يُفترض أنها "ناتجة عن بنية عضوية" ـ أما كيفية ذلك، فتنتظر الاكتشاف. وليس هناك ما يمكن أن يقال أكثر من هذا عن هذه المظاهر للطريقة التي تتعامل بها اللغة مع العالم[٢].

الملكة اللغوية:

هناك ما يُسوّغ الاعتقاد بأن لدى البشر "عضوًا" مخصوصًا مقصورًا على استخدام اللغة وتأويلها، لنسمّه بـ"الملكة اللغوية". ويمكن أن نأخذ "الملكة اللغوية" على أنها مشتركة بين أفراد النوع، وتتخذ حالات تتنوع بطرق محدودة تبعًا لتنوع التجربة. وتسهم هذه الحالات، بتفاعلها مع أنظمة أخرى (معرفية، وإحساسية حركية)، في تحديد صوت التعبيرات اللغوية ومعناها. وربما لا تستطيع دراسةُ هذه الموضوعات تفسيرَ الأفكار البديهية عن الصوت والمعنى، والتماثل في المعنى، والتكرار، إلخ؛ وليس من الواضح كذلك إن كان يمكن عدُّ [هذه الأفكار البديهية] نظرياتٍ عن الصوت والمعنى، كالحال فيما يخص الحركة، والأنهار، والحياة، إلخ.

ولإيضاح هذه المسائل بصورة محسوسة، انظر إلى التعبيرات التالية في (١):

١ــ أ: John was (too) clever to catch.

"كان جون ذكيا (جدا) مما يجعل القبض عليه مستحيلا".

١ــ ب: John was (too) clever to be caught

"كان جون ذكيا (جدا) أن يُقبض عليه".

١ــ ج : John was (too) easy to catch

"كان جون سهلا (جدا) على القبض"

١ــ د: John was (too) easy to be caught

"كان جون سهلا (جدا) أن يقبض عليه"

فيعرف بيتر، حين تحصل ملكته اللغوية الحالةَ الملائمة، أنه باستخدام too تكون (١أ) و(١ب) صادقتين إن كان جون ذكيًا جدًا مما يجعل القبض عليه مستحيلا، وأنه بحذف too ستكون (١أ) "شاذة"، إذ تتطلب تأويلاً غير نموذجي (مع تأويل (١ب) بشكل مختلف). ويعرف كذلك أن (١ج) صادقة إن كان من السهل (جدًا) القبض على جون (الذى لم يكن "سهلا")؛ وأنه بوجود too أو عدم وجودها تخفق القياسات الواضحة فى حالة (١د)، وهى شاذة كذلك. وتسعى دراسة الملكة اللغوية لجمع هذه الملحوظات تحت التعميمات الأوسع لمقولة "التعميم النفسي١" وأن تكتشف المبادئ والبنى التى تقوم عليها. ومع أن عناصر الحالات الداخلية هذه لا تفسِّر سلوكَ بيتر فإنه ينبغى أن تسهم فى تفسير الطرق التى يفكِّر بها ويتصرف، بقدر ما يكون هناك تفسير ممكن. وهناك نظرية ناجحة إلى حدٍّ معقول تتناول هذه الحالات انطلاقًا من الافتراض بأنّ الملكة اللغوية نظام حوسبى ذو مبادئ غير متغيِّرة إلى حدٍّ بعيد. وبتبنينا لهذه النظرية مرحليًا نعزو إلى جون حالات ذهنية، وتمثيلات، وعمليات تتوافق معها (ولا يملك نفاذًا شعوريًا إليها)[٣].

افرض أنَّ ملكةَ بيتر اللغوية في الحالة "ل". ويمكننا عندها أن نقول إنه يمتلك (يتكلم، يفهم، . . .) اللغةَ "ل". ويُستخدم مصطلحُ "لغة" هنا بمعنى تقني، ولْنسمِّ "ل" "لغةَ ـــ د" ـــ حيث تـوحي "د" بأنها: داخلية، وفردية، ومفهومية كذلك، بمعنى أنَّ "ل" إجراءٌ محدَّدٌ يولِّد تعبيرات كثيرة غير نهائية في "ل". ويَدخل أحدُ مظاهر "اللغة ـــ د" عند بيتر، ولنسمِّه "تأويلَ بيتر للبيان الإذاعي"، في تحديد الكيفية التي ربما أوَّل بها بيتر البيانَ الإذاعي في الخبر "خ" الذي أوردناه آنفا. ويُشابه "تأويلُ بيتر للبيان الإذاعي" التعبيراتِ التي ولَّدها ذهنُ المذيع وعقولُ المستمعين الآخرين، إن كانوا يَفهمون البيان كما يَفهمه بيتر تقريبا. ويمكن أن نسمي فرعَ علم الطبيعة البشرية الذي يُعنى بالملكة اللغوية، والحالاتِ التي تتمثَّل بها، والتعبيراتِ التي تولِّدها "اللغاتُ ـــ د" بـــ "اللسانيات ـــ د".

وتمثِّل فكرةُ "اللغة ـــ د"، كما يبدو، أقربَ نقطة تصلها "اللسانيات ـــ د" من الأفكار البديهية المختلفة للغة. ومع أن [الأفكار البديهية] لا تمثِّل مشكلةً في الحياة العادية فإنها معقدة وغامضة. فتَعدُّ إحدى الدراسات الوصفية للاستخدام الإنجليزي العادي، وهي من أجود الدراسات الوصفية التي أعرفها لهذا الموضوع، اللغةَ "موضوعًا (قصديًّا) للاعتقاد (المشترك)، ويمكن دراستها بشكل استكشافي ملائم في إطار علم الاجتماع اللغوي" (Pateman 1987: 73)؛ مع أنه ربما لا تكون هذه الفكرةُ أكثرَ نفعًا للسانيات الاجتماعية، إذا تجاوزنا الظاهر من نفع العبارات في الخبر "خ" لعلوم الأرض، مثل مصطلح "المنطقة الساحلية"، مثلاً، الذي يشبه من حيث المكانة مصطلحَ "لغة"، باستثناء كونِ المصطلح الأخير أقلَّ تماثلاً مع ما يُطلق عليه، ويتصف بالتحوُّل، والارتباطِ القِيَمي المتعدد الأبعاد. وتُستخدَم المصطلحات العادية غالبًا بوصفها اختزالات، كما رأينا في مناقشة الخصائص العامة للغة الصينية مقابلَ الإيطالية (اللتين لا يتوفر لأي منهما نصيب كبير من الاعتقاد المشترك). كما أننا نقول إن بيتر يتكلم أو لا يتكلم اللغةَ نفسَها التي

أتكلمها أنا، أو يَسكن في المكان نفسه [الذي أسكن فيه] أو لا يسكن. لكن العالَم لا يتألف من مناطق أو لغات كهذه بأي معنى مهم لعلوم الأرض أو "اللسانيات ـــ د".

بل لا يعدو الحديث عن أن بيتر يمتلك "اللغة ـــ د" "ل" أن يكون تبسيطاً شديداً؛ ذلك أن حالة الملكة اللغوية عند أي فرد خليطٌ من الأنظمة التي ربما لا تؤدي إلى فهم نظري أكثر مما تؤدي إليه الظواهرُ المعقدة الأخرى في العالم الطبيعي. فنحن نقول عن بيتر إنه متعدد اللغات حين يَحدُث أن تكون الاختلافات بين اللغات التي يَعرفها مهمةً لنا لسبب أو لآخر، ومن جهة أخرى، فكلُّ متكلمٍ متعددُ اللغات بشكل متعدد.

ويسمى امتلاكُ لغةٍ معينة، في اللغة الإنجليزية، "معرفةَ لغة"، وهو ما أدى إلى بعض المحاولاتِ لفرضِ تصورات متعددة من تصورات طبيعة المعرفة، ولتحديد ما الوحدة التي يكون بيتر على علاقة معرفية معها حين يمتلك "ل". ولأسباب ناقشتُها في غير هذا المكان، أظن أن هذه المسائل كانت ضحية لسوء في التصور، مع أن بعض المسائل الأخرى تَستحق الاستقصاء. لهذا فحين يمتلك بيتر "ل" فهو يَعرف أشياء كثيرة، ومنها، مثلاً: أنَّ كلمة chase "يطرد" تَسجع مع lase "الخيط الذي تربط به الحذاء"، وتَقتضي follow "يتبع". وتفصيل هذه المسائل كلِّها مشروع مهم يستحق الاستقصاء؛ وهناك مسائل أخرى تتعلق بطبيعة معرفة "س" عموماً، والمضمون المعرفي لمعرفة الكيفية، وعلاقاتِ المعرفة بالقدرة، إلخ. (للاطلاع على مناقشة هذه القضايا انظر Chomsky 1975; 1986).

وتُبنَى تعبيراتُ "ل" من وحدات معجمية يتألف كلٌّ منها من مجموع من الخصائص؛ وتمثل الكلماتُ البسيطة في الخبر "خ" أقرب مثال لذلك. ونحن نتكلم بصورة عامة عن صوت كلمة معينة ومعناها، أي الطريقة التي تُنطق بها، والمعنى الذي تؤديه. وتَحيل أقربُ صياغةٍ بديلة في إطار "اللسانيات ـــ د" إلى خصائص في وحدةٍ معجمية معينة تتصل بالصوت والمعنى، أي:

سماتها الصواتية والدلالية (ولنسمها بـ "الصوت ـ د" و"المعنى ـ د" لهما، على الترتيب). وتتألف الوحدة المعجمية من هذه السمات، إضافة إلى بعض السمات الصورية (التي ربما لا تكون متمايزة عنها) وتدخل في العمليات الحوسبية التي تكوّن بنى أكبر. وربما تكون لها بنْية داخلية أكثر تعقيدا. وليس هناك طبقة تحتية منفصلة، أي الكلمة، يمكن أن تُورث الخصائصُ فيها، كما ينتج عن أي تغيير في أيّة سمة وحدةً معجمية مختلفة. وإذا وضعنا جانبًا كثيرًا من القضايا المهمة، دعنا نفترض أن اللغة تشتمل على معجم يمثّل مجموعةً من الوحدات المعجمية، وأن المعجم يُنفذ إليه عن طريق الإجراءات الحوسبية التي تكوّن التعبيرات(٤).

وقد أثار معنى الكلمات قدرًا كبيرًا من الانتباه والخلاف، بل إن هناك من يُنكر الآن أي وجود لـ"المعنى ـ د" (أي: "التمثيل الدلالي"، "المضمون الضيق") عموما. ولا تثار أسئلة مماثلة عن "الصوت ـ د" إلا قليلا. ويبدو لي أن التخصصات الاختبارية تدرس الأمرين بطريقة واحدة تقريبا: فهي تفترض على الأخص أنهما يشتملان على سمات كلّية غير متغيّرة تُصاغ منها الوحدات المعجمية (ومن هنا فهي ليست "شبكية" holistic بصورة جذرية). وسأسلّم مؤقتًا بأن افتراض وجود "الصوت ـ د" و"المعنى ـ د" مشروع، وسأعود فيما بعد إلى مناقشة أسباب إنكار هذا الافتراض.

وتُحصّل الملكةُ اللغوية حالةَ "ل" تحت تأثير قدرٍ ضئيل من التوجيه والتدريب أو القرار، إن كان هناك أثر لمثل هذه ابتداء، وتمرُّ بحالات ذات خصائص معينة وتثبّت جزئيًا عند مراحل عمرية محدّدة. وتَسير عمليات الذهن، إذا استعرنا عبارةَ هيوم، "في ضوء طُرق انتقال طبيعي، يَسبق التأملَ، ولا يمكن [للتأمل] أن يَمنعه" (Hume 1740/1948: 147, Book I, Part III, Section 13). وتبدو الملكةُ اللغوية، بهذه المعايير كذلك، شبيهةً بالأعضاء الجسدية الأخرى. ويستمر المعجمُ في التغيُّر بطرق معينة، ويتعرض لدرجة من الاختيار الشعوري (كما يحدث للأجزاء الأخرى من

اللغة، بصورة هامشية). لهذا يَحوي مُعجمي الكلمة dour "قاسٍ" التي تَسجع مع الكلمة الأخيرة في الخبر "خ"، أي: power. وربما تحوي لغةُ بيتر كلمة مختلفة بالمعنى نفسه لكنها تسجع مع كلمة poor "فقير". ويمكنني أن أتخلى عن الكلمة التي أستخدمها، لأستخدمَ الكلمةَ التي يستعملها بيتر، أو ربما أُعطيها معنى مختلفًا شيئًا ما مع الإبقاء على "صوتها ــ د" ثابتًا؛ وربما يكون ذلك بقرار واعٍ، أو من غير وعي. وتقع مثل هذه الأحداث في نطاق ما يسميه تايلور بيرج بــ "الشبكة الواسعة الوعرة للاعتمادات المتبادلة، التي تقوم على أنماط الاستئناس برأي الخبراء التي تُعيدنا مرة أخرى إلى أناس يَسعون إلى التوافق مع الآخرين" (Tyler Burge 1986b: 702, 703)، كما أنها التي تؤسِّس، مع العلاقات المختلفة للقوة والتنظيمات الاجتماعية والعوامل الشخصية وعوامل أخرى، "معيارًا للتفاهم اللغوي المتواضَع عليه"، كما يُفهم بصورة عامة. أما إن "كانت [هذه العوامل] توفر معنى لغويًّا كذلك"، كما يقترح بيرج، فيبدو لي أمرًا من أمور الاصطلاح، لا الحقيقة. كما لا يبدو لي واضحًا كيف يمكن أن يَتعلم شخصٌ شيئًا عن مثل هذا التعقيد المتنوع من غير أن يحصر دراسته بالأجزاء التي يمكن أن تخضع للدراسة الحقيقة. ولا تذهب "اللسانيات ــ د"، بأية حال، أبعد من القول بأني، في الحالة التي بين أيدينا، أضفتُ وحدةً جديدة إلى معجمي، مع التخلي، ربما، عن استخدام وحدة أقدمَ منها؛ وهي لا تسعى، بصورة أعم، إلا إلى تحديد بعض العوامل المعيَّنة، وهي عوامل جوهرية فيما يبدو، مما يَدخل ضمن التعقيد الباهر للشئون البشرية.

وكثيرًا ما يُعتقد أنَّ "أحكام الناس [اللغوية] الفورية، أو حدوسهم، كما يسميها الفلاسفة"، تكوِّن الموضوعَ الذي تهتم به اللسانيات ونظريةُ الإحالة، اللتان تسعيان إلى تحديد "الحدوس النحوية" و"الحدوس الإحالية" بطريقة منهجية(٥). ويمكن للمرء أن يعرِّف المشاريع [العلمية] بالصورة التي يريدها، لكن من الصعب أن نرى أهميةً لتحديد بعض المقولات المعيَّنة لأحكام [المتكلمين]، أو لأنواع المادة الأولية الأخرى المختارة.

خذ دراسةَ الإحالة، في مظهريها، أي: دراسةَ كيف يستخدم الناسُ اللغةَ للحديث عن الأشياء ودراسةَ أفكارهم عن مثل هذه الأمور. وربمـا أمكـن لأحكام [المتكلمين] أن توفِّر أدلةً لهذين النوعين من الدراسة، وربما يـصح الاعتمادُ عليها أو ربما تكون مفيدة، وربما لا تكون. وربما أمكن لبحث جاد في دراسة هذين الموضوعين أن يتقصى التشابهات عبر الثقافات، واعتبارات فقْر المنبِّه، والتجاربَ النفسية اللسانية، والتصويرَ الآلي للدماغ، أو أي شيء آخر يمكن أن يُقترح. لكن هذين المسارين البحثيين كليهما ليسا دراسةً لأحكام [المتكلمين]، وإن أمكن النظر إليهما على أنهما دراستان للحـدوس بمعنـى مختلف: أي دراسة لحقيقة ماهيَّتها، وهو موضوع تَصلح الأحكامُ الحدسية فيه أن تكون مصدرًا للمعلومات، في أحسن الأحوال. (وينظر ستك إلـى هـذا الأمر من زاوية مختلفة شيئًا ما Stich 1996).

ولا تعدو الأحكامُ الحدسية أن تكون مادةً أوليَّة؛ ويمكن أنْ تصير دليلاً في إطار نظرية تفسيرية ما. فقد استُخدمت الأحكامُ التي أوردناها عند الكلام عن الأمثلة في (١) أدلةً لتأييد النتيجة التي مفادها أنَّ تابع الـصفة "مكـوِّن مركَّبي" يتضمن ثلاث مقولات خالية، هي: الفاعل الصِّفر، والمتغيِّر الخـالي O ، وأثرُ O، وهي أفكار تُفسَّر في إطار النظرية، وتُسوَّغ بصورة مستقلة إن كان للتفسير الذي أُعطي للمثال (١) منْ قوة. ولا يملك المتكلمـون أحكامًـا حدسية، عن هذه الأمور، أكثرَ مما يملكونه من أحكام حدسية عن "العضلات الشادَّة" tensors أو عن فكرة "اللايقين" undecidability .

ويجب النظر بقدر من الحذَر إلى الأحكام الحدسية التي يُحثُّ المتكلمون على إعطائها مع حذْف التوقعات العادية منها. افرض أننا سألنا بيتـر: هـل يتحدث رجلٌ مريخي اللغةَ التي يتحدثها هو إنْ كان [هذا الرجل] يشترك معه في أحكامه عن المثال (١) وتعبيرات أخرى لكنه يستخدم مبادئَ مختلفـة أو كان تركيبُه الأحيائي الكيميائي مختلفا؛ أو إن كان يمكن لنسخة شبيهة ببيتـر خُلقت للتو أن تتحدث عن الأنهار أو الماء. وتصبح الأحكـام [فـي هـاتين

الحالتين] غير واضحة، وتتضاءل باتجاه عدم الأهمية؛ لأن التجارب الذهنية تحذف الاعتقادات المسبقة التي تُفترض في الاستخدام العادي للغة، وهو ما يجعلها تتحول إلى مجالات توءم الأرض ورجال المستنقعات، والعوالم الأخرى الغريبة (انظر Stich 1983: 62; Fodor 1994: Appendix B)[٦].

افرض أنا تبنينا مشهدًا متخيلاً "للعوالم الغريبة" لاستقصاء ما يَدخل في تصورات بيتر: فهل يشمل تصورُ "الماء" عنده "س ص ع" في توءم الأرض، مثلاً؟ وهل يمكن أن يقول ــ أو يكون صحيحًا منه أن يقول ــ إن "الماء" في توءم الأرض هو "س ص ع"، بخلاف الأمر هنا؟ أو: ليس في توءم الأرض "ماء"، بل "س ص ع" فقط؟ أو لا واحد منهما، تبعًا لتغير شروط التجربة الذهنية؟ أو ربما ليس فيها شيء يمكن فهْمُه؟ ويمكن للإجابات أن توفِّر أدلةً لتفسيرٍ معين لحالات بيتر اللغوية وممارساته، وطرقِ تفكيره، وربما كان لهذا التفسير صلة بالسؤال الأوّل عن التصورات إنْ كانت الفكرة التقنية [توءم الأرض] تَدخل في التعليل النظري. أما خارج السياق فربما لا تُبين الأحكامُ إلا القليلَ حتى إن كانت ثابتةً في حين تتنوع شروط التجربة الذهنية، وهو ما يبدو الأمرُ بخلافه.

وينبغي ألا تُسارع دراسةُ الدلالة الشعبية إلى الافتراض بأنّ الممارسات والمواضعات في تقليدٍ ثقافي معين دليلٌ جيد على الفهم البديهي، سواء أكان فهْمَ الباحث أو فهمَ غيره[٧]. فينبغي عليها في الأقل أنْ تحاول اكتشافَ المشابهات للملكة اللغوية و"اللغة ــ د" في هذا المجال، ساعية نحو تحديد المكوّن الفطري.

افرض أن بيتر يقول إن "جو المدمن" صوّت لصالح مشروع الحد الأدنى للأجور، لأنه مشغول بصحة ابنه، فهل يلزم أن نستنتج أن بيتر يعتقد أنّ العالم مكوَّن من وحدات مثل: جو المدمن، والحد الأدنى للأجور، والصحة، وعلاقاتٍ مثل "يصوّت لصالح" و"الانشغال بـ" التي تربط بينها؟ وهل يكون الاستنتاج الموازي مسوَّغًا حين يقول بيتر إن توم زار بوسطن؟

وإذا قال بيتر إن البنك انتقل إلى الجهة المقابلة من الشارع بعد أن دمّره حريق، فهل يعتقد أنّ من بين الأشياء في الكون هناك أشياء يمكن أنْ تدمّر لكن ما يزال من الممكن أنْ تبقى، وهو ما يجعلها تنتقل؟ ويمكن أن تثار أسئلة مماثلة عن الكلمات التي في "خ". ويهتم العلمُ الإثني بالتصورات العلمية الشعبية عن هذه الأمور. أما علمُ الطبيعة البشرية فيحاول أن يكتشف ما يَحدث فعلا، وأن يكتشف تعقيدات "التصميم التشريحي للعقل"، بتعبير هيوم، والطرقَ التي تتدخل بها بناه وعملياته في التفكير والفعل. وهذان النوعان من البحث مختلفان، مع أنهما ربما يستخدمان مواد أولية متشابهة (وربما تكون أحكامًا حدسية).

وربما يهتم بحثُ معنى كلمة meaning "معنى" أو كلمةَ sound "صوت" باكتشاف:

١ـــ السمات الدلالية ("المعنى ـــ د") للوحدتين المعجميتين: "معنى" و"صوت" في إحدى لهجات اللغة الإنجليزية.

٢ـــ الأفكارِ التي لدى الناس عن المجال العام للمعنى والصوت.

أو:

٣ـــ أفضل نظرية عن اللغة واستخدامها.

والسؤال (١) سؤالٌ عن كلمات إنجليزية (ذات خصائص غريبة نوعًا ما)؛ ويدخل (٢) في إطار العلم الإثني؛ أما (٣) فيَدخل في إطار علم الطبيعة البشرية. ويثير (١) و(٢) أسئلةً جادة مشروعةً إلى حد بعيد. لهذا نجد، حين نستقصي (١) أنه ليس للأسماء معانٍ: فليس للسؤال: "ماذا يعني "ستالين""؟ معنى، إلا إن كنا نسأل عن الأصل الاشتقاقي لهذا الاسم. ونجد كذلك أنّ السؤال: "ماذا يعني التعبير "ت""؟ يَشترك في الخصائص مع السؤال: "كم يَزِن جون"؟ و: "بِمَ يَشعر جون"؟ بدلاً من اشتراكه مع السؤال: "ماذا أكل جون (أو "قال" أو "عَنى")؟، مما يوحي بأن ما يعنيه "ت" ربما

يكون نوعًا من النوعية الظرفية. وليس لدراسة (١) و(٢) إلا قدر ضئيل من الأهمية الواضحة للسؤال (٣). ويَصحُ هذا تقريبًا في دراسة التفكير والاعتقاد والتصورات، إلخ.

تأويل المستويات الوجيهية:

دعنا نلتفت إلى بعض المسائل التي تقع في إطار (٣) أعلاه: أي المسائل التي تتعلق بالملكة اللغوية والحالات التي تتخذها، والكيفيةِ التي تُدمَج بها مع المكوِّنات الأخرى للذهن/الدماغ في استخدام اللغة.

وإحدى المسلمات النموذجية المعقولة إلى حد بعيد، وهي استخدامٌ لأفكار تقليدية، أنَّ التعبير "ت" في "ل" يتألف من زوجين: <صو، دلا>، حيث يمثِّل "صو (ت)" المعلوماتِ التي تتصل بصوتِ "ت" وتمثِّل "دلا (ت)" المعلوماتِ التي تتصل بمعناه. وتصاغ "صو" و"دلا" بالعلميات الحوسبية التي تَعمل على الوحدات المعجمية. افرض أن "ت" كلمةٌ معزولة. و"صو (ت)" متمايز عمومًا عن "صوتها ـــ د" نتيجة للعمليات الصواتية، أما "دلا (ت)" فربما تتماثل مع "المعنى ـــ د" لـ "ت"، تبعًا للحقائق عن تحليل العناصر المعجمية، وما يشبهها. و"صو (ت)" و"دلا (ت)" عنصران عند "المستوى الصوتي" و"المستويات الدلالية"، على الترتيب؛ أي أنهما "تمثيلان" الأول صوتي والثاني دلالي. ولهذه المصطلحات معانيها التقنية المعينة؛ فليس هناك شيء "مُمثَّل" بالمعنى الذي في النظريات التمثيلية للأفكار، مثلا(٨). وهذان المستويان "وجيهيّان" بين الملكة اللغوية والأنظمة الأخرى، ويوفران المعلومات التي تَستخدمها الأجهزةُ الحركية الحسية والأنظمة الأخرى لاستخدام اللغة.

وقد أُنجزت أبحاثٌ كثيرة رائدة عن هذه التمثيلات والكيفية التي تصوغها بها عملياتُ "اللغة ـــ د" (عن الجانب الدلالي، انظر inter alia, Larson and Segal (1995), Pustejovsky (1995)، والمراجع المذكورة

هناك). ويمكن أن يُنظر إلى هذه الأبحاث على أنها "تركيب" بالمعنى التقنى؛ فهى تدرس خصائصَ الموضوعات الرمزيــة وتنظيماتهــا. وتــسمى هــذه الأبحاث أحيانًا بعلم الأصوات، على الجانب الصوتى، لكــن مــع فهْــم أنَّ دراسة السمات الصوتية، والبنى المقطعية والعروضية، وغيرها، لا تسهم إلا فى الدراسة الأكثر عمومًا للكيفية التى تَستخدم بها الأنظمةُ الحركية الحسية المعلوماتِ التى توفرها "اللغة ــ د"، والكيفيةِ التى يتصل بها هذه الكمُّ المعقَّد كلُّه ببعض الأحداث الخارجية. وهذه قضايا يعنى بها علمُ الأصوات الفيزيائى وعلم الأصوات النطقى، وتذهب بعيدًا وراء "اللغــة ــ د". وربمــا تكــون الممارسةُ نفسُها ملائمة، كما أظن، فى مجال الأبحاث التى تسمى غالبًا بـــــ "علم دلالة اللغة الطبيعية" و"علم الدلالة المعجمية". فيمكن النظر إلــى هــذه الأبحاث على أنها جزء من "التركيب"، لكنهــا موجَّهــة لمــستوى وجيهــى مختلف، ولمظاهر مختلفة أخرى من استخدام اللغة، وبقدر ما تقــوم علاقــة السجع بين chase "يطرد" و lace "الخيط الذى تـربط بــه الحــذاء"، علــى خصائص "الصوت ــ د"، وتقوم علاقة الاقتضاء بين chase و follow على خصائص "المعنى ــ د"، فهما تنضويان تحت "التركيب"، بمعنى تقليدى.

وتتصل الأبحاثُ كلُّها تقريبًا فى مجال "التركيــب" بمعنــاه الأضــيق اتصالاً وثيقًا بمسائل التأويل الدلالى (والتأويل الصوتى، بالطبع)، وهو يُسوِّغ بمثل هذه المسائل. وقد أُسيء فهْمُ هذه الحقيقة فى أحيان كثيرة لأن كثيرًا من الباحثين اختاروا أن يسمُّوا هذه الأبحاث "تركيبًا"، محتفظين بمصطلح "دلالة" ليُطلقوه على علاقات التعبيرات بأشياء غير لغويــة[9]، وكانــت الأبحــاث المعاصرة المبكرة فى "اللسانيات ــ د" (أى النحو التوليدى) تُعنــى بمعــانى تعبيرات كالتى فى (1) (ص٣١٤)، وهو إحياء لــبعض اهتمامــات النحــو التقليدى، وربما كان مفيدًا أن نميِّز مظاهرَ "اللغة ــ د" الألصقَ بالصوت أو الألصق بالمعنى؛ لكن علمَى الأصوات والدلالة، بمعنى الكيفية التى تتعامــل بها اللغة مع العالم، يقعان وراء ذلك.

وتبرز أسئلةٌ أكثر خطرًا عن الصورة العامة [لهذا النوع من البحث] عند كل منعطف، بدءًا من البنية المفترضة للذهن وانتهاءً بتفاصيل التنفيذ. فتتصل فصيلةٌ من الأسئلة بموضع المستوى الوجيهي. فيجب، على الجانب الصوتي، أن يُحدَّد هل الأنظمةُ الحركية الحسية خاصةٌ باللغة جزئيًا، فتكونَ ضمن الملكة اللغوية، إذن، وهو ما يعني أنه يجب أن يكون المستوى الوجيهي "وراء" ما يُعدُّ عادة تمثيلاً صوتيًا؛ وهناك خلاف كبير في هذا الأمر، أما على الجانب الدلالي فتتعلق الأسئلةُ بالعلاقات بين الملكة اللغوية والأنظمة المعرفية الأخرى، ولا يمكن أن يُقدَّم، على أي من المستويين، إلا بعضُ التخرصات المعقولة التي لا تعدو أن تكون مقاربات أولية.

وقد دُرست أسئلةُ العلاقة بين اللغة والعالَم على المستوى الوجيهي الصوتي بصورة معمَّقة باستخدام تقنيات عالية التعقيد، لكن المشكلات عصية، وما يزال فهمُها محدودا، والأسئلة عن الأمور التي تُستخدَم التمثيلاتُ الدلالية لها أكثرُ من ذلك غموضا، ولا يُعرف إلا قدر ضئيل جدًا عن الأنظمة الخارجية للغة؛ ويَرتبط قدرٌ كبير من الأدلة عن هذه الأنظمة ارتباطًا وثيقًا باللغة مما يَجعل تحديدَ متى تتصل باللغة، ومتى تتصل بالأنظمة الأخرى (بقدر ما تتمايز) صعبًا جدًا. يضاف إلى ذلك، أن التقصي المباشرَ الملائم الممكنَ للأنظمة الإدراكية الحسية ما يزال في بداياته. ومع هذا، فهناك كمٌّ ضخم من المادة الأولية التي تتصل بالكيفية التي تُستخدم بها التعبيراتُ وتُفهم في ظروف معينة، وهي كافية إلى حد صار عنده علمُ دلالة اللغة الطبيعية أحدَ أكثر جوانب دراسة اللغة حيوية، وإن كانت الأسئلة التي تتعلق باستخدام اللغة ما تزال سرابا.

الوحدات المعجمية:

اقترحتُ آنفًا أن التعبير يتألف من زوج: <صو، دلا> يصاغ من وحدات معجمية، كل منها مجموعٌ معقَّد من الخصائص، ومنها "الصوت ــ

د" و"المعنى ــ د". وتؤوَّل "صو" و"دلا" عن طريق الأنظمة الخارجية للغــة. ومن المحتمل ألا يوجد، عند هذين المستويين الوجيهيين، وحدةٌ فرعية تتماثل مع الوحدة المعجمية. وليس هناك خلاف في هــذه النقطــة فــي المــستوى الوجيهي الصوتي. ويَفترض عدد كبير من الأبحاث التركيبية/الدلالية أن من الممكن أن تحلَّل الوحدات المعجمية إلى الخصائص التي تتألف منها ثم يعــاد تأليفها في أثناء حوسبةِ "دلا". فربما ينتج عن وحدات مثل who أو nobody، مثلاً، تراكيبُ تتألف من "عامل ــ محدِّد ــ متغيِّر" عند مستوى "دلا"، مثل:

([John saw x] [QUx, x a person])

([أداة استفهام "س"، "س" شخص] [جون رأى "س"])

وربما تَكون هناك طرق أخرى يمكِن بها تعديلُ خصائص الوحــدات المعجمية الدلالية أو توزيعُها. ومع هذا نستطيع، في الكلمات البسيطة عمومًا، أن نفترض أن "دلا" تساوي "المعنى ــ د" (وربما يكون هــذا تعبيــرًا عــن جهلنا).

وهناك بدائل شائعة لهذه الصورة فيما يخص المكوِّن الدلالي للوحدات المعجمية، كما تنحو بعض الدراسات الأكثر اتصافًا بالاختبارية والنقاشــاتُ التصوُّرية عن طبيعة المعنى والإحالة إلى تناول هذه المسائل بطرق مختلفة شيئًا ما. فتَنظر النقاشاتُ التصوُّرية عادةً إلى الكلمات والتعبيرات الأخــرى على أنها وحدات صوتية (أو هجائية)، أو أنها معزولة إما عن الــصوت أو عن المعنى؛ فيمكن لكلمة ما تبعًا لذلك أن تغيِّر معناها، بل ربمــا صــوتَها ومعناها معًا، وتَظل، مع هذا، الكلمةَ نفسَها. ولا يبدو أن لهذه المواضــعات معنى؛ إذ يجب أن تُفسَّر وتسوَّغ، في الأقل. والدعوى الأبسط أنه ليس لتعبيرٍ ما وجودٌ بمعزل عن خصائصه عند المستويين الوجيهيين، "صو (ت)" و"دلا (ت)" (إن كان هناك مثل هذين المستويين).

وربما كانت عمليةً استكشافية مفيدة، في ظني، أن نتقصى التــشابهات بين جانبي الصوت والمعنى إلى أبعد حد يمكن أن نذهب إليــه. فــيمكن أن

نسأل، تحديدًا، إن كان من الممكن إلقاء الضوء على القضايا الدلالية عن طريق النظر في مشابهاتها الصوتية، وهي التي كثيرًا ما تبدو أقل إثارة للخلاف.

انظر الآن إلى "اللغة الذهنية" بديلاً للصورة التي أوضحناها إلى الآن. فبدلاً من أخذ الوحدة المعجمية على أنها تتضمن "الصوت ـ د" و"المعنى ـ د"، دعنا نفترض أن أحدهما مفقود، أو ربما الاثنين معا. وتبعًا لهذا، إما أن يكون "دلا" مفقودًا أو "صو" مفقودًا، أو كلاهما مفقودين عند المستويين الوجيهيين. فيعني أنْ تتعلَّم لغة ما أن تكتسب قواعدَ تحوِّل الوحدةَ المعجمية إلى نظام آخر من أنظمة الذهن، أي "اللغة الذهنية"، التي تُؤوَّل لتُنتج (مظاهر) الصوت والمعنى. فإذا كان "الصوت ـ د" مفقودًا، تحوِّل الوحدة المعجمية إلى "ص ـ اللغة الذهنية". وإذا كان "المعنى ـ د" مفقودًا تحوِّل الوحدةَ المعجمية إلى "د ـ اللغة الذهنية". أو إليهما معا. أما اللغة نفسها فليس لها صواتة/أصوات، ولا دلالة، ولا الاثنان معا. هذه هي خصائصُ اللغة الذهنية.

ولا توجد مثلُ هذه الاقتراحات في الجانب الصوتي - على حد ما أعلم - أما في الجانب الدلالي فهي شائعة. والسؤال هو: ما المضمون الجوهري لهما، على أي الجانبين؟

وللتمثيل لهذا الأمر بأمثلة فعلية، انظر مرة أخرى، إلى كلمات المثال (٢)، أو كلمات: persuade "يحضّ"، و force "يرغم"، و remind "يذكّر" في مكان x "س" في المثال (٣):

٢ـ chase, lace, follow

٣ـ John X-ed Mary to take her medicine.

- "جون "س [فعل في حالة الماضي]" ماري لتتناول دواءها"

افرض أنه ليس للوحدات المعجمية المقابلة لـــ X "صـــوتُ ـــ د" وأنّ بيتر تعلّم كيف يحوّلها إلى مناطق "ص ـــ اللغة الذهنية" التـــى لهـــا تأويـــل صوتي. ويعرف بيتر أشياء كثيرة عن هذه المناطق وتأويلاتها. فهو يعـــرف أن chase تسجع مع lace؛ وأن persuade و force تبدآن بضم الشفتين، وإنْ بطريقتين مختلفتين، أما remind "يذكِّر" فلا؛ إلخ. وتعزو المقاربات النموذجية هذه الخصائصَ إلى الملكة اللغوية، وترى أنها ممثّلةٌ في "صـــو". ويـــضيف البديلُ "ص ـــ اللغة الذهنية" طبقةً أخرى من التعقيد، ويُثير مشكلات جديدة، ومنها مثلاً: ما مكوّنُ الوحدةِ المعجمية الذى يُبيّن المنطقةَ التى تحوّل إليها فى "ص ـــ اللغة الذهنية"، إن لم يكن [ذلك المكوّن] هو "الـــصوتَ ـــ د" (كمـــا يُفترَض فى النظريات المألوفة)؟ وما النقطة التى يُنجَز عندها تحويلُـــه إلـــى "ص ـــ اللغة الذهنية" فى أثناء حوسبةِ تعبيرٍ ما؟ وكيف يعبِّر عن الخصائص الكليّة والخاصة للصوت عند تأويل "ص ـــ اللغة الذهنية"؟ ولم تُثَر مثل هذه الأسئلة من قبل، لأسباب وجيهة، وهو ما يبيح لنا أن نُسقط هذا الأمر تماما.

انظر الآن إلى النظير الدلالى. فنفترض الآن أن الوحدات المعجمية لا تتضمن إلا "الصوت ـــ د" وخصائصَ صورية غير مؤوّلة، وأنّ بيتر تعلّـــم كيفية تحويلها إلى مناطق "د ـــ اللغة الذهنية"، التى لهـــا لا تأويـــل دلالـــى. (للاطلاع على صور متعددة من وجهات النظر هذه، انظـــر :Fodor 1990 Chapter 7، وهو مراجعة لكتاب Schiffer 1987). ويعرف بيتر أشياءَ كثيرةً عن هذه المناطق/ التأويلات كذلك. لهذا، فإذا طَرَد تومُ بيلَ فقد تبع توم بيـــلَ بقصد معين، لا العكس؛ وإذا كانت X "س" = "يحض" persuade فى المثال (٣)، فإن جهود جون نجحتْ جزئيًا (إذ صارت مـــارى تقـــصد أن تتنـــاول دواءها، لكنها ربما لم تفعل)؛ وإذا كانت X "س" = force "أرغَم" فإن جـــون نَجح، لكنْ بطريقة مختلفة (فقد تناولت مارى الدواء، سواء أكانت تقـــصد أم لا)؛ وإذا كانت X "س" = remind "يذكِّر" فإن جون ربما أخفق (إذ إنها ربما لم تُعِره اهتماما)، أما إن نجح، فإن مارى صارت تتذكّر أن تتناول دواءهـــا.

وتعزو المقارباتُ المبكّرة هذه الخصائصَ إلى الملكة اللغوية، وتأخذها على أنها تَظهر في "دلا" نتيجةً لعمليات الوحدات المعجمية والتركيبات التي تَظهر فيها. ويضيف البديلُ "د ــ اللغة الذهنية" طبقةً أخرى من التعقيد ويثير أسئلةً جديدة إضافةً إلى الأسئلة التي أثيرت في التنظير الصوتي. فإذا أخذنا الوحدات المعجمية على أنها ليس لها "صوت ــ د" ولا "معنى ــ د" فكلا النوعين من المشكلات يبرز.

وربما تُضلِّلنا بعض الأمثلة البسيطة مثل:

Snow is white.

"الثلج أبيض".

أو الجُمل الوصفية في "خ"، مثل:

the sky is dark.

"السماء مدلهمة".

إلخ. لكن المشكلات تتضاعف حتى مع أبسط توسيع للنمط. انظر إلى:

the rain looks heavy.

"يبدو المطر غزيرا".

و:

The wind feels strong.

"تَشعُر الريحُ بأنها قوية" [يُشعر بأن الريح قوية].

وغيرها؛ والمثال (٤)، عمومًا:

٤ــ X (is, looks, tastes, sounds, feels, smells, . . .) Y

س (يكون، يبدو، يُتذوق، يُسمع، يُشعر، يُشم، . . .) ص

بل إن جملاً بسيطة كهذه تثير بعض مشكلات الترجمة، حتى في اللغات المتشابهة. فكيف ينبغي أن تترجم إلى "اللغة الذهنية" الكلية؟[١٠]

وربما يترتب على بعض الإجابات عن مثل هذه الأسئلة بعض المقتضيات الاختبارية في إطار نظريات أكثر تفصيلاً للغة و"اللغة الذهنية"، وربما يسوّغ ذلك التعقيدات الإضافية، أما حين تكون هذه المقترحات معزولة فربما يصعب تقويمها.

افرض أننا طوّرنا نظريات إحالية للتأويل، إما للتعبيرات اللغوية مباشرة، أو إلى ترجماتها في "اللغة الذهنية". وإحدى الفرضيات النموذجية، فيما يخص الصوت، أنّ الأنظمة الحسية الحركية تنفذ إلى "صو (ت)"، عند إنتاج التعبير أو إدراكه. دعنا الآن نفترض، بدلاً عن هذا، أنه ليس للوحدة المعجمية "صوت ـ د" لكنها تحيل صوتيًا إلى شيء ما خارج الشخص؛ ولنسمه بـ "القيمة الصوتية" للوحدة المعجمية (أو بدلاً عن ذلك، لصورتها الصوتية في "اللغة الذهنية")، ثم نفترض أنه ينشأ عن حوسبة "للقيم الصوتية" المكوّن اللغوي لصوت "ت"، أي "القيمة الصوتية لـ (ت)". وربما تكون "القيمة الصوتية" شيئًا يتعلق بالضوضاء التي تتصل بالمنطوقات (أو بالمنطوقات الممكنة) لـ "ت" تبعًا لاختلاف الظروف (وربما تبعًا لاختلاف المتكلمين، بقدر ما يكونون متشابهين تقريبا)؛ أو ربما تكون تركيبًا مصوغًا من حركات الجزيئات. ويمكن أن يطوّر هذا الاقتراح بالنظر إلى "القيمة الصوتية" على أنها محدّدة ببعض العوامل الاجتماعية والفيزيائية المتنوعة. وربما استطعنا أن نمضي في تفسير التواصل والترجمة والاكتساب والعمليات الأخرى بهذه الطرق؛ لهذا يستطيع بيتر أن يتواصل مع توم؛ لأن تعبيراتهما في اللغة التي يشتركان فيها (وإن كانا لا يعرفانها إلا معرفة جزئية) تُحيل صوتيًا إلى "القيمة الصوتية" نفسها.

ويترك هذا الاقتراحُ المشكلاتِ كلَّها حيث كانت، مضيفًا إليها عددًا من المشكلات الجديدة. فلا يتجاوز ما نفهمه الآن ما كنّا نفهمه من قبل عن علاقة

"ت" بتحققاتها الخارجية. أما تعليل التواصل والعمليات الأخرى فلا قيمة له. وليس هناك سبب للافتراض بأن لمثل هذه "القيَم الصوتية" مكاناً في العملية التي يصوغ بها ذهنُ إنسانٍ معيَّن نسخةً مما يقوله شخص آخر. ولهذه الأسباب، لم يأتِ أحدٌ باقتراح يمكن أن يتماشى مع هذه الطرق.

انظر إلى التنظير الدلالي[11]. فنفترض الآن أنه ليس للوحدة المعجمية "معنى ــ د" لكنها (أو صورتها الدلالية في "اللغة الذهنية"، وربما تكون هذه "فكرة" أو "تصورا") تعيِّن دلاليًا S-denotes "قيمةً دلالية" للوحدة المعجمية خارج الشخص، أى مركبًا معيناً مما يُتحدث عنه حين يُنطق "ت" (مع اختلاف المتكلمين والظروف)، وربما تحدِّده جزئيًّا بعضُ الخصائص الاجتماعية والفيزيائية. ويمكن مرة أخرى إعطاءُ تعليلٍ ما للتواصل والترجمة والاكتساب، والعمليات الأخرى في ضوء هذه الطرق؛ لهذا يستطيع بيتر أن يتواصل مع جون؛ لأن تعبيراتهما تعيِّن دلاليًا S-denote القيمَ الدلالية نفسها في اللغة المشتركة التي يعرفانها بصورة جزئية.

ونأخذ الآن "القيَم الدلالية" لــ "جو المدمن"، و"الحد الأدنى للأجور"، و chase، و persuade ، و look ، والكلماتِ في "خ"، إلخ (أو تصوُرها الدلالية" في "اللغة الذهنية") على أنها جو المدمن، والحد الأدنى للأجور، والطرد، والحض، والنظر، والسماء، وبوسطن، والأنهار، والخراب، والخسارة، والقوة، . . . إلخ، مع إضافة بعض الأشياء عن "مَن"، و"لا أحد"، إلخ. ولكى نعلِّل الخصائصَ الدلالية لــ "ت" في:

Chinese is the language of Beijing and Hong Kong.

"اللغة الصينية لغةُ بكين وهونج كونج".

نأخذ "القيمَ الدلالية" على أنها: الصينية، لغة، بكين، إلخ. وربما نسأل عن إن كانت القيمة الدلالية للشيء الخارجي: (the fate of the Earth) "مصير الأرض" = "القيمةَ الدلالية" لــ (the Earth's fate) "مصير الأرض"

فى اللغة المشتركة (أو عند شخص يمكن أن يقال عنه "إنه يَعرفها") [والفرق بين الجملتين ليس واضحًا فى الترجمة العربية؛ ذلك أن الإضافة فى اللغة الإنجليزية تتحقق بالطريقتين اللتين تبينهما الجملتان، أما فى العربية فللإضافة صورة واحدة]. ويمكن أن نستمر فى تقصى الأحكامَ الحدسية، بغض النظر عما يعنيه ذلك فى إطار هذه التنوعات الشبيهة بالتقنية.

ولم يُسهم هذا، إلى الآن فى الأقل، فى أى تقدُّم للمشروع الأصلى، إذ لا يعدو أن يكون إعادة صياغة له، مع كثير من المشكلات الجديدة، ولم نتعلم شيئًا أكثر مما كنا نَعرفه عن الكيفية التى تُستعمل بها التعبيرات اللغوية أو تؤوَّل. وسواء تبنينا هذا الاقتراح أو ذاك، فما يزال يجب علينا أن نعلل خصائصَ التعبيرات: أى خصائص الأمثلة فى (١) ــ (٤)، مثلا. وليست الحالات الصوتية والدلالية متماثلة، بالطبع؛ فهى متشابهة وحسب، لكنها تتشابه بطرق ربما تكون دالّة.

افرض أننا سلكنا مسارًا مختلفا، قائلين إن خصائص السجع وأنماط الاستدلال، وغيرها، لا تتصل باللغة (أو بصورها فى "اللغة الذهنية")، بل باعتقاداتنا عن "القيَم": أى الأشياء الخارجية، بغض النظر عن ماهيّتها. فنقول، فى الجانب الصوتى، إن لاعتقاد بيتر بأن "القيمة الصوتية" لــ chase تَسجع مع "القيمة الصوتية" لــ lace مكانةً مختلفة عن اعتقاداته الأخرى عن القيم الصوتية (نحو قيَم نسبة تكرارها، مثلا). ويصح الشىء نفسه عن الخصائص الأخرى. لكنَّ أحدًا لم يتبنَّ مثل هذا الاقتراح من قبل، ويمكن لنا مرة أخرى أن نُسقطه من حسابنا.

وربما يكون النظير لهذا على الجانب الدلالى أن نقول إن خصائص الأمثلة (١) ــ (٤) تعلَّل فى ضوء اعتقادات بيتر عن العالَم؛ وربما فى ضوء قوة الاعتقاد، بمصطلحات كوين. وهذه الاقتراحات مألوفة، بل أقرب ما تكون إلى التقاليد المحافظة. ويجب علينا لكى نقوِّم هذه الاقتراحات أن نكتشف المزيد عن كيف تَثْبُت الاعتقاداتُ بهذه الطرق المعقدة جدًّا والموحَّدة إلى حد

بعيد في اللغات وعبْرها، من بين مسائل أخرى، وليس لهذه الاقتراحات مضمون تقريبًا إلا بعد أن تُبحث هذه المشكلات.

ويبدو من المعقول، عند هذه النقطة، أن نستنتج أنّ الوضع هنا يشبه تقريبًا الوضعَ على الجانب الصوتي: أي أن الخصائص الدلالية للكلمات والمركَّبات تحدَّد بالطرق التي تُكوَّن بها، مع إسهامٍ فطري غني. والمشكلة الآن أنْ نكتشف خصائص "الصوت ــ د" و"المعنى ــ د" (للوحدات المعجمية، أو لنظيرتها "د ــ اللغة الذهنية")، والطرقَ التي يمكن أنْ تؤلَّف بها، والحوسباتِ التي تنتج التمثيلاتِ الوجيهية وكيف تؤولها الأنظمة الخارجيةُ للغة. وهناك، في المجالين كليهما، عدد كبير من المشكلات التي لم تُحلّ، لكن قدرًا كبيرًا من التقدم الجوهري قد تحقّق كذلك.

انظر إلى مقاربة أخرى مختلفة: ويُختزَل فيها صوتُ تعبيرٍ معين ومعناه جزئيًّا إلى علاقات من النوع الذي رأيناه في نقاش المثالين (٢) و(٣). فللوحدة المعجمية نمط (متناه) من العلاقات بالتعبيرات الأخرى، وتتمثل هذه بالعلاقات الصوتية والعلاقات الدلالية، وقد تضاف إليها الخصائصُ الإحالية الصوتية والدلالية، ويَصح الشيء نفسه في التعبيرات الأكثر تعقيدا. فتتألف العلاقات الصوتية لـ chase من الخصائص التالية: أنها تَسجع مع lase ، وتَبدأ [صوتيًّا] بالطريقة نفسها التي تَبدأ بها كلمة child، وتتضمن العددَ نفسه من المقاطع في pin، إلخ؛ وتتألف علاقاتها الدلالية من علاقاتها مع follow "يتبع"، و intend "يقصد"، إلخ، إضافة إلى بعض الأدوار التصوُّرية والاستدلالية الأخرى.

وليس لهذه المقاربة، مرة أخرى، قيمةٌ على الجانب الصوتي، كما يبدو؛ فالمقاربة النموذجية التي تقوم على "تأليف السمات" كافيةٌ للتعبير عن العلاقات الصوتية إضافة إلى الظواهر الأخرى، مثل: علاقة مكوّنات chase بالإشارات النطقية والضوضاء، وخصائصها التوزيعية (كالتفاعل بين الصوامت والصوائت، مثلا)، إلخ. كما تشترك العلاقات الصوتية لـ chase

مع العلاقات الصوتية (للكلمة) في كلمات أخرى. ويمكن أن يعبّر عن عدد كبير من الحقائق المشابهة في إطار وجهة النظر النموذجية التي مفادها أن الوحدة المعجمية مكوّنة من خصائصها، وهي التي تدخل في تحديد علاقاتها الصوتية بالتعبيرات الأخرى وغير ذلك. لهذه الأسباب لم يلتفت أحدٌ إلى مثل هذا الاقتراح قط(١٢).

وهناك اقتراحات مشابهة – مرة أخرى – على الجانب الدلالي، وتبرز أسئلة مماثلة. فتشترك persuade "يحض" في العلاقات الدلالية مع الخصائص الدلالية لـ raise "يرفع": أي في خصائص "السببية"، التي دُرست باستقصاء في لغات كثيرة، مع نتائج غير تافهة. وينبغي أن تبيِّن صورةٌ معقولة للوحدة المعجمية هذه الحقائق. كما ينبغي أن تبيِّن الخصائصَ التوزيعية التي لم تبيَّن (بطريقة مقنعة) في ضوء الأدوار الاستدلالية والتصوُرية؛ ومن ذلك مثلاً، أن deny "يُنكر"، و doubt "يشك"، و refuse "يرفض"، وغيرها، تَظهر مع الأدوات الحَدّية polarity items (مثل: any, ever ، "أبداً"، "إطلاقاً"، إلخ) بطرق لا تَظهر بها كلمات مثل assert "يُقرِّر"، و believe "يعتقد"، و accept "يَقبل"، وأن الكلمات من النوع الأول، بهذه المعايير، تُشبه "لا"، و"قليل" (في مقابل "كثير"). وتسعى المقاربات النموذجية إلى اكتشاف خصائص "المعنى ـ د" و"دلا" التي يمكن في ضوئها أن يعبّر عن حقائق كثيرة وأن تفسَّر، ويشمل ذلك الاستدلالات وخصائصها المشتركة والمختلفة.

والتأويلان الدلالي والصوتي متشابهان تقريبا، إنْ نظرنا إليهما بهذه الكيفية؛ فيتألف "ت" من التمثيلين الوجهيين "صو (ت)" و"دلا (ت)"، المحوسبَيْن من الوحدات المعجمية. فيوفِّر "صو (ت)" المعلومات التي تَستعملها الأنظمةُ الحسية الحركية للنطق والإدراك؛ وتوفِّر "دلا (ت)" المعلومات التي تَستعملها الأنظمةُ التصورية ـ القصدية للتفاعل مع العالم بطرق مختلفة حين يفكِّر مستعملُ اللغة ويتكلم في ضوء المنظورات التي وفَّرتْها مواردُ الذهن.

ويمكن أن يتعامل الاستعمالُ الإحالي للغة مع العناصر المكوِّنية لـــــ "المعنى ـــ د" و"دلا" بطرق متعددة. فتثير عمليةُ التفريدِ عمومًا بعضَ العوامل كالتصميم والاستخدامَ المقصود والمألوف، والدور المؤسَّسي، إلخ. فإذا بــدا شيء لي كأنه كتاب لكني عرفتُ أنه صمِّمَ ليكون كمًّا من الــورق يُـستخدم للوزن وأنه يُستخدم لذلك عادة، فربما أُقبَل عدَّه كمًّا من الورق يُستخدم فـي الوزن، لا كتابًا. افرض أن مكتبة تحوي نسختين متماثلتين مــن مــسرحية "ميدل مارش" [لشكسبير]، وأن بيتر أخذ إحداهما وأُخذ توم الأخــرى. فــإذا وجَّهنا اهتمامنا إلى المكوِّن المادي للوحدة المعجمية فقد أخذا كتابين مختلفين؛ أما إن ركزنا على المكوِّن المجرد للكتاب فقد أخذا الكتابَ نفسَه. ويمكــن أن نوجه اهتمامنا لكلا الأمرين بشكل متزامن، مــستخدِمين الكلمــاتِ بهيئتهــا المجردة/المادية، كما في التعبيرين:

The book that he is planning will weigh at least five pounds if he ever writes it.

"سيكون وزنُ الكتاب الذي يخطِّط لتأليفه خمسةَ أرطال في الأقــل إن أُتيح له أن يكتبَه أصلاً".

أو:

His book is in every store in the country.

"يوجد كتابُه في كل متجر من متاجر بيع الكتب في البلاد".

كما يمكن أن نَصبغ البابَ باللون الأبيض ونَعبُر من خلاله. أو انظــر إلى الكلمة bank (التي تعني "المصرف" و"ضفة النهر"). فنحن نــستطيع أن نقول:

١- The bank burned down and then it moved across the street.

"احترق المصرف ثم انتقل إلى مكان آخر في الجانب المقابل من الشارع".

٢- The bank, which had raised the interest rate, was destroyed by fire;

"دمر الحريقُ المصرفَ الذى رفع سعر الفائدة".

٣- The bank lowered the interest rate to keep from being blown up.

"خفض المصرف سعر الفائدة خوفًا من أن يُفجَّر".

ويُحافَظ على الاعتماد الإحالى عبر التمييز: مجرد/حسى. لهذا تعنى الجملة فى (١) أن المبنى احترق ثم انتقلت المؤسسة، وكذلك فى (٢) و(٣). لكننا لا نستطيع أن نقول:

٤- The bank burned down and then it eroded;

"احترق المصرف ثم تآكل".

أو:

٥- The bank, which had raised the interest rate, was eroding fast;

"كان المصرف الذى رفع سعر الفائدة يتآكل بسرعة".

أو:

٦- The bank raised the interest rate without eroding.

"رفع المصرف الفائدة من غير أن يتآكل".

ولا تعنى الجملة (٤) أن المصرف احترق ثم تآكلت ضفتا النهر.

وهذه الحقائق واضحة فى الغالب، لكنها ليست تافهة. لهذا تَحترِم العناصرُ التى تعتمد على غيرها إحاليًا، حتى المحدَّدة تحديدًا دقيقًا جدًّا منها، بعضَ التمايزات لكنها تتجاهل بعض التمايزات الأخرى (كالضمائر وأسماء

الصلة و"المقولة الفارغة"، وهي الفاعل في العبارة being blown up "فُجِّر"، و eroding "يتآكل"). والنتيجة الطبيعية في حالة bank أن هنـــاك وحـــدتين معجميتين تشتركان صُدفة في "الصوت ـــ د" (أي أنهمـــا مـــن "المـــشترك اللفظي")، وأن إحداهما ـــ أي: "المصرف"، "متعددة الدلالات"، شأنها شـــأن "كتاب": فهي توفر طريقًا للنظر إلى العـــالَم بوحُـــد الخـــصائص المجـــردة والحسية، ويسمح بالاعتماد الإحالي عبْر هذه المنظورات. (للاطـــلاع علـــى بعض المشكلات التقليدية، التي تتصف غالبًا بـــالغموض والتعقيـــد، انظـــر Lyons 1977: Section 13. 4). ويمكن أن تُدرس هذه الخصائص بطرق عدة، كاكتساب اللغة، والشيوع بين اللغات، والوحدات المشابهة في اللغة الواحـــدة، والكلمات المصطنَعة، والتخدية zeugma، إلخ. ويمثِّـــل ذلـــك، إن اســـتمرت التشابهاتُ والاختلافات المطردة، تأييدًا للنتائج عن البنية المعجميـــة. ولـــيس هناك ما يُلزِمُ بأن نتوقَّع أنْ تكون مثل هذه الخصائص موجودةً في اللغة؛ أما لغة الرجل المريخي فربما تكون مختلفة.

وليس هناك من معنى واضح للسؤال: "ما الذي تحيـــل إليـــه الكلمـــة ‹س›"؟ سواء أكان السؤال عن بيتر، أو (بصورة أكثر غموضًا) عـــن "لغـــة عامة" ما. فلا تُحيل كلمةٌ ما عمومًا، حتى أبسط الأنواع منها، إلى شيء فـــي العالم، أو في "حيِّزنا الاعتقادي" ـــ ولا يعني هذا، بالطبع، أننا ننكر أن هناك مصارف [وضفافا]، أو ننكر أننا نتحدث عن شيء ما (بل شيء معين) إن كنا نناقش مصيرَ الأرض the fate of the Earth أو (the earth's fate) فنـــستنتج أنـــ"ـــه" كالح؛ إذ لا يعني هذا إلا أنه ينبغي ألا ننتهي إلى نتائج غير مسوَّغة اعتمادًا على الاستخدام اللغوي العام، وتتوسع هذه الملحوظات لتشمل أبـــسط العناصر المحيلة والمعتمدة إحاليًا (كالضمائر، و same "مماثل"، و re(build) "يعيد بناء"، إلخ)، أو أسماء الأعلام، التي لها خصائص دلالية ـــ تـــصورية غنية مشتقة إلى حد بعيد من طبيعتنا، مع بعض التفصيلات المـــستمَدة مـــن التجربة. فيسمي شيء ما بأنه شخص، أو نهر أو مدينة، مع الفهم المعقد الذي

يصحب هذه المقولات. وليس في اللغة أسماءُ أعلام منطقية، إذا جردناها من هذه الخصائص؛ ويجب أن نكون حذرين مما سماه بيتر سترلوسون "خرافة اسم العلَم المنطقي" (Strawson 1952: 216) في اللغة الطبيعية، والأساطير المماثلة عن الإشارات indexicals والضمائر. ويمكن أن ننظر إلى التسمية على أنها نوع من "الخلق للعالَم"، بمعنى شبيه بالمعنى عند نيلسون جودمان (١٩٧٨)، لكن العوالم التي نخلقها غنيةٌ ومتداخلة ومشتركة إلى حد بعيد بسبب طبيعتنا المعقدة المشتركة. بل إن مثل هذه الخصائص توجِّه حتى الجهود الواعية للعلوم والفنون ــ لحسن الحظ، أما لو كان الأمر بخلاف ذلك فلن تُنجز شيئًا ألبتة. (للاطلاع على مزيد من النقاش، انظر Chomsky 1975; 1995a).

ولمقاربة التأويل الدلالي في ضوء هذه الطريقة طعمٌ تقليدي. فقد كان علم النفس العقلاني في القرن التاسع عشر يرى أن "القوى المعرفية" cogniscitive الفطرية تُعين الناسَ على "أن يَفهموا أو يَحكموا على ما يُدركونه عن طريق الحس"، وهو الذي لا يتجاوز دورُه إعطاءَ "فرصة [للذهن] ليُمارس نشاطَه الخاص" ليصوغ "بعضَ الأفكار والتصورات الواضحة عن الأشياء من داخله هو" بوصفها "قواعد"، و"أنماطًا" و"أمثلة" و"توقعات" توفر [كلُّها] علاقاتِ السببية والتأثير، والكلِّ والجزء، والتناظرِ والتناسب، والاستخدامِ المعهود ("للأشياء المصطنعة" أو "الأشياء الطبيعية المؤلَّفة" جميعها)، ووحدة الأشياء والخصائص الجشتالية الأخرى، وهي "فكرة شاملة للكل"، عموما[١٢]. ويرى هوبز أنها "تعني أن الأسماء علاماتٌ لا على الأشياء بل على أفكارنا، "تصوراتنا" "cogitations" (Hobbes 1889: 16f)؛ لذلك فالأفضل أن نَفهم المفهومَ التقني ("علامةُ "س"") التي تَصدق على الكلمات، بهذه الطريقة نفسها. وقد تكون هذه "التصورات" معقدة، كما تبيِّن ذلك الطريقةُ التي نَفرِد بها [الأشياء] بناء على التكوين والشكل والأصل وخصائص أخرى. فالرجلُ:

سيظل الرجلَ نفسَه دائمًا، ذلك الذي تنطلق أفعالُه وأفكاره جميعُها من نقطة البداية نفسها للحركة، أي تلك التي كانت في جبله؛ وأن النهر سيكون النهرَ نفسَه الذي ينبع من المنبع نفسه، سواء أكان الماءُ نفسُه، أو ماءٌ آخر، أو شيء آخر غير الماء، هو الذي ينبع من ثم [ويضيف هوبز: كما في الحالة الكلاسيكية لسفينة ثيسيوس]؛ كما ستكون المدينةُ هي المدينة نفسَها، وهي التي تتبع أعمالُها باستمرار من المؤسسة نفسها" (p. 16f).

وكان البحث في الهوية الشخصية من لوك حتى هيوم يهتمُّ بالوحدة العضوية، وهي فكرة أوسع، فيلاحظ لوك أن الشجرة "تختلف عن كتلة من المادة"، وكذلك الحيوان، بسبب "انتظام أجزائها في جسد واحد متجانس، واشتراكها في حياة واحدة" تتصف بـ "تنظيم مستمر" ينبُع من داخلها، بعكس الأشياء المصنوعة. ويضيف شافتسبري أن "هويةَ شجرة من البلُّوط تَحلُّ في "تعاطف أجزائها" الذي يُسهم في بلوغها "غايةً واحدةً مشتركة"، تتمثل في "دعم [الشكل] وتغذيته وتنميته"، ويتفق هيوم مع ذلك إلى حد بعيد، لكنه يَنظر إلى "الهوية التي نعزوها إلى أدمغة البشر"، و"الأنواع الأخرى المماثلة. . . التي نعزوها إلى الخضَر وأجساد الحيوانات"، على أنها "ليست إلا هوية خرافية" من صنع الخيال، لا من "الطبيعة الخاصة التي تنتمي إلى الشكل" كما يقول شافتسبري. ويحاجُّ جون يولتون بأن التيار الرئيس لنظرية الأفكار من ديكارت إلى ريد كان يَنظر إلى الأفكار على أنها "ليست أشياء، بل طرقًا للمعرفة"، "وليست علامات للبنية المادية، بل علامات نستخدمها لنعرف في ضوئها التجربةَ أو نتآلف معها"، وهو ما يجعل "العالَم كما نعرفه عالمًا من الأفكار، والمحتوى المهم" (Yolton 1984: 213ff؛ والاستشهادات الأخرى التي سنوردها هنا وفيما بعد مأخوذة من Mijuskovic 1974: 97-113).

وتكتسب النتيجةُ التي انتهى إليها هيوم مزيدًا من القوة، حين ننظر بدقة إلى تعقيد التصورات وتشابكها. فيلاحظ لوك أن "[الشخص] مصطلحٌ

تشريحي يشتمل على الأحداث وأهميتها؛ لهذا لا ينتمي إلا إلى فاعلين أذكياء، قادرين على أن يشرّعوا القوانين، وأن يكونوا سعداء أو تعساء"، إضافة إلى القدرة على تحمل المسئولية عن أفعالهم، إلى جانب أشياء كثيرة. ويدخل في إفراد الأنهار والمدن عواملُ كثيرة جدًا وراء الأصول التي نشأتْ منها. فيمكن لنهر أن يُعكس مَجراه، أو ربما يمكن تحويله إلى مسار مختلف، بل أن يُفرَّع إلى قنوات ربما تتلاقى فيما بعد، أو يُغيَّر بطرق متنوعة كثيرة، لكنه يظل النهرَ نفسَه، تحت بعض الظروف الملائمة. وتورد التقاريرُ الصحفية بوضوح أنَّ العلماء "اكتشفوا منبع الأمازون" في مكان غير متوقع، وهو المصدر الوحيد الذي يأتي منه، مع أن "الأنهار تبدأ [غالبًا] على صورة قنوات صغيرة كثيرة جدًا". ويلاحظ لوك أن شجرة البلوط تَظل هي نفسها حين يُقطع فرع منها، لنفترض أن شجرة بلوط اقتُلعت وزُرعت في مكان آخر وحلَّ مكانَها الأصلي فرعٌ منها، ثم نما ليكون بديلاً مماثلاً لها في حين تتحلل شجرة البلوط التي نقلت وتَموت ـــ ومع هذا تظل هي الشجرة الأصلية نفسها، بحسب الهوية الخرافية التي تؤسِّسها القوى المعرفية الفطرية. ولا يزيد هذا عن كونه تناولاً أوّليًا لمظاهر الأمر، أما إذا ذهبنا إلى أبعد من ذلك فسنجد هذه القوى تَفرض إطارًا غنيًّا من التأويل والفهم، وهو الذي نتوقع ألا تؤثِّر فيه التجربةُ إلا هامشيًا، كما هي الحال في البنى العضوية المعقدة الأخرى.

والخطوة قصيرة بين هذه الأفكار عن طرُق الإدراك المولَّدة داخليًا التي تتوافق التجربةُ معها والوصولِ إلى تحليلٍ في ضوء السمات الدلالية، أو إلى ما يسميه جوليوس مورافيك "العوامل (التوليدية)" للبنية المعجمية (Moravicisk 1975; 1990)[14]. وإذا أعدنا صياغة هذا المشروع في ضوء هذه الأطر فإننا نحاول أن نكتشف التفاصيلَ التشريحية للدماغ، ومنها الملكة اللغوية والأنظمة عند المستوى الوجيهي، وأن نكتشف كيف تشكِّل التجربةَ والتفاعل الاجتماعي في ضوء هذه المصادر الداخلية.

بعض الأسئلة عن المشروعية:

يُعتقد عمومًا أن هذا الوجه من علم الطبيعة البشرية معقدٌ من غير داعٍ، أو أنه توجُّه خاطئ من حيث المبدأ. فترى إحدى وجهات النظر أن الأدلة التي تُستخدم في التدليل على مبادئ الملكة اللغوية "يمكن أن تُعلَّل بشكل أكثر بساطة بـ . . . الفرضية التي تقول إنّ "الملكة اللغوية فطريةٌ في الأدمغة البشرية" حقًا لكنّ هذا لا يدعو إلى أكثر من القول بوجود "مستوى عضوي للتفسير في ضوء بنية الجهاز" و"مستوى وظيفي للتفسير يصف أنواع اللغات التي يمكن اكتسابها" (Searle 1992: 244). أو أنه يلزَم أن نتخلى عن الملكة اللغوية بشكل تام لصالح "الفرضية المنافسة" التي تقول إن "الوظيفةَ الأصلية لبنى الدماغ الفطرية كانت وما تزال تنظيمَ التجربة الإدراكية، أما تنظيم المقولات اللغوية فوظيفةٌ إضافية مكتَسبة لم تتلاءم العمليةُ التطورية معها إلا صدفة" وهو ما يؤدى إلى التغلب على مشكلة تعليل تطور اللغة، من بين "مزايا أخرى" (Paul Churchland 1981: 86)[١٤].

أما أنّ هناك "مستوى عضويًا" فأمر لا خلاف عليه، إن قُصد بذلك احتمالُ أنّ الذرات والخلايا، وغيرها تدخُل ،احتمالاً، في "بنية جهاز" الملكة اللغوية التي تتصف بأنها "فطرية في الأدمغة البشرية". لكنّ لا يَسعنا الآن إلا اتباع نصيحة جوزيف بلاك الممتازة فنصوغَ "رصيدًا من المبادئ" عن الملكة اللغوية؛ وربما أمكن أن نقول المزيدَ مع التقدُّم نحو التوحيد ـ وربما تكون الاقتراضاتُ الحالية عن "العضو" خاطئةً تصوريًا، كما كانت حال الكيمياء. ويَهتم "رصيدُ المبادئ" بالسؤال عن "ما أنواع اللغات التي يمكن أن تُكتَسب" وما خصائصها، وتفاعلاتها مع الأنظمة الأخرى، والطريقةُ التي تُكتسب بها وتُستخدم، وبمشكلاتِ التوحيد، وأي شيء آخر يَصلُح أن يكون موضوعًا لبحث مفيد. ويبدو أنّ عملنا في تفصيل هذه القضايا يُعيدنا إلى "القواعد العميقة غير الشعورية" التي يرى سيرل إمكانَ الاستغناء عنها. وسيرل محقٌ في قوله "إنه لا يضيف شيئًا من القوة التنبؤية أو التفسيرية أن نقول إنّ هناك

مستوى آخر للقواعد العميقة غير الشعورية" (Searle 1992: 244-245) للملكة اللغوية، "إضافة إلى [المستويين العضوى والوظيفى]". أما ما اقترح [وهو اقتراح تشومسكى] فمختلف إلى حد بعيد [عن هذا]؛ فهو بنىً ومبادئ محددة للملكة اللغوية، تقود فى الأقل إلى تحليل جزئى لخصائص اللغة. ولن تكون الكيمياء، بالمثل، شيئًا مهمًا لو اكتفت بالقول بأن هناك خصائص بنيوية عميقة للمادة، إذ لم يطوِّر شىء عن هذه الخصائص إلا بوصفه رصيدًا من المبادئ. ويُذكِّر هذا النقاش، فى أفضل أحواله، بالخلاف القديم عن إنْ كان يجب عزوُ الخصائص الكيميائية، والبنى الجزيئية، وغيرها، إلى المادة أو أنْ يُنظر إليها ببساطة على أنها وسائلُ حسابية؛ وليس لذلك كله من فائدة، كما يُجمع [مؤرخو علم الكيمياء] حين يُرجعون النظر الآن فيما حدث، ويقع ذلك كله فى إطار ملحوظة بيرج العميقة عن أن الأسئلة الوجودية ontology وما يشبهها "تاليةٌ معرفيًا للأسئلة عن نجاح الممارسات التفسيرية والوصفية" (Burge 1986a: 18؛ وانظر أيضا: Chomsky 1986: 250f; 1995a; note 2)(١٦).

وربما صار اقتراحُ بول تشيرشلاند "فرضيةً منافسة" إن فُصِّل تفصيلاً كافيًا ليتعامل مع أكثر خصائصِ اللغة أوّليةً (كـ "اللانهائية المتمايزة"، و"اعتماد البنية"، إلخ)، ومع خصائص المثال (١) والأمثلة الأخرى الشبيهة، من ثَمّ(١٧). وربما يكون ضروريًا التعاملُ مع حقيقة أننا لا نجد، كما يُتنبأ فيما يبدو، تماثلاً فى التطور المعرفى والبنى المحصَّلة عبر المجالات، والتشابهِ فى استخدام اللغة عند أفرادِ نوعٍ يتماثلون فى طرق تنظيم التجربةِ الإدراكية، وعدمِ الانفصال الوظيفى نتيجة للإعاقات، والتجانسِ بين بنى الدماغ، إلخ.

وقد قدّم هيلارى بتنام تحديًا أكثرَ جوهرية فى مقاله الذى ينتقد فيه: "النزعة الذهنية [عند الباحثين الذين ينتمون لجامعة] إم. آى. تى"، وهى جزئيًا وجهةُ النظر التى بينتُ خطوطَها العامة إلى الآن (وهى التى عزاها لى ولفودر؛ Putnam 1986a; 1986b)(١٨)، وكان يهدفُ من ذلك أن "يزلزل "نظريةَ التمثيلات الدلالية الفطرية""، التى تؤكد:

٥أ – "أن هناك "تمثيلات دلالية" في الذهن/الدماغ".

٥ب – "أن هذه التمثيلات فطرية وكلّية".

٥ج – "أنه يمكن أن تحلّل تصوراتنا كلُّها إلى هذه التمثيلات الدلالية" (Putnam 1986b: 18)

وترى "نظريةُ التمثيلات الدلالية" كذلك أن الذهن "مُشفّر للرسائل المعمّاة": أي أن "الذهن يفكّر أفكارَه بـ"اللغة الذهنية" lingua mentis ، ويشفّر هذه الأفكار باللغة الطبيعية المحلية، ثم يؤديها" إلى سامع "يحوى رأسُه، بالطبع، مشفّرًا للرسائل المعمّاة كذلك، وهو الذى يقوم من ثَمّ بفك رموز "الرسالة"" (Putnam 1986b: 20) التى صيغت باللغة الذهنية.

وتذهب "نظريةُ التمثيلات الدلالية" بعيدًا جدًّا وراء "اللسانيات ــ د". والقولُ بأنّ التمثيلات التى تولّدها "اللغةُ ــ د" تحوّل إلى "لغة ذهنية" فرضيةٌ مختلفة. كما يَذهب الحكمُ (٥ج) إلى ما وراء دراسة اللغة، التى تُعنى بالملكة اللغوية، لا بالأنظمة المعرفية الأخرى، وهى أنظمة قد تكون (وأفترض أنها كذلك) مختلفةً في طبيعتها. ويتطلب الحكمُ (٥ب) شيئًا من التوضيح. إذ إنّ العناصر التى تصاغ منها التمثيلات وحدَها هى ما يُعدُّ فطريًا (ومن هنا فهى كلّية، وتتوفّر بصورة عامة مع أنها ربما لا تتحقّق). ومن هنا ربما تكون مكوّناتُ التمثيلِ الصوتى والطريقةُ التى تؤلف بها فطرية، أما التمثيلاتُ نفسُها فلا؛ فهى تختلف فى الإنجليزية عنها فى اليابانية، بل تختلف حتى بين الأخوة. والشيء نفسه صحيح عن أى شيء يَدخل فى تثبيت المعنى ــ سواء أكان "التمثيلاتِ الدلالية"، أم أى شيء آخر. فتختلف اللغات بعضها عن بعض بهذا المعيار، وهذه مشكلة من مشكلات كثيرة تؤرّق المترجمين. وليس هناك خلاف بخصوص هذا الشأن، وليس هناك خلاف، احتمالاً، فى شأن الدعوى التى تقول إن عناصر أيّة شيء مما يَدخل فى تثبيت المعنى فطريــة. ومــن الصعب أن نتخيل أى دعوى بديلة.

وهناك أسسٌ اختبارية للاعتقاد بأنَّ التنوع أقلُّ في المظاهر الدلالية للغة منه في مظاهرها الصوتية. ذلك أنَّ المادة للصوتية الأوليــة تتــوفر للطفــل بغزارة، كما يبدو أن الفجوة بين الهدف الذي يحققه الطفلُ والمــادةِ الأوليــة [الصوتية] المتوفرة أضيق من الفجوة بين الهدف المحصّل والمادةِ الأولية في الأنظمة الدلالية الفرعية، وإذا كان الأمر كذلك فالتسامحُ مــع التنــوع [فــي الأنظمة الصوتية] أسهل، أما دراسةُ المعنى فيجــب أن تواجــه حقيقــةَ أن التعرُّض المحدودَ جدًا في ظروف ملتبسة جدًا كافٍ ليتمكّن الأطفالُ من فهْــم معاني الكلمات والتعبيرات الأخرى المعقّدة تعقيدًا بالغًا إلى حدٍّ يتجــاوز أي شيء مما بدأتْ أكثرُ المعاجم وكتبِ النحو شمولاً في تبيينــه، وهــي معــانٍ تتصف بقدرٍ عالٍ من الدقة والتشابك لم يُفهم إلا فهمًا أوليًــا جــدًا. ولهــذه الأسباب سعى البحثُ الاختباري نحو اكتشاف الخصائص الدلالية الفطريــة والكلّية.

وتجب مواجهةُ هذه المشكلات سواء تبنينا إطار "اللســانيات ـــ د" (أو بشكل أوسع، "نظرية التمثيلات الدلالية") أو أي إطار آخر. ويبدو كأن بتــام يرى أن آليات الذكاء العام تَكفي. ويوجب هذا أن يكون لهذه الآليات البنيــة الفطرية اللازمة التي تمكّنها من حَمْل الذهن من المادةِ الأولية المتوفرة إلــى الأنظمة المعرفية المحصّلة. [ويعني هذا] أن المشكلة نُقلت الآن، فيما يخص اللغة، من الملكة اللغوية إلى الذكاء العام. وتواجهنا الآن المــشكلاتُ التــي تواجه "الفرضيةَ المنافسة"، وهي أنَّ كلَّ شيء يُختزل بشكلٍ ما إلى التنظــيم الإدراكي. وتبدو النتائج غير مشجّعة كما في السابق، لكنْ ليس هناك ما يمكن أن يناقَش إلا أنْ يُقترح شيء محدد.

وتُختزل الدعوى التي يقصد بتام زلزلتها، فيما يخص اللغة، الآن، إلى (٦):

٦أ ـــ هناك "تمثيلات دلالية" في الذهن/الدماغ.

٦ب ـــ تصاغ هذه التمثيلات من عناصر فطرية.

والحكم (٦ب) غير ضار إنْ صحَّ الحكم (٦أ). لكن الحكم (٦أ) ليس مقصورًا على "النزعة الذهنية [عند الباحثين فى] جامعة إم. آى. تى"؛ إذ يفترض علمُ الدلالة الاختبارى عمومًا شيئًا شبيهًا بها. افرض، مع هذا، أن الحكم (٦أ) زائف. لهذا لا تحوى الملكةُ اللغوية أو أى نظام آخر من أنظمة الذهن/الدماغ "تمثيلاتٍ دلالية". إلا أن هناك حالة داخليةً ما تدخل فى الكيفية التى نفهم بها الجمل، كالتى فى "خ" أو الأمثلة فى (١)، مثلا. فيسرى بديلُ الحكم (٦) – إذن – أن مثل هذه الحالات لا تحوى "تمثيلاتٍ دلالية". ويبدو كأن البديل المقصود يُبقى على المسلَّمات عن حالات الذهن/الدماغ التى تتصل بالصوت، وربما تلك التى تتصل بالخصائص البنيوية للملكة اللغوية التى تدخل فى تأسيس معنى التعبيرات، لكنْ ليس "التمثيلات الدلالية"، فتمثِّل المعرفةُ المعقدة المحدَّدةُ التى اكتسبها الطفل، ويستخدمها، فى الذهن/الدماغ بطريقة ما، لكن ليس بالطريقة التى طوِّرت فى دراسات علم دلالة اللغة الطبيعية، التى حققت نجاحًا واسعًا الآن، وربما يكون هذا محتملا، وربما تكون النظرية الصوتية الحالية بعيدة عن إصابة الهدف، كذلك. لكن التعليق، مرة أخرى، غير ممكن.

وإذا نحَّينا هذا جانبًا، دعنا ننظر فى نقد بتنام للحكم (٦أ). ويأتى هذا النقد على صُورٍ شتى. وإحداها أنَّ "المعنى شَبَكى" holistic. فتقابل الجملُ، فى المعادلة التى اقترحها كوين، اختبارَ التجربة "بصفتها جسمًا تضامنيًا واحدا"، ويمكن للمراجعة أن تحدث عند أى مفصل فيها. وتبدو هذه الصيغة معقولة فى العلوم إلى حد ما، ويبدو كأنَّ رودولف كارناب يتفق مع هذه النظرة، وإن كان يفضِّل صياغتها بشكل مختلف (انظر Uebel and Hookway 1995). لكنَّ المسائل هنا تتعلق باللغة الإنسانية، وهى موضوع أحيائى، لا بالعلوم التى يصوغها البشر، مستخدمين ملكاتٍ ذهنية مختلفة، كما يبدو.

ويرى بتنام، مع ذلك، أنَّ "للغة الحياة اليومية" الخصائصَ الشبكية

holistic نفسها التي في العلوم. ذلك أن الخطاب اليومي يعتمد على مسلمات غير معلنة، لذلك فـ "إذا كانت اللغة تصف التجربة فهي تفعل ذلك بوصفها شبكة، لا بالنظر إلى الجمل جملة فجملة" (Putnam 1986b: 23). لكنّ اللغة لا "تصف التجربة"، وإن أمكن استخدامها لوصفها أو الخطأ في وصفها، أو استخدامها بطرق أخرى لا حصر لها، ولا يُبين لنا كونُ المسلمات غيرُ المعلنة تدخل في استخدام اللغة شيئًا ذا صلة بما نحن فيه هنا.

وتلتفت إحدى صور نقد بتنام إلى الممارسة العلمية. لكن ليس لهذه الحجج، سواء أكانت صحيحةً أم خاطئة، صلةً باللغة البشرية، أو بالمظاهر الأخرى للتفكير البشري، إلا انطلاقًا من بعض المسلمات عن وحدة الذهن التي يلزم بكل تأكيد أن تسوّغ، وهو ما لا يتوفر الآن، وتعتمد أجزاءُ أخرى من حجته على بعض النتائج عن "اللغة الذهنية" و"اللغة العامة"، والحدوس عن الترادف والترجمة وأمور أخرى، وهي أمور لا يبدو أن لشيء منها صلةً هنا حتى إن كانت ممكنة (وهو ما أشك فيه دائمًا، انظر Chomsky 1995a).

ويتصل ما بقي من حجته بـ "فرضية تشومسكي الفطرية". ولم يَسبق لي قط أن فهمتُ ما يُفترض أن تعنيه هذه، وتُدحَض هذه الفرضية دائما، لكن لم يسبق لأحد أنْ صاغها أو دافع عنها، على حد ما أعلم. ويحتمل أن تكون الملكاتُ المعرفية، شأنها شأن الملكات الأخرى كلها، مغروسةً في الإعداد الأحيائي، وأن تكون الملكةُ اللغوية (على افتراض وجودها) نوعًا من التعبير عن المورِّثات. أما وراء ذلك، فلا أعرف أنَّ هناك فرضيةً فطرية، وإن كان هناك بعض الفرضيات المحدَّدة عن ما الذي يكون فطريًا على وجه التحديد.

ويبدو أن بتنام يماهي بين "الفرضية الفطرية" و:

١ـ فرضية أن "اللغة الذهنية" فطرية؛

٢ـ فرضية أن "المفردات الذهنية" فطرية.

ولا تقيّد "اللسانياتُ ــ د" نفسَها بــ (١) أو (٢) ــ على حد مــا أفهــم هاتين للفرضيتين، في الأقل؛ وأعترف أن فهمي لا يذهب بعيدا. يضاف إلى ذلك، أنّ الفرضيتين أيًا كان مضمونهما متمايزتان احتمالا؛ فليـــست "اللغـــة الذهنية" هي المعجم الذهني، مثلما أن اللغة الإنجليزية ليست مفـــردات هـــذا المعجم.

ثم يلتفت بتنام، من ثم، إلى الحجج التي يُزعم بشكل واسع أنها لا تهدّد "النزعة الذهنية [عند الباحثين في] جامعة إم. آي. تي" فحسب، بل تهدد كذلك إحدى دراسات المعنى والإحالة منذ أرسطو حتى ميــل وراســل وفريجــه وكارناب، أي التقليد الذي يتبنى (٧أ) و(٧ب):

٧أ ــ "حين نفهم كلمةً ما أو أيةً "علامة" أخرى، نــربط تلــك الكلمــة بــــ "تصوُّر" ما.

٧ب ــ يحدِّد هذا التصورُ مرجعَ الكلمة (أو "العلامة").

ويرى بتنام أن (٧) دُحضت بكون المرجع يحدَّد جزئيًا عــن طريــق "تقسيم العمل اللغوي" و"ما تسهم به البيئة".

ولا تقيِّد "اللسانياتُ ــ د" نفسَها بــ (٧)؛ ولا يمكنها ذلك، إذا لم تُفسَّر المفاهيم التقنية بشكل ما. فأقصى ما تتقيد به "اللسانيات ــ د" هو (٨):

٨أ ــ حين يَفهم "س" الكلمةَ "ك"، فإن "س" يَستخدم خصائصَها.

٨ب ــ يمكن أن تَشتمل هذه الخصائص على "الصوت ــ د" و"المعنى ــ د"، وإذا كان ذلك كذلك، فــ "المعنى ــ د" يؤدي دورًا في تحديد ما يحيل إليه "س" حين يَستخدم "ك".

وليس وراء ذلك شيء يمكن تحديده بدقة.

ولا يبدو أن لنقد (٧) صلةً بمكوِّن "اللغة ــ د" في "النزعة الذهنية [في] جامعة إم. آي. تي"، في الأقل، لكن دعنا نتفحصها على أية حــال. فينظــر

بتنام، فى توضيحه لتقسيم العمل اللغوى، إلى الكلمة robin [طائر صغير يسمى "أبو الحناء"] فى الإنجليزية البريطانية والإنجليزية الأمريكية. افرض أن بيتر البريطانى الذى يعيش فى بريطانيا وبيتر الأمريكى الذى يعيش فى أمريكا متماثلان من حيث المعايير ذات الصلة، لكنهما ليسا واعيين بأن:

٩ــ "لا تحيل الكلمة robin إلى النوع نفسه من الطيور فى بريطانيا والولايات المتحدة"

فلدى بيتر البريطانى وبيتر الأمريكى الكلمةُ نفسها فى "لغتيهما ــ د"، لكنها تحيل إلى شيئين مختلفين لأن "الإحالة ظاهرة اجتماعية" تتضمن الرجوع إلى الخبراء. لهذا يجب أن نهجر الفرضيةَ التقليدية (٧).

وإذا أخذنا الجملة فى (٩) على أنها حكمٌ عن حقيقة علاقات اللغة بالعالم، فإننا نرغب فى التحقق من كونها صحيحة أم لا، فيجب علينا أولاً أن نفهم الكلمات فيها: وعلى وجه التحديد، "الكلمة: robin" والفعل: "تحيل"، وهى علاقة يُزعم أنها موجودة بين "الكلمة robin" ونوع أحيائى ما. دعنا نُسلِّم (بقدر كبير من الاستعجال) بأننا نفهم ما يكفى عن المقصود حين نتكلم عن "الكلمة robin"، بوصفها وحدة فى "لغة عامة" (كما هو المقصود). فماذا عن الكلمة "يحيل"؟ ويَستخدم الناسُ الكلمات ليحيلوا إلى الأشياء بطرق مختلفة، لكن اللغة الإنجليزية لا تتضمن كلمة "يحيل" أو "إحالة" بالمعنى الذى فى (٩)[١٩]، وكذلك اللغات المماثلة، وهو السبب الذى ألجأ فريجه إلى أن يخترع مصطلحين تقنيين والسببُ كذلك فى التنوعات الكثيرة للكيفية التى تُترجَمان بها، وقد جعل ذلك بعضَ الباحثين يفضِّل الكلمات اللاتينية التى توضِّح مكانتهما التقنية. لذلك يجب أن نقوم بعملٍ ما لنَجعل تقويم (٩) ممكنًا بوصفه زعمًا اختباريا.

ويوحى السياق (كاللجوء إلى التجارب الذهنية، إلخ) بأنه ينبغى أن يُفهم الحكمُ (٩) فى إطار دراسة النظريات الشعبية، وإذا كان الأمر كذلك فلا يبدو أن هذه النتائج مهمة لـ"اللسانيات ــ د"؛ أو حتى للدراسات التقليدية احتمالاً،

إن فُهمت على أنها تقدّم نوعًا من التأسيس المنهجي. ومع ذلك دعنا نسأل إن كان الحكم (٩) مؤسّسًا تأسيسًا قويًا في إطار دراسة النظرية الشعبية، ولكـــي نتجنب المصطلحات التقنية (التي لم تفسَّر بعد)، دعنا نختر جملاً إنجليزيـــة مناظرة لها، وربما تلك المصطلحات التي في (١٠):

١٠ـ Peterus uses the word robin to refer to one species of bird, and PeterGB to refer to different species.

"يستخدم بيتر الأمريكي الكلمةَ robin ليحيل إلى نوع مـــن الطيـــور، ويستخدمها بيتر البريطاني ليحيل إلى نوع مختلف".

فهل (١٠) صحيحة؟ إن الطيور التي يسميها بيتر الأمريكـــي robins مختلفةٌ بطرق مختلفة كثيرة عن الطيور التي يـــسميها بيتـــر البريطـــاني robins، لكنّ هذا صحيح أيضًا في حالة بيتر الأمريكي وصـــديقه تـــشارلز، اللذين عاشا جارَين طوال حياتهما. لذلك يجب أن نعرف أشياء كثيرة لكـــي نقوِّم (١٠).

افرض أننا سألنا عن ما الذي يمكن أن يقوله بيتر الأمريكي إنْ ذهـــب إلى بريطانيا ورأى تلك الأشياء ذات الصدور الحُمْر هناك؟ فربما يـــسميها، افتراضا، بـــ robins لذلك لن يفيدنا هذا شيئا. افرض أن جونز ســـيقول إن بيتر الأمريكي مخطئ حين يسمي هذه الطيور في بريطانيا بـــ robins (أمـــا أنا فربما لا أفعل). ويعني هذا أننا نتعلم الآن شيئًا عن جونز لا صلة له بما نحن فيه هنا.

وربما كان جونز يفترض شيئًا شبيهًا بالدعوى (٩). فربما كان يعتقـــد أن "التصور" robin عند بيتر الأمريكي لا يشمل النوع كله في بريطانيا؛ وأن "تصوُّرَ "ماء" عند أوسكار الأرضي لا يشمل الـــ"ن ص ع" فـــي تـــوءم الأرض. لكن هذا يعيدنا الآن مرة أخرى إلى السؤال الأصلي، أي: كيف لنا أن نتحقق إن كانت مزاعم جونز صحيحة؟

افرض أن بيل ابنَ عمّ بيتر الأمريكى يعيش فى منطقة من الولايــات المتحدة تنتمى فيها الطيور التى تسمى robins إلى نوع فرعى مختلف. فــإذا زار بيتر الأمريكى بيلَ وسمى الشيء الذى فى حديقة منزلــه بـــــ robin، فهل يكون مخطئًا؟ وهل يمكن أن يَفهم كلامَ بيل عن الـــ robins؟ افرض أن مارى (زوج بيتر الأمريكى) نشأَتْ فى المنطقة التى نشأ فيها، لكنها قَــضت جزءًا من طفولتها فى بريطانيا. فما الذى تُحيل إليه مارى حين تتكلم عن الـــ robins ؟ وتختلف الأحكام تبعًا لاختلاف الحالات، بطرق متعددة كثيرة، وهى أحكام فى الغالب الأعم غير واضحة إلى حد بعيد جدًا.

ولا تبدو هذه الحالة معضلة فى "النزعة الذهنية [عند البــاحثين فــى] جامعة إم. آى. تى"؛ ذلك أن الأشخاص المذكورين، الذين يتشابهون من حيث بعض المعايير ذات الصلة، سيُصدرون الأحكامَ نفسها، افتراضًا، عما يكون robin. وتثير النتائج الأخرى عن إن كانوا مُصيبين أم مخطئــين، أو كيــف تُستخدم "الكلمة robin" لتحيل فى "اللغات العامة"، أو للتعبير عن اعتقــاداتهم، مسائلَ أخرى ربما تَستحق الاستقصاء، أو ربما لا تستحقه حين تصاغ بشكل ملائم واضح. وليس هناك شيء وراء هذا يستحق الحديث عنه، فيما يبدو.

ويستشهد بتنام، فى توضيح "ما تُسهِم به البيئة" بحجــة تــوءم الأرض وحجج أخرى، وتقوم كلُّها على افتراضاتٍ عن "ما يمكن لشخص متوسط أن يقوله" فى ظروف مختلفة. ومرة أخرى، ليست هذه الحجـــج مهمـــة بـــشكل مباشر لنظريةٍ عن اللغة تتبنى الدعوى (٨). فأقصى ما يمكن أن تبيِّنه هــذه الحجج أن النظرية أو "نظرية التمثيل الفطرى" لا تقدِّم تفسيرًا كاملاً للــسلوك اللغوى، أو أنها لا تحيط بالاستخدام العادى، وهذا أمر واضح منذ البداية.

وتقوم الحجج (عن "ماء") على فرضية أن "الماء" هو H2O. ويجــب علينا، لكى نقوِّم مكانةَ هذا الحكم، أن نعرف ما اللغة التى ينتمى إليها. وهــو لا ينتمى إلى اللغة الإنجليزية؛ إذ ليس فيها كلمـــة H2O. ولا ينتمـــى إلـــى الكيمياء، التى ليس فيها كلمة "ماء" (مع أن الكيميائيين يستخدمون هذه الكلمة

في حديثهم العام). ويمكن اقتراح أن الكيمياء والإنجليزية تنتميان إلى "لغة عليا"، لكن يبقى أن نفسِّر ما يعنيه هذا! (انظر Bromberger 1996).

وإذا ما وضعنا مثل هذه المماحكات جانبا، فهل صحيح أن المتكلم المتوسط يعتمد على "المكوِّنات" حين يقرِّر إن كان شيء "ماء"؟ افرض أن كأسين G و G´ وضعا فوق الطاولة، وقد مُلِئ الكأس G من الصنبور ومُلِئ G´ من بئر. افرض أن كيسًا من الشاي غُمِس في G´. ويمكن أن يكون محتوى G و G´ متماثلاً كيميائيًا؛ إذ ربما جاء ماءُ الصنبور من مصدر ماء يستخدم "مصفاة من الشاي" لإزالة الشوائب. وعلى الرغم من معرفتي بأن محتوى الكأسين متماثل فربما أقول إن ما في G "ماء"، لا شاي؛ وأن ما في G´ شاي، لا ماء. ويبدو لي أن هذا أمر مألوف. فالمكوِّنات من العوامل التي تُساعد في تقرير إن كان شيء ما "ماء"، لكنها ليست العامل الوحيد[٢٠].

ويذكِّر هذا الوضعُ بحالة الكلمة "كتاب" والأشياء الأخرى الشبيهة. فبإمكاننا هنا كذلك أن نرتِّب الظروف مما يجعلنا نوجِّه اهتمامنا إلى التكوين، لا إلى العوامل الأخرى، في تقرير ما نتحدث عنه، وربما صحَّ لنا، في مثل هذه الظروف، أن نسمي ما يحويه G و G´ كلاهما "ماء"، وربما تستطيع الدراسةُ الاختبارية تبيين أن التكوين من العوامل الأكثر جوهرية لـ "ماء" منها لـ "كتاب"؛ وربما كان ذلك كذلك، لكن ذلك ما يزال غيرَ ذي صلة بـ (٨)، وليس هناك إجابات، في الحالات العادية، إلا في ضوء ظروف واهتمامات معقَّدة متنوعة تؤدي إلى ما أسماه أكيل بيلجرامي (١٩٩٢) بـ "محلية المضمون". فإذا اعتقدتْ ماري أن هناك ماء في المريخ، مثلاً، وأن شيئًا اكتُشِف هناك وتَعُدُّه "ماء" مع أن تكوينه الداخلي هو التكوين الداخلي للماء الثقيل أو لـ "س ص ع"، فليس هناك إجابة عامة عن إن كان اعتقادها صحيحًا أم خطأً.

ويضيف الاحتكام إلى استخدام الخبير مآزقَ جديدة، ومن ذلك أنَّ مقالاً علميًا نُشر مؤخرًا يفتتح بالقول إن "الزجاج، في التصور العام والصحيح

أساسًا، سائلٌ فقَدَ قدرته على الجَرَيان"، ثم يستمر ليستنتج أن "معظم الماء في الكون موجود في حالة الزجاجية (كما في المذنبات، إلخ)"، بصفته "ماء مُتَزجِّجا يَظهر بصورة طبيعية" (Angell 1995: 1924). افرض أن مَشهد الشاي ـــ الماء الذي وصفناه آنفًا حَدث في توءم الأرض، حيث يصنع سكانها كؤوسَهم من أذناب المذنبات التابعة للأرض. ثم افرض أن أوسكار الأرضي هبطَ على توءم الأرض وطَلَب ماء، مشيرًا إلى G. فهل هو محقٌ إن كان يُحيل إلى الكأس ومخطئ إن كان يحيل إلى محتوياته؟ وأحكامي [عن هذا الأمر] واضحة إلى حد معقول، وأظن أنها نمطية.

لننظر إلى هذه القضايا من زاوية مختلفة، ولنأخذ ألبرت وبيل على أنهما متماثلان نسبيًا، وأن "أ" و"ب" تفاحتان متماثلتان تماما، و"أ" شيء في تجربة ألبرت، و"ب" شيء في تجربة بيل. ويفكر كلُّ واحد منهما بتفاحته، وينظر إليها، ويقضم منها قضمة، وهو ما يؤدي إلى تغيرات شاملة متماثلة للحالة، فهل سنقول إن تفكيريهما وخياليهما البصريين وتذوقيهما وتغيُّرَ وزنَي التفاحتين وغيرَ ذلك متماثلةٌ عند ألبرت وبيل لكنها "موجَّهة" إلى شيئين مختلفين؟ أم أنها مختلفة عندهما، حيث الشيئان الخارجيّان "أ" و"ب" "جزءان" من تفكيريهما، إلخ؟ وإذا سمع ألبرت وبيل أداءين متماثلَيْن لـ "خ"، فهل يمتلكان تجربتين متماثلتين سمعًا وفهمًا موجَّهتين نحو أشياء مختلفة، أم يمتلكان تجربتين مختلفتين تتضمنان تلك الأشياء؟ ويمكن أن يتعامل الاستخدامُ اللغوي في الإنجليزية العادية مع المقاربة "الخارجية" بخصوص الفكر والفهم أكثر من تعامله فيما يخص تغيرات الوزن، لكن ليس من الواضح ما الذي يمكن أن نتعلمه من هذا، وعلم الطبيعة البشرية متخلف جدًا إلى درجة لا تسمح له بإثارة هذا السؤال، وتبدو الصورة التي تقترحها المقاربةُ الداخلية ملائمة، وإن كانت غير كاملة بالمعنى غير المهم الذي تأخذ فيه دراسةُ ألبرت وبيل في بيئتهما البيئةَ في الاعتبار.

وغالبًا ما تكون الأمثلة العادية أكثر تعقيدًا. انظر مثلاً إلى أحد أوجه

الاختبار المحيّر عند سول كريبك. افرض أن بيتر قال:

I used to think that Constantinople and Istanbul were different cities, but now I know they are the same.

"كنت أظن أن القسطنطينية وإسطنبول مدينتان مختلفتان، لكنى أعرف الآن أنهما شىء واحد".

ثم يضيف:

But Istanbul will have to be moved somewhere else, so that Constantinople won't have an Islamic character.

"لكن يجب أن تُنقل إسطنبول إلى مكان آخر، حتى لا يكون للقسطنطينية طابع إسلامى".

(للاطلاع على أمثلة حقيقية من هذا النوع انظر Chomsky 1995a)، فهل يعنى هذا أن بيتر تبنّى وحدات معجمية جديدة؟ أو اعتقادات جديدة؟ أو أشياء مختلفة؟ وإذا قال، محيلاً إلى إسطنبول:

It will have to be moved and rebuilt elsewhere.

"إنه يجب نقلها وإعادة بنائها فى مكان ما".

[باستخدام الضمير it الذى يعنى الإشارة الآن إلى شىء معلوم لأنه سبق الحديث عنه، واستخدم السابقة الفعلية re التى تدل على إعادة بناء المدينة]

(فى حين تظل المدينة نفسَها)، فكيف يمكن لنا أن نؤول الوحدتين المكتوبتين بالخط المائل [فى الجملة الإنجليزية] ــ وهما اللتان تتصرفان بأشكال مختلفة بطرق غريبة تبعًا لتنوع الأمثلة؟ (انظر Chomsky 1995a؛ وانظر أيضًا الفصل الخامس فى هذا الكتاب). وليس بإمكاننا، كما يبدو، أن

نقوم بعملنا إلا بطريقة معقولة كما أوضحنا من قبل.

انظر إلى قضية احتمال الوقوع في الخطأ؛ فمن الواضح أننا نـود أن يكون باستطاعتنا أن نقول إن بيتر ربما يكون مخطئًا في تسمية شيء ما بـ "س". لهذا ربما يكون مخطئًا في وصفه محتوى G بأنـه "مـاء"، حـين لا يعرف أنه "شاي"، لا "ماء"، أو ربما يخطئ في أخذه رزمـةً مـن الـورق تستعمل مقياسًا للوزن على أنها كتاب. وربما يكون مخطئًا بسبب غفلته؛ ذلك أنه ربما لن يسميه "س" لو كان واعيًا بالحقائق، أو ربما كنا نتبنى وجهة نظر تعتمد على التكوين في تقريرنا إن كان مخطئًا أم مصيبا، لهذا ربما كان مـا يأخذه بيتر على أنه "ماء" "شيئًا" مختلفا، كأن يكون "ماء ثقيلاً" أو "س ص ع"، وهذه المحاولات نموذجية في العلوم، أما كونها ملائمةً عن اللغة الطبيعيـة، وبأي معيار إن كانت كذلك، فأمر ينتظر أنْ يوضَّح. وربما يكون ضـروريًا أن نبيِّن الإطارَ النظرى الذى أثيرت فيه هذه الأسئلة، وإذا كان هذا الإطـار يستعمل أفكارًا مثل "تصوُّر"، فمن الضرورى أنْ تحدَّد هذه التصورات بطرق واضحة؛ لا بافتراض أنها تحدَّد بالنظر إلى تكوينها الداخلى، مـثلا. ولـيس هناك سؤال واضح، ومن هنا فليس هناك إجابات واضحة.

افرض أن للفتى تشارلى تجاربَ فادتْه إلى أن يَعـرف أنَّ اسـتخدامه [اللغوى] يختلف عن استخدام البالغين في مجموعته [اللغوية][٢١]. افرض أنه كان يحيل في الطور (١) [من أطوار اكتسابه اللغة] إلى الحيوانات المائيـة المعهودة على أنها "أسماك" وإلى الحيوانات المائية الكبيرة على أنها "حيتان"، وإذا ما وَجد أن البالغين يتبنَّون استخدامًا مختلفًا في تسمية أقرب الحيوانـات النظيرة (وينطقون أسماءها بأشكال مختلفة أيضا) انتقل إلـى الطـور (٢)، مكيِّفًا نفسَه مع استخدام البالغين، سواء بوعي أم بغير وعي. فكيف نصف ما حدث؟

وربما يميل بعض الملاحظين إلى القول بأن تفكير تشارلى عن الحيتان والأسماك في الطور (١)، والطريقةَ التى استَخدم بها الكلمات ونَطَقَهـا بهـا

خطأ. وأنه استطاع تصحيح خطئه حين وصل إلى الطور (٢)، ويشهد هـذا بأنه يُحسّن من معرفته بالإنجليزية، وهي لغة المجموعة اللغوية التي ينتمي إليها (ولا يقدّم الاستخدامُ العادي للغة طريقةً للإحالة إلى نظامه اللغوي في الطور (١))، ويمكن للبحث عن فهْمٍ أوفى أن يتّبع المسارين المألوفين. فيمكن أن نسعى لتعلُّم المزيد عن كيف يتكلم الناس ويفكرون عن مثل هذه الأمور، أو لتعلُّم المزيد عما يحدث بالفعل.

والتفسيرُ في ضوء "اللسانيات ـــ د" واضحٌ، وإن لم يكن كاملا، ويعود ذلك إلى المدى الذي يصل إليه، هذا من جهة، ومن جهة أخرى إلى نقص الفهم داخل هذا المدى. فيمتلك تشارلي، في الطور (١)، "اللغـة ـــ د "ل١"" التي تتضمن الوحدتين المعجميتين "سمك١" و"حوت١". أما في الطـور (٢)، فتحوي "لغته ـــ د "ل٢"": "سمك٢" و"حوت٢"، اللتين تختلفان مـن حيـث الخصائص شيئا ما. والسمات الصواتية [لهذه الكلمات] مختلفة (افتراضـا)؛ لكنّ وضعَ السمات الدلالية غيرُ واضح، فهل للوحدتين المعجميتين الجديدتين سمات مختلفة، تتضمن المعاييرَ الجديدة للإحالة إلى الحيوانات المائية؟ وهل تنتقيان مناطقَ مختلفة في "اللغة الذهنية"، أو الحيِّز التـصوري، أو النظـام الاعتقادي؟ أو أي شيء آخر؟ وسوف يتغيَّر ما يسميه تشارلي أشياءَ بطـرق شتى، في ضوء الحقائق العارضة، نحو: هل تنتمي الحيوانات المائية الكبيرة التي كان يعرفها في الطور (١) إلى الفقريات أم إلى سمك التونة. ويمكن لنا أن نبحث عن بعض المبادئ التي تتصل بما يمكن أن يكون قد حـدث، ثـم نسأل إلى أي مدى يمكن لما حدث أن يتّبع مسارًا آخر لو اختلفت الظروف. ولا يُعرف إلا القليل عن هذه المواضيع مما يجعلنا نكتفي بالافتراض بشأنها، لكنْ لا ينشأ عن هذا مشكلات مبدئية واضحة. وربما لن يتقدم مشروع البحث باللجوء إلى فكرة "تعيين المعنى "الإحالة" (denotation)" للكلمات في "لغـة عامة" يعرفها المتكلمون جزئيًا ويشتركون فيها، أو إلى "الذهن الجمعـي" أو إلى "الكلمات" التي تظل ثابتةً في حين يتنوع النطق والاستخدام، وغير ذلـك من الأفكار المماثلة التي ظلت غامضة.

افرض أننا قاربنا هذا الأمر في ضوء فكرة للإحالة في لغة عامة، وربما في ضوء نظرية سببية. ويجب علينا حينئذ أن نحدّد هل ظلت الإحالتان لـ "حوت" و"سمك" ثابتتين في الوقت الذي غيّر فيه تشارلي ما يسميه أشياء (ومن ذلك الأشياءُ في تجربته السابقة)، وكذلك ما حدث لمضمون أفكاره. وحين تبيّن الأفكارُ التقنية ربما تسهّل صياغةَ الأسئلة الاختبارية المهمة عن، كيفية تفكير الناس في هذه الأمور في هذه الثقافة أو تلك، وفي هذا السياق اللغوي أو ذاك، أما في علم الطبيعة البشرية فلا يبدو لي هذا المسار واعدًا.

انظر أخيرًا إلى حالة ناقشها بيرج (Burge 1986b)، وتبيّن نوعًا من البحث لافتًا للنظر، افرض أن "أ" يشارك متكلمي الإنجليزية الآخرين في الكلمة sofa "أريكة"، وفي التجارب ذات الصلة بالأشياء التي يسمونها sofas "أرائك". لكنه صار يعتقد أن "الأرائك" sofas "لا تُستخدم أثاثًا يُجلَس عليه، بل أعمالاً فنية أو مصنوعات لها وظائف دينية"، وليس الجلوس عليها "وظيفة أصلية لها". فيتفق "أ" مع الآخرين على ما يمكن أن يعدّ أرائك من بين الأشياء الموجودة في تجربتهم المشتركة، لكنه يختلف عنهم في وظيفة الأرائك؛ وربما يختلف معهم أيضا فيما إن كانت الأرائكُ تُستعمل فعلاً للجلوس. (ويَظن "أ" أن الآخرين مخدوعون في هذه المسألة)، ويَستنتج بيرج أنه إذا وُجد أنّ شكوك "أ" تقوم على أسباب قوية، فربما يجب أن يتغير "المعنى المتواضَع عليه لـ sofa"، لكن "ربما يظل من الملائم. . . أن تعزو بعضَ التوجهات الافتراضية التي تشتمل على فكرة الأريكة" (Burge 1986b: 715)، كما وصفناه آنفا.

والسؤال الآن: كيف يمكن وصفُ هذه الأحداث في إطار المقاربة الداخلية، التي نوسّعها الآن لتشمل الافتراض بأن هناك نظامَ "تصور ــ د" ونظامَ "اعتقاد ــ د" إلى جانب "اللغة ــ د"؟

فيمتلك "أ" والآخرون، في البداية، الوحدةَ المعجمية sofa، و"التصور ــ د" sofa نفسه، و"الاعتقادات ــ د" نفسها عن الأرائك، ولنسم هذا كلَّه بالوحدة

المشتركة المعقدة "أريكة" SOFA. وينظر إلى الأرائك، في داخل هذه الوحدة المعقدة، على أنها مصنوعات لها بعض الخصائص المادية والوظائف المعينة، وتتغير "الوحدة المشتركة المعقدة لأريكة" SOFA، عند "أ" إلى وحدة أخرى هي ´SOFA ويصحب هذا التغير تحولٌ في اعتقاداته عن وظيفة الأرائك، ويمكن لشخص آخر، ولنسمه "ب"، أن يغيِّر من معتقداته عما تتكون منه الأرائك، مستخلصًا أن الأرائك في العادة مستوية السطح ولها أذرع حديدية، لكنها ما تزال تُستعمل للجلوس عليها؛ وتتحول SOFA، عند "ب" إلى وحدة من نوع آخر: ´´SOFA، ويتفق الجميع على ما يعدُّ أرائك من بين الأشياء التي تحيط بهم، لكن "أ" يختلف عن الآخرين في وظيفة الفصيلة التي تنتمي إليها هذه الأشياء، ويختلف "ب" عنهم في مكوناتها.

وإلى هنا، ليس هناك صعوبة في وصف الأحداث والحالات الذهنية - (د) عند المشاركين. ولم نقل شيئًا بعدُ عما حدث للمعنى المتواضَع عليه، والأفكار والاعتقادات في أثناء تطوُّر معالمِ هذه القصة؛ أو عن أين حدثت هذه التغيرات في "الأريكة".

ولا يمكن أن نتناول السؤالَ الأول إلا بعد أن توضَّح هذه الأفكار. أما السؤال الثاني فربما يكون ذا صلة هنا، لكن الإجابة عنه ما تزال غير ممكنة. وتحدث التغيرات، افتراضًا، في مكوِّن "الاعتقاد - د" للأريكة [بمعناها العام المعقد] SOFA، لكن هذا لا يجيب عن السؤال عن إن كان "أ" و"ب" قد غيَّرا الوحدات المعجمية في "لغتيهما - د"، أم أنهما غيَّرا مظهرًا آخر من مظاهر الوحدة المعقدة "أريكة" SOFA، ومهما كانت الإجابة فيبدو أن هناك تفسيرًا مطردًا لها.

ويحاجُّ بيرج أنه ربما يكون من "السطحي غير المقبول" القولُ بأن "أ" غيَّر لغته حين شعر ببعض الشكوك، ذلك "أنه ليس صعبًا أن نفهم أنه يثير بعضَ الأسئلة عن حقيقة الأرائك" وأنْ نعرفَ كيف نقارب هذه الأسئلة، وإذا سلمنا بكل ما تقدم فما نزال - مع ذلك - نجهل إن كان "أ" قد غيَّر "لغته - د"،

مستبدلاً بوحدة معجمية أخرى غيرها. فإذا ظلت "الغته ـــ د" ثابتة، فربما يقول الآن إنَّ ما كان يظنه الناسُ عن الأرائك خطأ؛ أما إذا تغيَّرت بالطريقة التـــي وصفناها، فربما يقول الآن إن الناس مخطئون في تسميتهم هذه الأشياء "أرائك" ـــ ذلك أنها في الواقع أشياء أخرى، ومهما كان الأمر، فنحن نـــستطيع فهْـــم أسئلته ونعرف كيف نتقصَّاها. وهناك أسئلة اختبارية ثاوية قريبًا من الـــسطح، وربما يمكن الكشف عنها، ومع ذلك فليس من الواضح إن كان هنـــاك شـــيء أكثر من هذا أهمية هنا.

وتَنشأ أسئلة مماثلة عن الحيتان والأسماك، افرض أنــــه يُنظـــر إلـــى الحيتان على أنها أسماك في المجموعة اللغوية التي ينتمي إليها بيتر، لكنـــه قرر أنَّ تصنيفًا آخر ربما يكون أكثر ملاءمة، لذلك عدَّل من استخدامه. ومرة أخرى، ليس صعبًا أن نفهم أنه يثير أسئلةً عن الحيتان والأسماك (وربما عن "ماهيتها" حقيقةً، وإن لم يكن من الواضح إن كانت هذه أوضح طريقة للكلام عنها)، ونحن نعرف كيف نتقصى هذه الأسئلة.

ويبدو أن البحث في هذه الحالات في تنوعها الأخاذ يقود إلى إجابـــات تتنوع تنوعًا واسعًا حين نغيِّر الظروف المفترَضة تغييرًا قليلاً، ويُثير بعضَ الشكوك عن مدى ما يمكن أن نتعلمه بمقاربة هذه الأمور بهذه الطريقة. لكنْ لا يبدو لي – بغض النظر عن أي شيء – أن لهذه الظواهر أثرًا على صحة المقاربات الداخلية للمظاهر اللغوية والمظاهر الذهنية الأخرى للحياة البشرية، إلى الحد الذي يمكن أن تصل إليه، أو أنها توحي ببديل مفضَّل آخر.

هوامش الفصل السابع

(١) للاطلاع على بعض الأمثلة المشابهة، وعدد من القضايا التي تجاوزناها هنا بدرجة كبيرة من العجلة (انظر Chomsky 1995a).

(٢) وقد تحاورنا أنا وجون سيرل عن هذه القضايا لسنين عدة. ومن الواضح أننا نتفق على عدم تماسك النزعة الأحادية monism والنزعة الثنائية والنزعة المادية، إلخ (انظر :Searle 1992: 25; Chomsky 1968 98)، وعلى الوضوح الأساسي لتصورات القرن الثامن عشر للذهن ــ الجسد من النوع الذي ذكرته آنفا. لكننا لم نتفق على الكيفية التي تفسَّر بها خصائصُ اللغة؛ انظر أدناه.

(٣) لاحظ أني لا أوافق على أن الاختيار يقع بين تأويل "الإحاطة grasp والفهم understanding بصفتهما حالتين شعوريتين"، أو أنهما "مجرد نمطين لردود الفعل الناتجة عن التدريب" (انظر Gaifman 1996: 387، حيث يتبنى وجهةَ نظر يعزوها إلى مايكل دوميت). ويبدو أن فهْم (الجمل التي في (١)، أو الخبر (خ)، إلخ) يتضمن حالات وعمليات لا تقع تحت أي من المقولتين.

(٤) وهناك عدد من الأفكار المختلفة عن كيفية النفاذ إليها. للاطلاع على نقاش نقدي لبعض هذه الأفكار وعن بديل "الإدخال المتأخر"، انظر (Halle and Marantz 1993). وسأعرض عن هذه الأمور جميعها هنا.

(٥) ويورد ستك (Stich 1996: 38f) الصياغات النموذجية ــ لكنه لا يتبناها، وهو يميِّزها عن "اللسانيات ــ (د)" و "ما قبل ــ العلم" بخصوص الإحالة.

(٦) لاحظ أنه ليس هناك تعارض بين قبول ملحوظات فتجينشتاين الحذرة

عن هذه الأمور والنتائج القوية – شيئًا ما – عن خصيصة عدم التغير في الصوت والمعنى.

(٧) ويُعدُّ توماس ريد Thomas Reid أشهرَ الذين يحاجُّون متَّبعين طريقة فلسفة اللغة العادية الحديثة التي مفادها أنَّ تصورَ فكرةٍ ما على أنها "الموضوع الذي يتأمله الذهن" يقوم على خطأ في تأويل النحو السطحي، ويمكن توسيع حجته لتشمل الفكر والاعتقاد وحالات أخرى. وللتوسع في قضية النظر إلى الأفكار على أنها موضوعات للفكر أو حالات للذهن في فكر القرنين السابع عشر والثامن عشر، انظر (Yolton 1984) الذي يحاج بأن ريد والشرَّاح الآخرين قرءوا تقاليد ذينك القرنين قراءة خاطئة، وانظر أدناه.

(٨) كان يُفترض في الأبحاث المبكرة جدًّا من النوع الذي نناقشه هنا أن "اللغة ـــ د" تولِّد "سامات" في مستويات لغوية متعددة (أي المستوى الصوتي، ومستوى الكلمة، ومستوى بنية المركبات، إلخ)، وكل واحدة من هذه "تمثِّل" صـو (ت) بوصفه محصولاً صحيحًا عنه. لهذا فـ "صو (ت)" هو. . .، حيث تمثِّل النقاط "التمثيلَ" الصواتي (أو تمثيل الكلمة، أو تمثيل البنية المركبية، إلخ) (للاطلاع على بعض التفاصيل انظر Chomsky 1955/1975). ويمكن أن يؤخذ "صـو (ت)" (ومن هنا، الوسمُ على المستويات كلها) على أنه "يمثِّل" المنطوقات بطريقة مماثلة؛ ولأن المنطوقات ترتبط بحالات المتكلمين، يمكن أن يُفهم الحَمْل على أنه صحيح عنها، وهو المسار الذي اتبعه برومبيرجر وهاله (Bromberger and Halle 1996)، في مناقشتهما للمستويات الصواتية في ضوء مقاصد المتكلمين (وهي التي تُفهَم على أنها تُزاد على حالات الذهن)، وكان مقصدُهما المقارنةَ بين النظريات المتنافسة، وهو سبب جيد من أجل البحث التأسيسي المفيد، وهو الذي قلما يقام به.

(٩) ولأسباب مماثلة، فعلى الرغم من أن فرضية "استقلال التركيب" رُفضت

بشدة فإنّ أحدًا لم يدافع عنها إطلاقًا – على حد مـــا أعلـــم – كمـــا أن القائلين بها لم يصوغوها بأية طريقة مفهومة.

(١٠) ولأسباب مماثلة تواجه النظريةُ عن "الجمل المترجَمـــة" T-sentences بعضَ المشكلات حين يختلف الموضوع واللغة الواصفة، لذلك لا توفّر الحصيلةُ المعلوماتية للجمل المترجَمة غير المُجانسة أسسًا جيدة لتسويغ المقاربة. ومهما كانت قيمتها، وهي حقيقية، فهي لا تلامس السؤالَ عن الكيفية التي تفاعل بها اللغة مع العالَم، وهي التي تمثل قلـــبَ النظريـــة التقليدية عن المعنى. انظر أيضا (Fodor 1990).

(١١) ينبغي ألا يلتبس به افتراضُ أنّ "القيم الدلالية (أو الصوتية)" وحـــداتٌ ذهنية، بعلاقاتٍ (وحدة معجمية، قيمة) ذوات خصائص صـــورية لـــــ "يُحيل" و"يُعيّن" بمعنييهما التقنيين. فيجب أن يُنظر في هـــذه المـــسألة بشكل موازٍ للافتراضات المتعلقة بالموضوعات التركيبيـــة الأخـــرى. ويبدو لي أن من الملائم (وإن لم يكن متواضعًا عليه) أن نَفهم كثيرًا من الأبحاث في دلالة اللغة الطبيعية في ضوء هذه الطرق.

(١٢) وربما أمكن أن تُفهم بعضُ اقتراحات البنيويين في ضوء هذا التحليـــل، لكن ذلك ربما يكون تأويلاً مشكوكًا فيه، كما أظن.

(١٣) وهذه الاستشهادات مأخوذة من (Cudworth 1838: 425)، لكن وجهـــة النظر هذه عامة؛ وكانت مؤثِّرة في الشكل الذي اقترحه "كـــانط" لهـــذه الفكرة كذلك؛ (انظر Chomsky 1966: 67-68).

(١٤) ويأخذ مورافيك (Moravcsik 1975; 1990) متبنيـــا أفكـــارًا أرُســـطية وتطبيقاتها بشكل عام على الدلالة المعجمية هذه العوامـــلَ علـــى أنهـــا "المكوِّنات، والبنية، والوظيفة، والفاعلية". للاطلاع على بعض التعليقات انظر Chomsky 1975؛ وعلى تفصيلات بعض الأفكار المماثلة (انظر Pustejovsky 1995).

(١٥) وأنا لا أتوقف هنا عند الاختلافات الاصطلاحية غير ذات الصلة.

(١٦) ويحاجُّ سيرل أيضًا بأن افتراض بعض القواعد غير الشعورية ليس مشروعا، لكنه يقدِّم هذه الحجة اعتمادًا على ما يبدو لي كأنه أسباب غير مهمة؛ انظر Chomsky 1990). وطريقته الاختزالية التي استعمل فيها القياس على "ملكة الإبصار" لا صلة لها هنا لأن المبدأ الذي كان محقًا في رفضه إياه يفتقر إلى أيَّة قوة تفسيرية.

(١٧) وهناك بعض الأبحاث الجادة تتصف بطعم يكاد يكون قريبًا من هذه الفرضية، سواء في القديم أو الحديث. (انظر Jackendoff 1994: Chapter 14 والمراجع المذكورة هناك).

(١٨) ولن أتوقف عند الأسئلة التي تتعلق بدقة العزو حين لا يكون ذلك ضروريا.

(١٩) وهذه الملحوظة مألوفة؛ انظر مثلا (Strawson 1952: 189).

(٢٠) للاطلاع على بعض الأبحاث الاختبارية التي تَخلص إلى أن H2O لا يتماشى إلا بشكل ضعيف مع الأحكام عما يكون "ماء"، أو حتى ما يمكن أن يعدّ نموذجًا للماء، انظر Malt 1994؛ ويراجع Braisby et al. 1996 عددًا من الأفكار والأبحاث الاختبارية عن مثل هذه الأمور، ويقدِّمون بعضَ النتائج التي وصلوا إليها هم أنفسُهم ويحاجُّون بأنها "تبيِّن أن مصطلحات الأنواع الطبيعية لا تُستخدم بطريقة "ماهوية" essentialist".

(٢١) وهناك عدد من الآراء اللافتة عن مثل هذه الحالات في أبحاث تايلر بيرج، ومنها بحثاه اللذان نشرهما في 1986b; 1989. وليس من الواضح تمامًا لي إن كنا أنا وهو نختلف اختلافًا كبيرًا في هذه القضايا، وإذا كنا نختلف أين يقع هذا الاختلاف. للاطلاع على أحد التأويلات، انظر Mercier 1992.



المصطلحات الواردة في الكتاب

الثورة المعرفية cognitive revolution
النحو التحويلي generative Grammar
مشكلة الذهن - الجسد body - mind problem
توحيد العلم unification of science
البحث الداخلي internalist
عقدة جورد Gordian knot
علم الدلالة الإحالي referential semantics
فردية individualistic
"اللغة - د" I-language
اختزال reduction
المقاربة الطبيعية Naturalism
الاشتراطات الثنائية dualist demands
اختباري empirical
الطبيعية naturalistic
آليات التماس contact michanics
الخلايا cells
العصبونات neurons
الكهربائية العضوية electrophysiological
ملكة صياغة العلم science forming faculty
حرية الإرادة free will
الشعور consciousness
الكفاءة اللغوية (المعرفة اللغوية) competence
الأداء (الإنجاز) performance
الإدراك perception

المنطوقات utterances

محدد وراثيًا genetically determined

فطرى innate

الحالة الأولى initial state

المبادئ والوسائط principles and parameters

نظرية الحد الأدنى minimalism

التحويلات transformations

البنية العميقة deep structure

البنية السطحية surface structure

الرأس – أولا head-first

الرأس – آخرا head- last

المحفزات antigens

تمثيلات representations

الصورة الصوتية phonetic form

الصورة المنطقية logical form

مُثلى optimal

المثلوية optimality

مُحكمة perfect

شروط المقروئية legibility conditions

الإزاحة displacement

سمات features

تركيب syntax

فقر المنبه poverty of stimulus

الحوسبة computation

الدعوى thesis

التحليل analysis

التركيب (التأليف) synthetic

العلم الشعبى folk science
العلم الإثنى ethnoscience
إمكان النفاذ إلى الشعور accessibility to consciouness
اللسانيات الأحيائة biolinguistics
الملكة اللغوية faculty of language
الترسيس reconstruction
اللانهائية المتمايزة discret infinity
جهاز اكتساب اللغة language acquisition device
دخْل input
خرْج output
الأناسة اللغوية anthropological linguistics
كفاية الوصف descriptive adequacy
كفاية التفسير explanatory adequacy
شروط الحدود boundary conditions
المستوى الوجيهى interface
مبدأ الإسقاط projection principle
نظرية الربط binding theory
نظرية الحالة الإعرابية case theory
شرط السلسلة chain condition
إشارات indices
مستوى بشرطة bar level
قواعد البنية المركبية phrase-structure rules
شروط التجاور adjacency
علاقة التحكم المكوّنى c-command
العمل government
المبتدأ والخبر topic- comment
التحديد spicifity

القوة الفاعلية agentive force
ادمج merge
انتقل! Move!
الصّواتة phonology
علم الأصوات phonetics
التنظيم الوظيفى البشرى human functional organization
البديهة common- sense
الثبات النفسى sychic persistence
قائل بواقعية القصد intentional Realist
الأنواع الطبيعية natrual kinds
البنية العلائقية الداخلية internal relational structure
الخصائص التصنيفية selectional properties
المضمون الإدراكى perceptual content
علم النفس الشعبى folk psychology
الإدراك الحقيقى veridical perception
الشبكية البصرية retina
العصب البصرى optic nerve
القشرة المخية البصرية visual cortex
الإزاحة الإدراكية perceptioal displacement
الطقطقات clicks
المركّب phrase
التمثيلات الحوسبية computational representations
الإقصائية (الاستبعاد) eliminative
الإقصائية المادية eliminative materialism
الإجراء التوليدى generive procedure
الوصف البنيوى structural description
دلالة الحدث event semantics

الذريعية pragmatics
الاعتباطية arbitrariness
نظرية عابرة passing theory
التعلم المتدرج incremental learning
التجانس الصوتي assonance
الاقتضاء entailment
الضمير العائد anaphora
المقولات الفارغة empty categories
المستوى القطعي المستقل autosegmenal
المضمون الواسع wide content
المتغيرات variables
الإبستومولوجية العلمية الطبيعية naturlaized epistemology
المبدأ التنظيمي regulative principle
الترجمة المتطرفة radical translation
الراوية informant
القيد على بنية العطف coordinate structure constraint
الانتحاء drift
تكرار recursive
المكونات constituants
مشكلة أفلاطون plato's problem
آليات التعلم المعمّمة generalized learning mechanisms
الفرضية الفطرية innateness hypothesis
المحلّل parser
سبق اللسان في نطق الصوت malapropism
المقاربة الطبيعية المنهجية methodological naturalism
المقاربة الثنائية المنهجية methodological dualism
معارضة النزعة الأسسية anti-foundationalism

معرفية epistemic
القياس الاحتمالي abduction
الانتقاء الطبيعي natural selection
جهاز اكتساب اللغة Language Acquisition device
النحو الكلي Universal Grammar
الشعور consciousness
جوهر ثان (عقل) res cogitans
شرط التقرير assertability condition
الاستنتاج a priori
الاستدلال a posteriori
القوانين الجسرية bridge laws
العلم الإثني ethnoscience
المادية materialism
الشعور الممكن potential consciousness
العصبونات neurons
الترابط association
التقييد conditioning
النفاذ إلى الشعور Access to consciousness
الرأس أولا head first
الرأس آخرا head last
وسيط الرأس head parameter
نظرية الربط العاملي binding theory
مبدأ الصلابة rigidity principle
الإبصار الأعمى blindsight
المبدأ الرابط connection principle
طفرة mutation
جمل ممشى الحديقة garden path sentenses

نظرية النظرية theory-theory
ترسيس reconstruction
محكومة بالقاعدة rule-governed
المحدودية المعرفية epistemic boundedness
متمايز discrete
التجنيب الجينى lateral geniculate
القالبية modularity
التجاور adjacency
التشخيص instantation
الدمج المتعدد multiple embedding
المسوّرات quantifires
منظور الفاعل اللغوى عن الأشياء linguistic agent's on things
النفاذ إلى الشعور access to conciousness
النفاذ من حيث المبدأ access in principle
ما صدق extention
صواتة phonology
الصوت الشفتانى الوقفى bilabial stop
المدركات Receptors
الفاعل الصفر null subject
المتغير الصفر empty operator
الأثر trace
القيمة الصوتية phonetic value
الإدخال المتأخر late insertion
علاقات البنية الموضوعاتية argument – structure
علاقات السوّر بالمتغيّر quantifier-variable
مشكلة العقل – الجسد body - mind problem
مشكلة الجسد – الجسد body - body problem

شبكية المعنى holism
الثبات النفسى sychic persistence
التفريد individuation
التحليل analysic
التركيب (التأليف) synthetic
قائل بواقعية القصد intentional Realist
شرط التأكيد assertability condition
اللانفاذ impentrability
نظرية النظرية theory-theory
معنى Sense
تعيين المعنى (الحقيقى) خارج اللغة Denotation
مفهوم Intension
القصدية intentionality

References

Almog, Joseph (1991) "The what and the how." *Journal of Philosophy* 5: 225–44.

Angell, C. Austen (1995) "Formation of glasses from liquids and biopolymers." *Science* 267: 1924–1935.

Atlas, Jay (1989) *Philosophy without Ambiguity*. Oxford, Clarendon Press.

Austad, Steven (1994) "Communication complexity and modality in non-human primates." In Carleton Gajdusek, Guy McKhann and Liana Bolis, eds., *Evolution and Neurology of Language: Discussions in Neuroscience*, X.1–2, pp. 89–93.

Austin, John (1962) *How to do Things with Words*. Oxford, Clarendon Press.

Baillargeon, Renée (1993) "How do infants learn about the physical world?" MS, University of Illinois.

Baker, Lynne Rudder (1987) *Saving Belief: A Critique of Physicalism*. Princeton University Press.

Baker, Lynne Rudder (1988) "Cognitive suicide." In R.H. Grimm and D.D. Merrill, eds, *Contents of Thought*. Tucson, AZ, University of Arizona Press.

Baldwin, T.R. (1993) "Two types of naturalism." *Proceedings of the British Academy* 80: 171–99.

Barinaga, Marcia (1994) "Neurons tap out a code that may help locate sounds." *Science* 264: 775.

Bilgrami, Akeel (1987) "An externalist account of psychological content." *Philosophical Topics*.

Bilgrami, Akeel (1992) *Belief and Meaning*. Blackwell, Oxford.

Bilgrami, Akeel (1993) "Discussion." In Noam Chomsky *et al. Language and Thought*. London, Moyer Bell, pp. 57–68.

Bradley, David (1994) "A new twist in the tale of nature's asymmetry." *Science* 264: 908.

Braisby, Nick, Bradley Franks and James Hampton (1996) "Essentialism, word use, and concepts." *Cognition* 59: 247–74.

Brock, William (1992) *The Fontana/Norton History of Chemistry*. New York and London, Norton.

Bromberger, Sylvain (1992a) "Types and tokens in linguistics." In S. Bromberger, *On What We Know We Don't Know*. University of Chicago Press, pp. 170–208.

Bromberger, Sylvain (1992b) *On What We Know We Don't Know*. Chicago, University of Chicago Press.

Bromberger, Sylvain (1996) "Natural kinds and questions." In Matti Sintonen, ed., *Essays on Jaakko Hintikka's Epistemology and Philosophy of Science.* Poznan, Studies in the Philosophy of Science and the Humanities.

Bromberger, Sylvain and Morris Halle (1996) "The Content of Phonological Signs," MS, MIT.

Brook, Andrew (1994) *Kant and the Mind.* Cambridge University Press.

Burge, Tyler (1986a) "Individualism and Psychology." *Philosophical Review* 95: 3–45.

Burge, Tyler (1986b) "Intellectual Norms and Foundations of Mind." *Journal of Philosophy* 83: 697–720.

Burge, Tyler (1986c) "Cartesian error and the objectivity of perception." In Philip Pettit and John McDowell, eds., *Subject, Thought and Context.* Oxford, Clarendon Press, pp. 117–36.

Burge, Tyler (1989) "Wherein is language social." In A. George, ed., *Reflections on Chomsky.* Blackwell, Oxford, pp. 175–91.

Burge, Tyler (1992) "Philosophy of language and mind." *Philosophical Review* 101: 3–51.

Carey, Susan (1985) *Conceptual Change in Childhood.* Cambridge, MA, MIT Press.

Chomsky, Carol (1986) "Analytic study of the Tadoma method: Language abilities of three deaf-blind subjects." *Journal of Speech and Hearing Research* 29: 332–47.

Chomsky, Noam (1951/1979) *Morphophonemics of Modern Hebrew.* University of Pennsylvania Master's Thesis. New York, Garland Publishing. (Revised version of 1949 BA thesis.)

Chomsky, Noam (1955/1975) *Logical Structure of Linguistic Theory.* Plenum, New York; excerpted from unpublished 1955/56 MS.

Chomsky, Noam (1957) *Syntactic Structures.* The Hague, Mouton.

Chomsky, Noam (1964) *Current Issues in Linguistic Theory.* The Hague, Mouton.

Chomsky, Noam (1965) *Aspects of the Theory of Syntax.* Cambridge, MA, MIT Press.

Chomsky, Noam (1966) *Cartesian Linguistics.* Harper and Row, New York.

Chomsky, Noam (1968) *Language and Mind.* Harcourt Brace Jovanovich, New York. Extended edition 1972.

Chomsky, Noam (1969) "Some empirical assumptions in modern philosophy of language." In S. Morgenbesser, P. Suppes and M. White, eds., *Philosophy, Science and Method: Essays in Honor of Ernest Nagel.* New York, St Martin's Press, pp. 260–85.

Chomsky, Noam (1975) *Reflections on Language.* Pantheon, New York.

Chomsky, Noam (1977) "Questions of form and interpretation." In Noam Chomsky, *Essays on Form and Interpretation.* North Holland, New York, pp. 25–59.

Chomsky, Noam (1980) *Rules and Representations.* Oxford, Blackwell.

Chomsky, Noam (1981a) *Lectures on Government and Binding.* Dordrecht, Foris.

Chomsky, Noam (1981b) "Principles and parameters in syntactic theory." In N. Hornstein and D. Lightfoot, eds., *Explanations in Linguistics.* London, Longman, pp. 123–46.

Chomsky, Noam (1986) *Knowledge of Language*. New York, Praeger.
Chomsky, Noam (1987) "Reply" [to reviews of his 1986 by A. George and M. Brody]. *Mind and Language* 2: 178–97.
Chomsky, Noam (1988a) *Language and Problems of Knowledge: The Managua Lectures*. Cambridge, MA, MIT Press.
Chomsky, Noam (1988b) "Language and Problems of Knowledge." *Synthesis Philosophica* 5: 1–25.
Chomsky, Noam (1990) "Accessibility 'in Principle'." *Behavioral and Brain Sciences* 13: 600–1.
Chomsky, Noam (1991a) "Linguistics and adjacent fields: a personal view." In A. Kasher, ed., *The Chomskyan Turn*. Oxford, Blackwell, pp. 3–25.
Chomsky, Noam (1991b) "Linguistics and cognitive science: problems and mysteries." In A. Kasher, ed., *The Chomskyan Turn*. Oxford, Blackwell, pp. 26–53.
Chomsky, Noam *et al.* (1993a) *Language and Thought*. London, Moyer Bell.
Chomsky, Noam (1993b) "A minimalist program for linguistic theory." In K. Hale and J. Keyser, eds., *The View from Building 20*. Cambridge, MA, MIT Press, pp. 1–52.
Chomsky, Noam (1995a) "Language and Nature." *Mind* 104: 1–61.
Chomsky, Noam (1995b) "Bare Phrase Structure." In G. Webelhuth, ed., *Government and Binding Theory and the Minimalist Program*. Oxford, Blackwell, pp. 383–439.
Chomsky, Noam (1995c) *The Minimalist Program*. Cambridge, MA, MIT Press.
Chomsky, Noam (1998) "Minimalist inquiries: the framework." MS, MIT.
Churchland, Patricia (1994) Presidential address of the APA Pacific Division, March 1994.
Churchland, Paul (1979) *Scientific Realism and the Plasticity of Mind*. Cambridge University Press.
Churchland, Paul (1981) "Eliminative materialism and the propositional attitudes." *Journal of Philosophy* 78: 67–90. Reprinted in Scott Christensen and Dale Turner, eds., *Folk Psychology and the Philosophy of Mind*. Hillsdale, NJ, Erlbaum, 1993.
Churchland, Paul (1994) Review of Searle, 1992, *London Review of Books*, 12 May.
Clark, Andy and Annette Karmiloff-Smith (1993) "The cognizer's innards." *Mind and Language* 8: 487–530.
Cohen, Leonore (1941) *From Beast-Machine to Man-Machine*. Oxford University Press.
Cudworth, Ralph (1838) *Treatise concerning Eternal and Immutable Morality*. American edition of *Works*, ed. T. Birch.
Darwin, C. (1859/1968) *The Origin of Species by Means of Natural Selection*. Edited by J.W. Burrow. Harmondsworth, Penguin.
Davidson, Donald (1980) "Psychology as philosophy." Reprinted in *Essays on Actions and Events*. Oxford University Press, pp. 229–39.
Davidson, Donald (1984) *Inquiries into Truth and Interpretation*. Oxford University Press.
Davidson, Donald (1986a) "A coherence theory of truth and knowledge." In E. Lepore, ed., *Truth and Interpretation*. Oxford, Blackwell, pp. 307–19.

Davidson, Donald (1986b) "A nice derangement of epitaphs." In E. Lepore, ed., *Truth and Interpretation*. Oxford, Blackwell, pp. 433–46.
Davidson, Donald (1990a) "The structure and content of truth." *Journal of Philosophy* 87: 279–328.
Davidson, Donald (1990b) "The second person." MS, University of California, Berkeley.
Davies, Martin (1991) "Individualism and perceptual content." *Mind* 100: 461–84.
Dennett, Daniel (1988) "When philosophy encounters artificial intelligence." *Daedalus* 1998 = *Proceedings of the American Academy of Arts and Sciences* 117: 283–95.
Dennett, Daniel (1991) Review of McGinn (1991). *TLS* 10 May.
Descartes, René (1649/1927) Letter (to Morus). In R.M. Eaton, ed., *Descartes Selections*.
Devitt, Michael and Kim Sterelny (1989) "Linguistics: what's wrong with 'the right view'." *Philosophical Perspectives* 3: 497–531.
Dijksterhuis, E.J. (1986) *Mechanization of the World Picture*. Princeton University Press.
Dobbs, Betty Jo and Margaret Jacob (1995) *Newton and the Culture of Newtonianism*. Humanities Press, New York.
Dreben, Burton (1992) "Putnam, Quine and the facts." *Philosophical Topics* 20: 293–315.
Dummett, Michael (1986) "A nice derangement of epitaphs: some comments on Davidson and Hacking." In B. Lepore, ed., *Truth and Interpretation*. Oxford, Blackwell, pp. 459–76.
Dummett, Michael (1991) *The Logical Basis of Metaphysics*. Cambridge, MA. Harvard University Press.
Dummett, Michael (1993) *The Seas of Language*. Oxford, Clarendon Press.
Earman, J., ed. (1992) *Inference, Explanation and Other Philosophical Frustrations*. Berkeley, CA, University of California Press.
Edelman, Gerald (1992) *Bright Air, Brilliant Fire*. New York, Basic Books.
Egan, Frances (no date) "Computation and content." MS, Rutgers.
Epstein, Samuel (1999) "UN-principled syntax and the derivation of syntactic relations." In Samuel Epstein and Norbert Hornstein, eds., *Working Minimalism*. Cambridge, MA, MIT Press.
Evnine, Simon (1991) *Donald Davidson*. Stanford University Press.
Fodor, Jerry (1975) *The Language of Thought*. New York, Crowell.
Fodor, Jerry (1983) *The Modularity of Mind*. Cambridge, MA, MIT Press.
Fodor, Jerry (1987) *Psychosemantics*. Cambridge, MA, MIT Press.
Fodor, Jerry (1990) *A Theory of Content*. Cambridge, MA, MIT Press.
Fodor, Jerry (1994) *The Elm and the Expert*. Cambridge, MA, MIT Press.
Fodor, Jerry and Ernest Lepore (1992) *Holism: A Shopper's Guide*. Oxford, Blackwell.
Frege, Gottlob (1892/1965) "Über Sinn und Bedeutung." *Zeitschrift fur Philosophie und Philosophische Kritik* 100: 25–50. Reprinted in part as "On sense and nominatum" in Ernest Nagel and Richard Brandt, eds., *Meaning and Knowledge: Systematic Readings in Epistemology*. Harcourt, Brace & World, New York, pp. 69–78.

Friedman, Michael (1993) "Remarks on the history of science and the history of philosophy." In P. Horwich, ed., *World Changes: Thomas Kuhn and the Nature of Science.* Cambridge, MA, MIT Press, pp. 37–54.

Gaifman, Haim (1996) "Is the 'bottom-up' approach from the theory of meaning to metaphysics possible?" *Journal of Philosophy* 93: 373–407.

Galilei, Galileo (1632) *Dialogues on the Great World Systems*, as translated by Thomas Salusbury, 1661.

Gay, Peter (1970) *The Enlightenment: An Interpretation*. London, Weidenfeld and Nicholson.

Gibson, Roger (1986) "Translation, physics, and facts of the matter." In E. Hahn and P.A. Schilpp, eds., *The Philosophy of W.V. Quine.* La Salle, Open Court, pp. 139–54.

Gleitman, Lila (1990) "The structural sources of verb meanings." *Language Acquisition* 1: 3–55.

Goodman, Nelson (1978) *Ways of Worldmaking*. Hassocks, Harvester Press.

Gould, Stephen J. (1982) *The Panda's Thumb*. New York, Norton.

Griffin, Donald (1994) "Animal communication as evidence of animal mentality." In Carleton Gajdusek, Guy McKhann and Liana Bolis, eds., *Evolution and Neurology of Language: Discussions in Neuroscience* X.1–2, pp. 67–71.

Hagoort, Peter, Colin Brown and J. Groothusen (1993) "The syntactic positive shift (SPS) as an ERP-measure of syntactic processing." *Language and Cognitive Processes* 8: 439–83.

Hagoort, Peter and Colin Brown (1994) "Brain responses to lexical ambiguity, resolution and parsing." In Charles Clifton *et al.*, eds., *Perspectives on Sentence Processing*. Hillsdale, NJ, Erlbaum, pp. 45–80.

Halle, Morris and Alec Marantz (1993) "Distributed morphology and the pieces of inflection." In K. Hale and S.J. Keyser, eds., *The View from Building 20.* Cambridge, MA, MIT Press, pp. 111–76.

Harman, Gilbert (1980) "Two quibbles about analyticity and psychological reality." *Behavioral and Brain Sciences* 3: 21–2.

Haugeland, John (1979) "Understanding natural language." *Journal of Philosophy* 76: 619–32.

Herbert of Cherbury (1624) *De Veritate*. Translated by M.H. Carré, University of Bristol Studies No. 6, 1937.

Higginbotham, James (1985) "On semantics." *Linguistic Inquiry* 16: 547–93.

Higginbotham, James (1989) "Elucidations of meaning." *Linguistics and Philosophy* 12: 465–517.

Hobbes, Thomas (1889) *The English Works of Thomas Hobbes*, Vol I. Edited by William Molesworth.

Holton, Gerald (1996) "On the art of scientific imagination." *Daedalus = Proceedings of the American Academy of Arts and Sciences* 125: 183–208.

Huarte, Juan (1575) *Examen de Ingenios*. Translated by Bellamy, 1698.

Humboldt, Wilhelm von (1836/1988) "Über die Verschiedenheit des Menschlichen Sprachbaues. Berlin. Translated by Peter Heath as *The Diversity of Human Language-Structure and its Influence on the Mental Development of Mankind.* Cambridge University Press.

Hume, David (1740/1978) *A Treatise of Human Nature.* Edited by L.A. Selby-Bigge. Second edition revised by P.H. Nidditch. Oxford, Clarendon Press.

Hume, David (1748/1975) *An Enquiry concerning Human Understanding*. Edited by L.A. Selby-Bigge; third edition revised by P.H. Nidditch. Clarendon Press, Oxford.

Hume, David (1841) *The History of England: From the Invasion of Julius Caesar to the Revolution in 1688*. London, 6 volumes; T. Cadell.

Jackendoff, Ray (1994) *Patterns in the Mind*. New York, Basic Books.

Jacob, François (1974) *The Logic of Living Systems: A History of Heredity*. Translated by Betty E. Spillmann. London, Allen Lane.

Jacob, Margaret (1988) *The Cultural Meaning of the Scientific Revolution*. Philadelphia, PA, Temple University Press.

Jacob, Margaret (1991) *Living the Enlightenment: Freemasonry and Politics in Eighteenth-Century Europe*. Oxford University Press.

Jaeger, H.M. and Sidney R. Nagel (1992) "Physics of the granular state." *Science* 255: 1523–31.

Jenkins, Lyle (1999) *Biolinguistics: Exploring the Biology of Language*. Cambridge University Press.

Jerne, Niels Kaj (1985) "The generative grammar of the immune system (Nobel lecture)." *Science* 229: 1057–9.

Jespersen, Otto (1924) *The Philosophy of Grammar*. London, Allen & Unwin.

Kant, Immanuel (1783) *Prolegomena to any Future Metaphysics*.

Kayne, Richard (1994) *The Antisymmetry of Syntax*. Cambridge, MA, MIT Press.

Kenny, Anthony (1984) *The Legacy of Wittgenstein*. Oxford, Blackwell.

Koyré, Alexandre (1957) *From the Closed World to the Infinite Universe*. Baltimore, Johns Hopkins Press.

Kripke, Saul (1972) *Naming and Necessity*. In Donald Davidson and Gilbert Harman, eds., *Semantics of Natural Language*. Dordrecht, Reidel, pp. 253–355.

Labandeira, Conrad C. and J. John Sepkoski (1993) "Insect diversity in the fossil record." *Science* 261: 310–15.

La Mettrie, J.O. de (1747) *L'Homme-Machine*. Critical edition, A. Vartanian, ed., Princeton University Press.

Lange, Friedrich Albert (1925) *The History of Materialism*. London, Kegan Paul.

Larson, Richard and Gabriel Segal (1995) *Knowledge of Meaning*. Cambridge, MA, MIT Press.

Lasnik, Howard (1989) *Essays on Anaphora*. Dordrecht, Kluwer.

Lepore, Ernest, ed. (1986) *Truth and Interpretation: Perspectives on the Philosophy of Donald Davidson*. Oxford, Blackwell.

Lewis, David (1983) "Languages and language." In David Lewis, *Philosophical Papers*, vol. I. Oxford University Press, pp. 163–88.

Lewontin, Richard (1990) "The evolution of cognition." In D.N. Osherson and E.E. Smith, eds., *An Invitation to Cognitive Science*, vol. 3. Cambridge, MA, MIT Press, pp. 229–46.

Lewontin, Richard (1994) MS, Harvard.

Llinás, Rodolfo (1987) "'Mindness' as a functional state of the brain." In Colin Blakemore and Susan Greenfield, eds., *Mindwaves: Thoughts on Intelligence, Identity and Consciousness*. Blackwell, Oxford, pp. 339–58.

Locke, John (1690/1975) *An Essay Concerning Human Understanding*. Edited by P. Nidditch. Oxford, Clarendon Press.

Lormand, Eric (1996) "How to Be a Meaning Holist." *Journal of Philosophy* 93: 51–73.

Lyons, John (1977) *Semantics*, 2 vols. Cambridge University Press.

Malt, Barbara (1994) "Water Is Not H_2O." *Cognitive Psychology* 27: 41–70.

Marr, David (1982) *Vision*. New York, W.H. Freeman.

Marshall, John (1990) Foreword to Yamada (1990).

Marshall, Jonathan (1989) "On making representations." In C. Brown, P. Hagoort and T. Meijering, eds., *Vensters op de Geest*. Utrecht, Stichting Grafiet.

McGinn, Colin (1991) *The Problem of Consciousness*. Oxford, Blackwell.

McGinn, Colin (1993) *Problems in Philosophy*. Oxford, Blackwell.

Mehler, Jacques and Emmanuel Dupoux (1994) *What Infants Know*. Oxford, Blackwell.

Mercier, Adèle (1992) "Linguistic competence, convention and authority: individualism and anti-individualism in linguistics and philosophy." PhD dissertation, UCLA.

Mijuskovic, Ben Lazare (1974) *The Achilles of Rationalist Arguments*. Martinus Nijhoff.

Miller, George and Noam Chomsky (1963) "Finitary models of language users." In R.D. Luce, R. Bush and E. Galanter, eds., *Handbook of Mathematical Psychology*, vol. II. New York, Wiley, pp. 419–91.

Moravcsik, Julius (1975) "Aitia as Generative Factor in Aristotle's Philosophy." *Dialogue* 14: 622–36.

Moravcsik, Julius (1990) *Thought and Language*. London, Routledge.

Mountcastle, Vernon (1998) "Brain science at the century's ebb." *Daedalus*, Spring 1998 = *Proceedings of the American Academy of Arts and Sciences* 127: 1–36.

Nagel, Thomas (1993) "The mind wins!" Review of Searle (1992) *New York Review*, 4 March. Reprinted (1995) as "Searle: why we are not computers" in T. Nagel, *Other Minds*. Oxford University Press, pp. 96–110.

Neville, Helen, J. Nicol, A. Barss, K. Forster and M. Garrett (1991) "Syntactically based sentence processing classes: evidence from event-related brain potentials." *Journal of Cognitive Neuroscience* 3: 151–65.

Passmore, John (1965) *Priestley's Writings on Philosophy, Science and Politics*. New York, London: Collier-MacMillan.

Pateman, Trevor (1987) *Language in Mind and Language in Society*. Oxford University Press.

Peirce, Charles Sanders (1957) "The logic of abduction." In Vincent Thomas, ed., *Peirce's Essays in the Philosophy of Science*. New York, Liberal Arts Press, pp. 235–55.

Penrose, Roger (1989) *The Emperor's New Mind*. Oxford University Press.

Piattelli-Palmarini, Massimo (1986) "The rise of selective theories: a case study and some lessons from immunology." In W. Demopoulos and A. Marras, eds., *Language Learning and Concept Acquisition: Foundational Issues*. Norwood, NJ, Ablex, pp. 117–30.

Popkin, Richard (1979) *The History of Skepticism from Erasmus to Spinoza*. Berkeley, CA, University of California Press.

Pustejovsky, James, ed. (1993) *Semantics and the Lexicon*. Dordrecht, Kluwer.

Pustejovsky, James (1994) "Coercion and cocomposition." MS, Brandeis.
Pustejovsky, James (1995) *The Generative Lexicon*. Cambridge, MA, MIT Press.
Putnam, Hilary (1975) "The meaning of 'meaning'." In *Philosophical Papers, vol. 2: Mind Language and Reality*. Cambridge University Press, pp. 215–71.
Putnam, Hilary (1978) *Meaning and the Moral Sciences*. Routledge & Kegan Paul.
Putnam, Hilary (1986a) "Meaning holism." In E. Hahn and P.A. Schilpp, eds., *The Philosophy of W.V. Quine*. La Salle, Open Court, pp. 405–26.
Putnam, Hilary (1986b) "Meaning and our mental life." In Edna Ullmann-Margalit, ed., *The Kaleidoscope of Science*. Dordrecht, Reidel, pp. 17–32.
Putnam, Hilary (1988a) *Representation and Reality*. Cambridge, MA, MIT Press.
Putnam, Hilary (1988b) "Much ado about not very much." *Daedalus*, 1988 = *Proceedings of the American Academy of Arts and Sciences* 117: 269–81.
Putnam, Hilary (1992) "Replies." *Philosophical Topics* 20: 347–408.
Quine, Willard (1960) *Word and Object*. Cambridge, MA, MIT Press.
Quine, Willard (1969) "Reply to Chomsky". In Donald Davidson and Jaakko Hintikka, eds., *Words and Objections: Essays on the Work of W.V. Quine*. Dordrecht, D. Reidel, pp. 302–11.
Quine, Willard (1972) "Methodological reflections on current linguistic theory." In Donald Davidson and Gilbert Harman, eds., *Semantics of Natural Language*. Reidel, Dordrecht, pp. 442–54.
Quine, Willard (1981) *Theories and Things*. Cambridge, MA, Harvard University Press.
Quine, Willard (1986) "Reply to Gilbert H. Harman." In E. Hahn and P.A. Schilpp, eds., *The Philosophy of W.V. Quine*. La Salle, Open Court, pp. 181–8.
Quine, Willard (1987) "Indeterminacy of translation again." *Journal of Philosophy* 84: 5–10.
Quine, Willard (1990) *Pursuit of Truth*. Cambridge, MA, Harvard University Press.
Quine, Willard (1992) "Structure and nature." *Journal of Philosophy* 89: 5–9.
Ramberg, Bjorn (1989) *Donald Davidson's Philosophy of Language*. Oxford, Blackwell.
Reid, Thomas (1785) *Essays on the Intellectual Powers of Man*. Edinburgh, John Bell.
Rhum, Michael (1993) "Understanding 'belief'." *MAN* 28.4, December.
Romaine, Suzanne (1994) *Language in Society*. Oxford University Press.
Rorty, Richard (1986) "Pragmatism, Davidson and truth." In E. Lepore, ed., *Truth and Interpretation*. Oxford, Blackwell, pp. 333–55.
Scheffler, Israel (1955) "On synonymy and indirect discourse." *Philosophy of Science* 22: 39–44.
Schiffer, Stephen (1987) *Remnants of Meaning*. Cambridge, MA, MIT Press.
Schofield, Robert (1970) *Mechanism and Materialism*. Princeton University Press.
Schweber, Silvan (1993) "Physics, community and the crisis in physical theory." *Physics Today*. 46: 34–40.
Searle, John (1980) "Minds, brains and programs." *Behavioral and Brain Sciences* 3: 417–24.
Searle, John (1992) *The Rediscovery of the Mind*. Cambridge, MA, MIT Press.
Segal, Gabriel (1987) "In Deference to Reference." PhD dissertation, MIT.

Smith, Barry (1992) "Understanding language." *Proceedings of the Aristotelian Society*, pp. 109–41.

Smith, Neil (1999) *Chomsky: Ideas and Ideals*. Cambridge University Press.

Smith, Neil, Ianthi-Maria Tsimpli and Jamal Ouhalla (1993) "Learning the impossible: the acquisition of possible and impossible languages by a polyglot *savant*." *Lingua* 91: 279–347.

Soames, Scott (1989) "Semantics and semantic competence." *Philosophical Perspectives* 3.

Spelke, Elizabeth (1990) "Origins of Visual Knowledge." In D.N. Osherson, S.M. Kosslyn and J.M. Hollerbach, eds., *An Invitation to Cognitive Science*, vol. II. Cambridge, MA, MIT Press, pp. 99–127.

Stich, Stephen (1983) *From Folk Psychology to Cognitive Science*. Cambridge, MA, MIT Press.

Stich, Stephen (1996) *Deconstructing the Mind*. Oxford University Press.

Strawson, Galen (1994) *Mental Reality*. Cambridge, MA, MIT Press.

Strawson, Peter (1950) "On Referring." *Mind* 59: 320–44.

Strawson, Peter (1952) *Introduction to Logical Theory*. London, Methuen.

Stryker, Michael (1994) "Precise development from imprecise rules." *Science* 263: 1244–5.

Thackray, Arnold (1970) *Atoms and Powers*. Cambridge, MA, Harvard University Press.

Tremblay, Mireille (1991) "Possession and Datives." PhD dissertation, McGill University.

Turing, Alan (1950) "Computing Machinery and Intelligence." *Mind* 49: 433–60.

Uebel, Thomas, with comments by Christopher Hookway (1995) *The Vienna Circle Revisited*. Centre for the Philosophy of the Natural and Social Sciences, London. DP 6/95.

Ullman, Shimon (1979) *The Interpretation of Visual Motion*. Cambridge, MA, MIT Press.

Waldrop, M. Mitchell (1990) "Spontaneous order, evolution and life." *Science* 247: 1543–5.

Weisskopf, Victor (1989) "The origin of the universe." *Bulletin of the American Academy of Arts and Sciences* 42.

Wellman, Kathleen (1992) *La Mettrie: Medicine, Philosophy and Enlightenment*. Chapel Hill, Duke.

Wheeler, John (1994) *At Home in the Universe*. New York, American Institute of Physics.

Witherspoon, Gary (1977) *Language and Art in the Navajo Universe*. Ann Arbor, MI, University of Michigan.

Wright, Crispin (1989) "Wittgenstein's rule-following considerations and the central project of theoretical linguistics." In A. George, ed., *Reflections on Chomsky*. Oxford, Blackwell, pp. 233–64.

Yamada, Jeni (1990) *Laura*. Cambridge, MA, MIT Press.

Yolton, John (1983) *Thinking Matter*. Minneapolis, MN, University of Minnesota Press.

Yolton, John (1984) *Perceptual Acquaintance*. Minneapolis, MN, University of Minnesota Press.

المؤلف في سطور:

نعوم تشومسكي

أستاذ شرف في جامعة ماساتشوستس للتقنية في الولايات المتحدة. وهو مؤسس النظرية اللسانية التي تسمى "النحو التوليدي" وأشهر المنظرين في إطارها خلال العقود الأربعة الماضية. وله عدد كبير من الكتب ومئات المقالات ومئات المحاضرات في اللسانيات والفلسفة والتاريخ الفكري. ومن أشهر كتبه في اللسانيات: "البنى التركيبية"، و"مظاهر نظرية التركيب"، و"المعرفة اللغوية: طبيعتها وأصولها واستخدامها"، و"اللغة ومشكلات المعرفة"، و"برنامج الحد الأدنى". كما اشتهر بنشاطه في نقد السياسة الخارجية الأمريكية والسياسة الإسرائيلية فكتب في هذين الموضوعين عشرات الكتب ومئات المقالات وألقى مئات المحاضرات وأجرى مئات المقابلات الصحفية والإذاعية والتلفازية.

المترجم في سطور:

حمزة المزيني

حاصل على الدكتوراه من جامعة تكساس – في أوستن – الولايات المتحدة الأمريكية، ١٩٨١م، في اللسانيات.

يعمل أستاذا في قسم اللغة العربية وآدابها في جامعة الملك سعود – الرياض

ألف وترجم عددا من الكتب منها:

١- ترجمة كتاب اللساني الأمريكي نعوم تشومسكي، "اللغة ومشكلات المعرفة"، دار توبقال، المغرب ١٩٩٠ م.

٢- مراجعات لسانية –١. سلسلة "كتاب الرياض"، العدد ٧٩، يونيو ٢٠٠٠م.

٣- ترجمة كتاب اللساني الأمريكي ستيفن بنكر، بعنوان: غريزة اللغة: كيف يُبدع العقلُ اللغةَ. الرياض: دار المريخ ، ٢٠٠٠م.

٤- العولمة والإرهاب: حرب أمريكا على العالم. ترجمة لعدد من المحاضرات والمقالات التي كتبها تشومسكي وكتّاب آخرون بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١م. القاهرة: دار مدبولي للنشر، ٢٠٠٣م.

٥- ترجمة كتاب اللساني الأمريكي ديفد جستس، بعنوان، محاسن العربية في العيون الغربية، أو: دلالة الشكل في اللغة العربية في مرآة اللغات الأوروبية. تحت الطبع. الرياض: مركز الملك فيصل للبحوث الإسلامية.

بالإضافة إلى عدد كبير من الأبحاث العلمية والمقالات في الدوريات العلمية والصحف السعودية والعربية.